هنري لورنس

المملكة المستحيلة

فرنسا وتكوين العالم العربي الحديث

ترجمة : بشير السباعي







مؤسسة الانتشار العربي
بيروت

رفع و تنسيق : القرصان الطيب

رفع و تنسيق : القرصان الطيب

هنري لورنس

المملكة المستحيلة

فرنسا وتكوين العالم العربي الحديث

ترجمة: بشير السباعي

المملكـــــة المســــــتحيلة

فرنسا وتكوين العالم العربي الحديث

هـــــنري لورنــــس

ترجمـــة : بشـــير الســباعى

هذه ترجمة لكتاب :

LE ROYAUME IMPOSSIBLE

(La France et la genèse du monde arabe)

تألــيف :

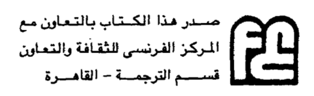
HENRY LAURENS

الناشــر :

ARMAND COLIN - Paris 1990







الطـــبعة الأولـــى: ١٩٩٧

الاهداء

الى ذكرى جان-بيير تيك (ميشيل فاريا)،

صاحب فكرة مشروع هذا الكتاب، والتي طرحها

ذات مساء أحد الموالد في القاهرة عام ١٩٨٣ .

المحتويات

كلمة من المترجم

تتألف ثلاثية هنري لورنس التي تشكل حدثاً مهماً في الكتابةالتاريخية عن خصائص وتحولات الخطابات الفرنسية في التعامل مع العالم العربي في التاريخ الحديث من الأعمال التالية : (١) **الأصول الفكرية للحملة الفرنسية علي مصر ، الاستشراق المتأسلم في فرنسا بين عامي ١٦٩٨ و ١٧٩٨ (٢) الحملة الفرنسية في مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١) - بونابرت والإسلام (٣) المملكة المستحيلة - فرنسا وتكوين العالم العربي الحديث** . وقد سبق لنا أن ترجمنا العمل الثاني ، بينما سوف تصدر ترجمتنا للعمل الأول قريباً . وبهذا يكتمل ظهور هذه الثلاثية المهمة في ترجمتها العربية .

ويتتبع العمل الثالث الذي بين يدي القارئ تحولات الخطابات الفرنسية منذ جلاء الفرنسيين عن مصر في عام ١٨٠١ وحتي سحق مملكة سوريا العربية علي أيدي الامبريالية الفرنسية في عام ١٩٢٠ .

ويتجاوز لورنس كثيراً حدود التناول الاستشراقي التقليدي لصدام الثقافات ، وبصرف النظر عن الخلاف الوارد دائماً معه حول مسألة أو أخري ، إلاّ أن اسهامه العلمي يندرج بشكل عام في إطار النقد المناوئ للشوفينية التي ميزت الاستشراق التقليدي ، وهو ما يظهر جليا بشكل خاص في هذا الكتاب .

وكما سبق لنا أن فعلنا مع العمل الثاني ، فقد حرصنا علي إيراد الأصول العربية لجميع استشهادات المؤلف - إلاّ في حالة واحدة أشرنا إليها - كما حرصنا علي الإشارة إلي الطبعات الحديثة - إن وجدت - التي ترد فيها هذه الأصول .

ولايبقي أمامنا سوي الأمل في أن يساعد ظهور هذه الترجمة علي تنشيط الكتابة التاريخية العربية حول التاريخ العربي الحديث ، والتي ماتزال - للأسف - متعثرة الخطوات .

القاهرة ١٩٩٧/٣/١١

بشير السباعي

تمهيد

مسيرة الحضارة

« سوف يعيد عصرنا وصل زمن القوة المتفردة ، التي تتمتع بوفرة في الابداعات والأعمال الأصيلة ، بزمن القوة المتماثلة ، ولكن المسوية ، التي تسوي بين المنتجات ، وتنتجها بالجملة ، وتتبع فكراً موحَّدا ، هو التعبير الأخير عن حالة المجتمعات . وبعد مهرجانات الروح المعممة ، وبعد الجهود الأخيرة للحضارة ، تلك الجهود التي تراكم كنوز الأرض وتُركزها على نقطة ، ألن تعاود دياجير البربرية الظهور من جديد دائماً ؟ »

(بلزاك ، جوديسار الشهير)

بالنسبة لفرنسيي القرن التاسع عشر ، كان قَدَرُ بلدهم في العالم هو الرسالة التمدينية . وفي مقابل فكرة « الثقافة » التي جري استحداثها وتطويرها بشكل مواز في ألمانيا وجري تأسيسها بشكل واع إلي هذا الحد أو ذاك على صلة بين الجنس (العرق) واللغَة و الأرض ، فإن فكرة الحضارة تدعي لنفسها العالمية الكاملة ، حتى وإن كان من البديهي أن فرنسا تقف على رأس الحضارة العالمية . وقد شدد لوسيان فافر ، في مقال شهير يرجع إلي عام ١٩٣٠ مكَّرس لمفهوم الحضارة ، شدد على أهمية دراسة الكلمات العشر التي يدل تكونها وتطورها على تطّور مجتمع من المجتمعات [١] . وبعد ذلك بزمن قصير ، أكد بنفنست أن « مجمل تاريخ الفكر الحديث والمنجزات الرئيسية للثقافة الفكرية في العالم الغربي إنما ترتبط بخلق

وباستعمالات بضع عشرات من الكلمات الأساسية والتي يشكل مجموعها الذخر المشترك للغات أوروبا الغربية » [٢] .والحال أن كلمة « الحضارة » كانت بالنسبة له إحدي هذه الكلمات الأساسية .

وقد دعا هذان المفكران إلي تكثير المؤلفات من هذا النوع ، إلاّ أنه مما يؤسف له أنه لم يجر حذو حذوهما إلاّ قليلاً [٣] .وهذا البرنامج ضخم لأنه يمس مجمل النتاجات الثقافية التي تميز حضارة من الحضارات ، ومن هنا صعوبة التوصل إلي فهم شامل للظاهرة . وتوزع التخصصات التاريخية يشكل عقبة إضافية ، ففي أيامنا ، يبدو أن المؤرخين ، فيما عدا عدد استثنائي قليل منهم ، ينفرون من تناول معطيات تاريخية على هذه الدرجة الكبيرة من عدم التجانس ومن الاتساع ، مؤثرين ترك ذلك الأمر لفلسفة التاريخ . لكن المسعي الذي سوف نضطلع به هنا سوف يكون أكثر تواضعاً . وهو وليد تساؤل عن الرؤية التي صاغها عصر التنوير عن العالم العربي والاسلامي والتي تأخذ طابعاً ملوساً في خطاب وممارسات الحملة الفرنسية في مصر . وهكذا ، ففي مستهل القرن التاسع عشر ، كانت لدي فرنسا تركة من الأساطير و التفاسير المتعلقة بالاسلام وبالعرب . والحال أن فرنسا سوف تتبع طوال القرن سياسة من أنشط السياسات في الملكوت العثماني ، خاصة في مصر وفي سوريا وفي الجزائر . وسوف يجري فهم وتصور المجريات الواقعية الجديدة من خلال موشور الخبرات المكتسبة ثم سوف تنشيء هذه المجريات الواقعية الجديدة تحورات جديدة . لكن الاسلام في القرن التاسع عشر ، لا يعود مجرد موضوع للدراسة من جانب الأوروبيين . فالغرب الذي لا مفر منه يفرض عليه تحولات ترتبط ارتباطاً جدلياً بعين خطاب المستشرقين والسياسيين الأوروبيين . وتتأسس لعبة مرايا كاملة ، شريرة أحياناً ، لأن جميع المتدخلين هم في آن واحد مراقبون (بكسر القاف) ومراقبون (بفتح القاف) . لكن هذه اللعبة يمكن أيضاً أن تكون فخاً . فالشرق الثابت الذي لايتغير لا وجود له وليس كل شيء نتيجة خطاب . وبعيداً عن المؤثرات التي لا يمكن الالتفاف حولها ، فإن التشابه النسبي للخبرات التاريخية إنما يقدم ردوداً قليلة الاختلاف على المشكلات جد القريبة في النهاية من حضارة إلي الأخري .

والحقل الذي نتناوله هنا ينتمي إلي مجال ما هو مُركّب ، فهو يقع عند ملتقي فلسفات التاريخ وممارسات العلاقات الدولية . ودون رغبة في الوقوع في شرك المثالية (الفلسفية .- المترجم) ، سوف نحاول بيان أن الكثير من السياسات المطبقة إنما تستلهم رؤي مقررة سلفاً بأكثر مما تستلهم واقع المجريات الفعلية ، حتى وإن كانت الأوضاع والمواقف الملموسة يبدو أنها تبرر المشاريع التي يجري السعي إلي تحقيقها .

وبما أن مجال هذا التأمل والبحث واسع جداً - فرنسا والعالم العربي في القرن الذي يتلو

الحملة الفرنسية على مصر - فلا يمكن أن يدور حديث هنا عن تناول شامل مستوعب . على العكس ، فمع السعي إلي تحديد الخطوط العامة للتفسير ، سوف تجري دراسة بعض اللحظات المميزة دراسة خاصة بوصفها كاشفة على نحو خاص للدلالات التي تنطوي عليها هذه اللقاءات بين فرنسا والعالم العربي .

وهذه اللحظات المميزة هي اللحظات التي يجري فيها طرح مشروع تأسيس «مملكة عربية» ، تكون فاعل (أداة ، محرك) التمدين والفرنسة ولكن أيضاً التحرير القومي . وحتى يكون مثل هذا المشروع ممكناً ، في مصر أو في الجزائر أو في سوريا ، فلابد من الاعتراف بوجود شركاء أهليين في هذا « التمدين للعرب » ولابد خاصة من انبثاق خطاب سياسي مشترك . ومن ثم فإن البحث سوف يمتد إلي ظروف تكون هذا الخطاب ، أولاً في فرنسا ثم في مصر . وسوف يتواصل البحث ليتناول التاريخ الموار لمشاريع « المملكة العربية » في الجزائر ومصر وسوريا قبل تعريف ظروف رفضها النهائي في عام ١٩٢٠ ، وهو عين العام الذي سوف توجد فيه في دمشق بصورة مؤقتة مملكة عربية . وقد يخامر القارئ المعاصر الاحساس ، على مدار هذا العمل ، بأن الكاتب قد بحث بشكل منهجي عن غرائبية التاريخ بقدر ما أن المشكلات المطروحة ، خلال تلك الفترة الممتدة من نهاية الحملة الفرنسية في مصر إلي دخول قوات الجنرال جورو دمشق ، تشبه تساؤلاتنا المعاصرة فيما يتعلق بالاسلام وبالعرب . لكنني لم أبحث عن شيء كهذا . فكما سوف يثبت اختيار الاستشهادات ، التي قد تكون مفرطة الغزارة وإن كانت ضرورية ، فإننا لسنا غير ورثة أسلافنا الذين عاشوا في ذلك القرن التاسع عشر الطويل .

حواشي التمهيد

١ - "Civilisation, le mont, l'idée", in *1' re Semaine internationale de synthèse,* 2e fasc., Paris, 1930, in - 8°, pp. 1 - 55; repris dans *Pour une histoire à part entière,* Paris, 1962, pp. 481-528 يضيف فافر في ملحوظة في مستهل نصه هذا التعليق : « بين قوسين ،بما أن أي أستاذ للتاريخ لم يقترح قط ، وبما أن أي مؤرخ شاب لم تخطر قط بباله من تلقاء نفسه فكرة أن يكرس لكلمة من هذه الكلمات دراسة معمقة ، فإننا نقول ، إن كانت هناك رغبة في اعداد أطروحة لنيل درجة الدكتوراة : هاكم ما يوضح على أحسن نحو حالة الفوضي ، ليس المادية ، بل الروحية ، التي ما تزال توجد فيها باستمرار دراسات التواريخ الحديثة » .

٢ - "Civilisation, contribution à l'histoire d'un mot,", in *Problémes de linguistique générale,* Paris, 1966

٣ - الدراسة الشاملة الوحيدة حول مفهوم الحضارة هي أطروحة Philippe Bénéton, "Histoire de mots : culture et civilisation", *Travaux et recherches de sciences Politiques,* n° 35, Paris, 1975 وسوف يجد القارئ هناك بيبليوجرافيا عامة حول هذا الموضوع .

الفصل الأول

فرنســـا

مولد مفهومٍ في عصر التنوير

لا تفرضُ فكرة التقدم نفسها إلا بشكل متأخر . فنحو عام ١٧٥٠ فقط ، تدرك أوروبا التحولات التي جعلت من ثقافتها ثقافة مختلفة عن جميع الثقافات الأخري . وعندئذ تجد نفسها بحاجة إلي نقاط استدلال يمكن أن تكون موجودة إمّا في تاريخها هي ، أو في العوالم الأخري . وإزاء تحدي روسو الذي يشكك في القيمة الأخلاقية للتطور التاريخي ، فإن مفكري الشطر الثاني من القرن الثامن عشر ، وخاصة أولئك الذين حملوا اسم الايديولوجيين ، المعاصرين للثورة ، يصوغون انثروبولوجيا تاريخية تبرر اعادة البناء الكاملة للمجتمع والتي سوف تكون عمل بشر عام ١٧٨٩ .

لقد ذهبوا إلي أن الانسان في المجتمع هو بحكم التعريف كائن مغترب لأن الانتقال من حالة الطبيعة ، وهي الحالة التي يحيا فيها الانسان بمفرده ومن ثم يتمتع بحرية غير محدودة ، إلي حالة المجتمع ، إنما يتم عبر مجموعة من القيود . والعمل الذي يجب الاضطلاع به ليس هو العودة إلي الحالة البدائية أو القريبة من الأصول ، كما يدعو إلي ذلك أتباع روسو ، بل هو استعادة حالة حرية مساوية لحرية الطبيعة مع البقاء ضمن إطار المجتمع . وهذه الحالة الجديدة ، حيث لن يكون هناك تناحرٌ بعدُ بين المجتمع و الحرية ، سوف يقررها العقل النقدي : ومن ثم فإن مجموعة المؤسسات والممارسات الانسانية يجب أن تكون خاضعة للتحليل وللنقد . والمعيار المستخدم في هذه العملية إنما يتمثل في تمييز ما يساعد علي هناء الفرد ورفاهية الجماعة . ومسلمة هذا الموقف مبنية علي الفكرة التي تذهب إلي أن الهناء والرفاهية لا يمكن الفصل بينهما وأن أحدهما لا يمكن أن يوجد دون الآخر .

وهذا التحليل يقود إلي إقرار لقانون ، لمجموعة من المبادئ والقواعد التي تنظم وتحكم حالة الطبيعة في المجتمع . في ظل الثورة ، يُسمي فولني هذا القانون بـ« القانون الطبيعي » . وهذه الطبيعة ليست طبيعة أصول البشرية ، بل طبيعة نهاية التاريخ ، أي نزع اغتراب الانسان . ومنذ ذلك الحين ، فإن حالة أواخر القرن الثامن عشر واضحة : إذ يوجد بشر مغتربون اغترابا عميقاً ، هم الشرقيون ، الخاضعون للاستبداد الذي هو مرحلة التاريخ الأولي أو بالأحري التاريخ المشلول ؛ أما الغربيون ، الذين اجتازوا بالفعل مراحل في طريق نزع اغترابهم ، فهم معنيون بدرجة متوسطة . ونهاية التاريخ ، نزع الاغتراب ، سوف تجئ من الثورة الفرنسية ، الصالحة أولاً بالنسبة لفرنسا ثم بالنسبة لبقية البشرية . وهكذا فإن وحدة الجنس البشري إنما تطرحها عالمية الثورة لأن التباينات الثقافية ليست غير علامة اختلاف مراحل في عملية التطور التاريخي . وبالنسبة للشرقيين ، فإن تدارك التأخر وتجاوزه سوف يكون ببساطة أكثر أهمية مما بالنسبة للغربيين .

ولابد من العثور علي مصطلح لتسمية حركة التاريخ هذه التي توحد الفرد والمجتمع توحيداً غير قابل للفصل وإلي حد الغاء التمايز بينهما . والحال أن مفهوم « الحضارة » سوف يكون هو المفهوم الذي يقع عليه الاختيار .

حالـــة الحضـــارة

أرجع بنفنست ظهور المصطلح في معناه الحديث إلي عام ١٧٥٧ تحت قلم المركيز دو ميرابو في الرسالة التي تحمل عنوان : **صديق البشر أو بحث حول السكان** : « لا جدال في أن الدين هو أول وأصلح كابح للبشرية : إنه المحرك الأول للحضارة » . وهكذا تستحضر الكلمة الاتجاه إلي جعل الحياة في المجتمع أقل عنفاً ، وأكثر تمدناً ، ومن ثم أكثر تحضراً . وإلي هذا المعني ، يضاف نحو أواخر سبعينيات القرن الثامن عشر المعني الأكثر تحدداً ، معني الانتقال من الحالة الوحشية إلي حالة المجتمع . وبايي هو أحد أوائل من استخدموا المصطلح بهذا المعني وذلك في عام ١٧٧٩ [١] . ورابو سان - ايتيان في عام ١٧٨٧ يعد أكثر دقة وتحديداً في **رسائل (ـه) إلي سيلفان بايي حول تاريخ اليونان البدائي** حيث يدرس « ذلك العصر المثير للاهتمام عندما انتقل الانسان من الحياة الوحشية إلي حالة الحضارة » [٢] .

وعندما يجد فولني ، في أواخر تسعينيات القرن الثامن عشر ، وهو يرد علي روسو ، أن من المستحسن تعريف مفهوم الحضارة ، فإنه يفكر أولاً في ذلك الاستعمال ، المرادف للنضال ضد العنف : « لو كان [٣] بعد ذلك ، عند تعريفه للحضارة ، قد استمد معني الشيء (الحضارة . - المترجم) من عين معني الكلمة الجذر (Civitas) ، لكان بوسعه أن يبين أن ما

يجب علينا فهمه من (كلمة) الحضارة هو اجتماع هؤلاء البشر أنفسهم في حاضرة ، أي في نطاق مشترك من البنايات السكنية المزودة بدفاع مشترك ، لحماية النفس من النهب الأجنبي ومن الفوضي الداخلية ؛ ولأمكنه أن يبين أن هذا الاجتماع يجر معه أفكار الاتفاق الحر بين أفراده وأفكار صون حقوقهم الطبيعية في حرمة وسلامة أشخاصهم وممتلكاتهم ؛ وافتراض أو وجود عقد متبادل ، ينظم استعمال القوي ، ويقيد حرية الأفعال ، أي بؤسس ، باختصار ، نظام عدل ؛ ولأمكنه من ثم أن يبين أن الحضارة ليست شيئاً آخر غير حالة حافظة وحماية للأشخاص وللممتلكات ؛ وأنه ما من متحضرين حقاً في العالم سوي الشّعوب التّي تتمتعَ بقوانين عادلة وبحكومات نظامية » (٤) .

ويبين **بحث** شاتوبريان **حول الثورات** والمنشور في عام ١٧٩٧ أن ذلك الاستعمال للمصطلح هو الاستعمال السائد في ذلك الزمن (٥) .

الإحـــــياء

عند أواخر ثمانينيات القرن الثامن عشر ، لم يكن مصطلح الحضارة مهيأ بعد لتشخيص مجمل التطور التاريخي . ويخامرنا الشعور بأن كتّاب تلك الفترة كانوا يبحثون عن الكلمة و يجدون أنفسهم مضطرين إلي استخدام جمل طويلة لتحديد مقصدهم . والحال أن القس جريجوار ، عندما يتحدث عن اليهود في عام ١٧٨٨ يجري ويكتب **بحث** (أ) **حول الإحياء المادي والمعنوي والسياسي لليهود** . والواقع أن مصطلح « الإحياء » سوف يكون أكثر شيوعاً بكثير من مصطلح « الحضارة » خلال الأعوام الأولي للثورة (٦) . علي أن الفكرة موجودة بالفعل دون الكلمة في رسالة سييس التي تحمل عنوان : **ما هي الفئه الثالثة** (٧) ؟ وحتي في عام ١٧٩٧ ، فإن بنيامين كونستان ، في رسالته التي تحمل عنوان : **ارتكاسات سياسية** ، لا يستخدم الكلمة المناسبة ويستخدم التعبير الركيك ، تعبير « نظام المبادئ (٨) » .

علي أن ڤولني قد مد ، منذ عام ١٧٩١ ، مجال المفهوم إلي أوروبا الحديثة وهو يستخدمه ليحكم علي التطور الذي عرفته منذ القرن السادس عشر : إن فتوحات الملوك قد أخمدت روح العزلة التي كانت تفصل الشعوب أحدها عن الآخر ؛ ومن جراء العجز عن الانكباب علي الشئون العامة ، التي يحتكرها المستبدون ، فإن الميول تتحول إلي التركيز علي الفنون والعلوم ؛ ويصبح التنوير أوسع انتشاراً والحياة أكثر عذوبة ؛ وقد استفاد الجنس (البشري) من ذلك استفادة محسوسة ، خاصة في بلدان معينة (٩) .

أما كوندورسيه زمن رسالة **مخطط للوحة تاريخية عن مسيرة تقدم الفكر البشري** فهو يعتبر الحضارة بادئ ذي بدء واقع العيش في مجتمع (١٠) . إلا أنه يفكر بالفعل آنذاك من زاوية

التطور التاريخي : فواقع العيش في مجتمع له تاريخه ومن هنا الاستخدام المتكرر في نصه لفكرة « عصر الحضارة » ، أي تلك المرحلة من مراحل التطور التاريخي والتي تتميز بسمة تاريخية معينة . وهذا هو الحال مثلاً عندما يوجد هناك رجال دين ومؤمنون (١١) ، أو اقطاع(١٢) . ولما كان كوندورسيه عدواً ثابتاً للاكليريكية ، فإنه لايحب المراحل الأولي لتاريخ الحضارة ، والتي يلخصها في تكون فئة كهنوتية في مصر وفي الشرق تحتكر المعرفة وتستعبد الشر(١٣) . وهو يرفض ، في ذلك ، الفكرة المعترف بها بشكل مشترك في الكتابة التاريخية التنويرية والتي تذهب إلي أن اللحظة الأولي للحضارة ، والتي تمثلها مصر ، كانت لحظة الحكمة . علي أن هذا المذهب تؤكد عليه بشكل متواصل الماسونية ، جدُ الرائجة في أواخر القرن الثامن عشر ، والتي تزعم لنفسها أصلاً مصرياً .

والحال أن التاريخ الحقيقي لا يظهر بالنسبة لكوندورسيه إلاّ مع الاغريق ، وهم الشعب الأول الذي يشير اليه الفليسوف اشارة محددة . فإسهامهم العظيم هو الحرية السياسية ، التي تشكل الشرط الضروري لازدهار المعرفة . وقد أضافت روما إلي ذلك علوم القانون . وانتهاء العصر القديم (الاغريقي - الروماني . - المترجم) يطرح مشكلة انحطاط ونقل المعرفة . والعداء للمسيحية يجر إلي تجريد العصر الوسيط الكاثوليكي من القيمة . وبما أن انتقال المعرفة هو واقع حدث بالفعل ، فمن الواجب البحث عنه من ناحية الشرق .

العرب في التاريخ

تكمن أهمية نص كوندورسيه في أنه يركب مجمل تفكير التنوير حول دور العرب في التاريخ . وهذه الرؤية سوف تشكل أساساً مشتركاً لجميع الصياغات التحضيرية السياسية في القرنين التاسع عشر و العشرين . ولذا فمن المناسب تقديم مقتطفات ضافية منها : « عند أطراف آسيا وعلي تخوم افريقيا ، وجد شعب تمكن ، بسبب موقعه وشجاعته ، من الإفلات من فتوحات وغزوات الفرس والاسكندر والرومان . وبين قبائله العديدة ، كان بعضها يدين بإعاشته للزراعة ، بينما احتفظ بعضها الآخر بالحياة الرعوية : وكان الجميع ينكبون علي التجارة ، بينما كان البعض ينكبون علي قطع الطرق وأعمال السلب والنهب . ولما كانت هذه القبائل قد جمعت بينها وحدة الأصل ووحدة اللغة وعادات دينية معينة ، فقد شكلت أمة عظيمة ، لم تكن توحد أجزاءها المختلفة أيةُ رابطة سياسية مع ذلك . وفجأة ، برز وسطها رجل ذو حماسة متقدة و سياسة عميقة ، ولد ولديه مواهب شاعر ومواهب محارب . وقد ارتأى المشروع الجرئ الخاص بتوحيد القبائل العربية في كيان واحد ، وكانت لديه الشجاعة اللازمة لتنفيذه . ولكي يوفر زعامة لأمة كانت حتى ذلك الحين حروناً ، فإنه يبدأ برفع دين

جديد أكثر تهذيباً علي انقاض العبادة القديمة . ولما كان مشرعاً ونبياً وقاضياً وقائد جيش ، فقد تجمعت في يديه كل وسائل السلطة ، وكان يعرف كيف يستخدمها ببراعة ، وإن كان بعظمة .

« وكانت عادات العرب تتميز بالسمو وبالرقة ؛ وكانوا يعشقون ويدرسون الشعر ؛ وعندما هيمنوا علي أجمل بلدان آسيا ، عندما أدي الزمن إلي تهدئة حمي الهوس الديني ، امتزج عشق الآداب والعلوم بحماستهم في نشر الدين وخفف حماستهم للفتوحات وللغزوات .

« وقد درسوا أرسطو ، الذي ترجموا أعماله . ودرسوا علم الفلك وعلم البصريات ، وجميع فروع الطب ، وأغنوا هذه العلوم ببعض الحقائق الجديدة . ونحن ندين لهم بتعميم استخدام الجبر ، الذي كان مقصوراً لدي الاغريق علي فئة واحدة من المسائل . وإذا كان البحث المستحيل عن سر لتحويل المعادن (الخسيسة إلي معادن نفيسة . - المترجم) وعن اكسير للخلود ، قد أساءَ إلي سمعة أعمالهم الكيميائية ، فقد كانوا باعثي ، أو بالأحري مبدعي هذا العلم (الكيمياء) ، الذي كان قبلهم مختلطاً بالصيدلة أو بدراسة مناهج الصنائع .

« وكانت العلوم عندهم حرة ، وكانوا مدينين لهذه الحرية بكونهم تمكنوا من إحياء بعض شرارات عبقرية الاغريق ؛ لكنهم كانوا خاضعين لاستبداد يكرسه الدين . وهكذا فإن هذا النور لم يكد يشع بضع لحظات حتى أخلي المكان أمام الدياجير الأكثر كثافة ؛ وكان من الممكن لأعمال العرب هذه أن تضيع علي الجنس البشري لو لم تكن قد ساعدت علي التحضير لهذا البعث الأكثر دواماً والذي سوف يقدم لنا الغرب صورته .و هكذا نري ، للمرة الثانية ، أن العبقرية تهجر الشعوب التي كانت قد حررتها من الجهل ؛ لكن العبقرية لا ترغم علي الإختفاء بعد إلاّ أمام الطغيان وانتشار الخرافات . إن العبقرية التي ولدت في اليونان ، الي جانب الحرية ، لم تتمكن لا من وقف سقوطها ولا من حماية العقل من أوشام الشعوب ، التي كانت العبودية قد جعلتها منحطة بالفعل . وعندما ولدت من جديد عند العرب في حضن الاستبداد و علي مقربة من مهد دين يتميز بالتعصب ، لم تكن ، شأن طابع هذا الشعب ، غير استثناء عابر للقوانين العامة للطبيعة ، والتي تحكم علي الأمم المستعبدة وأسيرة الخرافات والأباطيل بالانحطاط وبالجهل (. . . .) .

« وسوف أربط بتاريخ أعمال العرب تاريخ الارتفاع السريع والسقوط السريع لتلك الأمة ، التي ، بعد أن كانت قد سادت من ضفاف المحيط الأطلسي إلي ضفاف نهر الإندوس ، ثم حرمها البرابرة من الجزء الأكبر من فتوحاتها ، دون أن تتمكن من الاحتفاظ بالأجزاء الأخري إلاّ لكي تُبدي هناك المشهد البشع لشعبٍ منحط إلي درك العبودية والفساد والشقاء الأسفل ،

ما تزال (هذه الأمة) تسكن وطنها القديم ، وتحافظ فيه علي عاداتها وروحها وطابعها ، وتسني لها أن تستعيد هناك وأن تدافع هناك عن استقلالها القديم » (١٤) .

وهكذا فإن عرب التنوير هم أمة عظمي نقلت إلي الغرب عبقرية التقدم وعبقرية الحضارة وسبب انحطاط هذه الأمة إنما يرجع أساساً إلي الغزوات الأجنبية ، خاصة غزوات الترك ، وإلي انتصار الدين الاسلامي وهو الدين « الأبسط في عقائده ، و الأقل عبثية في ممارساته ، والأكثر تسامحاً من حيث مبادئه (ولكن) الذي يبدو أنه يحكم بعبودية أبدية وبحماقة لاعلاج لها علي كل ذلك الجزء الشاسع من الأرض الذي بسط عليه امبراطوريته»(١٥) .

والحال أن كوندورسيه ، الوفي لروح التنوير ، لا يمكنه تصور تاريخ للحضارة غير تاريخ العقل والحرية . والدين والاستبداد هما الخصمان الدائمان للحضارة . وقدر آسيا برمتها ، فيما عدا الحدث العرضي الرائع لتاريخ العرب ، هو سقوطها ضحية لهاتين المصيبتين اللتين أوقفتا سيرها في طريق الحضارة (١٦) .

والحال أن ركود البلدان الشرقية هذا سوف يفرض في المستقبل علي أوروبا المتحضرة أن تحرر الشرق من مضطهديه : « إن هذه البلدان الشاسعة سوف تقدم لها (لأوروبا) هنا شعوباً عديدة لا يبدو أنها تنتظر شيئاً غير ارشادات لكي تتحضر وغير أن تجد لها أخوة في الأوروبيين ، لكي تصبح صديقة لهم و تلميذة لهم ؛ فهناك أمم مستعبدة يهيمن عليها مستبدون ذوو قداسة أو فاتحون أغبياء وهي ، منذ أزمنة بعيدة ، تتوجه بالنداء إلي محرريها»(١٧) .

وبسبب قرب الاسلام والعالم العربي جغرافياً من أوربا ، فإنهما سوف يكونان أول المعنيين بتوسع أوروبا التحريري .

دخول المفهوم في السياسة

يبدو أن بواسّي دانجلا هو أول من استخدام مفهوم « الحضارة » في السياسة وذلك في **الخطاب التمهيدي لمشروع دستور للجمهورية الفرنسية** ، والذي ألقاه باسم لجنة الأحد عشرة في جلسة الخامس من ميسيدور من العام الثالث للجمهورية (٢٣ يونيو ١٧٩٥) : إن الثورة الفرنسية « ليست البتة من عمل بضعة أفراد ، بل هي نتيجة التنوير و الحضارة ؛ إنها ثمرة العصور والفلسفة ؛ وهي ابنة الفن الالهي الذي يكاثر بسرعة كبيرة ويحفظ للأجيال القادمة كل ما أنتجته العبقرية من مفاهيم » (١٨) .

وفي خطاب آخر ، يبرر بواسي دانجلا هذا نفسه بمفهوم الحضارة ضرورة حيازة مستعمرات . لكن ما يقصده هو حضارة المتروبول (١٩) .

نابولـــــيون

وهكذا ففي أواخر تسعينيات القرن الثامن عشر يحوز بونابارت الشاب مفهوماً جديداً نسبياً يعتبر توضيحه مصاحباً تماماً لأعوام الثورة . وأعمال ڤولني وكوندورسيه النظرية توضح له معني واتجاه التطور المعاصر ومشروع الحملة الشرقية يجد في هذه الأعمال تبريره الفلسفي . وفي بيانات بونابارت الموجهة إلي جيش الشرق ، فإنه يجتاز المرحلة الحاسمة : إن فرنسا تحمل الحضارة إلي مصر . وهو يبتدع فكرة الرسالة التمدينية التي سوف تكون التيمة الكبري للعمل الاستعماري الذي تضطلع به أوروبا . والحال أن المفهوم الذي ساعد بشكل خاص ، حتى ذلك الحين ، في تحليل تطور أوروبا التاريخي ، إنما يصبح الآن أساسياً في العلاقات بين الغرب والشرق . ومقدمة **وصف مصر** التي حررها فورييه ، بمساعدة شامپوليون - فيچاك وصححها نابوليون ، إنما تشير بوضوح إلي هذه الفكرة الجديدة : «إن البطل [٢٠] الذي قادها[٢١] ، لم يقصر البتة نظره علي إنزال العقاب بمضطهدي تجارتنا ؛ فقد أضفي علي مشروع الفتح رفعة وعظمة جديدتين وطبعه بطابع عبقريته الخاصة . وقد قَدَّرَ الأثر الذي سوف يكون لهذا الحدث علي تجارة الشرق ، وعلاقات أوروبا بداخل قارة افريقيا ، وملاحة البحر المتوسط ومصائر آسيا . وقد حدد لنفسه هدف القضاء علي طغيان المماليك وتوسيع شبكات الري والزراعة ، و تدشين مواصلات ثابتة بين البحر المتوسط والخليج العربي ، وتكوين مؤسسات للتجارة وضرب مثل صناعة أوروبا النافع للشرق ، و أخيراً جعل حالة السكان أكثر راحة وتوفير جميع مزايا حضارة ناجزة لهم » [٢٢] .

والحال أن بونابارت ، بدعايته السياسية في مصر ، إنما يطرح التناقض الأساسي للمشروع الاستعماري . فالفتح يجري تصويره في صورة تحرير لشعوب الشرق من مستبديها المحليين ، المماليك ، و- بشكل أعم عندما يتبدد كل أمل في التوصل إلي ترضية مع الباب العالي - من السيطرة العثمانية . و التيمات التي يجري استحضارها إنما تعني أن مستقبل مصر والعالم الشرقي لا يمكن أن يكون سوي الدولة القومية . وهذا هو معني نداءاته لنزعة وطنية عربية ثم لفكرة مصرية يمكن لها أن تنسب لنفسها في نهاية الأمر تراث الفراعنة . وفكرة الأمة مرتبطة جد الارتباط بفكرة الحضارة بحيث إن المسألة تصبح مسألة « إحياء» .وهيبةُ ماضٍ مجيد هي ضمانةُ مستقبل مشرق . والحال أن مصر تملك الخاصية المزدوجة التي تتمثل في أنها عين الأرض التي ولدَت فيها الحضارة - ومن هنا الأهمية التي سوف يكتسبها علم المصريات - وأنها أحد البلدان التي كانت الحضارة العربية في العصر الوسيط أكثر إشراقاً فيها . وبالنسبة لايديولوچيي الحملة ، فإن مشروع بونابارت هو إعادة العلوم والفنون إلي عين بلد الحضارة .

وهذه الخطابات تخدم في مواجهة الأثر الفعلي للبيانات الاسلامية السياسية الصادرة عن

الباب العالي الذي سعي إلي تعبئة جميع المسلمين حول سلطان - خليفة القسطنطينية . وفي مصر ، يجري عمل كل شيء من أجل مداراة الزعماء الدينيين المسلمين بل سوف يجري الاعتماد عليهم سعياً إلي تحقيق سيطرة أفضل علي الموقف في البلد . وفي العالم الاسلامي ، يجري بذل محاولة لوضع شريف مكة في مواجهة الخليفة العثماني ليكون سلطة دينية مضادة لسلطة الأخير الدينية (٢٣) .

لكن الحملة الفرنسية في مصر هي مشروع استعماري ، الأمر الذي لايمكنه إلاّ أن يثير في المدي الطويل توتراً بين المشاعر القومية التي حركها الفرنسيون والحقائق الواقعية المادية لسيطرة أجنبية . وفترة ١٧٩٨ - ١٨٠١ جد قصيرة بحيث يصعب أن تسمح ببروز هذا التناقض . والنزعة العربية ، في نهاية القرن الثامن عشر تلك ، لا تتمشي مع أيه هوية فعلية بالنسبة لسكان المشرق . أما النزعة المصرية ، منذ تأسيس الدولة المملوكية الجديدة في الشطر الثاني من القرن ، فهي آخذة في الانبثاق بالفعل لكنها ليست بعدُ نزعةً قوميةً ومقاومةُ الفرنسيين لا يمكنها أن تعبر عن نفسها إلاّ من خلال معجم اسلامي . أما المصري الوحيد الذي لجأ إلي معجم قومي فهو القبطي يعقوب ، إلاّ أنه يبدو تماماً أن المسألة معه هي مسألة استعارة مبيتة لمعجم أوروبي سعياً إلي تحقيق أهداف سياسية خاصة .

علي أن نابوليون في سانت - هيلين يحاول مع ذلك حل التناقض بين مخاطبة المشاعر القومية والحقائق الواقعية للسيطرة الاستعمارية . وهو يفعل ذلك في إطار وصف لمصر بعد نصف قرن من التمدين الذي كان سيتلو مخرجاً ظافراً للحملة : كانت الاسكندرية ستصبح المدينة الأهم بفضل شق قناة تربطها بالنيل ، وكانت قناة ثانية ستربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر مما يجعل من السويس مدينة رئيسية أخري . وكانت بحيرات مصر السفلي سيجري تجفيفها واستثمارها في الزراعة ، وكانت مصر العليا ستصبح مجال زراعة المحاصيل الكولونيالية (قصب السكر والقطن والأرز وشجر النيلة) ، كنتيجة لتنظيم الري بفضل نحو ألف من السدود واستخدام الماكينات البخارية (« ومضخات الإطفاء ») . وساعتئذ ، كانت هجرة ستجيء من أوروبا كما من الشرق وتزيد تعداد السكان أربع مرات . وكان من شأن هؤلاء السكان الكوزموبوليتيين أن يجعلوا من مصر سيدة العالم .

« لكنني أود قول إن مستعمرة جد قومية كهذه ما كان يمكن لها أن تتأخر عن اعلان استقلالها . ومما لا شك فيه أن أمة عظمي ، كما في زمن سيزوستريس والبطالمة ، كانت ستملأ تلك الأرض جد الخربة اليوم ؛ وبيدها اليمني كانت ستتكأ علي الهند ، وكانت ستتكأ بيدها اليسري علي أوروبا ؛ ولو كانت الظروف المحلية وحدها هي التي تقرر ازدهار وعظمة المدن ، لأصبحت الاسكندرية ولكانت مدعوة لأن تصبح رأس العالم ، بأكثر مما هو ممكن

بالنسبة لروما أو القسطنطينية أو باريس أو لندن أو أمستردام (. . . .) .

« وبعد خمسين عاماً من التملك ، كانت الحضارة ستنتشر في داخل افريقيا عن طريق سنار والحبشة ودارفور وفزان ، وكانت أمم عظيمة عديدة ستكون مدعوة إلي التمتع بفوائد الفنون والعلوم ودين الرب الحق ، فعن طريق مصر تحديداً ، يجب لشعوب وسط أفريقيا أن تحصل علي نور المعارف والهناء » (٢٤) .

ومن الواضح أن الرؤية النابوليونية لمصر هي رؤية دولة قومية (دون أن يحدد نابوليون دولة أية أمة بالضبط) ، قوية بفضل برنامج الحضارة ، ومتميزة علي نحو خاص بتوسيع الري والمحاصيل الزراعية الكولونيالية وبموانيء كالاسكندرية والسويس ، ومؤهلة لأن تسيطر في نهاية الأمر علي مجمل المنطقة ولأن تشكل لنفسها امبراطورية افريقية . وبالنسبة للفرنسيين ، فإن كل مشروع من هذا النوع لا يمكنه أن يكون غير تحقيق للحلم النابوليوني .

استخدامات نابوليونية أخري للمصطلح

إن نابوليون ، وقد أصبح امبراطوراً ، سوف يواصل استخدام مصطلح «الحضارة » بصورة منتظمة . وهو يستخدمه لتبرير سياسته في البحر المتوسط والخاصة بإحياء ايطاليا واسبانيا(٢٥) . وحيثيات مرسوم برلين الصادر في ٢١ نوفمبر ١٨٠٨ والذي يفرض الحصار القاري إنما تشير بشكل مباشر إلي الدفاع عن الحضارة ضد مسلك الانجليز البربري وتلجأ إلي هذه الحجة كما لو كانت تلجأ إلي حجة حقيقية من حجج القانون العام (٢٦) .

وتصبح التيمة ملحة بوجه خاص في علاقات نابوليون مع روسيا الكسندر الأول . فنابوليون يشعر أنه بطل أوربا جنوبية تتهددها بربرية الشمال (٢٧) . والماسونية ، وهي احدي أدوات سلطته ، تروج هذه التيمة في عصر أوسترليتز (٢٨) .

ونابوليون يستعيدها بشكل سافر أمام كولانكور في مونولوجاته الشهيرة لدي عودته السريعة في مركبة جليد بعد الهزيمة التي لحقت به في روسيا : « كما قال لي إن الروس لابد من أن يظهروا في صورة تهديد لكل الشعوب ؛ والحرب ضد روسيا هي حرب تتمشي تماماً مع المصلحة المحسوبة جيداً لأوروبا العجوز وللحضارة . وامبراطور النمسا والسيد مترنيخ يدركان ذلك جيداً بحيث إنهما قد كرراه لي كثيراً في درسدن » (٢٩) .

وكان كولانكور نصيراً للتوصل إلي وفاق مع الكسندر . وهو لا يحتمل مشهد فظائع الحملة الفرنسية علي روسيا ، خاصة ذبح الأسري . وقد روي سيجور هذا المشهد : « إن كل واحد ، بحسب شخصيته ، قد أعرب عن سخطه أو عن تأييده أو التزم الصمت . أما كولانكور فقد انفجر وصرخ : « يالها من وحشية فظيعة ! تلك إذاً هي الحضارة التي نجيء بها

إلي روسيا ! ماذا سيكون تأثير هذه البربرية علي العدو ! ألن نترك له جرحانا وحشداً من الأسري ؟ »(٣٠) .

والحال أن علاقة نابوليون بفكرة الحضارة هي علاقة مزدوجة وذات حدين متقابلين : فهو من ناحية يظهر في صورة المروج لها (كما فعل في مصر) أو المدافع عنها (كما فعل في روسيا) ، وهو من ناحية أخري لا يرتاح اليها بوصفها قيداً علي حريته في التصرف . وقد نقلت مدام دو ريموسا أو القس دو برات أقوالاً بالغة الدلالة في هذا الصدد : « لقد سمعته ألف مرة وهو يعود إلي هذه الفكرة ، ويشكو من القيود التي تضعها في وجهه حضارة أوروبا . إن عقلاً لا يدرك الأشياء إلا في سياق هذه العمومية ، لا بد له بالضرورة من أن يميل بلا توقف إلي الاتساع ، وإلي النفور بسرعة من الأشياء المحسوسة والعادية ، لكي ينهمك في الأشياء التي لا يستطيع شيء سوي الخيال وحده أن يخلقها ويصل اليها »(٣١) .

والحال أن خصوم نابوليون سوف يعتبرونه خطراً علي الحضارة الأوروبية . ووفقا لمدام دو ريموسا ، فإن هذه هي المشاعر التي تلهم تاليران في تباعده التدريجي عن الامبراطور(٣٢) .

ودعوي بنيامين كونستان في عام ١٨١٤ ضد نابوليون إنما تستند برمتها علي هذه الفكرة . وعنوان الدعوي نفسه له دلالته : **عن روح الفتح والاغتصاب في علاقاتهما بالحضارة الأوروبية** . ففي ذلك الوقت ، نجد أن مصطلح « الحضارة » الذي كان غائباً عن كونستان في زمن (حكومة) الادارة ، إنما يعاود الظهور في كل صفحة تقريباً . والأطروحة الأساسية هي أن المغامرة النابوليونية هي في حد ذاتها تقهقر بالقياس إلي مستوي حضارة أوروبا . وقد ساعدت الحملة الفرنسية في مصر علي استيراد بربرية تتعارض مع حركة التاريخ (٣٣) .

علي أن كونستان سوف يؤيد نابوليون خلال الأيام المائة وسوف يؤسس في ذلك الوقت البونابارتية الليبرالية التي سوف تكون أحد التيارات الكبري للقرن التاسع عشر الفرنسي . والحال أن السطور الأولي للمرسوم الاضافي لدساتير الامبراطورية والصادر في ٢٢ أبريل ١٨١٥ ، والذي حرره كونستان ونابوليون الأول ، إنما تبرر ، بالإحالة إلي مسيرة الحضارة ، السياسة الامبراطورية التي سوف تكون نتيجتها هي إقامة نظام اتحادي أوروبي(٣٤) . وسوف تكون تلك التيمة واحدة من التيمات الكبري لأحاديث نابوليون في سانت - هيلين .

وهكذا فإن الأسطورة جاهزة بالنسبة للبروميثيوس المقيد في سانت - هيلين . لقد كان البطل التمديني بإمتياز الساعي إلي التوفيق بين مصالح الشعوب ومصالح الملكيات . وعلي ابنه مواصلة حمل المشعل من بعده : « إن ابني يجب أن يكون رجل الأفكار الجديدة ورجل القضية التي عملت علي انتصارها في كل مكان . . . . إحياء الشعوب بواسطة مؤسسات من شأنها محو آثار الإقطاع ، وتأمين كرامة الإنسان ، وتنمية بذور الازدهار النائمة منذ

قرون ؛ العمل علي اقتسام المجموع لما ليس اليوم غير امتياز مقصور علي عدد قليل من الناس ؛ إعادة توحيد أوروبا عبر روابط اتحادية لا تنحل ؛ نشر فوائد المسيحية و الحضارة في جميع أجزاء العالم ، البربرية وغير المتعلمة اليوم : ذلك هو ما يجب أن يكون عليه هدف جميع أفكار ابني ؛ وتلك هي القضية التي أموت من أجلها شهيداً . وليحسب قدسية قضيتي علي ضوء الكره الذي أنا موضوعه وهدفه من جانب الملوك (. . .) . إن أعدائي هم أعداء الانسانية ؛ إنهم يريدون تقييد الشعوب التي يعتبرونها قطيع بهائم ؛ إنهم يريدون اضطهاد فرنسا ، وإعاة النهر الجبار إلي منبعه ؛ ليحذروا فيضانه ! مع ابني ، يمكن للمصالح المتعارضة أن تتعايش في سلام وللأفكار الجديدة أن تنتشر وأن تتحصن دون هزات ودون ضحايا ؛ وسيتم تمكين الانسانية من تجنب ويلات جسيمة . إلا أنه إذا طارد حقدُ الملوك الأعمي دمي بعد موتي ، فسوف يتم الثأر لي ، لكنه سوف يكون ثأراً وحشياً . وعندئذ سوف تفقد الحضارة كل أدب وتهذيب ، إذا ما انطلقت الشعوب من عقالها ثائرة ؛ إن سيولاً من الدم سوف تنتشر في كل أوروبا ؛ وسوف تتلاشي أنوار المعارف وسط حروب أهلية وحروب خارجية ؛ وسوف يتطلب الأمر أكثر من ثلاثمائة سنة من الفوضي حتى يتسني القضاء في أوروبا علي السلطة الملكية التي كانت ، حتى البارحة ، تمثل مصالح الجميع ، ولكن التي تطلبت عدة قرون حتى تتحرر من قيود العصر الوسيط . أما إذا ما تحرك الشمال ، علي العكس من ذلك ، ضد الحضارة ، فإن الصراع سوف يكون أقل طولاً ، لكن الضربات سوف تكون أكثر ويلاً . إن رفاهية الشعوب ، وكل النتائج التي تم كسبها منذ سنين عديدة ، سوف تضيع ، ولا يمكن لأحد أن يخمن النتائج الكارثية التي سوف تترتب علي ذلك . إن الشعوب ، شأن الملوك ، لها مصلحة في مجيء ابني إلي الحكم . فخارج الأفكار والمباديء التي حاربنا من أجلها ، والتي عملت علي انتصارها ، لا أري سوي العبودية أو الفوضي بالنسبة لفرنسا كما بالنسبة لأوروبا » (٣٥) .

ونابوليون هو البطل - التمديني في خارج أوروبا كما في داخلها . وهو يقدم نفسه كوسيط بين الشعوب والملوك . وقد كان المحرك لاستخدامات مختلفة لمفهوم الحضارة : فهي (الحضارة) في خارج أوربا إحياء شعوب قديمة وهي في أوروبا الجنوبية برنامجٌ للحاق بالشمال ، وهي في مواجهة روسيا تبريرٌ لدفاع في مواجهة الخطر الروسي ، وهي في أوروبا اتحادٌ سلمي لجميع الشعوب ، وهي في داخل المجتمع الأوروبي والفرنسي ضرورةٌ وفاق بين مختلف الطبقات الاجتماعية . إن كل ماسوف يسميه القرن التاسع عشر بالأفكار النابوليّونية سيكون بالإمكان جمعه من جديد تحت اسم الحضارة الشامل .

زمن عودة الملكية . جيزو

في السنوات الأولي لزمن عودة الملكية ، يتم التوصل إلي فكرة تعدد الحضارات . ويُرجع لوسيان فافر إلي عام ١٨١٩ ظهور هذا المعني ، عند بالانش . والانتقال سهل كما تبين ذلك استشهاداتنا السالفة . وهذه الحضارات ليست غير مراحل في السيرورة الأعم للحضارة . وإلي المفهوم الزماني ، يضاف بسرعة تحديدٌ جغرافي . والتطور السريع النشيط للاستشراق في ذلك العصر يعتبر مؤاتياً لهذا التطّور . وتاريخ المفهوم تسمه بشكل خاص محاضرات جيزو الشهيرة في السوربون حول تاريخ الحضارة في أوروبا . والنخبة المثقفة في ذلك الزمن تشهد هذا الحدث الفكري العظيم . ثم إن توكفيل الشاب يقدر جانبه « المثير » في تفكيك الأفكار والمعني الحقيقي للكلمات (٣٦) .

ويُعّرفُ جيزو الحضارة أولاً بوصفها فعلاً تاريخياً (٣٧) هو قبل كل شيء حركة : « يبدو لي أن الفعل الأول الذي يُفْهَمُ من كلمة الحضارة (. . .) هو فعل التقدم ، التطور ؛ وهو معني يستثير علي الفور فكرة شعب يسير ، لا لكي يغير مكانه ، بل لكي يغير حالته ؛ أي فكرة شعب تنبسط حالته أو تتحسن . إن فكرة التقدم ، التطور ، انما تبدو لي علي أنها الفكرة الأساسية المتضمنة في كلمة الحضارة » (٣٨) .

ويشدد جيزو علي الوحدة الأساسية للفرد وللمجموع ، والتي لا يمكن فصلها عن عين حركة الحضارة . وهو يعترف بتنوع الحضارات ولكن لكي يؤكد علي نحو أقوي علي وجود تعارض تام بين الحضارة الأوروبية والحضارات الأخري ، القديمة والشرقية . فهذه الأخيرة كانت محكومة بفكرة واحدة ، بمبدأ واحد انتهي ، بعد أن حارب القوي الأخري ، المبادىء الأخري ، إلي إزالتها ، ومن هنا الركود الذي يميز تلك الحضارات . إنها كيانات موحّدة ، ومتخصصة وجامدة خلافاً للحضارة الأوروبية ، المبنية علي التنوع ، علي الحركة : « إن الحضارة الأوروبية هي من ثم الصورة الأمينة للعالم : فهي ، شأن حال ومسار أحوال وأمور هذا العالم ، لا هي ضيقة ولا هي حصرية ولا هي ثابتة عديمة الحركة . وأنا أعتقد أن طابع الخصوصية قد اختفي ، لأول مرة ، من الحضارة ؛ إنها ، لأول مرة ، تتطور وهي متنوعة تنوع مسرح العالم وثرية ثراءه وموارة مورانه » (٣٩) .

صراع الأجناس وصراع الطبقات

إن الحركة التي تضفي كل هذا التنوع علي الحضارة الأوروبية هي الصراع بين مختلف قوي المجتمع . وهذه الفكرة أساسية . والالهام يجئ من نظرية صراع الأجناس بين الأرستقراطية ذات الأصل الجرماني والفئة الثالثة ذات الأصل الغالي - الروماني ، وهي

فكرة رائجة في القرن الثامن عشر وإن كان قد استعادها الجيل الجديد من المؤرخين الليبراليين والذين يعتبر جيزو واحدا منهم . وقد استخدم جيزو ، في كتاباته الأولي ، مفهوم صراع الأجناس لكي يبرر الثورة الفرنسية وانتصارها الحاسم الذي يتمثل في مجيء نظام حكم دستوري نيابي مع ميثاق (دستور) بدايات زمن عودة الملكية (٤٠) .

وقد عمق المؤرخ الفكرة ونقلها إلي مستوي أعم ضمن مستويات السببية التاريخية . وعندئذ يجد نفسه منقاداً إلي طرح مفهوم صراع الطبقات بوصفه محرك التاريخ . إن تواصل الصراع عبر التاريخ هو عين أساس التقدم الأوروبي في حين أن وقفه هو المسئول عن ركود الشرق : « لقد ولدتْ أوروبا من صراع مختلف طبقات المجتمع . أما في الأماكن الأخري ، أيها السادة ، وقد ألحت إلي ذلك بالفعل ، فإن هذا الصراع قد أدي إلي نتائج مختلفة تماماً : ففي آسيا ، علي سبيل المثال ، انتصرت احدي الطبقات انتصاراً تاماً ، وحل نظام الفئات المغلقة علي نفسها محل نظام الطبقات ، وسقط المجتمع في هاوية الشلل وانعدام الحركة . إن شيئاً من ذلك ، ولله الفضل ، لم يحدث في أوروبا » (٤١) .

وبالنسبة لجيزو كما بالنسبة لآخرين كثيرين ، فإن تفسير التاريخ بصراع الطبقات لا يعني بالضرورة التأكيد علي أن الجماهير هي التي تصنع التاريخ . لقد كان مفهومه عن المجتمع مفهوماً نخبويا وميريتوقراطياً (استحقاقياً) . وهدف عمله السياسي هو تكوين ارستقراطية جديدة ، مفتوحة لجميع أولئك الذين يحسنون التصرف بحرية وبعقلانية . وهو يرفض أي مستقبل لديمقراطية مبنية علي الجماهير ، فمثل هذه الديمقراطية لن تعني غير انتصار البربرية علي الحضارة وكما لاحظ ذلك بيير روزانفالون ، فإن هذه الرؤية إنما تقع عند ملتقي النزعة الاصلاحية بين النبلاء في أواخر القرن الثامن عشر ورؤية ايديولوجيي الثورة والامبراطورية للعالم (٤٢) .

ووفقاً للشخصية السياسية لزمن ملكية يوليو ، فإن تدشين النظام الدستوري قد وضع نهاية لصراع الطبقات . فالأمة المبنية علي المساواة في الحقوق بين جميع المواطنين ، قد قضت علي التعارضات بين الارستقراطية و الديمقراطية والشعب . ومن ثم فإن الروح الثورية هي شيء ينتمي إلي الماضي وعودتها إلي الظهور لم يعد لها معني في تاريخ فرنسا (٤٣) .

المجتمع الديني والمجتمع المدني

تحيل مسألة الحضارة إلي مسألة الدين . وجيزو زمن عودة الملكية لديه رؤية ديناميكية للعلاقات بين الدين والحضارة . إن تطور المجتمع الديني يسبق دائماً تطور المجتمع المدني : «لقد بدأ المجتمع المسيحي (. . .) كمجتمع حر تماماً ، يتألف علي نحو فريد باسم دين مشترك ، دون مؤسسات ثابتة ، ودون حكومة بالمعني المعروف ، ولاتنظمه غير سلطات

وفقاً لمتطلبات اللحظة . أما المجتمع المدني فقد بدأ هو الآخر في أوروبا ، جزئياً علي الأقل ، كمجتمع جماعات من البرابرة ؛ وكان مجتمعاً حراً جداً ، يبقي فيه كل انسان لأنه يريد البقاء فيه ، دون قوانين ودون سلطات مؤسَّسَة . ولدي الخروج من هذه الحالة ، التي لا يمكن أن تتوافق مع تطور اجتماعي كبير ، فإن المجتمع الديني يضع نفسه تحت حكم ارستقراطي أساساً : فهيئة رجال الدين ، الأساقفة ، المجامع الدينية ، الأرستقراطية الكنسية هي التي تحكمه . ويحدث واقع ذو طبيعة مماثلة في المجتمع المدني ، عند الخروج من البربرية : إن الأرستقراطية أيضاً ، الاقطاعية الزمنية ، هي التي تتولي السيطرة . وفيما بعد ، يخرج المجتمع الديني من الشكل الارستقراطي ليدخل شكل الملكية الخالصة : ذلك هو زمن انتصار بلاط روما علي المجامع الدينية وعلي الأرستقراطية الكنسية الأوروبية . وتتحقق هذه الثورة نفسها في المجتمع المدني ؛ فعن طريق القضاء علي السلطة الأرستقراطية أيضاً ، تسود الملكية وتملك العالم الأوروبي . وفي القرن السادس عشر ، في حضن المجتمع الديني ، تتفجر انتفاضة ضد نظام الملكية الخالصة ، ضد السلطة المطلقة في النظام الروحي . وهذه الثورة تجيء بحرية النقد و تكرسها وترسخها في أوروبا . وفي أيامنا ، رأينا حدثاً مماثلاً في النظام المدني . فالسلطة الزمنية قد هوجمت وغُلبت هي الأخري . وهكذا ترون أن المجتمعين قد مرا بتقلبات واحدة ؛ وكل ما هنالك هو أن المجتمع الديني كان دائماً سباقاً في هذه المسيرة(٤٤) .

والحال أن هذا المفهوم هو مفهوم اجتماعي أساساً . ورجل ملكية يوليو الأكثر محافظة يشدد علي البعد الديني للحضارة الأوروبية . وإذ يستعيد جيزو الفكرة التي تذهب إلي أن أسباب ركود الحضارات غير الأوروبية إنما تستند إلي التناسب بين الاستبداد العسكري والاستبداد الديني ، فإنه يستنتج من ذلك أن الخصوصية الأوروبية إنما تستند إلي الدين المسيحي وأن المجتمعات الشرقية واقعة في شرك نوع من حلقة مفرغة لا يمكنها الخروج منها . وهو لا يوضح البتة مصدر دور المسيحية المميز هذا . و يكتفي بلصق صفة « المسيحية » والتي تحل محل مصطلح «الأوروبية» خاصة في مذكراته عندما يستخدم كلمة « الحضارة » .

ملكية يوليو

تكون لدي منتصري الأيام (اليوليوية) الثلاثة المجيدة الانطباع بأنهم قد كفلوا الانتصار الحاسم للحضارة . والبرنامج الذي يجب انجازه لايزال ضخماً ، لكن المباديء الأساسية قد تحددت بشكل نهائي والباقي ليس غير مسألة تطبيق . والحال أن المناقشات البرلمانية في عهد لوي فيليب تفيض باستخدامات مصطلح «الحضارة» . إنه يصبح مقولة شبه حقوقية تساعد علي تعريف هذا الحق أو ذاك أو هذه الجماعة الاجتماعية أو تلك . وهكذا ، فعندما يجري

طرح مسألة ربط حق المواطن في الاقتراع بكونه دافعاً لضرائب ، فإن فكرة الحضارة هي التي تساعد علي تكوين مجموعة من « ذوي القدرات » ، من الأشخاص الذين أثبتوا من خلال احترافهم ، في الآداب والعلوم والفنون ، مواهبهم التي لاغني عنها للمجتمع والذين كان من الطبيعي لظروف كسبهم عيشهم أن تمنعهم عادة من الحصول علي حق الاقتراع . ومن ثم فإن « ذوي القدرات » هؤلاء سوف يصبحون معاونين للهيئة الانتخابية التي يُعرِّفها قانون حق الاقتراع وسوف يقدمون لها معارفهم التي لاغني عنها (٤٥) .

ومما له دلالة بالغة في هذا الصدد مناقشة جرت في الأشهر الأولي لعهد لوي - فيليب ، بشأن استيعاب يهود فرنسا . وكان ميثاق (دستور) عام ١٨١٤ قد اعترف بحرية العبادات ، لكن النظام التصالحي الذي جعل من كهنة العبادة موظفين لدي الدولة لم يكن ينطبق إلا علي الملل المسيحية . وكان أحد الأعمال الأولي للسلطة الجديدة هو اقتراح قانون يقدم راتبا لكهنة الديانة الاسرائيلية . وتبدأ المناقشة البرلمانية في ديسمبر ١٨٣٠ . وهي تدور حول مسألة معرفة ما إذا كان يهود فرنسا قد بلغوا درجة التمدن الكافية . والحال أن اندريه ، نائب دائرة الراين الأسفل ، يوضح أن هذا القانون ضروري ، خاصة في الألزاس حيث تتواصل نزعة شعبية معادية لليهودية (٤٦) . وسوف تسمح هذه الفكرة بتحبيذ إحياء الجماعات السكانية الأقل انصهاراً .

أما الخطباء المعادون للإجراء فهم يتخذون هذا الموقف لأسباب متباينة . فهناك خصوم لكل خدمة دينية مدفوعة الراتب وهناك أولئك الذين يرون أن الرواتب هي تعويضات عن الممتلكات التي صودرت خلال زمن الثورة الفرنسية . ويري المركيز دوسكارياك - لوتير أن اليهود لم يصبحوا بعد منصهرين بما يكفي في الأمة وهو يخشي من أنه لو تم دفع رواتب للكهنة الاسرائيليين ، فسوف نضطر بعد ذلك إلي دفع مخصصات للشيع البروتستانتية كشيعة القائلين بإعادة التعميد ، أو للديانات الجديدة ، كديانة السان - سيمونيين . أما السيد دو فوسيل ، وهو شخصية مثيرة للاهتمام ، فإنه يطرح مسألة الاسلام في فرنسا ويطالب باسم الحضارة بأن ينطبق نظام التصالح علي جميع الملل القائمة بشكل قانوني في البلد . والحال أن الاستيلاء الذي حدث مؤخراً علي الجزائر ، إنما يعني أن المسلمين سوف يقيمون بسرعة بالغة في فرنسا وأنه يجب من ثم التفكير في بناء مسجد في باريس (٤٧) . ويرفض مجلس النواب هذا التعديل المقترح ويتم إقرار مشروع القانون بأغلبية ٢١١ صوتاً في مقابل ٧١ صوتاً .

وفي مجلس الأعيان ، يوضح المقرر بورتالس أن فقهاء الشريعة العبرية هم وكلاء الحضارة في ترويجهم لاحترام القوانين ولحب الوطن ولأعمال الخير ولاحترام الآخرين(٤٨) .

ويظهر الأميرال الكونت ڤيرثيل بوصفه المعارض العلني الوحيد للمشروع : إن اليهود جد مرتبطين **بالتلمود** الأمر الذي يجعل منهم أعداء ألداء للمسيحية وللمجتمع البشري ؛ والحضارة تجيء من تعاليم الانجيل ولا يمكن أن تخص سوي الشعوب المسيحية ؛ ومن ثم يجب علي الاسرائيليين أن يتخلوا عن عدائهم للمسيحية حتى يتسني اعتبارهم متحضرين حقاً . وهو يطالب بتأجيل المشروع إلي ذلك الحين (٤٩) .

وعندئذ يذكر پورتالس ، مدعوماً من جانب موليه الذي كان شاهداً علي السياسة النابوليونية ومنفذاً لها ، بأن السانهدرين (مجلس فقهاء اليهود) الأكبر والذي دعاه ناپوليون إلي الاجتماع ، قد شجب علناً كل مايتعارض ، في **التلمود** ، مع الحضارة الحديثة . ودفع رواتب لكهنة الديانة الاسرائيلية إنما يتمشي مع هذا المبدأ الإحيائي (٥٠) . ويتم اعتماد المشروع بأغلبية ٥٧ صوتاً في مقابل ٣١ صوتاً مع امتناع اثنين عن التصويت .

وتبين هذه المناقشة أن استيعاب اليهود إنما يتم من خلال الدمج في الإطار القومي والتخلي عن الحد الأقصي من الاختلافات . فإطارهم الديني يقاد إلي التراصف مع أطر الأديان السائدة في فرنسا . ويصبح التفرنس والتمدن مترادفين من الناحية العملية . كما يشير خطاب المعارضين إلي أن إحتواءً مسيحياً لفكرة الحضارة آخذٌ في الحدوث . وبينما كان التنوير يري عمل العقل مستقلاً عن الدين وغالباً خصماً له ، فإن دعاة الحضارة المسيحية يشددون علي جانب المسيحية الأول مستندين علي واقع أن مجال الحضارة إنما يتطابق مع مجال الجماعة المسيحية الغربية القديمة . وهذا التطور هو عين تطور جيزو الذي أخذت عنده كلمات «مسيحي» و « أوروبي » و« متحضر » معنيً واحدا .

وفي اللحظة التي يصبح فيها مصطلح « الحضارة » أحد العناصر الأساسية ، للخطاب السياسي ، فإن إضافة جيزو لصفة « المسيحية » هذه سوف تستثير انزعاج ممثلي الطائفة اليهودية . وهكذا فإن كريميو سوف يصحح في فبراير ١٨٤٦ مشروع تعديل طرحه نائبٌ محافظٌ كان يبدأ بـ : « باسم حق الأمم وباسم الحضارة المسيحية وباسم الانسانية ، تُذكِّرُ فرنسا أوروبا » . وسوف يتوصل إلي حذف كلمة « المسيحية » من المشروع . وسوف تعلق مجلة **لينيڤير إسرائيليت** علي قرار المجلس بالاشارة إلي أنه « لامراء في أنه قد رأي أن التسامح والحرية إنما يرجع تاريخهما إلي ثورتينا وليس إلي مولد الانجيل » (٥٠) .

السان – سيمونيون

يكمن مفهوم الحضارة في قلب المذهب الجديد الذي دعا اليه سان – سيمون والذي يصبح ، في ظل خليفته الأب انفانتان ، ديناً حقيقياً . وبالنسبة للكونت سان –سيمون فإن

وضع فرنسا إنما يتحدد بالتنافر المتزايد بين تطورها الحضاري المتميز بالدور المتعاظم دائماً للصناعيين وحالتها السياسية التي ما تزال حالة العصر الذي كان الأرستقراطيون وأصحاب الريع العاطلون يهيمنون فيه علي المجتمع الفرنسي . والحال أن زمن المنتجين والاداريين قد حان الآن : إن أرباب السيف وأرباب الخطابة لم يعودوا غير غرائب تاريخية مصيرها الاختفاء والتلاشي (٥٢) .

وفي عام ١٨٢٣ ، يستعيد الأرستقراطي السابق نظرية صراع الأجناس التي عرضها جيزو عرضاً رائعاً ويذهب إلي أن الصناعيين هم الغاليون ، في حين أن النبلاء ، الذين مايزالون في السلطة ، هم الفرانك . لكن الغاليين ، بفضل نشاطاتهم ، هم الآن الأقوي (٥٣) . وفي عمله الأخير في عام ١٨٢٥ ، يدعو سان - سيمون إلي مسيحية جديدة مبنية علي مبدأ الإخاء وحده . ويترتب علي ذلك أن جميع مؤسسات المجتمع يجب أن تعمل علي تنمية هناء الطبقة الأفقر . وذلك هو هدف الدين الجديد الذي سوف يتألف كهنته من الرجال الأقدر علي تحقيق هذه الرسالة .

ويواصل تلامذة سان - سيمون مذهب الأستاذ ، وينظمون أنفسهم في كنيسة جديدة ويمارسون تبشيراً يجب له أن يمتد ليشمل كل البشرية . ولما كانوا منظمين في البداية تنظيماً قوياً ، فإنهم ينهمكون في نشاط دعائي جد صاخب في العالم العمالي مع تطويرهم في الوقت نفسه للجوانب الدينية لفكر المؤسس . وهم يصوغون برنامجاً كاملاً ليوتوبيا اجتماعية تقلب القيم السائدة في مجتمع زمانهم ، بما في ذلك الليبرالية ، مع التشديد علي تنظيم العمل ورفض انتقال الملكية عن طريق الإرث .

ودينهم « مادي » تماماً . وحل المشكلات الأساسية للانسانية إنما يمر قبل كل شيء باتحاد البشر والشعوب . وبما أن السياق الدولي لأوائل ثلاثينيات القرن التاسع عشر هو سياق جد مضطرب بسبب التمرد البولوني علي السيطرة الروسية وحيث أن تهديد أوروبا معاهدة ڤيينا ينذر بأن يجر إلي حرب شاملة ، فإن السان - سيمونيين يسعون إلي تنظيم سلمي لأوروبا . وفي سلسلة من المقالات المميزة في أوائل عام ١٨٣٢ ، يدعو ميشيل شوڤالييه إلي عمل مشترك من جانب أوروبا حول البحر المتوسط سعياً إلي بناء سلام قائم علي المصالح المشتركة لاتحاد الغرب والشرق . وسوف يصبح البحر المتوسط « فراش عرس الشرق والغرب » . و بفضل التخلي عن نزاعات الدول الأوروبية التي لاآخرلها ، سوف يتأسس تشارك متزايد الحميمية بين الشرق والغرب بهدف « إحياء وتجديد البلدان المطلة علي البحر المتوسط والتي تشبه غالبيتها مرضي يجري الاستعداد لالقاء وشاح الموت علي وجوههم ، فما أقسي ما كانت عليه ظروف كفاحها الشاق (من أجل البقاء) والتي ماتزال موجودة فيها منذ قرون»(٥٥) .

وسوف يصاغ النظام العام للبحر المتوسط عبر ربط شامل للبلدان المطلة علي البحر بفضل شبكة من ذلك الاختراع الجديد الذي يتمثل في السكك الحديدية (لقد تم في انجلترا للتو تحقيق متوسط سرعة غير عادي قوامه أربعين ألف متر في الساعة وبالامكان أيضاً تحسين هذا الأداء !) . وسوف يكون البحر المتوسط محاطاً بشبكة تامة من السكك الحديدية وسوف يجري تطوير الموانيء التي ستخدم حركة ذلك الابتكار الآخر الذي يتمثل في السفينة البخارية . ولن تحمل خطوط السكك الحديدية غير الناس والمنتجات الخفيفة ، تاركة للملاحة الاهتمام بنقل السلع الثقيلة والمزعجة .

ولن يكون تنظيم البحر المتوسط غير المرحلة الأولي في التوحيد الكامل للعالم بفضل الغزو السلمي لآسيا من جانب الحضارة الغربية : « إننا نرتأي أن أوروبا ، إذ تدفع عجلة الحضارة أمامها ، سوف تتوسع من ثم شيئاً فشيئاً في اتجاه آسيا ، عبر الروس شمالاً وعبر الانجليز جنوباً وعبر تركيا شرقاً ، وربما عبر الأمريكيين غرباً وأنه وصولاً إلي ذلك يجب شق برزخي السويس وبنما وسوف نرسم ، إن أمكن ، اللوحة الفاتنة التي سرعان ما سوف تقدمها القارة القديمة » (٥٦) .

وتصل التكلفة الاجمالية لستة آلاف كيلو متر من السكك الحديدية إلي أربعة مليارات وخمسائة مليون من الفرنكات ويقدر شوڤالييه اجمالي نفقات التمدين بتسعة عشر ملياراً من الفرنكات ، وهو مالايمثل بالنسبة للباحث الاقتصادي غير حجم النفقات العسكرية للدول الأوروبية في دزينة واحدة من الأعوام .

والحال أن غرائب السان – سيمونيين السياسية والأخلاقية ، والواضحة بشكل خاص فيما يتعلق بمكانة المرأة في المجتمع ، سوف تجر عليهم غارات حكومة زمن أوائل عهد ملكية يوليو . ومن جراء تعرضهم لسلسة من المحاكمات وأحكام الحبس ، فإنهم يقررون مغادرة فرنسا المعادية لهم . والبرنامج الذي رسمه ميشيل شوڤالييه يجذبهم إلي الشرق . وهم ورثة منظور التنوير وتفسير التاريخ الذي قدمه نبيهم . و شأنهم في ذلك شأن بوناپارت قبلهم بخمس وثلاثين سنة ، فإنهم يؤمنون بأن الشرق هو أرض أمور عظيمة حيث سوف يكون بالإمكان ، حين يتوافر قدر كبير من الذكاء السياسي ، إجراء تحويل شامل للمجتمعات . والبرهان الحي لديهم علي ذلك هو العمل الذي يضطلع به عزيز مصر (محمد علي) الذي تمكن من أن يقدم نفسه أمام الرأي العام الفرنسي بوصفه مواصل عمل بوناپارت في مصر .

وبالنسبة للأب انفانتان ، فإن وجود خريجي كلية الهندسة إنما يسمح بايجاد الرابطة بين الحملة الناپوليونية وحملة السان – سيمونيين : « اليوم ، يجب تخصيب مصر محمد

(علي) ؛ إننا لن نفك الرموز الهيروغليفية القديمة لعظمتها الماضية ، بل سوف ننقش علي أرضها علامات ازدهارها القادم

« (. . .) لقد حشد نابوليون حوله مصورين ونحاتين ، ومعماريين ورسامين قاموا برفع آثار ممفيس والأهرام الشاهقة ؛ وأعادوا إلي الحياة الرسوم الضخمة التي نالت منها العصور ، وإن لم تتمكن من محوها بالكامل ؛ واليوم فإن ما يجب منحه لمصر هو حياة جديدة وماتطالب به هو فنوننا ونجاحاتنا الغربية » (٥٧) .

وذلك لأن البرنامج السان - سيموني له أبعاد نابوليونية :

« علينا أن نشق ،

« بين مصر التليدة ويهودا القديمة ،

« أحد طريقين جديدين لأوروبا

« نحو الهند والصين ،

« كما سوف نشق بعد ذلك الطريق الآخر

« في بنما .

« وهكذا فإننا نقف بقدم علي النيل

« وبالأخري علي القدس ،

« وستمتد يدنا اليمني إلي مكة

« وسوف تُظلُّ يدُنا اليسري روما

« ثم تستند عَلي باريس .

« السويس

« هي مركز حياتنا ، حياة العمل ،

« هناك سنجترح المأثرة

« التي ينتظرها العالم

« ليعترف بأننا

« رجال » (٥٨) .

وهكذا ، ففي عام ١٨٣٣ ، تصبح مصر الموقع المثالي للفعل الحضاري ، في حين أن انتهاء الحملة الفرنسية في عام ١٨٠١ كان لابد له فيما ذهبت اليه المزاعم أن يحكم عليها بالسقوط مرة أخري في هاوية البربرية التي قيل إن الفرنسيين قد جاءوا لمكافحتها . وذلك لأن رجلاً ، هو محمد علي ، كان قد أصبح في نظر الفرنسيين مواصل عمل بوناپارت بوصفه بطلاً تمدينياً .

حواشي الفصل الأول

١ - Lettre sur l'Atlantide de Platon et sur l'origine des sciences, Paris, 1779, p. 203 «لامراء في أن هذا الشعب الذكي قد سكن هذه الناحية من الجبال . وفي ما وراء (الجبال) بقيت العادات الفظة والجهل ؛ أما في المناطق الداخلية ، فقد نشأت الحضارة وولدت المعارف» .

٢ - *Œuvres de Rabaut Saint-Étienne*, Paris, 1826, I, p. 4

٣ - جان جاك روسو .

٤ - "Éclaircissement sur divers articles du "Tableau du climat et du sol des États - Unis", in *Œuvres de Volney*, Paris, 1826, t. IV, p. 413

٥ - « إذا اعتبرنا أنه منذ اليوم التاريخي الذي نزل فيه كريستوفر كولومبوس على الضفاف الأمريكية ، فإن أياً من العشائر التي تخبط خبط عشواء في غابات العالم الجديد لم تخط خطوة واحدة نحو الحضارة ، وأن هذه الشعوب كانت على أية حال بعيدة بالفعل عن حالة الطبيعة في زمن اكتشافها ، فلن يكون بوسعنا الامتناع عن الاعتراف بأن شكل الحكم الأكثر فظاظة ما كان يجب له أن يكلف الانسان قروناً من البربرية . »

(1 er partie, chap. I, Bibliothèque de la Pléiade, Paris, 1978, pp. 51 - 52) .

هذه الطّبعة أكثر أهمية بالنسبة لموضوعنا وذلك بقدر ما أنها تتضمن مقدمة وملاحظات أضافها الكاتب في عام ١٨٢٦ حيث يجري استخدام مصطلح الحضارة في وفرة معانيه ، بما يوضح تطوره في ثلاثين سنة . واليكم مثالاً من مقدمة عام ١٨٢٦ : « لقد أجريت حجاجي في **البحث** دائماً وفق نظام الحرية الجمهورية عند القدماء ، الحرية ، ابنة الشمائل ؛ ولم أمعن النظر بمايكفي في هذا الجانب الآخر للحرية ، الذي أنتجه التنوير والحضارة الناجزة : إن اكتشاف الجمهورية النيابية قد غير المسألة برمتها » .

٦ - Voir l'article "Régénération" dans le *Dictionnaire critique de la Révolution française*, François Furet Mona Ozouf éditeurs, Paris, 1988

٧ - « مع كل يوم جديد يتزايد ملكوت العقل إتساعاً ؛ وهو يفرض بشكل مطرد رد الحقوق المغتصبة . وعاجلاً أم أجلاً ، سوف يتعين على جميع الطبقات أن تندرج ضمن حدود العقد الاجتماعي . فهل سيكون ذلك من أجل جني مزاياه التي لاحصر لها أم من أجل التضحية بها على مذبح الاستبداد ؟ ذلك هو السؤال الحقيقي . وفي ليل البربرية والاقطاع ، أمكن تدمير علاقات البشر الصادقة وإرباك جميع الأمم ، وافساد كل عدالة ؛ إلاّ أنه ، مع شروق النور والمعارف ، لابد للغباوات القوطية من أن تتواري ،

ولابد لمخلفات الوحشية القديمة من أن تسقط وتُباد . هذا شيء مؤكد . فهل لن نفعل غير تغيير نوع الشرور ، أم أن النظام الاجتماعي سوف يتخذ بكل جماله مكان الفوضي القديمة ؟ وهل ستكون التغيرات التي سوف نمر بها ثمرة حرب أهلية ، كارثية من جميع النواحي بالنسبة للفئات الثلاث ، ومفيدة للسلطة الكهنوتية وحدها ، أم أنها ستكون النتيجة الطبيعية ، المتوقعة وجيدة التنظيم ، لرأي مجرد وعادل ، لإتفاق سعيد ، تدعمه ظروف قوية ويتم اعلانه صراحة من جميع الطبقات المعنية ؟ » (الفصل الرابع ، نهاية الفقرة ٣) .

٨ - « إنه اجتماع الهناء العام والخاص . وهو يدشن مهنة الهندسة كما يحمي ملكية الفقير . وهو ينتمي إلي العصور ، ولا تملك انقلابات اللحظة عمل شيء ضده . ومن المؤكد أن المرء إذا ما قاومه ، فإنه قد يتسبب بذلك في إحداث المزيد من الهزات الكارثية . إلاّ أنه ما أن يتحرك عقل الانسان إلي الأمام ، وما أن تسجل الطباعة تقدمها ، فإنه لا يعود بوسع غزو من جانب البرابرة ، أو لإئتلاف من جانب المضطهدين (بكسر الهاء) ، أو لاستحضار للأوهام وللتحيزات ، أن يرده علي عقبيه . ولابّد من انتشار الأنوار والمعارف ، ومن تساوي الجنس البشري وارتقائه ، ولا بد لكل جيل من هذه الأجيال المتعاقبة يطويه الموت من أن يترك بعده علي الأقل أثراً رائعاً يكون علامة علي طريق الحق » (الفقرة الأخيرة من الخاتمة) .

٩ - *Les Ruines* (1791) : *Œuvres*, Paris, 1826, I, p. 80

١٠ - في نص التمهيد : « إن الحالة الأولي للحضارة التي وجد عليها النوع البشري هي حالة مجتمع قليل العدد من البشر يحيا علي القنص وعلي صيد السمك » .

١١ - أواخر الفترة الأولي : « هذه العلامة التي يقدم لنا كهنتنا في أواخر القرن الثامن عشر أيضاً بقاياها ، توجد عند المتوحشين الأقل تحضراً والذين يوجد لديهم بالفعل أهل شعوذتهم وسحرتهم » .

١٢ - الفترة الثالثة : « يمكننا أن نرصد هنا أيضاً أصل الاقطاع ، الذي وجد علي مجمل الأرض تقريباً في عصور حضارية واحدة ؛ ففي جميع المرات التي احتل فيها شعبان أرضاً واحدة ، فإن الانتصار (انتصار أحدهما علي الآخر . - المترجم) قد أوجد بينهما تفاوتاً وراثياً » .

١٣ - العصر الثاني .

١٤ - العصر السادس .

١٥ - *Ibid.*

١٦ - أواخر الفترة الثالثة .

١٧ - الفترة العاشرة : *Des progrès futurs de L'esprit humain*

١٨ - *Le Moniteur universel*, 11 messidor an III (29 juin 1795) من المؤكد أن الفن الالهي هو الطباعة ؛ هنا يستلهم بواسّي دانجلا كلاً من ڤولني وكوندورسيه .

١٩ - « أضف إلي ما قلته أنه بما أن العادة قد خلقت لكم حاجات جديدة ، وبما أن منتجات أمريكا قد أصبحت بالنسبة لنا ضرورية ، فإن المسألة لم تعد اليوم مجرد مسألة الحصول عليها من أجل اعادة بيعها

لشعوب أخري بل أصبحت مسألة توفيرها لأجلكم أنتم أنفسكم .

« وهذه العادة وهذه الحاجات ، مفسدة الحضارة ، إن راق لكم ذلك ، إنما توحدكم بمستعمراتكم على نحو غير قابل للانفصال : فهي إما أن تكون خاضعة لكم أو أن تكونوا أنتم الأتباع ، أن تكون علاقاتكم بها أكيدة ووثيقة أو أن تكون هي التي تستعبدكم » . جلسة المؤتمر الوطني بتاريخ ١٧ ثيرميدور من العام الثالث الجمهورية (٤ أغسطس ١٧٩٥) ، *Le Moniteur universel,* 23 thermidor an III (10 août 1795)

٢٠ - تستعيض طبعة بانكوك المنشورة في ظل عهد عودة الملكية عن كلمة «البطل» بكلمة «ذلك» . . . .

٢١ - الحملة .

٢٢ - النص الأصلي مع تصحيحات نابوليون في *Champollion - Figeac et Napoléon, l'Égypte et les Cent - Jours,* Paris, 1844, pp. 92 - 93

٢٣ - ذلك هو معني تعليمات بوناپارت إلي كليبر خلال نقل السلطات إلي الأخير : «إن القاهرة هي المفتاح الثاني للكعبة المقدسة ؛ ومكة هي مركز الدين المحمدي . وقد تمثلت سياسة سلاطين القسطنطينية في الحط من شأن شريف مكة وتقييد وإلغاء علاقات العلماء بمكة . وكان من الطبيعي لمصالحي أن تدفعني إلي اتباع نهج معاكس . فقد عملت علي إحياء أعراف قديمة واستملت صداقة الشريف ، وفعلت كل ما كان ممكناً لزيادة وتنمية علاقات المساجد بالمدينة المقدسة» .

Correspondance de Napoléon I er, Œuvres de Napoléon I er à Sainte - Hélène, Paris, 1869, t. XXLX, p.100

٢٤ - *Correspondance de Napoléon I er , Œuvres de Napoléon I er à Sainte - Hélène,* Paris, 1869, t. XXLX, pp. 512 - 514

٢٥ - *Mémoires de madame de Rémusat,* Paris, 1881, II, p. 286 ملاحظة بوناپارت في فبراير ١٨٠٦ : «إن تأثير الإمبراطورية الفرنسية علي القارة سوف يكون مصدر هناء لأوروبا ؛ فمع فرنسا بدأ عهد الحضارة والعلوم والمعارف والقوانين» .

٢٦ - *Correspondance de Napoléon I er ,* Paris, 1863, t. XIII, p. 683 : «(٧) أن مسلك انجلترا هذا ، المشروع في أولي عصور البربرية ، قد أفاد هذه الدولة علي حساب جميع الدول الأخري ؛ (٨) أنه من الحقوق الطبيعية التصدي للعدو بالأسلحة التي يستخدمها ومحاربته بذات الأسلوب الذي يحارب به ؛ عندما يجهل جميع أفكار العدالة وجميع مشاعر الحرية ، الناتجة عن شيوع الحضارة بين البشر» .

٢٧ - Voir Albert Vandal dans son *Napoléon et Alexandre I er ,* Paris, 1900, III, p. 93, Boris Mouravieff *(L'Alliance russo - turque au milieu des guerres napoléoniennes,* Paris, 1954) arrive à des conclusions analogues à celles de Vandal (pp. 282 - 285)

٢٨ - يستشهد فرانسوا كوللافيري (La Franc - Maçonnerie des Bonaparte, Paris, 1982, p. 80). مثلاً بهذا النخب في صحة نابوليون الذي «فعل من أجل تقدم الحضارة والحفاظ علي النظام الاجتماعي أكثر مما فعلته ثلاثة قرون من السلم الذي لا يعرف راحة ومن الحرب التي لا تعرف معركة» . انظر أيضاً رسالة بورتالس إلي نابوليون بتاريخ ٢١ فبراير ١٨٠٧ : «عندما خرج الروس لأول مرة من غاباتهم ، ارتجفت أوروبا منهم وتركت لهم الحبل علي الغارب . وفي لحظة واحدة ، ثأَرَ جلالتكم من الإهانة المرتكبة في حق الحضارة ، منذ نحو نصف قرن ، من جراء الغارات المتعاقبة لهؤلاء البرابرة ومن جراء ضعف أمرائنا السابقين الذين عانوا منها» (p. 116) .

٢٩ - *Mémoires du général de Caulaincourt, duc de Vicence, Grand Écuyer de l'Empereur,* introduction et notes de Jean Hanoteau, Plon, Paris, 1933, II, p. 213

٣٠ - Général comte de Ségur, *Histoire et Mémoires*, Paris, 1873, t. V, pp. 12 - 13

٣١ - M. de Pradt, *Histoire de l'ambassade dans le grand duché de Varsovie en 1812*, Paris, 1815, p. 20

٣٢ - *Op . cit.*, III, 107 : «فيما بعد رأيت السيد دو تاليران ، وقد روَّعَهُ هذا الصراع ، يقول لي بقدر فائق من الاحتدام ليس من عادته إظهاره في تسجيل رأيه كتابةً : «فلترتعدوا ، أيها الحمقي ، من نجاحات الإمبراطور علي الإنجليز ! لأنه إذا ما جري القضاء علي الدستور الإنجليزي ، فليكن معلوماً لكم أن حضارة العالم سوف تنهار وتسقط أسفل سافلين .»

٣٣ - *Ibid.*, p. 99

٣٤ - *Ibid.*, «منذ أن دُعينا ، قبل نحو خمس عشرة سنة ، بإرادة فرنسا ، إلي حكم الدولة ، سعينا إلي أن نحسن في مختلف الفترات الأشكال الدستورية ، بما يتمشي مع حاجات الأمة ومستفيدين من دروس التجربة . وهكذا فقد تشكلت دساتير الإمبراطورية من سلسلة من المراسيم التي اكتست بقبول الشعب . وكان هدفنا آنذاك هو تنظيم نظام اتحادي أوروبي كبير ، اعتمدناه بوصفه متمشياً مع روح العصر ، ومؤاتياً لتقدم الحضارة» .

٣٥ - Montholon, *Récit de la captivité de l'Empereur Napoléon à Sainte - Hélène*, Paris, 1847, II, pp. 523 - 525

٣٦ - رسالة إلي جوستاف دو بومون ، بتاريخ ٣٠ أغسطس ١٨٢٩ ، في *Œuvres complétes*, Paris, 1967, t. VIII, p. 80.

٣٧ - «الحضارة ، أيها السادة ، هي أحد هذه الأفعال ؛ إنها فعل عام مستتر ، مركب ، بالغ الصعوبة ، يروق لي وصفه والحديث عنه ، لكنه ليس أقل وجوداً ، ليْس أقل استحقاقاً للوصف وللحديث عنه» .

٣٨ - *Histoire générale de la civilisation en Europe*, Paris, 1828, Leçon I

٣٩ - *Ibid.*, Leçon II

٤٠ - خاصة في كراسه الصادر في عام ١٨٢٠ ، «عن حكومة فرنسا منذ عودة الملكية إلي الوزارة الحالية» :
«إن الملك بمنحه الميثاق لفرنسا ، قد تبني الثورة . والحال أن تبني الثورة إنما يعني أن يكون حليفاً لأصدقائها وخصماً لأعدائها .

«وأنا استخدم هذه الكلمات لأنها واضحة وصادقة . لقد كانت الثورة حرباً ، الحرب الحقيقية ، كما عرفها العالم بين الشعوب الأجنبية . ومنذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً ، ضمت فرنسا شعبين ، شعباً ظافراً وشعباً مهزوماً . ومنذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً ، ناضل الشعب المهزوم من أجل نزع نير الشعب الظافر . وتاريخنا هو تاريخ هذا النضال . وفي أيامنا ، خيضت معركة حاسمة . وهذه المعركة اسمها الثورة .

«وإنه لشيء يؤسف له أن الحرب قد دارت بين شعبين يحملان اسماً واحداً ويتكلمان لغة واحدة ، وعاشا ثلاثة عشر قرنا علي أرض واحدة . وبالرغم من الأسباب التي تفصل بينهما ، وبالرغم من المعارك السافرة أو المستترة التي ينخرطان فيها علي نحو متواصل ، فإن مسار الزمن يقرب بينهما ويمزج بينهما ويوحدهما بأواصر لا حصر لها ويدرجهما في مصير مشترك لا يسمح في النهاية برؤية شيء غير أمة واحدة ومتحدة حيث يوجد بالفعل بعدُ جنسان متمايزان ، وضعان اجتماعيان متباينان تبايناً عميقاً .

«إن الفرانك والغاليين ، السادة والفلاحين ، النبلاء والدهماء ، كانوا يسمون على قدم المساواة قبل الثورة بزمن طويل فرنسيين ، وكانت فرنسا هي وطنهم المشترك . لكن الزمن الذي يحول ويعيد صوغ كل الأشياء لا يمحو شيئاً مما هو موجود . ولابد للبذور التي بذرت في رحمه ذات مرة من أن تؤتي ثمارها آجلاً أم عاجلاً . لقد عملت ثلاثة عشر قرناً بيننا علي أن تصهر في وجود واحد الجنس الغالب والجنس المغلوب ، الظافرين والمهزومين . علي أن الانقسام الأول قد عبر مساراتها وقاوم فعلها . وقد استمر الصراع في جميع العصور ، متخذاً جميع الأشكال ، ومستخدماً جميع الأسلحة . وعندما اجتمع نواب فرنسا كلها ، في عام ١٧٨٩ ، في مجلس نيابي واحد ، سارع الشعبان إلي استئناف نزاعهما القديم . وقد جاء أخيراً يوم الانتهاء منه .

«هذا الفعل يهيمن علي مجمل وضعنا (. . .) .

«ليس هناك شك في النتيجة التي أدت إليها الثورة . إن الشعب الذي كان مهزوماً في السابق قد أصبح الشعب الظافر» .

نقلاً عن پيير روزانفاللون، Pierre Rosanvallon ، في كتابه الرائع *Le Moment Guizot,* Paris, 1985, pp. 181 - 182

٤١ - *Ibid.*, leçon VII

٤٢ - Rosanvallon (P), *op cit.*, pp. 75 - 143

٤٣ - هذا واضح في مداخلته في مجلس النواب في ٢٩ ديسمبر ١٨٣٠ حول اضطرابات باريس : «يجري الاستشهاد كثيراً بالكلمات التي تذكر بحالة للأمور أعتقد أنها لم تعد موجودة . فنحن نسمع دوياً لا يتوقف لكلمات الأرستقراطية ، الديمقراطية ، الطبقة المتوسطة . وأنا أعترف لكم بأن هذه الكلمات لم

تعد في نظري تحمل معني يذكر اليوم . إن الديمقراطية تظهر لنا في كل مكان عبر التاريخ بوصفها طبقة وفيرة العدد ، مختزلة في وضع مختلف عن وضع المواطنين الآخرين وتناضل ضد أرستقراطية أو ضد استبداد ، لكي تنتزع الحقوق التي حرمت منها . ذلك هو المعني الذي كان مرتبطاً في كل مكان بكلمة الديمقراطية . والحال أنه لم يعد هناك وجود لشيء من هذا القبيل في فرنسا اليوم . وعندما أنظر إلي المجتمع الفرنسي ، فإنني أري ديمقراطية لا يوجد فوقها إلا أرستقراطية لا وزن لها أو لا توجد فوقها مثل هذه الأرستقراطية بالمرة ، ولا يوجد تحتها سوي القليل من الدهماء أو لا يوجد تحتها أي دهماء بالمرة .

«إن المجتمع الفرنسي إنما يضم أمة عظمي حيث يندرج الناس في وضع قانوني واحد تقريباً ، بالرغم من اختلافهم الشديد الذي لا مراء فيه من حيث الهناء والمعارف ؛ لكن الوضع القانوني واحد . وقد اختفي التصنيف في طبقات والذي كان موجوداً في المجتمعات القديمة ؛ وأنا أكرر ، إن كلمة الديمقراطية موضوعة في تعارض مع كلمة الأرستقراطية لم يعد لها وجود عندنا . وذلكم هو معني كلمة الديمقراطية : إنها مجتمع عظيم من الملاك المجدين ، الذين تتفاوت تفاوتاً كبيراً درجات ثروتهم ومعارفهم ! وإذاً ! لا وجود في هذا المجتمع لا لعناصر الفوضي ولا لعناصر الاستبداد . إن هذا المجتمع سوف يدافع عن نفسه ، إذا لزم ذلك ، ضد أولئك الذين يريدون إساءة استخدام الكلمات القديمة ، الحقائق القديمة ، لحرفه عن مساره لبعض الوقت ؛ والمسألة ليست مسألة اعتماد علي الطبقة المتوسطة في مواجهة هذه الطبقة الأخري أو تلك ؛ إنها مسألة الاعتماد علي الأمة بأسرها ، علي هذه الأمة المتجانسة ، المتماسكة ، دون أي تمييز بين طبقات . وعبر هذا الطريق سوف نكفل العودة إلي الازدهار ، وهذا التقدم نحو الحرية ، المتمشيين مع أماني الجميع واللذين من شأن الروح التي أشرت إليها ، هذه الروح الثورية ، هذه الروح التي تتمثل في اللجوء إلي سلطة خارجة عن السلطات الدستورية ، أن تبعدهما بدلاً من أن تعجل بمجيئهما (حركة تأييد في الوسط . انتباه مثير متواصل)» *Archives parlementaires de 1787 à 1860*, Paris, 1887, t. LXV, p. 683

٤٤ - *Ibid.*, leçon XII

٤٥ - ذلك هو معني خطاب بيرينچيه ، صاحب التقرير عن القانون الانتخابي ، أمام مجلس النواب في ٢٢ فبراير ١٨٣١ : «من خلال تطور الفكر ، من خلال تربية الروح ، من خلال القيمة الممنوحة لتعليم عال ، يتسني لتقدم الحضارة الظهور عند الشعوب . ويوسع المالك والتاجر ورجل الصناعة أن يثروا الدولة تماماً وأن يوفروا لها ازدهاراً ومزايا مادية ؛ إلا أنه بالنسبة للمهن الحرة التي تتولي التربية والتعليم ، التي تهذب الأخلاق ، فإنها تنشر بشكل واسع ثروات من نوع آخر ، ضرورية لهناء الجميع وليس من شأن التمتع بالخيرات الأخري في غيابها إلا أن يكون شيئاً فظاً وغير لائق ، علي حد سواء ، بالإنسان المتحضر» . *Archives Parlementaires*, Paris, 1888, t. LVII, p. 113.

٤٦ - «يقولون إن إسرائيليي مديريتي الراين يعتبرون أقل تقدماً في مضمار الحضارة ؛ إلا أنه من خلال افتراض بطء التقدم هناك ، سيكون من السهل تبرير التقصير ، فالإسرائيليون ليسوا أكثر فقراً في أي مكان مما في هذا المكان ، كما أنهم ليسوا أكثر تعرضاً للإذلال في أي مكان مما في هذا المكان .

«والنتيجة الحتمية التي ترتبت علي ذلك هي ضآلة تخفيف أوهام وتحيزات اليهود تجاه المسيحيين وأوهام وتحيزات المسيحيين ضد اليهود . (. . .)

«إن الإسرائيليين يذكرونكم باليونانيين ، المتأخرين في التمدن ، بالرغم من أنهم قد لاقوا عذاباً أقل بكثير مما لاقوه وعلي مدي فاصل زمني أقصر» . مناقشة ٤ ديسمبر ١٨٣٠ في مجلس النواب ، *Archives parlmentaires*, Paris, 1887, p. 312

٤٧ – *Ibid.*, p. 318

٤٨ – ٢٩ يناير ١٨٣١ ، *Ibid.*, LXVI, pp. 405 - 406

٤٩ – ١ فبراير ١٨٣١ ، *Ibid.*, p. 459

٥٠ – *Ibid.*, p. 439

٥١ – Daniel Amson, *Adolphe Crémieux*, Paris, 1988, p. 190

٥٢ – Saint - Simon, "Du système industriel" (1821), in *Œuvres de Saint - Simon*, Paris, 1866, t. VI, pp. 48 - 49

٥٣ – "Catéchisme des industriels", *Œuvres*, Paris, 1875, t. VIII, pp. 32 - 33 : «لقد توصل أحفاد الغالبين إلي القضاء التام علي حالة العبودية الفردية التي كانت تنيخ بكلكلها عليهم ؛ وقد نشطوا في توجيه الأعمال السلمية ؛ ونظموا أنفسهم تنظيماً صناعياً ؛ ولم يحتفظوا بقوة عسكرية سوي تلك القوة الضرورية لصد الغزاة وللحفاظ ، في الداخل ، علي النظام ، أي احترام الممتلكات . إن أحفاد الغالبين ، أي الصناعيين ، قد شكلوا القوة المادية ، القوة المهيمنة ، وهم الذين يملكون هذه القوة ؛ وليس ذلك لمجرد أنهم يحوزون في خزائنهم أموالاً أكثر من الأموال التي في خزائن الفرانك ، وإنما أيضاً لأنهم ، عن طريق بنوكهم ، يمكنهم التصرف في مجمل النقود تقريباً الموجود في فرنسا : وهكذا أصبح الغالبون هم الأقوي .

«لكن الحكم بقي في أيدي أحفاد الفرانك : فأحفاد الفرانك هم الذين يديرون الثروة العامة وقد احتفظ أحفاد الفرانك بالقيادة التي نالوها من أسلافهم ، وذلك إلي درجة أن المجتمع يُبرز اليوم هذه الظاهرة غير العادية : أمة صناعية من حيث الجوهر وحكومتها إقطاعية من حيث الجوهر» .

٥٤ – *Ibid.*, p. 57 : «إن التربية السياسية للصناعيين سوف تتطلب وقتاً أقل بكثير مما تظنون ؛ فهي سوف تحدث بسرعة لاسيما وأن ذيوع النظام الصناعي سوف يحدد الناس الأقدر علي العمل فيه ، في جميع الاتجاهات النافعة . والحال أن من المستحب إلي حد بعيد السباحة في اتجاه التيار ؛ ومن الشذوذ البالغ الرغبة في التقهقر في مضمار التمدن ، بحيث إنه ما أن يتأسس النظام الصناعي علي أساس وطيد فلا مفر من أن يهيمن ، وسوف يكف جميع البشر الأكفاء في جميع الميادين عن العمل علي إطالة أمد الوجود السياسي لنفايات الإقطاع» .

٥٥ – *Le Globe*, 5 février 1832

٥٦ - *Le Globe*, 12 février 1832

٥٧ - من انفانتان إلي الرئيسين هور ويرونو ، إلي روجيه وماسول ، سبتمبر ١٨٣٣ ، - *Œuvres de Saint Simon et d'Enfantin*, Paris, 1866, t. IX, pp. 98 - 99

٥٨ - من انفانتان إلي بارّو ، ٨ أغسطس ١٨٣٣ ، *Ibid.*, pp. 6 - 57

الفصل الثاني

مصـــر

مصر بعد الحملة الفرنسية

في عين اللحظة التي يلقي فيها جيزو محاضراته الشهيرة في السوربون ، تبدأ فكرة التمدن في الدخول في الوعي السياسي المصري . وهذه الفكرة ترتبط ارتباطاً لاينفصل بشخصية محمد على .

ويمكن اعتبار صعوده الى السلطة محصلة ختامية لأزمة سياسية بدأت في الشطر الثاني من القرن الثامن عشر مع تكوين الدولة المملوكية الجديدة على يد على بك الكبير . فالزعماء المماليك الكبار ، في فصمهم لعلاقاتهم مع الباب العالي ، قد طوروا وعياً « مصرياً » معيناً . وكانت الدولة العثمانية تدار في الواقع من جانب طبقة من الولاة ، العسكريين والمدنيين ، الذين كانوا يعتبرون كلهم عبيداً لبيت السلطان ، بيت آل عثمان . وقد أدي هذا المفهوم التوارثي للسلطة الى إدخال فارق جذري بين **الرعية** ، الخاضعين للشريعة الاسلامية ، وعبيد بيت آل عثمان ، **قولات** ، **مماليك** ، الذين يعتبرون **عثمانلية** حقيقيين بالمعني الدقيق للمصطلح . وفي مصر ، فإن هؤلاء العبيد أو « العثمانلية » قد اعتادوا تسمية أنفسهم بمصطلح « **المصرلية** » وقد ربطهم تعلق فعلى بشكل متزايد بهذه الأرض ، (مصر) ، التي كانوا قد وصلوا اليها في طفولتهم . والحال أن النزعة المصرية الجديدة قد وجدت نفسها من جديد في نفور غالبيتهم من ترك وادي النيل ، حتى ولو كان ذلك من أجل فتح سوريا ، كما حدث في ظل على بك الكبير ومحمد أبو الدهب . وهؤلاء المصريون هم الوحيدون الذين حملوا الاسم المصري لأن أولئك الذين كانوا أهل البلد الحقيقيين كانوا يسمون بالمصطلح ذي

الظلال التحقيرية ، مصطلح **الفلاحين** ، حتى وإن كانوا يتولون القضاء الشرعي الديني ، بل ووظائف عسكرية . وفي القرن الثامن عشر ، تزايدت الأواصر بين المماليك والفئة العليا من الرعية : لقد أصبحوا يستغلون بشكل مشترك الالتزامات الضريبية وتأسست روابط مصاهرة بين **المصرلية** من ناحية والعلماء وكبار التجار من الناحية الأخري [١] .

وقد حاول التدخل العثماني لعام ١٧٨٧ والحملة الفرنسية على مصر فصل جمهرة السكان المصريين عن المماليك بدعوة « شعب مصر » الى الثورة عليهم . وقد فقد المماليك اعتبارهم بسبب عجزهم عن ضرب الفرنسيين . وعندئذ علق المصريون الأصلاء آمالهم على العثمانيين الذين كانوا يمثلون بالنسبة لهم المدافعين عن النظام الاسلامي وممثلي سلطان - خليفة القسطنطينية . لكن اعادة احتلال قوات الباب العالي لمصر في عام ١٨٠٢ كانت فرصةً لتحرر عظيم من الأوهام . فأولئك الذين قدموا أنفسهم في صورة جنود الاسلام قد تصرفوا بأسلوب أكثر مدعاة للأسف من أسلوب المحتلين الفرنسيين بينما كانت الحرب تدور بين المماليك والعثمانيين و ، في داخل القوات العثمانية ، بين الفرقة الألبانية والفرق الأخري . لقد كانت الفوضي على أشدها ، بما يذكر بأسوأ لحظات فتن القرن الثامن عشر .

انبثاق سلطة جديدة

يتكشف الملاذ العثماني عن خديعة كبري . وعندئذ فإن كبار الزعماء الدينيين ، خاصة الأشراف ، أي سلالة النبي ، يلجأون الى محمد على ، قائد الفرقة الألبانية ، لكي يعيد النظام بالقضاء على مضايقات العثمانيين وبقايا القوات المملوكية . ويبدأ كل شيء عبر حركة شعبية تتمشي مع تقاليد انتفاضات القاهرة ضد الفرنسيين وضد المماليك من قبلهم . والمرحلة الأولي هي خلع الوالي العثماني . ومنذ أواخر القرن السادس عشر ، كانت مثل هذه البادرة شائعة من جانب المماليك الذين كانوا يعينون واحداً من بينهم في منصب وال مؤقت ، لحين وصول الوالي الجديد المبعوث من طرف الباب العالي . لكن الخلع هذه المرةً ليس من فعل الطبقة الحاكمة في الامبراطورية (الدولة العثمانية) والتي كان المماليك يشكلون جزءاً منها ، بل هو من فعل سكان القاهرة المسترشدين بزعمائهم الدينيين ، ومن بينهم نقيب الأشراف (سلالة النبي) ، عمر مكرم ؛ ويلتزم محمد على بالابتعاد الى حد ما عن الصراع لكي يستفيد من الموقف على أحسن نحو .

ويقاوم الباشا (العثماني) لبعض الوقت ، في حين أن أسلافه كانوا يتنازلون بسهولة في مثل هذه الظروف . ووفقاً لأقواله التي نقلها الجبرتي ، فإن مما يشكل تحقيراً له ، وهو المولّي من طرف السلطان ، أن يُعزل بأمر الفلاحين [٢] . ووضع عام ١٨٠٥ وضع ثوري لأنه ،

للمرة الأولى ، يعزل المصريون الأصلاء والياً . وفي تلك البداية للقرن التاسع عشر ، فإن **الفلاح** يعبر عن المصرية الحقيقية . وكما أن **مصرلي** تساوي «عثماني» ، فإن **فلاح** تساوي **رعية** . أما « العرب » فهي كلمة تشير الى مجموع بدو مصر . وهؤلاء البدو يعزون الى أنفسهم نسباً يربطهم بقبائل شبه الجزيرة العربية ، أي القبائل التي كانت الفاعل الرئيسي في الفتح العربي في بدايات الاسلام . ومن ثم فإن كلمة **فلاح** لها خصوصية جمع سكان مصر الريفيين والحضريين في نوع من كتلة واسعة . ومما له دلالته أن **العلماء** وذرية النبي (المنتمين مع ذلك الى السلالة العربية الأعلى مكانة) قد غمرهم الباشا العثماني في هذا الكيان الذي يمثل في نظره الطبقات المسودة .

هل يمكننا اعتبار أحداث عام ١٨٠٥ دليلاً على انبثاق وعي قومي مصري ؟ لايمكننا ذلك إلا بشكل محدود . فالسبب الرئيسي للأحداث إنما يكمن في عجز الطبقة الحاكمة ، العثمانية أو المملوكية ، عن استعادة النظام العام . وعندئذ فإن سكان القاهرة ، بتوجيه من زعمائهم الدينيين ، يمسكون بزمام الأمور في أيديهم . وجوهر الحجاج التبريري لهذا الفعل ينتمي الى الإضفاء الكلاسيكي للشرعية الاسلامية على التمردات . ونقيب الأشراف ، عمر مكرم ، يعرض نظرية هذا الاضفاء للشرعية . ويذكر الجبرتي أنه (عمر مكرم) عندما ووجه بالاعتراض الذي يتحدث عن وجوب طاعة الله ورسوله وأولي الأمر من المسلمين ، رد بأن أولي الأمر هم أولاً **العلماء** وحملة الشريعة الاسلامية ، والسلطان عندما يكون عادلاً . والحال أنه عندما تكون السلطة جائرة ، فإن أهل البلاد من حقهم ، وهذا شيء من قديم الزمان ، أن يعزلوا ولي الأمر ، حتى لو كان الخليفة أو السلطان نفسه [٤] .

وهذه الرغبة في سيادة النظام العام ، والتي يتم التعبير عنها من خلال رفض مظالم السلطة ، إنما تعد محرك انتفاضة عام ١٨٠٥ لأن المستفيد الرئيسي منها هو محمد على ، الألباني الأصل . وسوف تصبح سلطته بلا منازع لأنه سوف يتمكن من عام ١٨٠٥ الى عام ١٨١١ من إزالة جميع منافسيه وسوف يتمكن من نيل تكريس الباب العالي له كوال على مصر . وبالرغم من أن اللقب الرسمي للمنصب سوف يظل دائماً هو لقب الباشا برتبة وَزير ، فإن الأوروبيين قد اعتادوا منذ عام ١٨٠١ تسمية الوالي (الذي يتولي ولاية مصر) بـ « نائب الملك » بما يمنحه مكانةً متميزة بين الولاة العثمانيين الآخرين .

وإذ يستعيد محمد على نظام الشرعية ، فإنه يؤسس سلطة مستقلة من الناحية الفعلية ، ولا تتبع الباب العالي إلاّ من الناحية النظرية الإسمية . وكما هي القاعدة عند كبار الموظفين العثمانيين ، فإنه يؤسس « بيته » الخاص ، ويخرج من التبعية لبيت آل عثمان . والحال أن هذا البيت الأخير يتألف بدوره من سلسلة من البيوت التي تسمح بإنتقاء وتجنيد وتكوين النخبة

التي تتولي السلطة . وبيت محمد على يشكل نواة السلطة الحاكمة الجديدة في مصر . ووفقاً للنموذج العثماني دائماً ، فإنه يتألف من أتراك وألبانيين وشراكسة وكبار زعماء البدو ، لكنه يتألف أيضاً من مسيحيين أقباط وأرمن ؛ ويتواجد العنصر **الفلاح** في الوظائف الدينية خاصة . وبالرغم من أن الاختلافات العرقية هي اختلافات طبيعية ، إلا انها تتمشي بدرجة أكبر مع منطق وظيفي ، حيث تملك كل جماعة بشرية استعدادات لهذا النوع من النشاط أوذاك : فالأتراك مسئولون عن الحرب والادارة والأقباط مسئولون عن الشئون المالية ، والأرمن مسئولون عن الديبلوماسية ، والفلاحون مسئولون عن الزراعة والشئون الدينية . إن الانتماء العرقي ، في تلك البداية لـلقرن التاسع عشر ، هو أيضاً مرادف لوظيفة اجتماعية . وعلى غرار النظم الأوروبية القديمة ، فإن المجتمع العثماني هو قبل كل شيء مجتمع مراتبي تبني مراتبه اختلافاتٌ وظيفيةٌ ، حيث لكل جماعة حقوقها وعليها واجباتها . والاختلاف الأساسي عن المجتمع من النمط الأوروبي الغربي إنما يجيء من عدم توارث المناصب القيادية .

الفرنسيون و (النائب الجديد للملك)

يستوعبُ دروفيتيٌ ، قنصل فرنسا في مصر ، جدة أحداث عام ١٨٠٥ ويتساءل عن المفاجآت التي يحتمل أن يجيء بها وصول محمد على الى الحكم مسترجعاً حكاية الضفادع التي طلبت ملكاً من الاله چوپيتر (٥) . أما روفان ، عميد المستشرقين الديبلوماسيين ، والموجود آنذاك في منصب في عاصمة الدولة العثمانية ، فهو يتحدث عن الالتقاء غير العادي بين موافقات الجنود و« الاحترام والثقة اللذين أعرب عنهما **الفلاحون** » ويؤكد أن الباب العالي لن يسعه إلاّ أن يعترف بالسلطة الجديدة (٦) .

وفي الوقت نفسه ، يمد الوهابيون نفوذهم على مجمل الضفة العربية للخليج الفارسي . والفرنسيون لايعرفون آنذاك جيداً هذه الحركة الاسلامية ، المنبثقة من اجتماع نزعة طهرية اسلامية دعا اليها محمد بن عبد الوهاب في القرن الثامن عشر وسياسة انشاء دولة من جانب عائلة آل سعود في وسط شبه الجزيرة العربية . وقد فسر الرحالة الأوروبيون هذه الأحداث وفقاً للمخططات التصورية المألوفة لفكر التنوير : وهكذا يجري وصف الوهابيين بأنهم مؤلهون للطبيعة قليلو الاهتمام في نهاية الأمر بالمسائل الدينية ومهتمون على نحو خاص بإحداث نهضة عربية . ووقت الحملة الفرنسية في مصر ، لم تكن للفرنسيين علاقات إلاّ مع شريف مكة ، عدو الوهابيين ، ولم يجمعوا غير القليل من المعلومات الجديدة . ولذا فلا غرابة في أن مدير سفارة فرنسا في القسطنطينية يري ، في عام ١٨٠٥ ، في عمل السعوديين

مولد « ملكية عربية جديدة ، ليست قوية قوة ملكية الخلفاء لكنها قادرة على أن تكتسب بمرور الزمن درجة من العظمة يمكن أن تضعها على مستوي الملكيات الأخري في آسيا » [٧] وهو يجهل البعد الديني الخاص لهذا العمل ، وفي زمن الامبراطورية ، سوف يكون الفرنسيون أفكاراً آدق حول التطور السياسي والديني لشبه الجزيرة العربية .

وكل هذه الأحداث في مصر وشبه الجزيرة العربية يبدو أنها توضح أن الشرق الأدني يمر بتحول سافر . ولابد أن الارتياح سوف يدخل الى صدر نابوليون الأول ، الواثق من أنه قد بين لشعوب تلك المنطقة امكانية أن تكون لها حكومتها وأن تكون أمة في إطار نهضة للشرق[٨] . وهو يأمر بأن يتم في مجمل الشرق ترويج التقرير العربي عن انتصاره العظيم في أوسترليتز ، وهو الانتصار الذي يشير اليه كذلك الجبرتي ، لكنه ، في الفترة نفسها ، يدشن تقارباً مع الدولة العثمانية قبل أن يجعل منها حليفاً له ضد روسيا التي كانت قد حولت الدولة العثمانية الى تابع لها من الناحية العملية منذ عام ١٧٩٨ . وهو يتعهد بألا يدعم أية حركة انفصالية . وهذا هو معني التعليمات الصادرة الى جميع الموظفين الفرنسيين في شرقي البحر المتوسط خلال صيف عام ١٨٠٥ : ألايتدخلوا في شئون الحكم ؛ ألا يعترفوا بالسلطة إلا عندما يحسم الانتصار مصير البلد ، ألا يغادروا مواقعهم البتة ، مهما كانت الثورة التي قد تقع [٩] .

والحال أن موظفي فرنسا في مصر سوف يتخطون بسرعة التعليمات الصادرة اليهم . وكان ماتيو دليسبس ، قنصل فرنسا من عام ١٨٠٢ الى عام ١٨٠٤ ، قد أقام بالفعل علاقات ثقة وصداقة مع الزعيم الألباني . ودروفيتي ، خليفته ، تستثير حماسه شخصية محمد على الذي يصفه ، منذ أواخر عام ١٨٠٦ ، بأنه رجل ذو أفكار عظيمة ، ويعرف كيف يستخدم أبسط الظروف لكي يصل الى غاياته ويعاني ، مؤقتاً ، من كونه على رأس ميليشيا فاسدة ووضيعة وعديمة الانضباط[١٠] . والحال أن الانجليز ، الذين يلعبون بالورقة المملوكية منذ عام ١٨٠١ ، إنما يصبحون خصوم باشا القاهرة الجديد . وبحكم قوة الأشياء ، يتوحد هذا الأخير مع الحزب الموالي للفرنسيين . وعندما ينزل الانجليز الى الاسكندرية في عام ١٨٠٧ ، تحت ستار رسمي هو منع حملة فرنسية جديدة ، يتوقع السكان المصريون أنهم سوف يعيدون سلطة المماليك . لكن عزيز مصر ، محمد على ، يتمكن ، بفضل مواهبه التنظيمية ، من الحاق هزيمة مهينة بالغزاة ويرغمهم على الانسحاب من البلاد . وهذا النجاح الرائع يعود عليه بصورة وبشرعية مُدافع عن الاسلام سوف يغذيهما على مدار بقية حياته . وبالرغم من أن كثيرين قد صوروا محمد على في صورة صديق للفرنسيين ، فإنه سوف يوسع انفتاحاته على الانجليز الذين يعتبرهم محقاً أشرس خصومه في المستقبل . وهكذا فسوف يكفل ارسال

المؤن الى مالطة ، القاعدة الرئيسية في البحر المتوسط لانجلترا خلال الحروب النابوليونية . لكن البريطانيين لن يغفروا له هزيمتهم في عام ١٨٠٧ وسوف ينزعجون بسرعة من تنامي قوته ومن اتساع طموحاته .

إعادة تنظيم مصر

منذ عام ١٨١١ ، مع القضاء على آخر المماليك ، تبدأ السلطة المصرية الجديدة في اتخاذ طابعها النهائي . وعلى الصعيد الداخلي ، تسمحُ سياسةٌ خاصةٌ بحفظ النظام العام باحتواء البدو ومن ثم تأمين الهدوء للأرياف وللمواصلات . ويضطر الرحل الى الاستقرار ، إذ يجدون أنفسهم محرومين من اتاواتهم المفروضة على النشاطات الاقتصادية للوادي . ويجري دمج زعمائهم تدريجياً في النخبة الحاكمة بينما يصبح البدو العاديون فلاحين ، يملكون بالرغم من كل شيء وعياً بأنهم ينتمون الى أصل مختلف عن أصل الفلاحين الآخرين . ويجري تكوين سلاح فرسان باسل بدءاً من وحدات بدوية .

ويتم قلب نظام الأرض الزراعية بالكامل : إذ تجري مصادرة جميع الالتزامات الضريبية ، التي كانت قد تحولت من الناحية الفعلية الى اشباه ملكيات . وتستعيد الدولة دورها كمالك أساسي للأرض ، بينما يجري تعديل نظام حيازة الأرض ويتم الاضطلاع بتسجيل مساحي جديد للأراضي يمهد لانبثاق ملكية فلاحية صغيرة ومتوسطة ، في الشطر الثاني من القرن التاسع عشر . وتستأثر الدولة باحتكار المعاملات الاقتصادية ، و ، مع توافر الأموال بهذا الشكل ، تنهمك في سياسة أعمال ري كبري ، بما يسمح بتوسيع المساحات المزروعة وبنهضة مدن كالاسكندرية . ويعاد تنظيم القوات العسكرية ويتم فرض الانضباط الأوروبي . وبعد انتهاء الحروب النابوليونية ، سوف يكون بوسع عزيز مصر ، محمد على ، أن يجد بسهولة مدربين عسكريين كالكولونيل الشهير سيف الذي ، وقد تحول الى اعتناق الاسلام تحت اسم سليمان باشا ، سوف يصبح رئيس الأركان العامة الجيش المصري . وبالرغم من أن هذه التسمية الأخيرة قد تكون آنذاك غريبة الى حد ما من الناحية التاريخية ، فإن الواقع هو أن محمد على يستفيد من الاصلاح العسكري لكي يحل محل القوات القديمة الهائجة وغير المنضبطة ، التي جاء هو نفسه من صفوفها ، جيشاً جديداً سوف يجيء تجنيده ، بحكم قوة الأشياء ، من الفلاحين ، وذلك بشكل مطرد . وسوف يجري تخفيف هذا القلب للقيم المتعارف عليها بالإبقاء على كادر ضباط عثماني يتألف من أتراك وألبانيين وشراكسة . إلاّ أنه ، منذ بداية عشرينيات القرن التاسع عشر ، يمكننا أن نرصد عين المنطق الذي كان ماثلاً بالفعل في زمن الدولة المملوكية الجديدة في أواخر القرن الثامن عشر : إن المهيمنين على

السلطة في مصر ، والذين يرغبون في زيادة استقلالهم ، يضطرون بشكل واضح الى اللجوء الى الفلاحين ، ومن ثم ، الى تمصير جهاز دولتهم ، وذلك بالرغم من بقائهم ذوي ثقافة وحالة ذهنية عثمانيتين بشكل عميق . وتتكرر الظاهرة نفسها في مجمل الادارة . ويتألف بيت محمد على من الناحية العرقية من غرباء عن مصر ؛ من أتراك وألبانيين وشراكسة ولكن أيضاً من أرمن كاثوليك ، كبوغوص نوبار . وكل هؤلاء الناس يتكلمون بالتركية لكن تنوع الأصول يبين أننا لسنا بإزاء جماعة عرقية محددة . ومن حيث كونهم عثمانيين ، بمعنى أعضاء في بيت آل عثمان ، فمن الطبيعي أنهم يتحدثون بلغة الحكام ، لغة الدولة ، التركية العثمانية ؛ إلاّ أنهم كان من شأنهم أن يستغربوا وأن يشعروا بالسخط لو عوملوا كـ « أتراك » ، فهي كلمة لم تكن تعني ، في ذلك العصر ، غير فلاح أناضولي . وعثمانية الطبقة الحاكمة عامل ضعف عندما يضطر محمد على الى الوقوف ضد السلطة المركزية . والآصرة الشخصية هي الضمانة الوحيدة لولاء هؤلاء الرجال ، الذين لايشعرون بالغربة في أي مكان من ربوع الامبراطورية (العثمانية) . والحال أن اللجوء الى **الفلاحين** في الادارة وفي الجيش سوف يشكل مصدراً إضافياً للأمن إذ لايمكن الخوف من أن تلجأ هذه الجماعة الى حالات الهرب التي لم تكن إلاّ جد متوقعة في صفوف الطبقة الحاكمة التقليدية .

والحال أن مجمل التدابير المتخذة منذ عام ١٨١١ إنما يتمشي مع عودة الى المباديء التأسيسية للدولة العثمانية . واختيار الاقتصاد الموجه ، في الوقت الذي تنتصر فيه الليبرالية الاقتصادية في أوروبا ، إنما يبين اننا بعيدون عن تقليد نموذج غربي من أي نوع . على العكس إن انجلترا سوف تخوض حملة شرسة ضد منجزات محمد على ، عزيز مصر ، التي ارتكبت خطيئة عدم احترام قوانين الاقتصاد السياسي الأوروبي التي كانت قد أصبحت مقدسة .

تكوين امبراطورية

لكن محمد على ، منذ عام ١٨١١ ، يبدي أيضاً طموحات سياسية ليس من شأنها إلاّ أن تزعج بريطانيا العظمى . وهو يؤكد لدروفيتي رغبته في الاستقلال عن الباب العالي ، أي في أن يحصل لمصر على وضعية مشابهة لوضعية إيالة كالجزائر . وإذا ما انهارت الامبراطورية العثمانية ، التي كانت آنذاك في حرب ضد روسيا ، فإنه سوف يعيد جمع كل القوات العثمانية من أجل مواصلة الصراع . أما الآن ، فإنه يطالب بربط سوريا بمصر حتى يبدأ استثماراً مماثلاً لاستثمار وادي النيل (١١) . والحال أن الباب العالي ، المنزعج ، يلتفت الى ما هو أكثر الحاحاً ويكلف عزيز مصر القوي بمحاربة الوهابيين الذين تتزايد ضرباتهم خطراً بالنسبة لامبراطورية غارقة في الحروب الأوروبية والفتن الداخلية .

والحال أن الحرب في شبه الجزيرة العربية سوف تستمر حتى عام ١٨١٨ وسوف يوجهها أبناء محمد على . وفي تلك المناسبة ، سوف يتكشف ابراهيم ، الأكبر سناً بينهم ، عن استراتيجي رائع . وسوف يتأكد نوع من تقسيم المهام بينه وبين أبيه : فهو سوف يتولي توجيه العمليات العسكرية بينما يتولي الأب قيادة الدولة والتوجيه العام للسياسة .

ويسمح القضاء على الدولة الوهابية الأولي باحتلال جزء كبير من شبه الجزيرة العربية من جانب قوات عزيز مصر . وبفضل سيطرته على الحجاز ، يهيمن محمد على على المدينة ومكة ، جاعلاً من شريف وأمير هذه المدينة الأخيرة مجرد أداة لسياسته . وبالرغم من أن سلطان القسطنطينية يحتفل باللقب الخليفي ، لقب حامي المدينتين المقدستين ، فإن محمد على هو سيدهما الفعلي . ويستمر التوسع مع حرب السودان اعتباراً من عام ١٨٢٠ . وينتقل هذا الاقليم الشاسع الى السيطرة المصرية لأول مرة منذ بدايات الاسلام . واعتباراً من عام ١٨٢٢ ، تصبح جميع ضفاف البحر الأحمر تحت سلطة محمد على . وسوف تتمثل الحرب التوسعية الثالثة في مشاركة قوات ابراهيم باشا في قمع التمرد اليوناني . وفي تلك الحالة أيضاً ، كان محمد على يلبي طلباً للعون صادراً عن الباب العالي . ويؤدي التحرك المصري الى انهيار المقاومة اليونانية ، الأمر الذي يضطر الدول الأوروبية الى التدخل . ويؤدي تدخلها المسلح الى تدمير الأسطول المصري - العثماني في نافارين في ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧ . وفي العام التالي ، يجلو ابراهيم عن البيلوپونيز بينما تعلن روسيا الحرب على العثمانيين . على أن هذه الحرب الفادحة التكاليف بالنسبة لمصر تنتهي مع ذلك بإلحاق كريت بالأراضي التي يديرها محمد على . ووضع الضعف الذي يتواجد فيه الباب العالي ، المشتبك مرة أخري مع روسيا ، إنما يسمح لمحمد على بأن يطالب بإدارة سوريا ، تعويضاً عن تضحياته في اليونان . ومن الطبيعي أن الباب العالي يرفض هذا التنامي الجديد لقوة سيد مصر .

تبني برنامج الحضارة والتمدن

يجري تجديد الدولة في لحظة يصبح وجود أوروبا فيها واقعاً دائماً بتفوقها الواضح في الشأن التقني . ويضطر محمد على الى الاستعانة بعمال وبفنيين وبمهندسين أوروبيين . وسوف يسمح له انهيار الامبراطورية النابوليونية باستقبال منفيين سياسيين عديدين و سوف تصبح مصر أحد أماكن لجوء البوناپارتيين ، مما يصبح مثار استياء عظيم من جانب قناصل عهد عودة الملكية (١٢) .

ولكون محمد على سياسياً عظيماً ، فإنه يحس بأن عليه أن يتعلم دروساً من أوروبا وخاصة بأن عليه أن يأخذ في الحسبان الأسلوب الذي يفهم به الأوروبيون الحقائق الشرقية .

ولذا فهو يحدد لنفسه كقاعدة أن يستقبل بصورة منتظمة القناصل والرحالة الأوروبيين الذين يزودونه بالمعلومات . وفي البداية ، يحتج الفرنسيون على سياسة الاحتكارات الاقتصادية التي يرجعونها الى المستشارين الأوروبيين والشرقيين لمحمد على ، لكنهم يعترفون بأن مصر تتمتع الآن بأمن عام وبانضباط اداري ، باختصار ، بتقدم في التمدن ، مما يسمح للأوروبيين بتوسيع نشاطاتهم في البلد بشكل لم يسبق له مثيل في أي وقت(١٣) .

وربما يكون قد وقع في شهر فبراير ١٨٢١ مايحتمل أنه كان أضخم تحول فكري في الشرق العربي والعثماني . فالواقع أن الأرمني بوغوص نوبار ، الترجمان ووزير الشئون الخارجية لدي محمد على ، يستخدم ، في السابع عشر من ذلك الشهر ، لأول مرة مصطلح « الحضارة » في رسالة موجهة الى رحالة فرنسي هو الكونت دو مارسيلوس ، الذي كان قد تمكن لتوه من الاستحواذ على تمثال ڤينوس المكتشف في جزيرة ميلو لحساب الحكومة الفرنسية : « لقد تمكن الباشا من خلال أعمال استغرقت زمناً طويلاً ، من أن يجعل مصر هذه جد ىادئة ، بشكل يثير اعجاب الرحالة العليمين الذين يريدون زيارتها ؛ وبفضل عبقريته ، يجري الآن كل عام اتخاذ بضع خطوات في اتجاه الحضارة . ومازال يتعين قطع شوط حتى يتم التوصل الى الكمال النسبي ؛ وحياة صاحب السمو وحياة ورثة مواهبه هي المقياس الزمني لبلوغ هذه الغاية » (١٤) .

وبعد ذلك ببضعة أيام ، فإن دروڤيتيّ ، الذي يصبح من جديد في ذلك الوقت قنصلاً لفرنسا بعد أن كان قد عمل مستشاراً لدي محمد على بعد عزله في اثر تغير النظام في عام ١٨١٥ ، إنما ينقل الأفكار نفسها التي يسمعها من محمد على شخصياً : « إن سقوط على باشا الچانيناوي والذي دبره وأعد له هذا المحسوب من محاسيب السلطان هو نذير سوء بالنسبة لجميع الوزراء الذين يريدون التحرر من الخضوع جد الكبير لأوامر الباب العالي والتي غالباً ما تعد مزاجية . على أن وزير مصر (محمد على .- المترجم) يبدو أنه مدعو الى إرساء أسس الحضارة التي لايمكن للأمم الأوروبية ، في رأي محمد على باشا ، أن تكون غير مبالية بها » (١٥) .

فما الذي حدث ؟ يمكننا افتراض أن محمد على قد عدد أمام الكونت دو مارسيلوس دلائل اتساع عمله وأن الرحالة قد أوضح له أن الأوروبيين يسمون ذلك « حضارة » وعندئذ أدرك محمد على أنه في ذلك تكمن التيمة الأساسية القادرة على كسب اهتمام الدول الأوروبية ببقاء سلالته على عرش مصر . وعلى الفور يتم تشغيل مارسيلوس مستشاراً ديبلوماسياً لمحمد على بالنسبة للشئون الأوروبية(١٦) . ووفقاً للمنطق المألوف للعلاقات الثقافية بين الغرب والشرق ، فإن الغرب يكون تصوراً معيناً ، و ،بعد قدر معين من الزمن ،

يعيد الشرق هذا التصور الى الغرب ، بما يؤكد أهلية التحليل الأول . وعندئذ يقرر محمد على أن يصور نفسه بشكل منهجي في صورة البطل التمديني ، المواصل الضمني والعلني لبوناپارت زمن المغامرة المصرية . ويتم هذا الوصل خاصة من خلال عمل چومار ، موجه بحوث « **وصف مصر** » الذي أصبح مراسله لشئون العلاقات الثقافية بين مصر وفرنسا . وكان چومار قد اقترح ، منذ عام ١٨١٢ ، على محمد على خطة لتمدين مصر عن طريق نشر التعليم (١٧) . وهو يقبل توجيه دراسات البعثة الدراسية المصرية الأولي الى فرنسا في عام ١٨٢٦ وهو يقدم هذه الدراسات الى عدد من قدامي جيش الشرق . وعندئذ فإن كل عمل محمد على التمديني سوف يتذرع بذكري حملة بوناپارت . والحال أن قدامي حملة مصر ، خاصة المهندسين الشباب الذين أصبحوا الآن علماء راسخين يحوزون وظائف رئيسية في مؤسسات المعارف في فرنسا في ذلك العصر ، إنما يعترفون بهذه الصلة . ثم إن چومار ، الذي أسس لتوه الجمعية الجغرافية ، لايفوت فرصة للتأكيد على هذه الصلة (١٨) .

ويتبني الرأي العام الفرنسي بحماس فكرة أن محمد على هو مواصل بوناپارت . ومما يزيد من سهولة ذلك أن عزيز مصر يعرف الآن كيف ينظم برنامج دعاية حقيقياً حول هذه التيمة . كما يجري استخدام الفنيين الفرنسيين الذين يخدمون سيد مصر في هذا الصدد . ومن ثم فلاعجب فيّ أننا نجد هذه الأفكار في نصوص كمقدمة « **شرقيات** » لڤيكتور هيجو (يناير ١٨٢٩) : « ثم إن الشرق ، بالنسبة للامبراطوريات كما بالنسبة للآداب ، ربما يكون مدعواً قبل انقضاء وقت قصير الى أن يلعب دوراً في الغرب . والواقع أن حرب اليونان المشهودة قد أدت بالفعل الى تحويل أنظار كل الشعوب الى تلك الجهة . وهذا هو السبب الآن في أن التوازن الأوروبي يبدو على وشك الانهيار ؛ إن الوضع القائم الأوروبي المتآكل والمتصدع بالفعل ، إنما ينهار من جهة القسطنطينية . والقارة كلها تميل الى الشرق . وسوف نشهد أحداثاً عظيمة . إن البربرية الآسيوية القديمة ليست على ما يبدو جد محرومة من الرجال المتفوقين بالشكل الذي تود حضارتنا تصوره . ويجب أن نتذكر أنها هي التي أنتجت العملاق الوحيد الذي يمكن لهذا العصر أن يقارنه ببوناپارت ، إن كان يمكن مع ذلك أن يكون لبوناپارت من نظير ؛ (أنتجت) ذلك الرجل العبقري ، التركي والتتري فعلاً ، (محمد) على باشا هذا الذي هو بالنسبة الى ناپوليون كالنمر بالنسبة الى الأسد ، وكالنسر بالنسبة الى العُقاب » .

مصر في السياسة الفرنسية

بالرغم من أن ديبلوماسية عهد عودة الملكية كانت قليلة الرغبة في أن تضع نفسها من

الناحية الرسمية تحت وصاية نابوليون الأول ، فإن هذه الديبلوماسية ، وقد تحررت اعتباراً من مستهل عشرينيات القرن التاسع عشر من عواقب أحداث عامي ١٨١٤ و ١٨١٥ ، تنكب على لعب دور أنشط في السياسة الشرقية . ورحلة مارسيلوس تتزامن مع لحظة تبدأ فيها الحكومة الفرنسية في التعامل مع عزيز مصر بوصفه أفضل فاعل لنشر النفوذ الفرنسي في المنطقة ومن المؤكد أن أسطورة الحملة الفرنسية تلعب في ذلك دوراً كبيراً .

وهكذا فإن شاتوبريان ، وزير الشئون الخارجية ، يرسل رسالة الى محمد على في عام ١٨٢٤ لكي يوضح له حسن مشاعر فرنسا تجاه حكمه . وهو ينتهز هذه الفرصة لكي يستحضر الذكري الطيبة لاستقبال محمد على له في مصر في عام ١٨٠٦ (١٩) . على أن فرنسا تجد نفسها معارضة لسياسة سيد مصر ، الذي هب لمساعدة سلطان - خليفة اسطنبول في قتاله ضد التمرد اليوناني . وبالرغم من تدمير الأسطول المصري من جانب أسطول فرنسي - انجليزي في نافارين في عام ١٨٢٧ ومن التدخل العسكري الفرنسي في المورة لطرد القوات العثمانية منها ، فإن ديبلوماسيي عهد عودة الملكية يرون في محمد على الحليف الطبيعي لفرنسا .

والحال أنه منذ عام ١٨٢٧ ، تجد فرنسا نفسها في مواجهة مباشرة مع ايالة الجزائر في عين اللحظة التي تستعر فيها الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا . ولاتستطيع الحكومة الفرنسية أن تجازف بالكف عن الاكتفاء بالمحاصرة البحرية غير الفعالة للجزائر ومن ثم التدخل عسكرياً في الشمال الأفريقي في الوقت الذي يحتمل فيه أن تضطرب أحوال كل أوروبا من جراء الحرب الشاملة التي سوف ترافق انهيار الامبراطورية العثمانية ، بعد أربعة عشر عاماً بالكاد من ووترلو .

وفي ٣٠ نوفمبر ١٨٢٨ ، فإن شاتوبريان ، الذي كان آنذاك سفيراً في روما ، يقدم لوزير الشئون الخارجية مذكرة تقترح التحالف مع روسيا ضد انجلترا والنمسا . وينص هذا الاقتراح على أن يحصل القيصر على جزء كبير من روسيا الأوروبية بينما يمد الملك البوربوني حدود فرنسا فوق الراين ، الأمر الذي من شأنه أن يعطي الأسرة الحاكمة الشرعية القومية التي فقدتها في عامي ١٨١٤ ، ١٨١٥ عندما بدت بوصفها نظاماً فرضه الأجانب (٢٠) .

وفي ذلك الزمن ، فإن مفهوم الحضارة ، الذي أنتجه زمن التنوير ، كان يفرض نفسه على مجمل الخطاب السياسي الأوروبي .

وشاتوبريان هو واحد من أوائل من يلتقطون الفكرة لاستخدامها كأداة تبريرية للمسيحية ، وهو يستخدمها هنا في مواجهة الاسلام . والحال أنه أحد مستخدمي مفهوم الحضارة المسيحية لكنه ، خلافاً لجيزو ، يعتقد أن المسلمين قادرون على الأقل على شكل من أشكال التمدن

وهو الشكل الذي يعزز الدولة وينمي قوتها العسكرية . بل إنه يري في ذلك خطراً على أوروبا في المستقبل : «كمبدأ من مبادئ الحضارة العظمي ، لايمكن للجنس البشري إلا أن يستفيد من دمار الامبراطورية العثمانية : إن سيطرة الصليب في القسطنطينية هي أفضل ألف مرة بالنسبة للشعوب من سيطرة الهلال فجميع عناصر الأخلاق والمجتمع السياسي تكمن في أساس المسيحية ، بينما تكمن جراثيم الدمار الاجتماعي في ديانة محمد . ويقال إن السلطان الحالي قد اتخذ خطوات في اتجاه التمدن : فهل يرجع ذلك الى أنه قد سعي ، بمساعدة عدد من المرتدين الفرنسيين ، وعدد من الضباط الانجليز والنمساويين الى اخضاع زمره المتهوسة غير المنضبطة لتدريبات نظامية ؟ ومنذ متي كان التمدن هو التشغيل الآلي للأسلحة ؟ إنه لزلل بالغ ، وشيء يصل الى مستوي الجرم أن نعلم الأتراك علوم تاكتيكاتنا : فلابد من تعميد الجنود الذين يجري تدريبهم على الانضباط ، إلا إذا كنا نريد تخريج مدمرين للمجتمع » .

وعندما يشكل پولينياك آخر حكومة لعهد عودة الملكية ، فإن الرؤية السياسية للسفير الموجود في روما (الذي يوشك على الاستقالة) تصبح أساساً لمذكرة بوالكونت ، المدير السياسي بوزارة الشئون الخارجية ، والمحررة في أغسطس ١٨٢٩ و التي وافق عليها مجلس الوزراء في ٤ سبتمبر ١٨٢٩ . وتقترح المذكرة بشكل خاص تسليم روسيا جزءاً من الأناضول سعياً الى تزويدها بطريق الى الهند ومن ثم تهديد القوة الانجليزية من خلاله [٢١] .

وعندئذ فإن دروڤيتّي ، الذي يوشك على ترك قنصلية القاهرة ، يقترح حلاً أنيقاً لهذه المشكلة الصعبة : إذ يكفي اقناع سيد مصر الجديد بالاستيلاء على ايالات الشمال الافريقي الثلاثة (طرابلس الغرب وتونس والجزائر) بمساندة بحرية ومالية من فرنسا . فسوف يسمح ذلك باشباع رغبة الأوروبيين في التوصل الى القضاء على حرب القرصنة في البحر المتوسط . ثم إن تحرك محمد على سوف يرفع افريقيا الشمالية الى ذات المستوي الذي بلغته مصر في مضمار التمدن والاستقلال عن الباب العالي .

والحال أن حكومة پولينياك يتم كسبها فوراً الى صف هذه الخطة التي تسمح لها بالاستغناء عن إنزال للجيش الفرنسي في الجزائر . وهي بعيدة جداً عن الدفاع عن الحضارة المسيحية العزيز على قلب شاتوبريان . ويبقي الحصول على موافقة الباب العالي . ويوضح پولينياك لسفيره في القسطنطينية أن من بين الحجج التي يجب عرضها أمام الوزراء العثمانيين (الوعد بدفع منتظم للخزينة المفروضة على الايالات ، تحويل أطماع محمد على في اتجاه افريقيا) حجة أن السلطان محمود ، الذي حقق تقدماً عظيماً في تمدن شعبه بقضائه على الأنكشارية في أراضيه التي يسيطر عليها سيطرة مباشرة ، لايمكنه أن يقبل بقاءهم في الجزائر [٢٢] .

والواقع أن الباب العالي سوف يكتفي ، كعادته ، بالتسويف مستغلاً تنافسات الدول

الأوروبية لعرقلة هذه الخطة . والحال أن مترنيخ ، إذ يستشيره الفرنسيون ، يوضح لهم أنه لاينخدع بنزاهة فرنسا ، المستفيد الرئيسي من تمدن مصر ، ويحذرهم من أن الحملة على الجزائر سوف تهدد بتعريض تمدن مصر الوليد والسلطة التي تحميه للخطر (٢٤) . وبالرغم من مشروع اتفاق حرره پولينياك بشكل جد دقيق ، فإن معارضة انجلترا تكفي لإثناء سيد مصر عن الإقدام على مثل هذه المغامرة . وكانت الصعوبات المادية ملحوظة ؛ وكان يجازف بأن يفقد ثقة مجمل العالم الاسلامي إن انخرط في تواطؤ مباشر مع الفرنسيين . والصلح المعقود بين روسيا والدولة العثمانية ، في ١٤ سبتمبر ١٨٢٩ في ادرنه ، يعطي السلطان هامش مناورة لم يكن يتمتع به من قبل . ومن المؤكد أن مؤتمر لندن الذي عقد في فبراير ١٨٣٠ قد منح حكماً ذاتيا لصربيا ولمولداڤيا ولڤالاشيا ، لكن روسيا لم تتمكن من النجاح في فصل الولايات البلقانية عن الامبراطورية (العثمانية) . وبوجه خاص ، فإن محمد على لايهتم بافريقيا الشمالية إلا لكي يتمكن من تعزيز قوته العسكرية . والمسألة الآن تبدو بالنسبة له جد صعبة وموَرِّطة . وأياً كان الأمر ، فإن بوسعه أن يأمل أنه إذا ما قرر الفرنسيون أن يتدخلوا بمفردهم ، فمن الممكن ، عندما لايعرفون ماذا يصنعون بفتحهم الجديد ، أن يتنازلوا عنه لتلك القوة الصديقة لفرنسا والتي هي مصر التي يقف على رأسها . وسوف يكون ذلك مكافأة عن سياسة رائعة بدت ، من الناحية اللفظية ، محبذة دائماً لفرنسا وأشارت باستمرار الى مواصلة العمل الذي جري الاضطلاع به خلال زمن الحملة الفرنسية في مصر .

وقد أدرك محمد على أن الاعتراف بالحكم الذاتي للولايات الأوروبية المحيطية الثلاث ليس غير مرحلة نحو طريق استقلال تام ، مماثل لاستقلال اليونان . وهذا الحكم الذاتي ، هذا الاستقلال ، أو كذلك توجيه الشئون العثمانية ، لن يكسبه في الجزائر ، وإنما في سوريا . وهو يوجه توسعه نحو تلك المنطقة من العالم العثماني .

ملكية يوليو و مصر

تعتبر ملكية يوليو أكثر حرية في التذرع بالإشارة الى الحملة الفرنسية على مصر بقدر ما أنها تعد التراث النابوليوني مصدر إلهام لها . وعندئذ يستخدم محمد على التيمة العظمي ، تيمة الحضارة ، لكي يبرر أعماله . والحال أن دعاة في فُرنسا ، مثل كلوت بك ، وهو طبيب دخل في خدمة سيد مصر وبسبيله الى إقامة الطب الحديث في مصر ، يشددون على الفكرة التي تذهب الى أنه ما من شيء في الشرق قد أعد الشرق لمعرفة حركة تمدن كهذه . ولذا فإنه يجب الاعتراف بأن بوناپارت بالفعل هو الذي أعطي الدفعة الأولي وبأن محمد على هو مواصل عمله (٢٥) .

ومن المؤكد أن ذروة هذا الانتساب (الى التراث النابوليوني) إنما توجد في البرقيات الشهيرة للبارون دو بوالكونت ، الذي أرسل في مهمة غير عادية في عام ١٨٣٣ لدراسة حالة الشرق إثر الحرب السورية الأولي : « ترتبط بوجود محمد على فكرة تمدين مصر بالشكل الذي نفهم به كلمة التمدن (الحضارة) في مفهوم أفكارنا الحديثة ، وتمدن مصر يرتبط هو نفسه بحركة التطور العظمي هذه التي تتضح ، تحت أشكال متنوعة ، في دول الشرق كما عند شعوب الغرب في آن واحد»(٢٦) .

ووفقاً للديبلوماسي الفرنسي ، فإن تحول الشرق لم تكن له مقدمات (في الشرق) . ومحرك الحركة كلها هو ادراك المسئولين السياسيين لانعدام التوازن القاتل بين البلدان الاسلامية والدول الأوروبية . والفارق الأساسي بين تمدن الشرق وتمدن أوروبا هو أن التمدن الأول يجيء من فوق وليس من الشعوب نفسها ، ومن هنا مفارقة رؤية سلطة استبدادية وهي تُدخل أفكاراً سوف تؤدي ، يوماً ما ، الى تقييد سلطة الملوك والتسبب في دمارها . والجيش والمدرسة والادارة التي خلقها محمد على هي أدوات التمدن . والمصانع التي تستخدم أحدث المعدات كالماكينات البخارية لاجدال في أنها مشاريع مجازفة ، لكنها تعود السكان المصريين على مزايا الحياة الحديثة وتحول شيئاً فشيئاً دون أية عودة الى نمط الحياة القديم . وقد تمكن عزيز مصر من السيطرة على رجال الدين بالقضاء على استقلالهم الاقتصادي وبتحويلهم الى موظفين وبالإكثار من دلائل المراعاة لهم .

ووفقاً لبوالكونت أيضا ، فإن محمد على يواصل ربط مصير سلالته بهذه الفكرة والتذكير بذلك بدعم فرنسا الضروري لما لا يعد شيئاً آخر غير مواصلة عمل بونابارت : « لقد قال لي : إن غايتي الكبري هي تمدين مصر ، لكن العمر لن يمتد بي لكي أحقق ذلك ؛ وهناك من يقولون لي إن مصر قد أصبحت متقدمة تقدم أوروبا ؛ وأنا أعرف أن هذا الكلام غير صحيح بالمرة ، وسوف أكون بحاجة الى ثلاثين سنة لكي أضمن بشكل كاف صون نظامي في البلد . (. . . .) والحال أن ابراهيم يفهم مقاصدي وأنا أعمل على أن أضمن ، عبر التعليم الذي أقدمه لأبنائي الآخرين ، أن يفهموها هم أيضاً » (٢٧) .

ويبدو أن هذا التصريح من جانب سيد مصر كان رداً على القلق الفرنسي على مدي رسوخ عمله . والواقع أن بروجلي ، وزير الشئون الخارجية ، لديه تصور بالغ الوضوح حول مشروع محمد على . فهو يري أن هذا المشروع به ، على السطح على الأقل ، عناصر ملحوظة من عناصر القوة والتمدن . لكنه يري ، خلف المظاهر الغرارة لازدهار وهمي بأكثر مما هو حقيقي ، بلداً تجتمع فيه عبقرية الاحتكار الجائرة مع روح الفتح والطموح لكي يؤديا معاً الى إفقار السكان وجعل أحوال البشر أكثر مدعاة للشكوي في كل يوم جديد . وهو يري

أن غياب المواد الأولية يحول دون إنشاء قوة بحرية حقيقية ، هي مصدر قوة بلدان الشمال . والحال أن هذا الوضع هو عقبة حاسمة بالنسبة لانشاء صناعة جديرة بهذا الاسم . وسياسة الاحتكار هي مأزق لأنها لاتخلق شيئاً قابلاً للدوام .

وتظل المسألة الأساسية هي مسألة الوقت . وإذا ما تخلي محمد على عن احتكاراته وعن فتوحاته وانكب على تحقيق رفاهية السكان ، فهل سيكون ذلك كافيا؟

« هل سيحيا محمد على سنوات تكفي لانجاز هذا العمل الاخلاقي والانساني؟ أم أن وجود الامبراطورية التي يعمل على تأسيسها سيكون بالأحري قد أصبح جد مستقل عنه بالفعل ، وأكثر رسوخاً بحيث يمكنه الاستمرار بعد رحيله هو ؟ وإذا ما تحدثنا عن تلك التقلبات جد المتكررة وجد الحاسمة في الشرق ، فهل سوف تتوافر لابراهيم باشا ، ووريث قوته ، القدرة على أن يجمع مع الشجاعة الرائعة التي تميزه قدراً من الحكمة كافياً لصون ولتدعيم عمل أبيه ؟ » (٢٨) .

وإذا كان البعض ، في فرنسا ، يشعرون بالقلق على استمرارية عمل عزيز مصر ، وإذا كان البعض الآخر يعترضون على هذا العمل باسم الانسانية والليبرالية الاقتصادية ، فإن هناك مدرسة ثالثة تخاف بالأحري من عواقبه . ويواصل شاتوبريان بشكل خاص الإعراب عن الأسف تجاه تلك الدفعة التي أعطاها نابوليون للشرق : «لقد كنت بشكل ما آخر زائر للامبراطورية العثمانية في أعرافها القديمة . والحال أن الثورات التي سبقت مباشرة أو أعقبت مباشرة خطواتي ، قد امتدت الى اليونان وسوريا ومصر . فهل سوف يتشكل شرق جديد ؟ وإلام سيؤدي ذلك ؟ هل ستتلقي العقاب الذي نستحقه على قيامنا بتعليم فن القتال الحديث لشعوب تقوم حالتها الاجتماعية على العبودية وتعدد الزوجات ؟ وهل نقلنا الحضارة الى الخارج أم أننا جئنا بالبربرية الى داخل العالم المسيحي ؟ وما الذي سوف يترتب على المصالح الجديدة والعلاقات السياسية الجديدة وخلق قوي قد تنبثق في شرقي البحر المتوسط ؟ لا يمكن لأحد أن يجيب . ولن تزحزحني السفن البخارية والسكك الحديدية وبيع منتجات المصانع وسعدُ عدد من الجنود الفرنسيين والانجليز والايطاليين المندرجين في خدمة باشا : فكل ذلك ليس من الحضارة في شيء . ومن المحتمل أن نشهد عودة ، عن طريق قوات منضبطة يقف على رأسها في المستقبل رجال مثل ابراهيم ، للأخطار التي هددت أوروبا في زمن شارل مارتل ، والتي أنقذتنا بولندا الشجاعة من أخطار مثلها في زمن تال . إنني أرثي للرحالة الذين سوف يسيرون في أعقابي : فالحريم لن يحجب عنهم أسراره بعد ؛ ولن يروا البتة شمس الشرق القديمة وعمامة محمد . لقد كان بدوي نحيف يصيح بي بالفرنسية ، وأنا أمر عبر جبال يهودا : « الى الأمام سر ! » . لقد صدر الأمر ، وقد سار الشرق » (٢٩) .

البعثات الدراسية في فرنسا

إذا كان استخدام مصطلح « الحضارة » ، في مستهل عشرينيات القرن التاسع عشر ، قد اقتصر على الدعاية الموجهة الى أوروبا ، فإنه يبدو منذ أوائل ثلاثينيات القرن التاسع عشر أن عزيز مصر يبدأ في استشعار صلاحيته بالنسبة لتوصيف عمله الداخلي . واللحظة الأساسية هي عام ١٨٣١ مع عودة البعثة الدراسية المصرية الأولي من فرنسا . فالحال أن رفاعة الطهطاوي ، رجل الدين الوحيد ، خريج جامع - جامعة الأزهر ، الذي شارك في البعثة كإمام ، يكتب كتاب ذكرياته عن إقامته في فرنسا . وهذا الكتاب هو الكتاب الشهير الذي يحمل عنوان **تخليص الإبريز في تلخيص باريز** . ومنذ البداية ، يطرح الطهطاوي مشكلة التمدن . وفي منظور موروث عن ابن خلدون ، يميز بين ثلاث مراتب من الشعوب ، هي مراتب المتوحشين والبرابرة والمتحضرين . وفي تلك اللحظة من الكتاب ، لم يكن قد عثر على مصطلح مناسب لتقديم المفهوم وهو يقترح سلسلة من المرادفات : « **أهل الأدب والظرافة والتحضر والتمدن و التمصر** » (٣٠) . لكن مصطلح **التمدن** سرعان مايفوز ويأخذ معني « التحضر » من حيث هو عملية في حين أن « التحضر » من حيث هو حالة سوف يسمي بـ « الحضارة » . وفي الحالتين ، تجري الإحالة الى فكرة استقرار السكن وفكرة المدينة (الحاضرة) ".

وسيراً على نهج ابن خلدون أيضاً ، فإنه يعرف العرب البدو بأنهم برابرة ، عندهم قدر معين من المعارف ، من بينها الدين الحق ، إلا انهم بلا علم حقيقي وبلا تنظيم اجتماعي حقيقي . وبالنسبة له ، فإن التمدن ، كما تشير الى ذلك المرادفات التي أوردناها بالفعل ، ليس غير فعل وواقع الحياة المستقرة والمدن . والحال أن سلفه الشهير قد ذهب الى مسافة أبعد لأنه رأي أن الثقافة (الحضارة) الاسلامية ليست من فعل العرب ، بل من فعل أجانب معربين ، خاصة الفرس . وفي أزمنة الاسلام الأولي ، عندما كان جميع المسلمين عرباً ، كان التقليد الشفاهي كافياً لنقل التراث الإسلامي ، ثم عندما تشكلت الامبراطورية العباسية الكبري ، اكتفي العرب بمهام الحكم ، بينما يؤدي الابتعاد التدريجي عن أزمنة الأصول الى انبثاق ثقافة علمية أولاً في المجال الديني ثم في مجمل شئون العالم الدنيوي . وعندما يفقد العرب السلطة لحساب الأتراك ، فإن لغتهم سوف تفسد في الوسط الحضري و هذا عامل انحطاط إضافي (٣١) .

ويفرض المنظور الخلدوني انقساماً جذرياً بين عالم البدو وعالم الحضر ، وهو عالم التمدن لكنه أيضاً عالم قدر معين من نزع الطابع العربي ، لأنه ، إذا كانت اللغة العربية تستمر مستخدمةً ، فإن الهيكل الاجتماعي ، وروح الجماعة المميزين للعرب يتلاشيان (٣٢) .

وتتألف العروبية قبل كل شيء من لغة (لايجري نطقها بشكل صاف إلاّ في القبائل) ونمط حياة . ووفقاً للمخطط التصوري الشهير الذي طرحه المؤرخ المغربي ، فإن سلالة حاكمة منبثقة من الوسط البدوي تقوم بتوحيد القبائل ، وتبني امبراطورية وتؤسس مدناً يزدهر فيها التمدن . لكن هذا التمدن الحضري يؤدي الى ادخال الليونة والنعومة على قوة السلالة الحاكمة التي تفقد طابعها العربي وتنهار أمام قوة جديدة منبثقة من البربرية . ومن ثم فإننا بعيدون عن التصور التاريخي الذي طرحه التنوير الأوروبي والذي جعل من العرب الشعب - المحطة التاريخية الناقلة للحضارة وللعقل . والحال أن الطهطاوي أقل علمانية بكثير من «مونتسكيو الشرق» هذا ، وفق تعبير الفرنسيين الذي يروق له استخدامه (٣٣) . لقد كانت صدارة الاسلام من القوة في القرن الرابع عشر بحيث أنه لم تكن هناك حاجة الى التشديد على مكانة العرب المميزة في تاريخ الانسانية فهم الحائزون للوحي القرآني الذي جاء بلغتهم . ويري الطهطاوي أن الحضارة الاسلامية كانت أعظم ما تكون في الأزمنة التي ساعد فيها الخلفاء والملوك الفنون والعلوم . ويجيء انحدارها قبل كل شيء من عدم اهتمام السلطة السياسية بمجالات التمدن . ويبدو له محمد على عندئذ بوصفه منقذ الاسلام المهدد : لقد استأنف عمل الخلفاء العظماء الذين عرفهم الماضي وهو يعرف ، بالرغم من جميع أشكال اللوم التي وجهت اليه ، أن من الضروري استخدام النصاري الأجانب مؤقتاً سعياً الى التمكن من مداواة الاسلام من تأخره الحالي بالمقارنة مع أوروبا (٣٤) .

وفي أعماله التالية ، يشدد الطهطاوي على ضرورة تحقيق تحضر مصر الذي يعتبر المصطلح العربي المعبر عنه الآن بشكل واضح هو مصطلح « **التمدن** » (٣٥) ، وعلى ضرورة تدارك التأخر العلمي بالمقارنة مع أوروبا . لكنه يشدد دائماً على المكون الأخلاقي لهذا التمدن . وهذه الأخلاقية الأرقي التي تشمل كل جوانب الحياة في المجتمع لايمكن أن تكون إلاّنتيجة تطبيق الوحي الالهي بالشرع الاسلامي . وهكذا ففي مقابل المخطط التصوري الثنائي الذي طرحه المفكرون الأوروبيون ، والداعي الى وحدة الفرد و المجموع ، فإن الطهطاوي ، ومن بعده ، المصلحين المسلمين ، يقترحون ثنائية أخري ، هي وحدة العقل الانساني الذي ينتج العلوم والوحي الالهي الذي يحكم الحياة في المجتمع . وفكرة الحضارة الاسلامية تتميز بتماسك أقوي من فكرة الحضارة المسيحية التي تظهر في العصر نفسه والتي لا تعد غير احتواء ديني لتصور علماني عن التاريخ .

ويحرص محمد على على اصدار كتاب الطهطاوي وعلى توزيعه على موظفيه . وفيما بعد بوقت قصير ، يأمر بترجمته الى التركية ليكفل له توزيعاً أوسع في العالم العثماني . وهذه المرة ، لايتعلق الأمر البتة بدعاية موجهة الى كسب صورة مناسبة في أوروبا بل يتعلق

بتحديد ايديولوچية في خدمة سياسة حكومية . ويحول محمد على ممارساته كمؤسس لامبراطورية الى سياسة تمدن موجهة الى تدارك التأخر العلمي والتقني للعالم الاسلامي بالمقارنة مع أوروبا .و في القرن الخامس عشر ، كان محمد الفاتح قد استخدم بالفعل اختصاصيين أوروبيين في جيوشه ، خاصة في سلاح المدفعية ، ولكن دون أن يؤدي ذلك الى تدشين عملية تقليد لأوروبا ولاحتى الشعور بوجود أية هوة . والحال أن الجدة هنا إنما تكمن في الشعور بوجود خلل وبضرورة علاجه .

السان - سيمونيون

تصبح فكرة تمدين مصر المرجع الأساسي للفئة الاجتماعية الصغيرة من الأتراك والأرمن والشراكسة والمصريين الأصلاء المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بسلطة أسرة محمد على . وبالنسبة لعقود أواسط القرن التاسع عشر ، يمكننا الحديث عن ايديولوچية « سلالة حاكمة » بقدر ما أن المشروع التمديني يرتبط إرتباطاً حميماً بالنخبة الموجودة في السلطة والملتفة حول أسرة محمد على . وعندئذ أيضاً ، فإن البعثات الدراسية الى فرنسا تلعب دوراً أساسياً في تعريف هذه السياسة . فالمبعوثون السابقون الذين ليسوا ، في غالبيتهم ، مصريين أصلاء ، يشكلون قيادة فنية ضرورية لتطبيق مشاريع عزيز مصر . وبفضل تجربتهم الفرنسية ، فإنهم يعرفون كيف يصوغون في لغة مفهومة لمحمد على ، أي في لغة براجماتية أساساً ، الأفكار الأوروبية الجديدة .

وعلاوة على أهمية أعمال الطهطاوي ، وعمل المبعوثين والتشجيع الذي ينالونه من جانب محمد على ، فإن نشر (هذه الأفكار) يتم من خلال الاتصال مع الأوروبيين الذين يخدمون الدولة المصرية ، خاصة السان - سيمونيين الذين جاءوا في ثلاثينيات القرن التاسع عشر .

ويتزامن وصول السان - سيمونيين في عامي ١٨٣٣ و ١٨٣٤ مع اللحظة التي عاد فيها المبعوثون الأوائل من فرنسا وبدأوا فيها في ممارسة وظائف لها مسئوليتها . ويرحب محمد على بهؤلاء الكوادر الذين يتيحون له إمكانية أن يحوز بتكلفة زهيدة نخبة تقنية بكاملها ، متخرجة بشكل خاص من كلية الهندسة . وهم يقابلون استقبالاً حسناً جداً من جانب الفرنسيين العاملين بالفعل في خدمة مصر ككلوت بك ، أوسليمان باشا ، الذي كان في السابق أحد ضابط نابوليون والذي تحول الى اعتناق الاسلام وأصبح قائداً لهيئة أركان الجيش المصري ، أو المهندس لينان دو بيلفون . والحال أن الديبلوماسيين الفرنسيين في الساحة لايتقاسمون مع حكومة ملكية يوليو شكوكها ويتعاونون عن طيب خاطر مع هؤلاء القادمين

الجدد . وهذه بشكل خاص هي حالة الشاب فردينان دليسبس ، الذي كان آنذاك نائب قنصل ، والذي يتحمس لمشاريع السان - سيمونيين . لكن هذه الأفكار تعتبر أحياناً من أغرب الأفكار . وهكذا فإن انفانتان يقترح استثمار فلسطين لحساب محمد على باستخدام التمويل اليهودي الدولي (٣٦) . كما يراهن انفانتان على المولين اليهود لتدشين القرض الضروري لشق قناة السويس (٣٧) . لكن مساعي السان - سيمونيين تفضي الى فشل . فمحمد على يريد الاعتماد على قواه الخاصة ويخشي من أن ترفض انجلترا هذا المشروع الذي من شأنه أن يجعل من مصر نقطة المرور الأساسية على طريق الهند .

ويستخدم محمد على السان - سيمونيين في مشروع آخر أعز على قلبه . هو بناءء سد على رأس الدلتا مما سيسمح بنقل مصر السفلي كلها الى نظام الري الدائم . وعلى ساحة بناء السد (القناطر) يشترك فنيون أوروبيون ، وسان - سيمونيون وعائدون من البعثات الدراسية في مشروع تمدين مصر الموضوع تحت شفاعة نابليون . واللحظة الأشهر هي العشاء الأخير النابوليوني في ١٥ أغسطس حيث يجتمع الأب انفانتان وفردينان دليسبس وسليمان باشا ومختار بك ، أحد خريجي البعثة الدراسية الأولي والذي أصبح المتحدث الرسمي المعتمد مع السان - سيمونيين ، وجميع المهاجرين الفرنسيين ، والمهندسون المصريون العاملون في المشروع من أجل الاحتفال بالذكري النابوليونية (عيد ميلاد بوناپارت .- المترجم) . وفي الساعة السابعة مساءً ، في عز الصيف المصري ، يستهلكون ست عشرة زجاجة شمبانيا ونحو خمس عشرة زجاجة بورجون ونحو عشر زجاجات بروفانس ومثل ذلك من زجاجات النبيذ العادي . وتدور جميع الأنخاب حول فكرة الاستمرارية بين عمل نابوليون التمديني وعمل محمد على وفقاً لكلمات الأب انفانتان نفسها : «إن محمد على هو منفذ وصية نابوليون ، حيث أشار هذا الأخير الى مصر بإصبعه الأكبر ، بينما استولي الأول عليها لكي يكفل لها المصائر التي كان أصبع نابوليون قد أعدها لها ، وهو يتركز عليها » (٢٨) .

وينتهز انفانتان فرصة الاحتفال لكي يدفع الى وضع حجر الأساس لمدرسة الهندسة المدنية الرجال الذين يمسكون في أيديهم بكل قوة وبكل فتوة مصر . ويلعب مختار بك دور المترجم وينال الموافقة من السلطات . وفي الحبور العام : «يتناول محمود بك المسطرين ، ويفرش به الملاط ويشارك في ذلك أيضاً أدهم بك ومختار بك ، ويطبع سليمان على الملاط حرف N كبيراً ؛ ثم بعد وضع الحجر ، ينقش على وجهه ، بسن المسطرين ، الحروف .N.- M. A (نابوليون ، محمد على) وتحتها ينقش الحروف . M. B.-I. P (محمود بك - ابراهيم باشا) . » .

والواقع أن انفانتان يخطط لتأسيس كيان من المؤسسات العلمية مدعو الى أن يكون خلفاً

للمعهد المصري الذي أنشأه بوناپارت . ويجري تنفيذ عدد كبير من هذه المشاريع بعد قيام مختار بك والطهطاوي بتخليصها من ثقل رطانتها السان - سيمونية بحيث لا يبقى منها غير جانبها التقني والعملي ، وهو عنصر ضروري حتى تكون مفهومة من جانب عزيز مصر .

والحال أن الطاعون الأكبر لعام ١٨٣٥ إنما يصيب المبشرين السان - سيمونيين بشكل قاس . وتكاد أعمال السد (القناطر) تتوقف ويضطر الفرنسيون الى التبعثر في وظائف صغيرة في الادارة المصرية . وكل شيء يدعو الى تثبيط الهمم . ويرجع انفانتان وعدد من اتباعه الى فرنسا في أواخر عام ١٨٣٦ بينما يبقى آخرون في مصر ويواصلون خدمة محمد على .

النقل الشفاهي

لايجب إهمال الفصل السان - سيموني في القصة . فهو مميز لأسلوب أساسي من أساليب نشر الأفكار التمدينية ، هو أسلوب النقل الشفاهي لها . إن الديبلوماسيين الأوروبيين والمبعوثين الى فرنسا والفنيين الداخلين في خدمة الوالي ومسيحيي الشرق الذين يلعبون دوراً عظيماً بفضل معرفتهم للغات وللأفكار الأوروبية يجيبون مرات عديدة على الأسئلة التي يُراد بها فهم السبب في تفوق أوروبا . وهكذا ، ففي أربعينيات القرن التاسع عشر ، فإن نوبار الشاب ، وهو أرمني كاثوليكي وابن أخت بوغوص ، وزير الشئون الخارجية ، يصبح سكرتيراً لابراهيم باشا . وكان قد تخرج لتوه من المدرسة الفرنسية التي كانت أسرته قد أرسلته اليها لمواصلة دراساته . والحال أن ابراهيم باشا يسأله عن تطور أوروبا : « بين الأسباب التي وجهت الحالة الاجتماعية الأوروبية الحديثة ، كان ابراهيم على علم بعدد منها كان قد دخل بالفعل الى الشرق في دور الحضانة ؛ وقد توقع واستشعر التحول الذي سوف يتحقق لامحالة في بلاده .

« ولما كنت حديث التخرج من المدرسة ، فقد وجدت نفسي مدفوعاً بشكل غريزي الى دراسة التاريخ ؛ وقد قرأت جيزو و أوغسطين تييري وجميع المؤرخين المعروفين لشبيبة ذلك الزمن . ومن ثم فقد كان بوسعي أن أشرح له ماسوف أسميه بمنطق التاريخ ؛ والحال أن هذا الجانب من الدراسات التاريخية هو ما كان يهمه بشكل رئيسي : كيف وصلت أوروبا الى الحالة الحالية ، الى أي سبب يمكن إرجاع هذه الحالة ؟ (٣٩) » .

وبشكل أكبر من الكتابة التي برز دورها من خلال الاقامة النهائية للطباعة في مصر ، فإن مناسبات النقاش العديدة التي تتيحها الروح الاجتماعية المصرية قد سمحت بنشر بعض التيمات المحددة ، على الأقل في داخل الادارة المصرية التي تخدم الأسرة الحاكمة .

على أن عهد عباس الأول (١٨٤٩ - ١٨٥٣) يبدو بوصفه عهد ردة معادية للأوروبيين .

فهو يبعد عدداً كبيراً من الموظفين الأوروبيين ومن المصلحين المصريين . لكنه يتحرك في هذا الاتجاه لأنه ، علاوة على عداوة مرجحة للأفكار الأوروبية ، يخشى من أن يتحول الوجود الأجنبي الى تدخل في الشئون المصرية . وقد حاول التقارب مع الباب العالي ، إلاّ أنه بما أن العثمانيين يرغبون في تعزيز سلطتهم في البلد ، فإنه يلجأ بالأحري الى بريطانيا العظمي . وعلى حساب الفرنسيين بدرجة كبيرة ، يمنح لشركة انجليزية امتياز مد خط للسكك الحديدية يمتد من الاسكندرية الى السويس . ويغضب قنصل فرنسا بل ويقترح على حكومته خلع الوالي على أن يحل محله عمه محمد سعيد ، المشهور بحبه لفرنسا وبليونته(٤٠) . والواقع أن عباس الأول إنما يلجأ الى انجلترا لانعدام ثقته في فرنسا أساساً . وعندما تتكاثر مشاريع تقسيم الدولة العثمانية عشية حرب القرم ، فإنه يخشى هذه المرة من الأطماع الانجليزية . وما أن تنشب تلك الحرب ، فإنه يرسل الجيش المصري لمساعدة سيده السلطان . وهكذا فإنه قد استفاد من الموقف ، عشية مصرعه ، لكي يعيد تسليح مصر .

سعيد

يعد سعيد أول حاكم مصري ينفتح انفتاحاً سافراً على التأثير الفرنسي والأوروبي . والواقع أن هذا الابن الأصغر لمحمد على كان قد تلقي تعليماً ممتازاً سمح له بأن يتكلم بمستوي واحد من الطلاقة بالتركية وبالعربية وبالفارسية كما بالفرنسية و بالانجليزية . وهو يود الاندماج في التراث التمديني لوالده لكنه لا يملك لا ذكاء ولا ، خاصة ، قوة إرادة مؤسس السلالة الحاكمة . وهو يستجيب بسهولة مفرطة لمطالب حاشيته . والامتياز الممنوح لفردينان دليسبس من أجل شق قناة السويس ليس غير مثال واحد على قرار سريع ، يجري اتخاذه دون تفكير في العواقب ، نتيجة للعب عاطفي على علاقات صداقة قديمة .

ويتدفق الأوروبيون في عهده على مصر ، باحثن عن الثروة في مشاريع الوالي المجزية ومكثرين إساءات استخدام الثقة . ويستفيد القناصل الأوروبيون من الموقف لتحويل اتجاه الامتيازات . ويتمتع الأجانب بحصانة تتحول الى حق إفلات من العقاب عن حالات نصب واحتيال واختلاس حقيقية . على أن الدولة تواصل تحديث نفسها في عهده وتكتسب بشكل مطرد خصائص أوروبية مع انشاء وزارات لها مجالاتها المحددة جيداً ، وتشكل مجلس دولة حقيقياً . ويجري استئناف الأشغال العمومية بتعاون وثيق بين المهندسين المصريين والأخصائيين الأوروبيين . ويجري تشجيع علم المصريات وكذلك الأعمال والمؤلفات العلمية .

وتتمثل لحظة عظيمة في استعادة المعهد (المجمع العلمي) المصري في عام ١٨٥٩ .

ويسمح چومار ، آخر الباقين على قيد الحياة من أعضاء المعهد الذي أنشأته الحملة الفرنسية في مصر ، بتأكيد الاستمرارية والتواصل مع المعهد الذي أنشأه بوناپارت . والحال أن ايديولوچية التنوير المطبقة على مصر تنتصر في خطاب هذه الجمعية العلمية الجديدة التي يتواجد فيها موظفون كبار فرانكوفون ، وقدامي البعثات الدراسية كالطهطاوي ، والمهندسون والعلماء الأوروبيون الموجودون في أوروبا ، كما نرصد في هذه الجمعية كإعضاء شرفيين أو مراسلين رينان الشاب وكذلك عبد القادر (الجزائري) الموجود في المنفي في سوريا .

ويذكِّرُ المعهد بأن مصر هي مهد أعرق حضارة وبأن أحفاد الفراعنة اليوم بسبيلهم الى أن يستعيدوا ، بفضل مبتكرات أوروبا ، مجد أسلافهم (٤١) .

وفي عام ١٨٦١ ، يحتفي الطهطاوي في قصيدة كبري بالعربية ، تليت في المعهد ، بعملية تمدين مصر :

وإن أردت أن تـــري فـــخـــاره	*	أراك وابـــور الـعـــلا بـخـــاره
أنفـاسـه تـصـعـد افـتـخـاره	*	نحـو الـسـمـا شكراً علي الفعـال
والـسـلـك وحي صـادق أمـين	*	يـبلـغ الأخـبـار لايمـيـن
ولـو تـواريّ سـره الـكـمـين	*	حـالأ يـوديـه بـلا إمـهـال
———	*	———
عـسي تُري في ترعـة السـويس	*	يومـاً وقـد قـامت مـقـام العيس
حـاكـمـةً سـفـايـن الجـنـوس	*	حـاسـمـةً عـلايـق الجـدال
———	*	———
قـايلـةً أيقـظـني الـسـعـيـد	*	مـن رقـدة أمـدهـا بعـيـد
وجـمـع شـمـلـي بالـعـلا مـوعـود	*	وهو علي الكمال ذو اشتمال (٤٢) .

(الاشارة في البيتين قبل الأخيرين الى السفن المصرية وفي البيتين الأخيرين الى الآثار الفرعونية المجموعة في عهد سعيد في المتحف المصري . – المترجم)

إسمـــاعيل

وهكذا ففي ظل سعيد ، تصبح الايديولوچية التمدينية من جديد هي التيمة الكبري للمدائح الموجهة الى أسرة محمد على ، مع التشديد بشكل خاص على التكنولوچيا الحديثة

والماكينات البخارية والكهرباء . إلاَّ أنه في الوقت نفسه يبدو أن تحرير **الفلاح** قد تحقق . على أن الهاجس التمديني سوف يبلغ أوجه في ظل اسماعيل . وعلى مدار عهده سوف تتكرر كلمة التمدن بلا كلل . وهي ترمز في آن واحد الى اتساع المشروع السياسي لأول الخديويين والى مواصلة العمل الذي اضطلع به جده محمد على ووالده ابراهيم باشا (وحجب حكمي عباسْ وسعيد) . وخطابه بتاريخ ٢٥ نوفمبر ١٨٦٦ أمام مجلس شوري النواب هو خطاب بليغ الدلالة في هذا الصدد :

« من المعلوم أن جدي المرحوم حين تولي مصر وجدها خالية عن آثار العمار ، ووجد أهلها مسلوبي الأمن والراحة ، فصرف الهمم العالية لتأمين الأهالي وتمدين البلاد بإيجاد الأسباب والوسائل اللازمة الى ذلك ، حتى وفقه الله لما أراده من تأسيس عمارية الأقطار المصرية . وكان والدي عوناً له ونصيراً في حياته ، فلما آلت اليه الحكومة المصرية إقتفي آثر أبيه في إتمام تلك المساعي الجليلة ، بكمال الجد و الاجتهاد ، فلو ساعده عمره لكملها على أحسن نظام » (٤٣) .

وفي هذا الخطاب ، لايتحدث اسماعيل عن انتماء مصر للدولة العثمانية . على العكس ، إنه يستخدم عدة مرات مصطلح الوطن . وبعيداً عن أن يكون ذلك المصطلح مخلوقاً مصطنعاً من مخلوقات سياسته ، فإنه يدل على الاعتراف بظهور نشيط بشكل مطرد لوعي قومي مصري يعتبر مفكرون كالطهطاوي أنصاراً له . وهذه المَصرية تجمع جميع المصريين الأصلاء وكذلك جميع المتمصرين الذين يشكلون النخبة الموجودة في السلطة والملتفة حول العائلة الحاكمة . والحال أن انشاء دولة قوية بما يعني وجود جماعة سكانية متجانسة ، وضرورة تأكيد استقلال سياسي عن الباب العالي قد قادا الأسرة الحاكمة الى تأكيد نفسها بشكل مطرد كأسرة مصرية ، وهو مصطلح يعني اتحاد **الفلاحين** مع المصريين الجدد الى هذا الحد أو ذاك . والأرمني نوبار ليس آخر من يزعم لنفسه مثل هذه الهوية .

وداخل أوساط الفئة الحاكمة ، فإن استخدام العربية يحل تدريجياً محل استخدام التركية بينما تصبح الفرنسية بشكل مطرد علامة الانتماء الى هذه النخبة المتحضرة والتمدينية . ولا يعود التمدن مجرد مشروع تتولاه سلالة حاكمة ، فهو عين معني واتجاه تاريخ مصر . فقد أسست مصر الحضارة منذ مستهل الأزمنة التاريخية . والقرن التاسع عشر هو تجديد لهذا التاريخ . والحال أن مصر القديمة إنما تصبح ، بفضل علم المصريات الذي أنشأه الأوروبيون ، إحدي مكونات الوعي القومي الآخذ في الانبثاق . والوطن هو الموقع الذي تنشط فيه الحضارة ويتوجب على جميع المصريين أن يكونوا فخورين بالدور التاريخي المميز الذي هو دور بلدهم .

السـويس

إن العمل الحضاري بإمتياز هو حفر قناة السويس . وبعد إقامة السان - سيمونيين في الجزائر ، فإنهم يعاودون الاهتمام بمشروعهم القديم . وهم يؤسسون في عام ١٨٤٦ جمعية الدراسات الخاصة بالأعمال التي يجب الاضطلاع بها من أجل حفر قناة مهمتها ايجاد إتصال سالك بين البحر الأحمر والبحر المتوسط . ويجب للمشروع أن يكون دولياً سعياً الى إبراز مثلهم الأعلى المتمثل في تحقيق السلم العالمي عن طريق تشجيع الصناعة وتجنب حدوث مواجهة بين الدول العظمي من أجل السيطرة على القناة . لكن الظرف سيء : فقد تم امتصاص الرساميل الأوروبية بشكل بالغ من جراء « حمي السكك الحديدية » ثم من جراء الأزمة الاقتصادية التي تؤذن بنشوب ثورات عام ١٨٤٨ . وفي مصر نفسها ، فإن محمد على يبدو دائماً مرتاباً في قناة يمكنها أن تجازف بزيادة التدخلات الأوروبية . وعباس يواصل هذه السياسة ويكتفي بإنشاء سكة حديدية تربط بين السويس والقاهرة والاسكندرية . وتكتفي جمعية الدراسات بإجراء بحوث استطلاعية للساحة وتستخدم في ذلك البحوث المستقلة التي قام بها لينان دو بيلفون ، رئيس مهندسي الطرق والكباري المصرية . ويري انفانتان أنه يجب فرض المشروع على مصر من جانب الدول الأوروبية باسم مصالح الحضارة .

وعندئذ يتدخل فردينان دليسبس ، الذي كان نائباً للقنصل في مصر ، في زمن إقامة السان - سيمونيين . وهو يقلب معطيات المشكلة : إن حفر القناة يجب أن يكون شأناً مصرياً خالصاً . وهو يتحرك بشكل مباشر لدي سعيد ، مستخدماً علاقات الصداقة القديمة التي كان والده ، ثم هو نفسه ، قد تمكنا من إقامتها بين عائلته والسلالة الحاكمة . و بفضل تدخلاته لدي الوالي ، فإنه يحصل في نوفمبر ١٨٥٤ على فرمان أول بالإمتياز . وبالنسبة لسعيد ، فإن المشروع يخدم بالدرجة الأولي في تأكيد استقلال مصر ، وتمييزه بالانتقال من خلافة الأكبر سناً في منصب الوالي (نقل السلطة الى الأكبر سناً في العائلة) الى الوراثة المباشرة (الى أكبر أبناء الوالي) ، مما يتطلب تواطؤ أوروبا . وكما بالنسبة لمؤسس السلالة الحاكمة ، فإن على أوروبا مكافأة العمل التمديني الذي يضطلع به الوالي بالضغط على الباب العالي سعياً الى انتزاع أكبر استقلالية ممكنة لمصر و لسادتها (٤٤) .

ويحاول السان - سيمونيون عرقلة تحرك فردينان دليسبس بتنشيط مشاريع مضادة لن يكتب لها النجاح ، ومن هنا الخصام الذي لاعلاج له بين الديبلوماسي المستثمر وأصدقائه القدامي (٤٥) . وفي المقابل ، فإن لينان دو بيلفون ينحاز الى صف دليسبس : وسوف تكون بحوثه ضرورية بالنسبة للخيار النهائي للمشروع .

وقد حصل دليسبس ليس فقط على التصريح بحفر القناة ، وإنما أيضاً على امتيازات

ملحوظة في الأراضي المجاورة لها كما حصل على تمويل جزئي لمجمل المشروع من جانب مصر . وهو يصطدم بالمعارضة المباشرة من جانب انجلترا التي تخشي من تشكل جيب فرنسي حقيقي في الأرض المصرية ، قرب سوريا ، كما من جانب الباب العالي الذي يحتاج الى استعادة سلطته على مصر . والوضعية الدولية لمصر هي أحد الرهانات الأساسية للفصول المعقدة لحكاية حفر القناة . والمفاوضات بين فرنسا وانجلترا والباب العالي ومصر حول مدي الامتياز الممنوح للشركة العالمية لقناة السويس إنما تسير في اتجاه خفض حجم الأراضي الممنوحة للشركة بهدف إرضاء الانجليز . وبما أن المكون المالي الذي يحوزه دليسبس هش تماماً ، بما ينبيء بالفعل عن المكون المالي الأكثر كارثية لمشروع قناة بنما ، فإن المستثمر الكبير ينجح في استخلاص إعانات ضخمة تسمح بإنجاز حفر القناة . أمّا بالنسبة لنوبار ، فإن عين واقع وجوب التعامل مع مصر على المستوي الديبلوماسي إنما يعد بالفعل في حد ذاته نجاحاً لها(٤٦) .

والاحتفالات الباذخة بافتتاح القناة في عام ١٨٦٩ في حضور الامبراطورة أوچيني وعدد كبير من الشخصيات الفرنسية والأوروبية إنما ترمز الى هذه الرغبة في شد اهتمام أوروبا سعياً الى تأكيد استقلال مصر باسم عملها الحضاري .

المحاكم المختلطة

خارج هذا التأكيد القومي الذي أعَدَّ له بالفعل التعريف الجماعي لجزء كبير من السكان بأنه **فلاح** ، فإن مسألة التمدن إنما ترتبط بمسألة علاقة غير متكافئة مع الغرب خلقتها الامتيازات (الأجنبية) وخاصة اساءات استخدامها .

والحال أن النخبة الموجودة في السلطة إنما تدين بكل شيء للأسرة الحاكمة التي قدمت لها حكرات أرض وذلك في آن واحد من باب شكرها على ماقدمته من خدمات ، وسعياً الى ربطها بأرض مصر (ومن ثم فصلها عن اجتذاب عثماني وارد) ، والى تشجيع استثمار الأراضي في زمن أدت فيه قلة البشر والمال الى جعل وادي النيل مكاناً منخفض الاستثمار نسبياً . لكن هذه النخبة ، العليمة الآن جيداً بالثقافة السياسية الأوروبية ، تخشي من أن يحاول خديوي "قوي" - ويمكن لاسماعيل أن يظهر بهذه الصفة - استعادة حكرات الأرض لاستثمارها لحسابه هو وحده . وهي بحاجة الى أن تصبح حقوق الحيازة هذه ، الهشة الى هذا الحد أوذاك ، حقوق ملكية حقيقية كما حدث في أوروبا بعد الثورة الفرنسية . ومن جهة أخري ، فإن تعديات القناصل الأوروبيين تصبح غير محتملة بشكل متزايد في حياة مصر العملية ومبرر المزايا الممنوحة بموجب الامتيازات إنما يستند هو نفسه على حالة التمدن الدنيا

في مصر والتي لاتكفل البتة ، للأوروبيين في مصر ، دولة قانون حقيقية . وتدخلات القناصل هي تكذيب دائم للدعوي التمدينية للنخبة الحاكمة .

وهكذا فسوف يصبح نوبار باشا هو المتحدث بلسان الوعي القومي المصري الذي تجرحه دعوي عدم المساواة ، وبلسان الطبقة الحاكمة الراغبة في إقامة دولة قانون حقيقية تسمح لها أخيراً بالتمتع في سلام بالممتلكات التي حازتها من خدمة الأسرة المالكة . ومن جراء ذلك عينه ، سوف يستفيد مجموع السكان المصريين من دولة القانون هذه (٤٧) . وهذا هو مجمل رهان التفاوض الديبلوماسي الطويل الذي أدي الى انشاء المحاكم المصرية - الأوروبية المختلطة والتي ، بالنسبة للمشجع على قيامها ، سوف تؤدي ، عن طريق العدوي ، الى دفع مجمل القانون الممارس في مصر الى اتخاذ جوهر ومظهر القانون الأوروبي و النابوليوني بشكل أكثر تحديداً . أما خصوم المحاكم المختلطة ، المتمسكون بالدفاع عن المحاكم القنصلية ، فهم على العكس من ذلك راغبون في اثبات أن مصر لم تتمدن بما يكفي للسماح بمعاملة الأوروبيين والمصريين على قدم المساواة . وهذا هو معني تقرير اللجنة الفرنسية المكلفة في عام ١٨٦٧ بدراسة مسألة المحاكم المختلطة : «وفقاً لعدد كبير من الوثائق وغالبية الشهادات التي تم الإدلاء بها في الاستطلاع ، فإن مصر سوف تظل بلداً يتميز بتمدن غير ناجز بعد ، حيث سوف يحول الاختلاط الأكثر تنوعاً للأجناس وللأعراف وللعادات وللمعتقدات الدينية وللحالات الاجتماعية دون امكانية تحقق وحدة التشريع و القضاء » .

إن غياب الفصل بين السلطة الادارية و السلطة القضائية ، وغياب النظام في مختلف الخدمات العامة ، ووجود سلطة مطلقة للوالي الذي يملك ملكية خاصة جزءاً كبيراً من النشاطات الاقتصادية للبلد ، ووجود حالة من النوع نفسه بالنسبة لأعلى الموظفين مقاماً ، وغياب إدارة نظامية وقوانين محددة ، كل هذه السمات ، وفقاً للجنة ، تجعل تمدن مصر غير ناجز . ولذا فمن الضروري الإبقاء على الضمانات التي يتمتع بها الأوروبيون المقيمون في مصر : « إن تعديل هذه الضمانات ، أو تقييدها ، سوف يؤدي الى تعطيل التعاملات بين الأوروبيين والأهالي وإعادة مصر الى حالة العجز التي كانت فيها قبل أن يجيء لها العنصر الأوروبي بالحياة و بالنشاط وبمباديء الحضارة » (٤٨) .

والحال أن المفاوضات التي بدأت في عام ١٨٦٢ سوف تستمر حتى عام ١٨٧٦ ، تاريخ افتتاح المحاكم المختلطة الأولي . وسوف تُقَابَلُ هذه المحاكم في البداية على أنها تحرر لاجدال فيه من تعقيدات ومثالب المحاكم القنصلية وذلك قبل أن تواجه في القرن العشرين بالنقد كأثر مزعج من آثار زمن الامتيازات . ومن المفارقات أن مصر التي كانت في مقدمة تحرر البلدان العثمانية الآسيوية والأفريقية سوف تكون آخر بلد في المنطقة يستفيد من الغاء الامتيازات في

عام ۱۹۳۷ . ومن الواضح أن هذا الانقلاب في الوضع إنما يرجع الى الاحتلال البريطاني في عام ۱۸۸۲ و الى الفصول (التاريخية) التي تلته ، لكن هذه قصة أخري . أما في سبعينيات القرن التاسع عشر ، فإن انشاء المحاكم المختلطة قد نظُر اليه على أنه خطوة أولي رئيسية نحو المساواة في الحقوق بين الأوروبيين والمصريين .

الامبراطورية الاستعمارية المصرية

وهذا التطور نفسه يتكرر في تاريخ توسع مصر الاستعماري . ففي بداية عشرينيات القرن التاسع عشر ، اضطلع محمد على بفتح السودان ، متجاوزاً لأول مرة الحدود التقليدية لمصر الاسلامية على طوال وادي النيل . وإنشاء الخرطوم عند ملتقي النيل الأزرق والنيل الأبيض هو لحظة أساسية للإختراق العلمي للقارة السوداء . ومن جهة أخري ، فإن محمد على قد أجاز وشجع وجود الرحالة الأوروبيين في جيوشه . والحال أنه يمكن بشكل مشروع اعتبار العمل الضخم الذي كتبه كايو ، **رحلة الى ميرويه ، الى النهر الأبيض ، الى ماوراء فازوقل ، الى جنوب مملكة سنار ، الى سيوه ، والى خمس واحات أخري تم القيام بها في أعوام ۱۸۱۹ و ۱۸۲۰ و ۱۸۲۱ و ۱۸۲۲** [٤٩] ، تكملةً لكتاب **وصف مصر** ، لاسيما وأن جومار قد تعاون مادياً في العمل[٥٠] .

وبعد الاستيلاء على النيل السوداني ، ليس دون أعمال عنف رهيبة ، يوجه محمد على التوسع المصري نحو السيطرة على الضفة السودانية لِلبحر الأحمر . وهكذا ففي الشطر الأول من القرن التاسع عشر ، تعتبر مصر الدولة الوحيدة التي تحوز ملكوتاً قارياً حقيقياً في أفريقيا السوداء . لكن سياسة محمد على ، بالرغم من رحلته الشهيرة الى السودان في ۱۸۳۸ - ۱۸۳۹ ، تعرف أولويات أخري مع نشوب الحروب السورية . على أن محمد على يمول بعثات استكشافية على امتداد النيل الأبيض في اتجاه داخل قارة افريقية غير معروفة بالكامل بعد . وهذه البعثات تفتح الطريق أمام تجار العاج والعبيد . وهؤلاء التجار يقتحمون مناطق غير معروفة بعد يقومون بتدميرها في مطارداتهم . على أنهم ينشئون شبكة كثيفة نسبياً من المنشآت المحصنة ، المسماة **بالزريبه** .

والحال أن النمو السريع لتجارة العبيد في أفريقيا الشرقية والوسطي في لحظة توصلت فيها الدول الأوروبية الى منعها وخاصة الى القضاء عليها في الأطلسي ، إنما يستثير سخط الحركات المضادة للرق . وتستفيد الحكومة الانجليزية من ذلك لكي تمارس ضغوطاً جد قوية على مصر سعياً الى غاية انسانية وسياسية في آن واحد : الحد من ممتلكات أسرة محمد على بالقضاء على محرك التوسع المصري على امتداد النيل .

ويرد اسماعيل بالاضطلاع في آن واحد بتلبية المطالب الانجليزية مع تكوين امبراطورية

استعمارية حقيقية على غرار امبراطورية الأوروبيين . وهو ينظم حملات استعمارية مزودة بإمكانات جد مهمة وموجهة الى تكوين مديريات جديدة تديرها مصر . ولما كان عليه أن يأخذ في حسبانه التحذيرات الأوروبية ، فإنه يلجأ الى مستكشفين وعسكريين أوروبيين مثل صمويل بيكر و جوردون باشا الشهير . وحيثيات فرمان عام ١٨٦٩ دالة على التبريرات التي يستخدمها الخديو : « نحن اسماعيل ، خديو مصر ، آخذين بعين الاعتبار الحالة المحزنة لقبائل حوض نهر النيل ، وأنه لاتوجد في تلك الأصقاع لاحكومات ولاقانون ولا أمن ، وأن الانسانية تحتم القضاء على صائدي العبيد الذين يحتلون تلك الأصقاع بأعداد كبيرة ، وأن انشاء تجارة قانونية في تلك الأصقاع سوف يشكل خطوة كبري في اتجاه التمدن ولابد له من أن يترتب على فتح البحيرات الاستوائية الكبري لوسط أفريقيا أمام الملاحة البخارية وعلى انشاء حكومة دائمة :

« أعلنا ورسمنا بما هو آت : تنظيم حملة لبسط سلطتنا على الأصقاع الكائنة جنوبي جوندوروكو ، وللقضاء على تجارة الرقيق ولادخال نظام تجاري منتظم ، ولفتح بحيرات خط الاستواء الكبري أمام الملاحة ، ولانشاء سلسلة من المحطات الحربية الحامية للمشروعات التجارية ، حيث تفصل بين كل محطة وأخري مسيرة ثلاثة أيام في وسط أفريقيا (. . .)

« وتعهد القيادة العامة لهذه الحملة الى السير صمويل و . بيكر ، لمدة أربع سنوات ، اعتباراً من أولّ ابريل ١٨٦٩ . وقد خولناه السلطة المطلقة ، وحق التصرف في أرواح جميع أولئك الذين يشكلون هذه الحملة والهيمنة العليا نفسها على جميع الأصقاع المنتمية الى حوض نهر النيل ، والكائنة جنوبي جوندوروكو (غندكرو)[٥١]» .

وهكذا يجري تنظيم مديريات جديدة كمديرية خط الاستواء ومديرية بحر الغزال . ويتم التعرف على البحيرات الأفريقية الكبري ويصل التوسع المصري حتى أوغندا حيث تنجح الممالك الافريقية ديبلوماسيا وعسكرياً في وقف التوسع المصري .

وكما حدث في أوروبا ، يتم تأسيس جمعية جغرافية في القاهرة في عام ١٨٧٥ سعياً الى استغلال وتنسيق أعمال المستكشفين . و تستعيد مصر الايديولوچية الاستعمارية الخاصة بالرسالة التمدينية استعادة سافرة وتستخدمها في تبرير مشروعها الافريقي . والحال أن خطاب الجمعية الجغرافية التي يلتقي فيها مصريون وأوروبيون وأمريكيون إنما يشير بشكل واضح الى هذه المشاركة من جانب مصر في حمل عبء الرجل الأبيض : « على عاتق مصر ، تقع الرسالة العظمي ، رسالة إحياء هذه الأقوام (شعوب الجنس الأسود) ، واجتذابها اليها ، وتخليصها من جهلها التاريخي ؛ وعليها أن تتخذ ، لمنع تجارة الرقيق ، تدابير جذرية ، تحمل الى هذه الأقوام غصن السلم لا السيف ، ومعرفة الخير لا الشر ، وتجعلها تحترم تمدناً هي الأمينة على حمل رايته وتحمل لها الرفاه والمعاملة الانسانية .

« ومصر مؤهلة للتمهيد لهذا المستقبل النبيل ؛ فلتنجز إذاً رسالتها لما فيه خيرها وخير العالم كله ، وسوف تشتهر بخدمة الانسانية والتمدن العالمي »(٥٢) .

والحال أن الاحتلال البريطاني في عام ١٨٨٢ والانتفاضة المهدية السودانية الكبرى سوف يدمران هذه الامبراطورية الاستعمارية المصرية التي يجهلها كثيرون من المؤرخين(٥٣) . وسوف تستفيد انجلترا من ذلك لكي تنظم جلاء مصر عن المديريات الاستوائية سعياً الى القضاء على أية مطالب مصرية في هذه المناطق ، والتي لن يعاد استعمارها إلا بعد عدة سنوات وذلك لحساب الامبراطورية البريطانية وحدها . والسودان الذي أعيد فتحه هو وحده الذي سوف يصبح في عام ١٨٩٩ تحت الادارة الأنجلو - مصرية ، لكن فكرة وحدة وادي النيل سوف تظل لوقت طويل تيمة لها شعبيتها لدى القوميين المصريين .

نهاية قصة سعيدة

وهكذا ، فإن مصر ، عشية أزمة أواخر سبعينيات القرن التاسع عشر التي سوف تؤدي الى احتلال البريطانيين للبلد في عام ١٨٨٢ ، يمكنها تصور تحقق المشروع التمديني والقومي ، على نحو ما طرحه أولاً بونابارت ثم استأنفته أسرة محمد على الى الدرجة التي أصبح معها ايديولوجية تبريرية : فنحن بإزاء استقلال متزايد باستمرار عن سيادة الباب العالي ، وبازاء مجتمع متجانس بشكل مطرد يميل الى أن يحدد لنفسه هوية مشتركة مصرية تكفلها المآثر المجيدة لجيوش مؤسس الأسرة المالكة ، وبإزاء سياسة أشغال (عمومية) كبرى تحول مجمل بيئة وادي النيل في منظور إنتاجي ، وبإزاء امبراطورية استعمارية افريقية يكتشف فيها المصريون بدورهم لأنفسهم رسالة تمدينية تجاه متوحشي افريقيا السوداء ، وبإزاء تبن متعاظم لمدونات القوانين الأوروبية بما يسمح بتحديد ملامح دولة قانون ، وبإزاء قناة سويس تصل الشرق بالغرب . ويبدو أن نبوءات أسير سانت - هيلين تتحقق و ، في جميع هذه الفصول التاريخية ، تعتبر فرنسا موجودة الى الدرجة التي تدفع بقية أوروبا الى تصور أن حركة مصر الكبرى هي من خلق فرنسا جزئياً . والواقع أن استخدام اللغة الفرنسية ينتشر دائماً بإطراد ، الى الدرجة التي تصبح معها اللغة المعتادة من جانب جزء من النخبة السياسية ومن الادارة .

لكن قصة مصر السعيدة تنتهي آنذاك . فأوروبا ، التي شجعت كثيراً هذه التحولات التي عرفتها مصر ، سوف تشكك في واقعيتها وسوف تؤكد على أن تمدن مصر الحقيقي لن يحدث إلاّ في زمن جد بعيد بفضل سيطرة أوروبية مباشرة .

وقبل النظر في مداخل ومخارج الرفض الأوروبي ، لننظر أولاً في ما إذا كانت النماذج الأخرى للوجود الفرنسي في العالم العربي قد عرفت تطوراً مشابهاً .

حواشي الفصل الثاني

١ - حول جميع هذه المسائل انظر الفصل الثاني من كتاب هنري لورنس, *L'Expédition d'Égypte*, Armand Colin, Paris, 1989

(انظر ترجمتنا العربية : **الحملة الفرنسية في مصر ، بونابرت والإسلام** ، سينا للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٥ . - المترجم) .

٢ - بالمعني الدقيق للمصطلح ، يحيل «الباب العالي» الى مبني الصدارة العظمي في القسطنطينية ؛ وهو يشير ، بتوسيعه ، الى مجمل السلطة المركزية العثمانية .

٣ - الجبرتي ، **(عجائب الآثار)** ، ١٣ صفر ١٢٢٠ .

٤ - الجبرتي ، **(عجائب الآثار)** ، ٢٥ صفر ١٢٢٠ .

٥ - Georges Douin, *Correspondance des consuls de France en Égypte. Mohamed Aly, pacha du Caire (1805 - 1807)*, Le Caire, 1926 , p. 30 من دروفيتي الى باراندييه ، ٢٢ مايو ١٨٠٥ .

٦ - من روفان الى تاليران ، ٢٠ يوليو ١٨٠٥ ، *Ibid.*, p. 61

٧ - من باراندييه الى تاليران ، ٢٢ يونيو ١٨٠٥ ، *Ibid.*, p. 51

٨ - هذه هي عين اللغة التي استخدمها سيباستياني في عام ١٨٠٢ خلال بعثته في مصر ، أنظر H. Laurens, "L'Égypte en 1802 : un rapport de Sébastiani", *Annales islamologiques*, XXIII (1987), pp. 111 - 112

٩ - من تاليران الى دروفيتي ، ٢٢ يوليو ١٨٠٥ Georges Douin, *Correspondance des consuls de France en Égypte. Mohamed Aly, pacha du Caire (1805 - 1807)*, Le Caire, 1926, pp. 62 - 63

١٠ - تقرير حول الوضع في مصر من ١٤ الى ٢٧ ديسمبر ١٨٠٦ ، *Ibid.*, p. 147.

١١ - من دروفيتي الى الوزير ، ١٩ أبريل ١٨١١ ، في Édouard Driault, *Correspondance des consuls de France en Égypte. Mohamed Aly et Napoléon (1807 - 1814)*, Le Caire, 1925, p. 119. Afaf Lutfi al - Sayyid Marsot, *Egypt in the Reign of Muhammad Ali*, Cambridge University Press, 1984, pp. 196 - 200

١٢ – انظر برقية القنصل بيافوان من الاسكندرية ، ١٩ يوليو ١٨١٩ ، في Édouard Driault, *Correspondance des consuls de France en Égypte. La Formation de l'Empire de Mohamed Aly de l'Arabie au Soudan (1814 - 1823)*, Le Caire, 1927, pp. 159 - 160

١٣ – *Ibid.*, p. 80 : برقية تيدينا – دوقان ، ٢٠ أغسطس ١٨١٧ : «لا يمكن للمرء ألا يوافق على أن هذا الباشا ليس رجلاً عادياً ؛ وأنه في ظل التواصل الثلاثي بين التمدن ووقف التعديات وكفالة أمن الإفرنج ، فإن حكمه يعد أنسب بما لا حد له من حكم المماليك الذين قضي عليهم وأنه سوف يكون مقدراً له أن يلعب دوراً أروع بكثير من دور المحتكر الذي يدفعه الى لعبه ، لأجل مصالحهم الخاصة ، الأوغاد الذين يحيطون به والذين باعوا أنفسهم لأولئك الذين يجب عليه أن يخشاهم أكثر من سواهم» .

١٤ – Georges Douin, *Correspondance des consuls de France en Égypte. La Formation de l'Empire de Mohamed Aly (1814 -1823)*, Le Caire, 1927, p. 220

١٥ – *Ibid.*, p. 242 .

١٦ – Marcellus, *Souvenirs de l'Orient*, 3 e édition, Paris, 1861 «إني لأعبر عن أسفي لأنني اعتبرت نفسي ملزماً بالتزام الصمت فيما يتعلق بمحاوراتي الحميمة مع الباشا . لقد كان عليّ آنذاك أن أبلغ باريس بها» .

١٧ – Anouar Louca, *Voyageurs et éctivains égyptiens en France au XIX e siècle*, Paris, 1970, p. 33

١٨ – على سبيل المثال ، في عام ١٨٢٥ ، تلك المعلومات الواردة في *Bulletin de La Société de géogaphie* (III, p. 43) : «وصل الى باريس شاب على ارتباط ببلاط عزيز مصر ، هو ابن أخت الوزير يوسف بوغوص . وقد أفادنا بأن مدرسة بولاق قد فتحت فصولها لعدد كبير من الطلاب . وقد أمر الأمير (محمد على . – المترجم) بتدريس اللغات والرياضيات لهم . وتترجم لهم الى العربية مؤلفات فرنسية وإيطالية . والدروس مجانية بل إنهم (الطلاب . – المترجم) يحصلون على إعانة . ويدير المدرسة حاجي (الحاج) عثمان نور الدين ، الذي رأيناه في باريس في عام ١٨٢٢ . وينقل التلغراف الأنباء من القاهرة الى الإسكندرية في أربعين دقيقة . وقد تم إنشاء دار للطباعة في بولاق وهي في عنفوان النشاط : إنها تضم أربعين عاملاً . والحال أن بذور الحضارة هذه سوف تؤتي ثمارها ؛ إنها ترجع الى زمن الحملة الفرنسية» .

١٩ – من شاتوبريان الى محمد على ، ٩ مارس ١٨٢٤ ، Édouard Driault, *Correspondance des consuls de France en égypte. L'Expédition de Crète et de Morée*, Le Caire, 1930, pp. 8 - 9

٢٠ – ترد مذكرة شاتوبريان في الكتاب الثالث من *Mémoires d'outre - tombe* ، الأمر الذي يوضح الأهمية التي يوليها الكاتب اليها .

٢١ – يرد مقتطف من مذكرة شاتوبريان ومن موافقة شارل العاشر عليها في Alfred Nettement,

أما مذكرة بوالكونت فقد *Histoire de la Restauration*, Paris, 1872, t. VIII, pp. 307 - 308
نشرها Nettement, في المصدر السابق ، ص ص ٣٠٩ - ٣١٥ وحللها *Cent* T . G. Djuvara,
projets de partage de la Turquie (181 - 1913), paris, 1914

ويرتكب شارل أندريه چوليان Charles - André Julien في كتابه *Histoire de l'Algérie contemporaine* (Paris, t. I, 1964, p . 34) خلطاً ، يرجع على الأرجح إلى قراءة متسرعة لكتاب Gabriel Esquer, *La Prise d'Alger* (Alger 1923, pp. 121 - 122). ويشير الى أنه «إذا كان يتحدث عن استقلال مصر ، فإن من غير الوارد عنده الحديث عن مستقبل الجزائر» .
فالواقع أن بوالكونت لا يذكر لا الجزائر ولا مصر .

٢٢ - الملف الكامل لهذه المسألة جمعه چورج دوان Georges Douin في كتابه *Correspondance des consuls de France en Égypte : Mohamed Aly et l'expédition d'Alger*, Le Caire, 1930
ويحمل مشروع دروڤيتي تاريخ الأول من سبتمبر ١٨٢٩ : «إن محمد على ، عزيز مصر ، لن يكون بعيداً عن أن يرسل ، بالاتفاق مع فرنسا ، جيشاً لفتح هذه البلاد وتحويلها الى عين حالة التمدن والارتباط تجاه الباب العالي العثماني ، التي توجد فيها مصر الآن . ولن يكون هناك شك في النجاح .
فالجيش المصري ، المؤلف برمته تقريباً من (مصريين) من أهل البلد لن يكون عليه أن يخشى شيئاً من تأثير المناخ ، و ، بتزويده بجميع إمكانات البلد الخاصة ، لن يواجه صعوبات كبيرة في اجتياز الصحراء .
ومن جهة أخري ، فإن بوسع عزيز مصر أن يستخدم العرب البدو الذين يحتلون هذه الصحراء بين مصر وطرابلس (الغرب) . إنهم قوة مساعدة قوية سوف تتزايد قوتهم مع الزحف ، عبر السهولة التي سوف تتوافر لمحمد على ، عن طريق بضع تضحيات مالية ، في أن يضع في خدمة مصالحه البدو الذين سوف يجدهم في طريقه . بل إنه سوف يجد ، لإخضاع سكان باربار يا (بلاد البربر . - المترجم) ، مورداً خاصاً تماماً وأكيد المفعول ، هو التهديد بالحيلولة دون حجهم الى الأماكن المقدسة للديانة الإسلامية ، والذي يتم مروراً بمصر . والحال أن هذه الشعوب المتهوسة والمتمسكة تمسكاً جد عميق بما يمليه دينها ، الذي تعد زيارة قبر النبي إحدي فرائضه الأساسية ، لن تصمد أمام الخوف من حيلولة كهذه . أما الإمكانات العسكرية لطرابلس ولتونس فلن توقف الجيش المصري . وقد تبدي الجزائر وحدها شيئاً من المقاومة ، إلاّ أنها لن تكون (مقاومة) طويلة الأمد . إن الداي ، إذ يتخلي عنه العرب الذين يكفلون (أمن) مؤخراته ، وإذ تهاجمه القوات المصرية من البر ويهاجمه الأسطول الفرنسي من البحر ، سرعان ما سوف يرحل مع جماعته الى بلاد تركيا» (p. 2) .

٢٣ - *Ibid* ، من پولينياك الى الچنرال جيمينو ، ١٠ أكتوبر ١٨٢٩ ، p. 11 .

٢٤ - *Ibid.*, p. LXXV

٢٥ - Clot Bey, *Aperçu général de l'Égypte*, Paris, 1840

(انظر ترجمة محمد مسعود العربية لكتاب أ . ب . كلوت بك : **لمحة عامة الى مصر** ، دار الموقف العربي ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٨٢ ، الجزء ٣ ، ص ١٦٩ - ١٩٥ - المترجم) .

٢٦ – الإسكندرية ، ٣ يوليو ١٨٣٣ ، Georges Douin, *Correspondance des consuls de France en Égypte. La Mission de Boislecomte, l'Égypte et la Syrie en 1833*, Le Caire, 1927, p. 134

٢٧ – *Ibid.*, pp. 145 - 146

٢٨ – تعليمات الدوق دو بروجلي ، وزير الشئون الخارجية ، الى البارون روسّان ، سفير فرنسا لدى القسطنطينية ، باريس ، ١٣ ديسمبر ١٨٣٢ ، في Adel Ismaïl, *Documents diplomatiques et consulaires relatifs à l'histoire du Liban et des pays du Proche - Orient du XVII e siècle à nos jours*, Beyrouth, 1980, t. XXII, pp. 81 - 82

٢٩ – *Mémoires d'outre - tombe* : fin du livre IV

٣٠ – Pour l' œuvre de Tahtawi, j'ai suivi Gilbert Delanoue *Moralistes et politiques musulmans dans l'Égypte du XIX e siècle*, Le Caire, IFAO, 1982 , II, pp. 384 - 485 et la traduction d'Anouar Louca de *Tahlis* sous le titre *L'Or de Paris*, Paris, 1988

(انظر ، رفاعة رافع الطهطاوي : **الأعمال الكاملة** ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٣ ، الجزء الثاني ، ص ١٦ – المترجم) .

٣١ – Ibn Khaldoun, *Al Muqaddima*, traduction de Vincent Monteil; Paris, 1978, III, pp. 1233 - 1243

(انظر ، **مقدمة** ابن خلدون ، دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٥٣٢ – المترجم) .

٣٢ – *Muqaddima*, II, pp. 780 - 781 «فأكثر أهل الأمصار في الملة لهذا العهد من أعقاب العرب المالكين لها ، الهالكين في ترفها ، بما كثّروا العجم الذين كانوا بها وورثوا أرضهم وديارهم . واللغات متوارثة ، فبقيت لغة الأعقاب على حال لغة الآباء ، وإن فسدت أحكامها بمخالطة الأعجام شيئاً فشيئاً .

«وسميت لغتهم حضرية منسوبة الى أهل الحواضر والأمصار بخلاف لغة البدو من العرب فإنها كانت أعرق في العروبية» (انظر ، **مقدمة** ابن خلدون ، دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٣٤١ – المترجم) .

٣٣ – Traduction de Louca, p. 227

٣٤ – Traduction de Louca, p. 53 : «ولولا أن الإسلام منصورة بقدرة الله سبحانه وتعالي لكان كلا شيء بالنسبة لقوتهم (قوة الإفرنج) ، وسوادهم وثروتهم وبراعتهم وغير ذلك . ومن المثل المشهورة : إن أعقل الملوك أبصرهم بعواقب الأمور . ولهذا تنبه ولي النعم حفظه الله تعالي ، حيث ولاّه الله سبحانه وتعالي على بلاد مصر القاهرة ، أن يُرجع اليها شبابها القديم ، ويحيي رونقها الرميم . فمن مبدأ توليه حفظه الله سبحانه وتعالي وهو يعالج في مداواة دائها الذي لولاه كان عضالاً ، ويصلح فسادها الذي قد كاد أن يكون زواله محالاً ، ويلتجيء اليه أرباب الفنون البارعة ، والصنائع النافعة ، من الإفرنج ، ويغدق عليهم فائض نعمته حتى أن العامة بمصر وبغيرها ، من جهلهم ، يلومونه في أنفسهم

غاية اللوم بسبب قبوله الإفرنج وترحيبه بهم وإنعامه عليهم ، جهلاً منهم بأنه حفظه الله إنما يفعل ذلك لإنسانيتهم وعلومهم ، لا لكونهم نصارى . فالحاجة دعت اليه ولله در من قال :

إن المعلم والطبيب كلاهما لم يبذلا نصحاً إذا لم يكرما

فاصبر لدائك إن جفوت طبيبه واصبر لجهلك إن جفوت معلماً»

(انظر ، رفاعة رافع الطهطاوي : **الأعمال الكاملة** ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٣ ، الجزء الثاني ، ص ١٧ - ١٨ - المترجم) .

٣٥ - الواقع أن المسألة أكثر تعقيداً ، كما تبين ذلك ، في هذه الدراسة ، الأمثلة المقدمة بالنسبة لأواخر القرن التاسع عشر ، حيث يمكن للمرء مقارنة نصوص مصرية مع ترجمتها المعاصرة الى الفرنسية بأقلام مصريين . فنحن لا نرصد منطقاً واضحاً في اختيار المصطلحات بين كلمات **المدنية والعمران والتمدن والحضارة** . واللجوء الى أصل الكلمة سوف يكون خادعاً . وبدلاً من طرح المشكلة من زاوية الترجمة أو التناظر ، لابد من تصور أن النخبة المثقفة المصرية تستخدم جدولي مفردات مختلفين تماماً ، أحدهما بالفرنسية (أو بلغة أوروبية أخرى) ، والآخر بلغة شرقية . ولا إمكانية هناك لتناظر دقيق بين المفردات وليس هناك ما يصدم في العثور على استخدامٍ لعدة مصطلحات عربية كمناظرة لمصطلح «Civilisation» الواحد وحده في الفرنسية .

٣٦ *Œuvres de Saint - Simon et d'Enfantin*, Paris, 1866, t. IX, pp. 183 - 184 من انفانتان الى هور ويرونو ، ١٨ نوفمبر ١٨٣٣ : «من بين جميع المناجم التي يملكها الباشا ، فإن المنجم الأوفر ثراءً والمهمل أكثر من سواه ، هو يهودا ، ليس كأرض ، بل كمركز للعالم اليهودي ، أي للعالم القديم برمته ، لأن اليهودي يغطي الأرض . وعروق معدن هذا المنجم تمتد الى باريس ولندن وبطرسبورج وامستردام وبرلين ؛ إن رودريج وديشتال وبيريير هم رموز العمل الذي يجب أن نضطلع به في هذا المنجم . والحال أن يهودا هي التي يجب أن تكون المناسبة ، الوسيلة لاجتذاب الرساميل التي سوف تخصب مصر : وسوف نوضح للباشا كيف يجب عليه استغلال مصدر الثروات هذا ، وهو تاجر ، وسوف نوضح له من هو رجل البنوك ؛ إن روتشايلد وستيجليتس وهيرتس ومندلسون ، إلخ ، هم رعاياه ، وسوف يدفعون له جزية» . حول صورة «روتشايلد ، ملك اليهود» والعلاقات الغامضة بين المثقفين الشباب اليهود والسان - سيمونية التي أتاحت لهم إطاراً جديداً للاختلاط الاجتماعي لا يعرف أشكال التفرقة المعتادة ، أنظر الكتاب المجدد بالرغم من إمكان الاختلاف عليه الى حد ما أحياناً ، كتاب مايكل جريتس Michael Graetz, *Les Juifs en France au XIX e siècle, de la Révolution française à l'Aliance israélite universelle*, Paris, 1989

٣٧ - *Ibid.*, p. 192 من انفانتان الى فورنيل ولامبير ، ١٧ يناير ١٨٣٤ .

٣٨ - الرواية المعاصرة أكثر من سواها هي رسالة انفانتان الى الآنسة سانت - هيلير بتاريخ ١٩ أغسطس ١٨٣٤ ، في *Œuvres de Saint - Simon et d'Enfantin*, Paris, 1866, t. X, pp. 14 - 27 انظر أيضاً Édouard Driault, *Correspondance des consuls de France en Égypte : L'Égypte et*

Mlle أما مقال *l'Europe, la crise de 1839 - 1841*, Le Caire, 1930, pp. XXIII - XXVI
Ghislaine Alleaume, "Linant de Bellefonds (1799 - 1883) et le saint - simonisme en Égypte" والذي سوف يظهر في أعمال ندوة «**السان سيمونيون والشرق**» ، فهو يقدم دراسة تركيبية رائعة حول تأثير السان – سيمونيين طويل الأجل ، خاصة من خلال المدارس الحديثة .

٣٩ – *Mémoires de Nubar Pacha*, Beyrouth, 1983, p. 29

٤٠ – Françaois Charles - Roux, "L' Égypte de1801 à 1882", in *Histoire de la nation égyptienne*, Gabriel Hanotaux éditeur, Paris, 1936, t. VI, p. 249

٤١ – *Mémoires de l'Institut d'Égypte*, Le Caire, 1862, pp. III - IV : كلمة الإهداء الموجهة من سكرتير المعهد (المجمع العلمي) المصري الدكتور شنيب الى محمد سعيد باشا : «انظروا الى مصر ، إنها البلد المسلم الوحيد الذي يتمتع بخط كامل من السكك الحديدية ، يربط البحر الأحمر بالبحر المتوسط بالفعل ؛ وهي تحافظ على اتصالات متواترة وسريعة عن طريق التلغرافات الكهربائية ، ليس في الدلتا وحدها ، وإنما أيضاً حتى آخر حدود البيداء ؛ وأرضها (الزراعية) موزعة توزيعاً يفيد الأهالي وكل ساكن يصبح مالكاً يمكنه أن يزرع حقله بحرية وأن يورثه بعد ذلك الى أبنائه . وفي الصناعة ، تقابلون المصري ، وهو يدير الوابور ، ويراقب سير الآلات الأكثر تعقيداً ، وينظم استغلال القوة المحركة في المصانع على اختلاف أنواعها ، ويتكيف مع جميع الترتيبات التي توضع فيها اليد العاملة في خدمة الذكاء .

«وإذا كانت بذرة هذا التحرر العظيم عن طريق العمل توجد بالفعل في المؤسسات التي أقامها المؤسس المجيد لأسرتكم ، فالى سموكم وحدكم يرجع الفضل في إنجاز هذه الإصلاحات ؛ ومنذ بضع سنوات ، فإن أحفاد الجنس الفرعوني ، أبناء مصر الحقيقيين ، يصعدون برعايتكم ، سيدي ، الى الوظائف العامة في الجهاز المدني ، كما يصعدون الى الرتب العليا في الجيش . وهذا مصدر أدبي للازدهار ، ليس أقل ضرورة لهذا البلد من النهر الذي يرويه . إنه حافز قوي للجميع ؛ لكنه ، قبل كل شيء ، إنصاف عظيم للجميع . ويعتز المعهد بأنه يضم بين أنشط أعضائه أبناء حقيقيين للأرومة المصرية ، تبرز أعمالهم بشكل متميز في هذا المجلد الأول من مذكراتنا .»

٤٢ – *Ibid.*, pp. 7 - 12

٤٣ – Georges Douin, *Histoire du règne du khédive Ismaïl*, Le Caire, 1933 , I, pp. 302- 303
(انظر ، عبد الرحمن الرافعي : **عصر إسماعيل** ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢ ، الجزء ٢ ، ص ٩٦ – المترجم) .

٤٤ – تصريح سعيد ، الذي أورده چورج – إدجار بونيه George Edgar - Bonnet, *Ferdinand de Lesseps*, Paris, 195, p. 198 : «إن أحد الدوافع التي وجهتني في مظاهر التشجيع التي قدمتها لمشروع قناة السويس ، هو الرغبة في أن أترك لابني وراثة حكم مصر ؛ ووصولاً الى هذا الهدف ، فإنني بحاجة الى أن أكفل لنفسي مساندة الرأي العام وحكومات أوروبا ؛ وشق البرزخ عمل حضاري على

أعلى مستوي . . . لابد له من أن يُكسبنا تعاون غالبية الدول الأوروبية» .

٤٥ – Georges Tabulet, "Aux origines du canal de Sueez. Le conflit entre Ferdinand de Lesseps et les Saint - Smoniens", *Revue historique,* 1960, t. 140, pp. 89 - 114 et 361 - 392

٤٦ – *Mémoires de Nubar Pacha*, p. 240 : «إن كانت مصر قد خسرت مالياً ، فقد كسبت على الأقل ذيوع صيتها والقدرة على أن تُجري ، كطرف رئيسي ، مفاوضات تعد سياسية من الناحية الفعلية ؛ وقد شدت اليها أنظار أوروبا وخرجت من الفلك الذي يدعو الى السخرية الى حد ما والذي كان جمهور معين قد أبقاها فيه في زمن سعيد» .

٤٧ – *Ibid.*, p. 273 : «إن الحكمة التي كان يجب انشاؤها ، العدالة أخيراً ، قد بدت لي آنذاك بوضوح مساعدةً على بلوغ هدف مزدوج : هدف حماية البلاد من المحاكم القنصلية وفي الوقت نفسه من نزوات وعسف سلطة الوالي المطلقة ؛ فقد رأيت أن الوالي بقبوله الخضوع للقانون في التعامل مع الأوروبيين ، سوف يجد نفسه مدفوعاً ، كنتيجة طبيعية ولا مفر منها ، الى أن يقبل هذا الخضوع للقانون أيضاً في التعامل مع الأهالي . وفي هذه الظروف ، فإن ابن البلد ، المحروم من جميع الحقوق منذ آلاف السنين ، سوف يجد نفسه وقد صعد مرة واحدة الى ذات المستوي الذي يحتله الأوروبي وسوف يحوز من المزايا ومن الأمن عين ما يحوزه الأوروبي» .

وفي هذه المذكرات المكتوبة في تسعينيات القرن التاسع عشر ، يري نوبار أن تاريخ مصر منذ عهد سعيد ليس غير تاريخ انحطاط طويل ينتهي بكارثة عام ١٨٨٢ النهائية . وهذا هو السبب في أنه يوقف روايته للأحداث حتى عام ١٨٧٩ . ومن المثير للانتباه بشكل خاص ملاحظة أنه يمتنع ، واعياً بذلك على الأرجح ، عن استخدام مصطلح «التمدن» الذي يستخدم بدلاً منه مصطلح «التقدم» . وما لم أكن مخطئاً ، فإن مصطلح «التمدن» لا يظهر إلاّ مرتين . الأولي في النبذة الخاصة بتقريره الى نابوليون الثالث حول المحاكم المختلطة : «لقد بدأ ابن البلد في النظر الى التمدن بنفور أو باحتقار والى أولئك الذين يفاخرون به أمامه أو يمثلونه أمام ناظريه ، بمشاعر العداوة . وإذا كنت أتحدث الى رجل كالإمبراطور ، فإن هذا الجانب هو الذي أبرزته له أكثر من سواه» (p. 317) . ويتضح لنا أن المسألة هنا هي مسألة كلام يتجاوب مع مقتضي الحال . والثانية بمناسبة رسالة من الخديو الى جوردون باشا : «ميزت بسهولة أسلوب الوالي ؛ وقد ذكر بوعده لجوردون وتحدث اليه ، مسرفاً في الثناء عليه وعلى خصاله ، ودعاهُ الى العودة ، متذرعاً بمصالح التمدن» (p. 475) . وهنا ، فإن المسألة هي مسألة كلام منقول عن رجل آخر .

٤٨ – *Histoire du règne du khédive Ismaïl*, II, pp. 194 - 195

٤٩ – Quatre volumes de texte in - octavo et deux atlas géographique et archéologique infoliopubliés de 1823 à 1827

٥٠ – Henri Déhérain, "Le Soudan égyptien de Mohamed Aly à Ismaïl Pacha", in *Histoire*

de la nation égyptienne, Gabriel Hanotaux éditeur, Paris, 1936, t. VI, p. 455

٥١ – Déhérain, op. cit., pp. 492 - 493 (للإطلاع على مزيد من الوثائق ، أنظر ، محمد فؤاد شكري : **الحكم المصري في السودان** ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٤٧ . المترجم) .

٥٢ – *Bulletin de la Société khédiviale de géographie*, t. I, 1875 - 1877 , p. 406 : محضر جلسة ٢ فبراير ١٨٧٧ بحضور فردينان دليسبس ، كلمة الدكتور روسّي بك .

٥٣ – على سبيل المثال . فإن المجلد السابع عشر من المجموعة الشهيرة «Peuples et civilisations» لـ Halphen et Sagnac والمكرس للفترة من عام ١٨٦٠ الى عام ١٨٧٨ ، إن كان يشير الى الاستكشافات ، فإنه لا يشير بالمرة الى دور الحكومة الخديوية وإدارتها لهذه المناطق (édition de 1968, pp. 275 - 282) .

الفصل الثالث

الجـزائر

تركة الحملة الفرنسية على مصر

إن الحملة الفرنسية على الجزائر ، بالرغم من أن التي قررت القيام بها هي الحكومة الأخيرة لعهد عودة الملكية ، إنما توضع منذ البداية تحت شارات حملة بونابارت في مصر . وكان الإمبراطور (نابوليون الأول) قد فكر فيها في عام ١٨٠٨ خلال محاولته الكبري الأخيرة لتطبيق سياسة تجاه البحر المتوسط ، وهي المحاولة التي حكمت عليها حرب أسبانيا بالإجهاض . وكان قد أرسل الكولونيل بوتان للاضطلاع باستطلاع في إيالة الجزائر تحسباً لاحتمال إنزال فرنسي هناك . والحال أن المعلومات التي جمعها بوتان تعد أساسية بالنسبة لاستعدادات حملة عام ١٨٣٠ [١] .

وفي ٤ فبراير ١٨٣٠ ، يندرج پولينياك تماماً في خط بيانات بوناپارت في مصر بتصويره المشروع للقنصليات الأوروبية على أنه يهدف الى القضاء على الرق وعلى القرصنة ، وتبريره بـ «الحاجة الى توفير الضفة الجنوبية لهذا البحر لخدمة الإنتاج والتمدن والتجارة وتردد جميع الأمم الحر عليها . . » [٢] .

وكان العميد البحري سيدني سميث ، الخصم الكبير للحملة الفرنسية على مصر ، قد استقر في فرنسا في عهد عودة الملكية . وقد انهمك ، منذ مؤتمر ڤيينا ، في رسالة جديدة القضاء على القرصنة الأفريقية الشمالية في البحر المتوسط . ومن طبيعة الأشياء أن يقترح على شارل العاشر خطة إنزال بحري في الجزائر . والحال أن الحكومة سوف ترفض أفكاره التي وصفها وزير البحرية دوسّيه بأنها «حمقاء» [٣] . أما مارمون ، الذي كان قد قاد على مدار نحو

عام إقليم الاسكندرية في ظل بونابارت ، فإنه يحاول الحصول على القيادة العامة لهذه المغامرة العسكرية الجديدة إلاّ أنه يجري في نهاية الأمر إيثار بورمون ، الزعيم الملكي المتمرد السابق على الثورة والذي إنحاز بعد ذلك الى نابوليون قبل أن يتخلي عنه عشية ووترلو .

البيـــانات

والحال أن رسوخ أفكار عام ١٧٩٨ هو من القوة بحيث أنه حتى هذا الملكي يسترجع في بيانه المؤرخ في ١٠ مايو ١٨٣٠ والموجه الى الجيش ذكري مصر ويستعيد تيمة بونابارت التحريرية : «أيها الجنود ! .

«إن الأمم المتحضرة في العالمين تثبت أنظارها عليكم . ودعواتها بالخير تصحبكم . إن قضية فرنسا هي قضية الإنسانية ؛ فلتثبتوا جدارتكم برسالتكم النبيلة ؛ ولا تسمحوا لأي تجاوز بأن يلطخ بهاء مآثركم . وبقدر شراستكم في المعركة ، كونوا عادلين وإنسانيين بعد الانتصار . هذا تمليه عليكم مصلحتكم مثلما يمليه عليكم واجبكم . إن العربي ، الذي طال قهره على يد ميليشيا جشعة وقاسية ، سوف يري فينا محررين . إنه سوف يلتمس تحالفنا . وعندما يطمئن الى حسن نواياكم ، فإنه سوف يحمل الى معسكراتنا خيرات أرضه . وهكذا سوف يتسني لكم ، إذ تجعلّون الحرب أقل طولاً وأقل دموية ، أن تحققوا أمنيات ملك ضنين بدماء رعاياه قدر غيرته على شرف فرنسا» (٤) .

وبيانه المؤرخ في ٨ يونيو ١٨٣٠ أكثر وضوحاً في إشارته الى حملة مصر مع التذكير بانتصار هليوبوليس (٥) .

وكان على بورمون أن يوجه بياناً الى سكان الجزائر ، يستلهم النص الشهير الذي وزعه بونابارت في مصر . ويجري تكليف سلفستر دو ساسي ، أكبر مستشرق في ذلك العصر ، بتحريره . وكان دو ساسي قد انتقد في عام ١٨٢٧ تصنع نص عام ١٧٩٨ وأسلوبه المتعجرف والمضحك حيث يتفاخر الجنرال الجمهوري بأنه قضي على البابا (٦) . على أنه يستنسخ في هذا النص جانباً من الدعوي الخاصة باحترام الدين الإسلامي وبالرغبة في القضاء على الإذلالات التي يعاني منها السكان من جراء سوء حكم الداي . لكننا لا نجد في البيان فكرة تحرير العرب من النير التركي والموجودة مع ذلك في خطب بورمون في جيشه .

ومما له دلالته أن سلفستر دو ساسي يخاطب المغاربة باستخدام تعبير من العربية الكلاسيكية يعني ، في اللهجة الأفريقية الشمالية ، «المراكشيين» . ومن ثم فبوسعنا أن نتصور استغراب سكان الجزائر عند الإطلاع على هذا النص (٧) .

وسوف تنتهي جميع هذه البيانات بإزعاج شارل العاشر الذي يكتب الى پولينياك : «من

المؤكد أنك قد قرأت ، يا عزيزي چول ، البيان الموجه الى العرب . وكم كنت أتمني لو كان مزوراً ، لكنني لا أملك الشجاعة لكي أعلل نفسي بذلك ، وأنا اعتبره بالغ السوء أكان ذلك فيما يتعلق بالتعهدات التي يتضمنها حول مصير الجزائر في المستقبل أم بصفة القداسة الممنوحة (فيه) لدين محمد . والخلاصة أنه يشبه الى حد بعيد البيان الذي وجهه بوناپارت عند نزوله في مصر . أرجو أن ترد عليَّ بكلمة حول هذا الموضوع» (٨) .

ولابد أن بورمون قد شعر بأنه قد بالغ الى حد ما و ، بعد الاستيلاء على الجزائر ، وفي ختام أول قداس تقام شعائره في القصبة ، يدافع عن الحضارة المسيحية عند مخاطبته مرشدي الجيش الروحيين (٩) .

ووراء حدود هذه القصة الطريفة ، فإن القطيعة أساسية مع السابقة المصرية . فالجيش الجمهوري الذي قاده بوناپارت لم يكن يمارس أية ديانة ؛ وكان قائده يقدم نفسه على أنه عدو للكاثوليكية وقد ترك رجال الدين المسلمين يتصورون أن بإمكانه أن يفكر في نهاية الأمر في تحويل جيشه الى اعتناق الإسلام . ومن جهة أخري ، فإن المسلمين المتعلمين لم يروا في هذه المواقف غير إلحاد أكثر استحقاقاً للشجب من الانتماء الى ديانة كتابية . أما في الجزائر ، على الضد من ذلك ، فإنه يجري البدء في تحويل المساجد الى كنائس . وسوف تكون البصمة الكاثوليكية فاقعة لاسيما وأن البروتستانتية واليهودية لن يتمتعا بتطبيق النظام التصالحي في الجزائر إلاَّ في وقت متأخر .

قدامي حملة مصر

سوف يشارك عدد معين من قدامي المشاركين في الحملة الفرنسية في مصر في الحملة خلال السنوات الأولي لفتح الجزائر . وسوف يجند جهاز المترجمين كثيرين من بين المشارقة المرحلين في عام ١٨٠١ مع الجيش الفرنسي أو من بين صفوف عائلاتهم – ومن هنا من جهة أخري الكثير من مشكلات فهم السكان بسبب الاختلاف بين اللهجات العربية المشرقية والمغربية . والحال أن ترجمان بورمون ليس أحداً غير براسڤيتش ، الترجمان الأول لكليبر والذي لعب دور المترجم خلال المفاوضات الخاصة بإتفاق العريش . وعندما يحصل ساڤاري ، الذي أصبح الآن الدوق دو روڤيجو لكنه كان في السابق أيضاً مساعداً لديزيه في مصر ، على قيادة قوة الاحتلال في أفريقيا في أواخر أكتوبر ١٨٣١ ، فسوف تعاوده كل ذكرياته القديمة التي ترجع الى أكثر من ثلاثين عاماً : وعمله الأول هو المطالبة بتفريغ حروف الطباعة العربية التي كانت قد استخدمت في مصر والتي جري الاحتفاظ بها في صندوق منذ ذلك الزمن . وهو يذهب الى أن كل ما أحرزه الشرق من تقدم في ظل الفرنسيين ثم في ظل

محمد على إنما ينبع من مبادرة بونابارت تلك [١٠] . وبوجه عام ، فإن الرسائل الأولي للقائد العام الجديد حافلة بالذكريات عن التجربة المصرية وذلك بالرغم من أن الجريات الواقعية الجديدة تأخذ في الهيمنة بشكل مطرد .

مجتمع الإيالة

في لحظة الاستيلاء على الجزائر ، كانت فكرة الفرنسيين عن مجتمع الإيالة لاتزال فكرة قليلة الوضوح . وما يعرفونه عنه هو أقل مما كان بونابارت يعرفه عن مصر في عام ١٧٩٨ . وأحد القرارات الأولي لبورمون هو طرد السكان الأتراك من المدينة . وعلاوة على واقع طرد جماعة يمكن أن تكون خطرة على الفرنسيين ، فإنه يطبق بشكل شبه آلي برنامجه الخاص بتحرير العرب من النير العثماني . والحال أن سقوط شارل العاشر والقلاقل السياسية في فرنسا وغياب مذهب واضح حول السياسة التي يجب إتباعها إنما تؤدي كلها الى أن تشهد سنوات الاحتلال الأولي قدراً كبيراً من عدم التماسك ومن عدم الانسجام في التصرفات الفرنسية .

ويتمشي مجتمع الإيالة في عام ١٨٣٠ تماماً مع المخطط التصوري الخلدوني . فالريفيون يشكلون الجزء الأعظم من السكان . والسكان الحضريون ، جد المتعلمين في مجموعهم بل والذين كانت لعدد من بينهم تجربة رحلة الى أوروبا ، يسميهم الفرنسيون بـ «المور» . وهم يتألفون من جماعات سكانية مدينية قديمة ، منحدرة غالباً من أسبانيا المسلمة ، ومن أبناء زيجات بين أتراك وأناس من أهل البلد وهؤلاء الأبناء يسمون بـ «القولوغلية» . وهذا المصطلح الأخير يعني «ابن العبد» **(قول)** ؛ ونجد هنا المصطلح الذي يشير الى عبد بيت آل عثمان ، أي «العثماني» بالمعنى المحدد لـ «خادم الدولة» . والاسم الجماعي للمدينيين هو **الحضر** ، وهو ما يوضح انتماءهم الحضري . ويمكن أن نضيف اليهم اليهود . وفي الأرياف ، نجد العرب البدو أو الفلاحين والبربر أو القبايل المنحدرين من سكان زمن ما قبل الفتح العربي . وهذه الجماعات البشرية تحيا في إطار قبلي قوي بشكل خاص حيث تعمل أواصر النسب السلالية على تحديد مكانة كل فرد . والإسلام ، خاصة إسلام الطرق الصوفية ، هو السمة المشتركة التي يمكنها أن تسمح باتحاد في نهاية الأمر . والفارق الأساسي مع مصر هو أنه لا يوجد تجمع ضخم مشابه لتجمع **الفلاحين** ، والذي يعد قاعدة ضرورية لانبثاق نزعة قومية . وفي حين أن العرب «الخلدونيين» ، الذين يزعمون لأنفسهم نسباً يربطهم بسكان شبه الجزيرة العربية ، ليسوا غير جماعة سكانية هامشية في وادي النيل ، فإنهم ، في الإيالة الجزائرية ، يشكلون غالبية السكان .

وفي البداية ، فإن الفرنسيين ، الذين لا يعرفون ما إذا كان احتلالهم سوف يكون دائماً ، يسعون الى الاعتماد على **الحضر** ، وهم الجماعة الوحيدة التي تربطهم بها علاقات بالفعل . ويحل الأعيان الحضريون محل الأتراك المطرودين ، في عدد معين من مناصب القضاء . أما أولئك الذين لديهم بالفعل تجربة معينة في فرنسا مثل بو ضربه أو حمدان خوجه فإنهم يصبحون المحاورين الضروريين للفاتحين .

حمدان خوجه

بالرغم من تعاونهم مع الفرنسيين ، فإن هؤلاء الممثلين للنخبة الحضرية يأملون في أن يكون الانسحاب قريباً . وهم يعملون على كل الأصعدة للتعجيل به ويراهنون على أن يصبحوا السادة الجدد للجزائر إذا ما تحقق . وشأنهم في ذلك شأن محمد على ، فإنهم يعرفون كيف يدخلون في اتصال مع الليبراليين الفرنسيين ويتبنون معجمهم السياسي . وهم يشتركون بذلك في لعبة المرايا المميزة للعلاقة بين الغرب والإسلام لأن تأكيداتهم تعزز التصور الذي صاغه الأوروبيون بالفعل . والحال أن مالا يعدو ، في البداية ، أن يكون مجرد تاكتيك سياسي ، من الجهتين ، إنما يصبح عندئذ واقعاً يعترف به الطرفان بهذه الدرجة أو تلك من النزاهة . وليس غريباً أن نرصد ، في النصوص الفرنسية لهؤلاء «المور» (المغاربة أو البربر أو مسلمي المغرب . - المترجم) ظهور الأفكار العزيزة لدي الفرنسيين عن التمدن والنزعة العربية وكذلك عن النموذج المصري . وأروع مثال على ذلك هو كتاب حمدان خوجه ، المنشور في عام ١٨٣٤ تحت عنوان : **المرآة ، نبذة تاريخية وإحصائية عن إيالة الجزائر** . فالكتاب عبارة عن مرافعة تدعو الى استقلال الإيالة باسم دعاوي الفرنسيين الإنسانية نفسها . والتيمة الكبري الأولي للكتاب هي أن الفرنسيين ليسوا مخلصين للرسالة التمدينية التي يتبجحون بها . فهم يرتكبون مجازر في حق الأهالي (١١) . وهم يكثرون من الإساءات وأعمال التدمير والتخريب ويمنعون كل احتجاج (١٢) . كما أنهم يلغون المؤسسات التعليمية (١٣) . ولا يمكنهم أن يدافعوا عن اليونانيين والبولونيين المضطهدين في ذات الوقت الذي يتصرفون فيه بشكل يتعارض الى هذا الحد مع حقوق الإنسان (١٤) .

ثم يطرح حمدان خوجه المسألة الأعمق . إن السيطرة الفرنسية لا يمكنها أن تتم إلاّ عبر إبادة السكان الأصليين أو عبر طردهم على الأقل (١٥) . والحل الآخر هو تطبيق النموذج المصري على الجزائر : «على أنني أتحدي أياً كان أن يكون قادراً على أن يقدم علاجاً للجزائر ، دون اللجوء الى أحد السبيلين المذكورين أعلاه ، أو الجلاء عن البلاد والتخلي عن أي تفكير في الفتح ، وذلك بإقامة حكومة أهلية حرة ومستقلة ، مثلما تسني إقامة مثيلة لها في مصر ، التي

تعتنق الدين نفسه وتتبع الأعراف نفسها ، وعقد معاهدات معها تكون مفيدة للشعبين . ومما لا مراء فيه أن فرنسا سوف تجد عندئذ أن مكاسبها سوف تكون أحسن مما لو ظلت الجزائر مستعمرة ، وسوف يهلل العالم كله لهذا الفعل الذي يدل على السخاء (. . .) . ذلك هو رأيي ، إذا كانت فرنسا لا تسعي على أية حال ، كما أتصور ، إلا الى إدخال التمدن على الأرض الجزائرية ، وإلا الى القضاء على الاستبداد وإلا الى استبعاد كل روح الانتقام والكراهية .

«وبوسع الحكومة الفرنسية إتباع عين النظام المطبق في مصر . وسوف تكون أشكال التقدم المترتبة على ذلك واضحة ولا يمكن لأحد الشك في نجاحه . لأنه ليس عن طريق الإدارة الفرنسية ولا عن طريق العنف أمكن إصلاح مصر وإيجاد النفوذ الفرنسي فيها ، إذ فقط عن طريق وجود الوالي (المصري) وباسمه أمكن تمدين ذلك البلد وإدخال الفنون اليه وزيادة موارده ، التي كانت في ظل المماليك تافهة أو مشلولة ؛ وأيضاً عن طريق وجود الوالي أمكن إنشاء هذه الرابطة الموجودة التي لا يمكن فصم عراها بين الفرنسيين والمصريين» [١٦] .

عبد القادر أو المحاور الذي لا مفر منه

في كتاب **المرآة** ، يظل مفهوم العروبية خلدونياً ويضطر الكاتب الى استخدام مصطلح جديد بالنسبة له ، هو مصطلح «الجزائريين» الذي يشير إما الى سكان مدينة الجزائر (وهو ما يتمشي مع المفهوم التقليدي للمصطلح) ، أو الى عموم سكان الإيالة [١٧] . ولابد من الإشارة الى أن حمدان خوجه يظل من حيث الجوهر نصيراً للدولة العثمانية وأن المحتوي العام لمساعيه السياسية هو تشجيع عودة العثمانيين ، تحت شكل أحدث ، الى الجزائر [١٨] . أما بوضربه فهو يفضل في تلك الفترة تعاوناً براجماتياً مع الفرنسيين وهو يقترح عليهم سلسلة من الإصلاحات الإدارية [١٩] ، لكن ذلك إنما يرجع الى أنه كان قد اختار منذ بداية الاحتلال الفرنسي أن يعارض عودة النظام العثماني . وسوف يكون من بين أوائل من يحثون الفرنسيين على التفاهم مع عبد القادر [٢٠] .

وإذا كانت آمال حمدان خوجه قد خابت ، فإن الفرنسيين ينفقون مع ذلك وقتاً في صوغ مذهب سياسي حقيقي بشأن الجزائر . وبما أن القرار الأساسي الخاص بعدم الجلاء عن تلك الأرض قد اتخذ أساساً لاعتبارات الهيبة القومية ، فإن الجزائر تصبح متنفس الشعور القومي الفرنسي . فهي الثأر زهيد الثمن من معاهدات عام ١٨١٥ ومن ضياع الضفة اليسري لنهر الراين : وإذا ما تخلت حكومة عن الجزائر ، فإن الرأي العام السياسي سوف يجبرها على خوض حرب بشأن حدود الراين [٢١] .

ويأخذ المسئولون الفرنسيون بعين الاعتبار أن الاضطلاع بفتح حقيقي لمجمل الإيالة إنما يتطلب إمكانات عسكرية ملحوظة على مدار فترة زمنية جد طويلة . أما الاقتصار على إحتلال محدود ، وهو ما يبدو أنه الخيار الأكثر حكمة ، فإنه يستتبع هو أيضاً نفقات مهمة لأجل كفالة الحد الأدني من الأمن الضروري للإبقاء على استعمار المناطق الخاضعة للسيطرة . وتهدئة هذه المناطق تملي قمع التغلغلات العنيفة التي تقوم بها القبائل العربية من الداخل . وقد أثبتت خبرة الأعوام الأولي أنه لا يمكن الاعتماد على المور (الحضريين) لتأمين السكينة في مؤخرة البلد .

والحال أن تيير ، رئيس المجلس في ١٨٣٦ - ١٨٣٧ ، يعترف بوجود «قومية عربية» في الجزائر متميزة عن السلطة العثمانية التي تظل سيدة على قسنطينة . وهو لا يقبل التعامل مع هاتين السلطتين إلاّ من موقع القوة ، لأنه يستبعد أن تتخلي فرنسا عن الجزائر ؛ فمثل هذا التخلي لو حدث سوف يعني ، بالنسبة للأمة الفرنسية العظمي ، التنازل عن عظمتها و ، بالنسبة لملكية يوليو ، فقدانها للاعتبار بتخليها عن عمل اضطلعت به فرنسا عودة الملكية . والواقع أنه لا يتوصل الى الاختيار بشكل حاسم بين الاحتلال التام والاحتلال المحدود [٢٢] .

وهذا هو ما يأخذه عليه جيزو ، الذي يخشي من فداحة الأعباء التي تفرضها سياسة فتح كامل للجزائر ويدعو الى احتلال محدود لذلك البلد [٢٣] .

ويبحث الفرنسيون عن محاور يسمح باقتسام سلمي حقيقي للبلد . وهم يظنون أنهم يجدونه في شخص عبد القادر الذي ، باسم الدفاع عن الإسلام ، يأخذ في حشد قبائل الداخل العربية . والمراعاة التي يختصون بها هذا الزعيم الشاب تعزز هيبته في نظر القبائل الى درجة يمكن أن يقال معها أن صعود الأمير إنما يرجع الى الحرب التي يخوضها ضد الفرنسيين مثلما يرجع الى الاهتمام الذي يوليه هؤلاء الأخيرون له .

معاهدة التافنة والاعتراف بالعروبية

يجري اتخاذ القرار في عام ١٨٣٧ . والمشروع يستلهم بشكل واضح النموذج المصري : مملكة عربية تعترف بسيادة فرنسا وتدخل التمدن الى داخل البلاد تدريجياً . ويستند الاتجاه الى البديل العربي في آن واحد على الواقع الاجتماعي - فمن الواضح أن قاعدة سلطة الأمير هي عروبية بالمعني الخلدوني للمصطلح - كما يستند على تطور الفكرة العربية التي تلهم الأزمة الشرقية لأعوام ١٨٣١ - ١٨٤١ .

وبوجو هو المشجع الكبير على هذه السياسة ، فهو يدرك تماماً أن البديل الآخر هو الحرب التي لا يمكن تسكينها والتي يعلن أنه مستعد لخوضها لكنه يشك في أن الحكومة الفرنسية

تملك إرادة خوضها [٢٤] . والحال أنه سوف يعقد مع الأمير ، وقد حصل على تفويض خاص لهذا الهدف ، معاهدة التافنة ، وهي نص سوف تؤدي التباساته ومشكلات تفسيره الى توليد صدامات أكثر مما الى السلم .

وهذه المعاهدة تزعج عدداً معيناً من المسئولين الفرنسيين . فحكومة موليه تخشى من أن يستفيد عبد القادر من أشكال تقدم تمدن العرب من أجل توحيدهم ثم استئناف الحرب ضد الفرنسيين [٢٥] . أمّا دامريمون الذي ، بالرغم من كونه حاكم (الجزائر) ، لم يجر إطلاعه على مفاوضات بوجو ، فهو يحتج على تشبيه عبد القادر بمحمد على وعلى المبالغة التي تمت فيما يتعلق بمدي قوة الأمير [٢٦] .

بوضربه وإحياء الجنس العربي

الحضر واعون الآن بأن الفرنسيين قد وجدوا المحاور الذي يبحثون عنه . ويلتف الأعيان الحضريون حول الأمير ويقدمون له مساعدة ملحوظة بإطلاعه على تطور السياسة الداخلية الفرنسية وبتدشينهم لحملة دعاية في فرنسا . ثم إنهم يصوغون تمثيلاً لشخصية عبد القادر يتمشى تماماً مع الفكرة العامة التي يكونها الفرنسيون عن العرب منذ بوناپارت والتي أحياها إبراهيم باشا بالفعل . والمثال الناجز على ذلك موجود في المذكرة التي يوجهها بوضربه الى السلطات الفرنسية في ٣ نوفمبر ١٨٣٧ ، تحت عنوان : **ملاحظات حول معاهدة ٣٠ مايو مع عبد القادر والفوائد الكبري التي يمكن أن تترتب عليها بالنسبة لفرنسا ولأفريقيا وللحضارة وللبشرية** : «سوف أقول إن المطمح الوحيد لعبد القادر والذي يهيمن على فكره منذ أكثر من ثلاثة أعوام هو ما يلي : إنه يود أن يكون محى الجنس العربي .

«وهي فكرة عظيمة وخطة واسعة وصعبة على التنفيذ لسبب جد بسيط هو أن جميع العناصر الضرورية لذلك غائبة . وهذا صحيح ، فالصعوبات جسيمة بحيث يتعذر تنفيذ هذه الفكرة ؛ وبالرغم من ذلك فإن عبد القادر لم يفقد الأمل قط في إمكانية تدشينها وإنجازها ، إذا ما أتيح له الوقت . وهو يؤمن دائماً بأنه لا يستطيع تحقيقها دون الاعتماد على فرنسا . وهو يعرف جيداً التاريخ القديم والحديث ؛ وقد رأي وأدرك أيضاً أن الأمة الفرنسية كانت دائماً كريمة تجاه الشعوب المضطهدة من جانب الزعماء المستبدين وأنها غالباً ما ساعدت بأموالها وبنفوذها بل وبجيوشها على إنقاذ الشعوب البائسة وخاصة على تشجيع التمدن في كل مكان رأت أن به عناصر واستعدادات لذلك . والحال أن عبد القادر ، عندما قرأ البيانات التي وزعها الفرنسيون في آفريقيا في عام ١٨٣٠ حتى قبل نزول القوات في سيدي - فرج [٢٧] قد آمن ومازال يؤمن ، وكثيرون من الأهالي يؤمنون هم أيضاً بأن الهدف الحقيقي لفرنسا هو

تخليص العرب من العبودية وتحويل هذا الشعب الى عنصر أمة متحضرة تحت حمايتها .

« (. . .) فلتشجعوا عبد القادر في تطلعه الى أن يكون ممدناً للعرب ومحمداً علياً ثانياً . ساعدوه بكل قوتكم . دعوه يبذر في هذا البلد بذور الصناعة والزراعة والمدن والقري وآلاف الثروات الأخري . ففيما بعد ، سوف تجنونها وسوف تكونون ورثة كل هذه الثروات الحقيقية» (٢٨) .

دولة عبد القادر

اعتباراً من أواخر عام ١٨٣٧ ، يوحد الفرنسيون بشكل متزايد سكان الإيالة ، على الأقل ذلك الجزء منهم الناطق بالعربية ، بأمة عربية حقيقية . ويمر اللبسُ عبر واقع أن العرب بالمعني الخلدوني للمصطلح موجودون هناك وأنه تُضفي عليهم جميع القيم التي نسبتها اليهم الكتابة التاريخية لزمن التنوير . وهذا التوحيد يعد صالحاً لاسيما وأن انبثاق سلطة عبد القادر يتمشي تماماً مع المخطط التصوري الخلدوني حول تأسيس إمبراطورية عربية : فلأجل توحيد القبائل وخلق سلطة ملكية ، لابد للموحد من أن يفعل ذلك باسم الدين (٢٩) . والأمير هو أولاً زعيم كبير لطريقة صوفية ، يحشد أنصاره باسم الجهاد ضد الغزاة ، ويحرص كل الحرص على مراعاة الشريعة الإسلامية في الأراضي التي يسيطر عليها . وهو يؤسس إدارة متماسكة ، مبنية على التنظيم القبلي ، لأنه إذا كانت الوحدات الكبري لهذه الإدارة هي وحدات إقليمية (**خليفاليك**) ، فإن الوحدة الأصغر التالية (**أغاليك**) هي تجمع قبائل حول القبيلة الأهم في الإقليم . وكل قبيلة يقودها هي نفسها **قايد** (قائد) وكل فصيل قبلي يقوده **شيخ** (٣٠) . وعلى كل مستوي ، فإنه يجري استغلال روح الجماعة لحساب الدولة التي يجري بناؤها . وأخيراً ، فإن الأمير يكثر من إنشاء المدن لتدعيم سلطته (٣١) . والحال أن الملك ، وفقاً لابن خلدون ، إنما يدعو الى بناء المدن (٣٢) . ومن الواضح أن عبد القادر هو بطل تمديني وفق المنظور الخلدوني .

الإسلام والعروبية

ثم إن عبد القادر منحدر من طرق صوفية معادية للسلطة العثمانية . بل إن من المرجح أن صعوده الى السلطة قد مهد له أبوه ، محيي الدين ، قبل نزول الفرنسيين بوقت طويل ، عن طريق ترويج نبوءات معادية للعثمانيين (٣٣) . وبعد عام ١٨٣٠ ، لا يعترف الأمير بعد بسلطة الباب العالي ، ويحارب بالسلاح القولوغلية وآخر الأتراك الموجودين في الإيالة ويأمر بالدعاء لسلطان مراكش في خطبة صلاة الجمعة وليس لخليفة القسطنطينية . وهي علامات كثيرة تؤيد التصور الفرنسي عن تمرد عربي ضد النير العثماني .

ومن المؤكد أن مصطلح «العرب» يظهر في مراسيمه الرسمية ، خاصة في اتفاقاته مع الفرنسيين كمعاهدة التافنة ، لكننا نجد هنالك أيضاً مصطلحي الحضر والقولوغلية [٣٤] . لكن الأمير يريد أولاً أن يظهر في مظهر زعيم ديني . وهو في كل رسائله يستخدم المصطلح الخليفي «أمير المؤمنين» وأنصاره يدعونه بـ «السلطان» . على أنه في مراسلاته مع سلطان مراكش (وهو أيضاً «أمير مؤمنين») ، يقدم نفسه بوصفه نائباً له في الجزائر . ويبدو من الواضح أننا بإزاء احتياط ديبلوماسي فسلطان مراكش لديه الكثير مما يدعوه الى الخوف (كما سوف نري في عام ١٨٤٧) من انبثاق هذه السلطة الجديدة التي قد تستهدف يوماً ما عرشه هو . ثم إن عبد القادر ، في عام ١٨٤١ ، عندما يحاول كسب عون الباب العالي ضد الفرنسيين ، يعترف بخلافة القسطنطينية ، لكنه في التو والحال لا يمكنه منع نفسه من توجيه الانتقادات الى مفاسد الحكم العثماني للإيالة قبل عام ١٨٣٠ [٣٥] . وهو يبرر عندئذ صعوده الى السلطة – الذي تم دون تخويل من جانب الباب العالي – بمناشدة الأعيان ، ممثلي السكان ، عائلته استهدافاً لتوحيد المسلمين ضد الغازي ، لكنه لا يشير أية إشارة الى النزعة العربية [٣٦] . وبياناته تصدر دائماً باسم الدفاع عن الإسلام [٣٧] .

والحال أن الأمير ، بفضل لقبه الخليفي ، يدعو الى اتحاد جميع مسلمي الإيالة ضد الفرنسيين . وفي الوقت نفسه ، فإنه يحارب العثمانيين . ويخشي حضرُ مدن الداخل من أعمال السلب والنهب التي ترتكبها القبائل العربية بالرغم من كل التدابير التي اتخذها عبد القادر لتجنب هذا النوع من الحوادث . وربما كان الشيء الأخطر هو أنه لا ينجح فعلاً في حشد البربر الذين يرفضون المشاركة في مشروع دولته بالرغم من انفتاحاته العديدة عليهم وبالرغم من معجمه الداعي الى وحدة المسلمين [٣٨] . وحتى النهاية يعتمد الأمير على العرب البدو والاستخدام المتكرر لمصطلح «العرب» في مراسلاته إنما يحيل تماماً الى هذا الواقع . فهل كان يدرك وجود منظور آخر في أعوام النضال ضد الفرنسيين ؟ يصعب أن نعرف ذلك . ومن المؤكد أنه يطلب أن تترجم له مقتطفات من الصحف الفرنسية تتصل بشئون الجزائر وأنه لا بد وأن يكون قد تعرف من خلال ذلك على المنظور الآخر . وهو يدع المور يستخدمون هذه الدعوي لدي الفرنسيين . وهو من جهة أخري يكن احتراماً كبيراً لمحمد على ، الذي تسني له أن يري انجازاته في مصر خلال حجه الى مكة وخلال رحلته في الشرق من عام ١٨٢٦ الى عام ١٨٢٨ [٣٩] .

وفي نص متأخر ، كتب بعد الإفراج عنه من محبسه وقُدِّمَ الى جمعية الدراسات الآسيوية في باريس التي أصبح عضواً فيها في عام ١٨٥٣ ، يستحضر العرب في عمومهم . وهو يفاخر بخصالهم العظيمة المشتركة التي اتضحت بشكل خاص مع الإسلام : «فلما شرفهم

الله بالرسول محمد بن عبد الله وهم على هذه الأخلاق الجميلة والفضائل الجليلة ، تنافسوا في زيادة الفضائل وتسابقوا الى نيل العلوم والمعارف ، فاكتسبوا منها ما لم يكتسبه الأوائل . وأثروا الآثار العظيمة ، في أقرب مدة ، في بناء المدائن ، وعمل القناطر ، وفتح الخلجان . فقد أجري موسي بن نصير البحر اثني عشر ميلاً ، الى دار الصناعة بتونس . وصنع مائة مركب ، وغزا صقلية ، وأخذها . ووصل عمرو بن العاص بين النيل وبحر القلزم في مدة سنة ، وجرت فيه السفن في خلافة عمر بن الخطاب ، الى ما بعد خلافة عمر بن عبد العزيز ، احتفره من الخليج الذي في ناحية الفسطاط ، وقال له خليج أمير المؤمنين ، وساقه الى القلزم ، ثم ضيعه الولاة ، وتُرك وغلب عليه الرمل (. . .) .

«وتيسر لهم من التصنيف ، في أنواع العلوم ، ما لم يتيسر لأحد قبلهم ، حتى إن منهم من بلغت تصانيفه في أنواع العلوم : ثلاثة آلاف مصنف وزيادة (. . .) . وبلغ ملكهم حيث لم يبلغ ملك أمة قبلهم ، من آدم الى الآن . ثم بدا فيهم النقص ، وغيّر الله بهم ، حيث غيروا ما بأنفسهم ، شأن الأمم . . . وكل شيء بلغ الحد انتهي .

إذا تم شيء بدا نقصه

فحاذر زوالاً إذا قيل تم [٤١]»

لكن هذا الكتاب كان قد كتب بعد خمس سنوات من الأسر في فرنسا . ويجري فيه التأكيد على دور العرب في تاريخ العلوم وكذلك على مشروع وصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط . ولا نجد هناك أية فكرة عن إحياء أمة عربية والشيء الأساسي هو دائماً المرجعية الإسلامية . والواقع أن الأمير يملك دائماً إطار مرجعية تقليدياً موروثاً من العصر القديم ومن العصور الإسلامية : والزمن لا يجري النظر اليه بوصفه تقدماً بل على العكس بوصفه إنحداراً . فما أن يصل شعب ما الى أوجه ، لا يمكنه إلاّ أن ينحدر . ويمكننا استنتاج أن عبد القادر ، على غرار إبراهيم باشا ، قد تمكن من استخدام التصور الغربي لتاريخ العرب بهدف الدفاع عن قضيته أمام الرأي العام السياسي الأوروبي ، لكنه ظل في أعماقه هو نفسه ضمن منطق مجتمعه الذي لم يمسه الغرب بعد : فهو مؤسس دولة يستخدم الإسلام كمذهب موحِّد ويستخدم القبائل العربية كأداة لسلطته . وربما كانت تجربته السياسية في الجزائر هي آخر تجسيد صاف لمخططات التفسير التصورية التي كان ابن خلدون قد وصفها قبل ذلك بخمسة قرون .

التفسير الفرنسي

بالنسبة للفرنسيين ، كل شيء واضح بعد معاهدة التافنة . فالأمير هو بشكل واضح ممثل

نهضة سياسية ونهضة ثقافية واردة للعروبية . ومن ثم فإن عليهم أن يأخذوا في الحسبان هذا العامل الذي أسهموا في خلقه . ويفسر الفاتحون مغامرة عبد القادر الحكومية بوصفها مشروع دولة في طور التكوين . وعندئذ يجري تعريف النظام الهيراركي (المراتبي) الذي أقامه الأمير بوصفه نظاماً إقطاعياً والنظر الى ممثليه على أنهم يشكلون نبالة تنقسم الى ثلاث مجموعات : أما المجموعة الأولى ، والمسماة بالمجموعة الأصلية ، فهي تجمع أحفاد النبي (الأشراف) ؛ وأما المجموعة الثانية والمسماة بالمجموعة الزمنية أو العسكرية ، فهي تمثل أحفاد الفاتحين العرب في القرن السابع الميلادي ؛ وأما المجموعة الثالثة ، والمسماة بالمجموعة الدينية ، فهي المجموعة الأوسع نفوذاً لأنها تتألف من زعماء الطرق الصوفية ومن ذريتهم القادرين على توحيد عدة قبائل تحت سلطتهم . وهؤلاء الأخيرون تجري مقارنتهم بالأساقفة المحاربين في مستهل العصر الوسيط المسيحي . أمَّا الإحالة الى الإقطاع الأوروبي فهي مناسبة لا سيما وأن المعاصرين في فرنسا يشعرون بأنهم يحيون المرحلة الأخيرة من مراحل الصراع بين الإقطاع والشعب . وعندئذ فإن الفارق الكبير مع الشرق العثماني هو تداخل الفاتحين : فالعرب ، الذين فتحهم الأتراك ثم الفرنسيون ، هم فاتحون قياساً الى البربر .

والحال أن مراسلات المارشال فاليه ، وهو الحاكم العام للممتلكات الفرنسية في الشمال الأفريقي من أكتوبر ١٨٣٧ الى يناير ١٨٤١ ، إنما تعد كاشفة للأهمية التي تتخذها آنذاك المسألة العربية . فهو لا يؤمن بالصلح الذي أوجدته معاهدة التافنة وهو يري أن المستقبل مشحون بالخطر . وبما أن قوة عبد القادر تعد جد مهمة ، فإنه يقترح اختزالها أو حتى القضاء عليها والاستعاضة عنها بتعيين عدة زعماء عرب تابعين لفرنسا . لكنه يتردد أمام المستقبل الآخذ في التشكل . فإما أن يتمدن العرب من خلال الاتصال بالفرنسيين وعندئذ ستُطرح مسألة الاستقلال في يوم أو آخر[٤٢] ، وإمَّا أن يجري العمل على طرد السكان على مدار زمن طويل وبشكل متصل ، وإمَّا ، وإن كان على أجل جد طويل ، أن يتم الوصول الى صهر للسكان – وهو ما سوف يسمي في ما بعد بالاستيعاب[٤٣] .

ويوافق جيزو على معاهدة التافنة . وهو يري فيها مثل ديفور الفرصة المناسبة لـ «نشر الحضارة» ، ذلك «الهدف العظيم» للسياسة الفرنسية . لكن هذا التمدين للجزائر ليس له أي محتوي إثني (عرقي) . فهو ليس غير نتيجة لتزايد الاتصالات بين الأهالي والفرنسيين . وهو بشكل خاص طبعة معلمنة في القرن التاسع عشر من روح التبشير القديمة المميزة للمسيحية الغربية[٤٤] .

صراع القوميات

إن النزاع الذي تنبأ به ڤاليه يحدث أخيراً في عام ١٨٤٠ ويتحول الى صراع لا يمكن تسكينه . وتيير ، رئيس المجلس آنذاك ، يؤكد بقوة أن التصور التمديني لمعاهدة التافنة ليس غير وهم فكري : «ما هو الاحتلال المحدود ؟ إنه هذا الافتراض المحال الذي لم يتحقق قط في التاريخ والذي يتلخص في القول لشعب جديد ليست له لاعاداتكم ولا دينكم ولا مصالحكم : «إننا نجيء اليكم لأجل أن نمدنكم !» . ولكن ، أيها السادة ، ما الذي تعنيه كلمة التمدين هذه ؟ تأملوا قوتها : فلكي يفهمها العرب ، لابد من أن يكونوا متمدنين وعندئذ لن تكون هناك حاجة للمضي الى تمدينهم (هذا صحيح !) إننا نقول للعرب : « إننا نحمل اليكم عاداتنا وأذواقنا وفننا في القراءة والكتابة والقتال ، فاخضعوا ؛ لكننا لسنا متعجلين ، إننا لا نريد أن نتحرك بسرعة . تخلوا لنا عن جزء من الساحل ، وسوف نترك لكم الباقي . لكننا سوف نزحف شيئاً فشيئاً وندفعكم الى التراجع والانسحاب» . والحال أن اتفاقية من هذا النوع ، أيها السادة ، لا يحتاج المرء الى أن يكون متحضراً لكي يفهم ما تنطوي عليه من غش ؛ ويكفي لفهم ذلك أن يكون المرء عربياً (أحسنت !أحسنت)» [٤٥] .

إن تيير ، جد المنشغل بأزمة الشرق ، لا يمكنه أن يمنح الجيش الفرنسي إمكانات فتح حقيقي للجزائر . أما جيزو الذي يخلفه بعد مهانة عام ١٨٤٠ القومية ، فسوف يعهد بهذه المهمة الى الجنرال بوجو .

والحال أن هذا الأخير سوف يضطلع بمهمة الفتح هذه بوحشية سوف تتحول ، في بعض فصولها ، الى حرب إبادة . وتذهب التقديرات الى أن عدد السكان المسلمين قد انخفض بين عامي ١٨٤٠ و١٨٤٨ بمقدار ثلاثمائة ألف ، أي بنسبة عشرة في المائة . ولابد أن هذه المؤشرات تحيل الى السكان الناطقين بالعربية وحدهم – حيث أن الجزء الأعظم من البربر ليسوا طرفاً في الحرب – والذين يجب أن نخصم منهم سكان الساحل الموجودين بالفعل تحت السيطرة الفرنسية [٤٦] . وفي ذلك الوقت ، يعرف الجنرالات الفرنسيون أنهم يحاربون قومية (جماعة قومية) . ويظهر مصطلح «الأمة العربية» بشكل منتظم في مراسلات بوجو . والحال أن المرجع الخاص بالمجتمع العربي والذي أمر بتحريره لكي يوزع على ضباطه في عام ١٨٤٤ إنما يكشف عن التصور المشترك : «إن القومية العربية لم يكن لها وجود البتة عندما جاء الفرنسيون للإطاحة بحكم الأتراك ، الذين كانوا آنذاك السادة الحقيقيين للبلد» لكن عبد القادر «لم يدخر جهداً لكي يعزز فيما بعد القومية العربية التي يريد إعادة تكوينها» [٤٧] .

وهكذا تتواصل لعبة المرايا في الجزائر . فمن المؤكد أن هذا التشديد على مولد قومية عربية هو بالفعل نتاج رؤية استشراقية للشمال الأفريقي الذي كان من جهة أخري قابلاً تماماً بهياكله

الاجتماعية لمثل هذا التفسير . والحال أن الأفارقة الشماليين ، ضمن إطار حوارهم غير المتكافيء مع فاتحيهم ، قد لعبوا ، بقبولهم له ، على التعريف القومي والإقطاعي المزدوج الذي قدمه لهم الفرنسيون . وبقدر تمهيد المصطلحات المستخدمة آنذاك لتلك المعتمدة في القرن العشرين ، فإن المؤرخين والسوسيولوچيين المعاصرين لم يكن بوسعهم سوي التسليم بنظرة الفاتحين ، التي جري ضمها بقوة الى مواقف هذا الطرف أو ذاك ، مواقف أنصار الجزائر الفرنسية أو مواقف أنصار نزع الاستعمار [٤٨] .

جيزو

وهكذا فقد تم الفتح الكامل للجزائر في ظل حكومة جيزو التي عاشت طويلاً ، خلال أربعينيات القرن التاسع عشر . والحال أن منظر الحضارة السابق هو على توافق فكري وثيق مع بوجو الذي يستشهد به بشكل غزير في مذكراته . ولما كان يشاطر الچنرال أفكاره ، فإنه يعترف بأن النضال ضد عبد القادر هو في الواقع حرب ضد الأمة العربية التي يجسدها هذا البطل [٤٩] . وهو يقبل أهوال هذه الحرب كما يقبل إطلاق پيلسييه سحب الدخان على فتحات المغارات التي يختفي فيها العرب . وهو يتفهم ضرورة تجنب الروح الإنسانية الخيرة التي ليس منْ شأنها إلاّ أن تؤدي الى إطالة أمد الحرب بلا طائل [٥٠] .

ومنذ عام ١٨٤١ ، فإنه يري أن مستقبل الجزائر إنما يستند الى الفصل بين الأجناس ، ومن ثم تكوين منطقتين ، الأولي خاضعة للاستعمار الاستيطاني الأوروبي والثانية متروكة للعرب الذين تسيطر عليهم السلطة العسكرية [٥١] . وهو يستشهد ببوجو الذي يري أن السكان الأوروبيين سوف يصبحون تدريجياً الغالبية ، ضمن إطار هذا النظام .

وإنه لأمر غريب تماماً ألاّ يصل ذلك الذي نَظَّرَ لتاريخ فرنسا بوصفه تاريخ صراح جنسين ، الغالبين والمغلوبين ، الذين ، وفقاً له ، تعاركوا على مدار خمسة عشر قرناً ، الى إسقاط هذا التصور للتاريخ على الواقع المعاصر . وهذا لأنه ، بالرغم من مراعاته أن فرنسا لا تتمتع بتجارة نشطة بما يكفي ولا تتمتع خاصة بسكان راغبين في الهجرة ، للانهماك في سياسة استيطان واسع فيما خلا الجزائر ، إنما يري أن : «أرضنا الصغيرة تنتمي الى الحضارة الأوروبية والمسيحية وحيثما تصل الحضارة الأوروبية والمسيحية وتنتشر ، فإن على فرنسا أن تأخذ مكانها وتنشر نبوغها الخاص» [٥٣] .

والحال أن هذا القبول لمبدأ السيطرة والاستيطان الأوروبيين ، والذي يجد ترجمة له في رفض الاعتراف بقدرات سكان الجزائر التمدينية ، إنما يعاود الظهور لدي السان – سيمونيين الذين يصبحون منظري استعمار الجزائر الاستيطاني [٥٤] .

السان – سيمونيون

بعد فشل مغامرة الأب انفانتان المصرية التي كان عليها أن تؤدي الى الاتحاد بين الغرب والشرق ، فإنه يستقر في الجزائر مع عدد من اتباعه ويجد بين الكوادر العسكرية والمدنية الفرنسية الموجودة هناك عدداً ممن كانوا في السابق مؤازرين للحركة السان – سيمونية في بداياتها . وبفضل أواصر عائلية ، كان انفانتان قد نجح في أن يُعَيَّن في عام ١٨٣٩ في اللجنة المكلفة بالأبحاث وبالاستطلاعات الاستكشافية العلمية في الجزائر لكي ينكب على أعمال تتصل بالإثنوغرافيا وبالتاريخ وبالعادات وبالمؤسسات . والواقع أن حكومة يوليو ، التي تحوم حولها ذكري الحملة الفرنسية في مصر ، كانت قد قررت إنشاء لجنة جديدة للعلوم وللفنون مكلفة بإعداد وصف للجزائر على غرار وصف مصر . وعندئذ يدعو انفانتان رفاقه الذين ظلوا في مصر الى تكوين معهد (مجمع علمي) مواز يعمل في تنسيق مع لجنة الجزائر في مجال استكشاف أفريقيا ونشر الحضارة [٥٥] . وسوفَ يستخدم مناصبه ، جد المتواضعة إجمالاً ، لكي يصور نفسه في صورة الخبير في الشئون الجزائرية ولكي يدعو دون كلل الى تطبيق مذهبه في الجزائر . وهو يستفيد من كل علاقاته السياسية ومن الصحافة ومن المجلات المتخصصة لكي يعمل على نجاح هذه المهمة الجديدة . وهدفه المباشر هو الاستعاضة عن الحكم العسكري العزيز على قلب بوجو بحكم مدني للأوروبيين كما للأهالي . ويمكننا أن نفهم سبب مقاومة العسكريين للبرنامج السان – سيموني .

وتميل سان – سيمونية تلك الفترة الى التخلي عن الأفكار الصوفية لكي تنكب على الأساس الإنتاجي للمذهب . ويري انفانتان أنه سوف يكون من الحماقة التخلي عن فتح تم بمثل هذا الثمن الفادح ويتمشي مع حركة التاريخ ، والتي تتمثل في غزو الغرب السلمي أو العسكري للشرق [٥٦] .

وهو لا يثق في إمكانية قيام أهل البلاد بنشر التمدن فيها . فترك هذه البلاد لسكانها الأصليين لن يكون معناه غير الإبقاء على البربرية . والعمل التمديني لا يمكنه أن يجيء إلاَّ من استيطان الجزائر من جانب الأوروبيين الذين سوف يستثمرون البلد . وسوف ينظم المستوطنون أنفسهم في شركة مُغْفَلَة من أجل استغلال الأراضي . وهذا النظام سوف يسمح لكل فرد بأن يعمل وفق قدراته في إطار هيراركية جديدة قائمة على الاستحقاق والجدارة . وسوف تكون الدولة هي منظم هذه الشركات التي سوف تكتسب فيما بعد استقلاليتها . وسوف يواصل الأهالي الاحتفاظ بملكياتهم الجماعية ، وإن كان تحت سيطرة محكمة من جانب موظفين مدنيين فرنسيين . ونظام الإدارة المباشرة هذا سوف يؤدي الى اختفاء الإطار القبلي وسوف يهيىء الشروط لاستيعاب العرب . والحال أن الاستيعاب ، وهو مرادف

التمدن ، سوف يتم أساساً من خلال تفاعل تدريجي من جراء تزايد تزاور وتعامل الأهالي مع المستوطنين الأوروبيين . وبالرغم من أن جانباً كبيراً من برنامج السان - سيمونيين لم يطبق ، فقد كان نفوذهم ملحوظاً في الجزائر . وكما في فرنسا ، فقد كانوا مسئولين عن عدد جد كبير من المنجزات الاقتصادية في الشطر الثاني من القرن التاسع عشر . والشيء الأكثر أهمية بالنسبة لنا ، هو أن سان - سيمونيي أربعينيات القرن التاسع عشر يدخلون فكرة سوف تتمتع بنفوذ ملحوظ . إن معيار التمدن يصبح معياراً إنتاجياً : ومشروعية وجود شعب على أرض ما إنما تستند الى قدرته على الاستثمار الاقتصادي والديموغرافي لتلك الأرض وليس بعد الى قدم حيازته لها . والحال أنه يتم بهذا الشكل طرح عنصر أساسي من عناصر أيديولوچية الإمبريالية التي سوف تنبثق في أواخر القرن التاسع عشر . ومن المعروف أن ماركس نفسه كان له رأي قريب من هذا الرأي حول الدور التقدمي للاستعمار الأوروبي («من حيث هو أداة غير واعية للتاريخ» (ماركس) . - المترجم) .

توكڤيل

اهتم توكڤيل كثيراً بما أسماه بـ «المسألة الأفريقية» وقد لعب دوراً كبيراً في اللجان البرلمانية للأعوام الأخيرة للملكية يوليو والتي كانت مكلفة بدراسة الشئون الجزائرية [٥٧] . وهو يقدم الأسباب العميقة التي لأجلها تنهمك فرنسا لوي - فيليب في مغامرة على هذه الدرجة من العنف . فالمسألة ، بعد المهانة التي لحقت بفرنسا خلال أزمة الشرق ، إنما تتلخص في الرغبة في الحيلولة دون إذلال جديد سوف «ينظر اليه العالم على أنه دليل أكيد على انحدارها [٥٨]» . والحال أن التخلي عن الجزائر إنما يعني أن فرنسا مستعدة لأن تصبح دولة من الدرجة الثانية في أوروبا . وعلى العكس من ذلك ، فإن فتح تلك المنطقة سوف يزيد نفوذ فرنسا في الشئون العالمية . وبشكل ما ، فإن فتح الجزائر هو رد الفعل على هزائم ١٨١٤ - ١٨١٥ ، والتي أحيتها أزمة عام ١٨٤٠ . وقد استشعر أن التوسع الاستعماري له من الأسباب التي تتعلق بالقوة أكثر مما له من الأسباب التي تتعلق بالاقتصاد (فتح أسواق جديدة أمام منتجات المتروبول) [٥٩] . إذ يجب لفرنسا أن تبقي في الجزائر لكي تظل قوة عظمي . والحال أن عبد القادر هو خطر قاتل بالنسبة لهذا المشروع . فالفاتحون ، بقضائهم على الحكم التركي ، قد سمحوا بانبثاق سلطة جديدة ، مشابهة لسلطة الملكية الفرنسية في القرن الخامس عشر . والأرستقراطي الفرنسي الذي هو توكڤيل يستشعر الضربة القاتلة التي سوف يوجهها الأمير (عبد القادر) ، شارل السابع الجديد ، الى النبلاء العرب [٦٠] . وفي هذا ، يمكننا أن نلمس أثر الأفكار الجديدة التي قدمتها أوروبا [٦١] «ويجب من ثم بذل جهد لمنعه من تحقيق هذا العمل الرهيب»[٦٢] .

والحال أن توكفيل ، إذ يضع المصلحة القومية الفرنسية فوق كل شيء ، وهو ما يقوده الى التخلي عن كل ليبرالية بالنسبة للأهالي ، فإنه يتوصل من ذلك الى تبرير مسلك بوجو وجنوده موضحاً أن انتهاج سياسة بديلة هو أمر غير ممكن [٦٣] . واعتراضه الحقيقي الوحيد على عمل المارشال إنما ينصب على عداوة هذا الأخير للاستيطان المدني . وفيما عدا ذلك ، فإنه يتبع مذهبه : فما أن يتم التوصل الى إخضاع العرب ، يجب التصدي للمقترحات المتطرفة التي تصدر عن البعض والذين يدعون الى القضاء على السكان العرب [٦٤] والى الحكم عن طريق سياسة قوة باستخدام المؤسسات التي خلقها عبد القادر .

والتباس موقف توكفيل هو التباس المكاتب العربية التي أنشأها بوجو بشكل حاسم . والحال أن نزعتها الأبوية السلطوية إنما تهدف في آن واحد الى تأمين حفظ النظام والى حماية العرب من تهديدات التجريد من الممتلكات وتهديدات الطرد . وإذ يلعب مسئولو المكاتب دور الملكية الفرنسية فإنهم يهدمون ببطء ولكن بشكل مؤكد سلطة كبار الزعماء لحساب موظفين أدنى مرتبة كالقادة والمشايخ . وتنقسم الأرض الجزائرية عندئذ الى منطقة يديرها العسكريون الذين يصونون لحسابهم النظام التقليدي ومنطقة مدنية مفتوحة أمام الاستيطان الأوروبي . ويبرر الجيش دوره بقلة تكاليف إدارته وبضرورة مواجهة الانتفاضات الممكنة دائماً وبالدفاع عن مصالح العرب . وسوف يجري دائماً الإعلان عن مشروع استيعاب هؤلاء الأخيرين لكن هذا الاستيعاب سوف يتم تأجيله الى مستقبل جد بعيد .

على أن توكفيل لن يكون المفكر الكبير الذي نعرفه لو لم يكن قد قدم التحذير النبوئي الذي ضاع في رطانة ملكية يوليو المائعة : «إذا ، (. . .) ولو دون قول ذلك ، لأن هذه الأمور تحدث أحياناً ، وإن كان لا يجري الاعتراف بها أبداً ، إذا ما تصرفنا بشكل يدل على أن سكان الجزائر القدماء ليسوا في نظرنا غير عقبة يجب ازالتها أو ركلها ؛ إذا ما طوقنا جماعاتهم السكانية ، ليس لكي نرفعها في أيدينا الى الرفاه ونور المعارف وإنما لكي نضيق عليها ولكي نخنقها في هذه الأيدي ، فإن مسألة حياة أو موت سوف تثار بين الجنسين . إن الجزائر سوف تصبح ، عاجلاً أم آجلاً ، ولتصدقوا ذلك ، ساحة قتال تحيط بها الأسوار وحلبة حرب تحيط بها الجدران ، سوف يتقاتل فيها الشعبان قتالاً لا يعرف الرحمة ، وسوف يهلك فيها أحد الاثنين . فلينجنا الله ، أيها السادة ، من مثل هذا المآل» [٦٥] .

نابوليون الثالث والمملكة العربية

وآخر محاولة حقيقية لتجنب الحرب بين الجنسين هي سياسة نابوليون الثالث الشهيرة الخاصة بالمملكة العربية . والدوافع اليها عديدة . فلما كان سكان الجزائر الأوروبيون قد أبدوا

قدراً من المعارضة لقيام الإمبراطورية الثانية ، فإن الحكومة الإمبراطورية تبدو دائماً متحفظة في تلبية مطالب المستوطنين الذين يدعون الى إلغاء المكاتب العربية من أجل السماح بتوسيع الاستيطان وبطرد الأهالي . ومطلبهم الأكبر هو إلغاء الملكية الجماعية للقبائل والملكية الفردية الإسلامية ، المثقلة بأعباء جماعية فادحة بما يحول دون إمكانية حيازة الأوروبي لها . ومن الواضح أن إنشاء الملكية الفردية سوف يمر بمنح أراض عربية جديدة للمستوطنين الأوروبيين . لكن الإمبراطور يملك نظرة أبعد بكثير من نظرة النزعة الأبوية السلطوية المميزة للعسكريين . فقد أظهرت فترة شبابه أنه أقرب الى تيارات فكرية كالسان – سيمونية مما الى آراء الوجهاء الذين يعتبر توكفيل ممثلهم ، الى حد معين . ومعروف تماماً دور إسماعيل أوربان ، الخلاسي الذي تحول الى اعتناق الإسلام خلال إقامة السان – سيمونيين في مصر والمتخصص في الشئون الجزائرية ، من حيث كونه ملهماً لسياسة نابوليون الثالث (٦٦) . وقد دعا على مدار سنوات من أجل تطور للمسلمين الجزائريين تحت رعاية فرنسا يقود الى تصالح بين الجنسين ثم إن الإمبراطور الذي يدرس الشئون الجزائرية ، بصبر ، من خلال الوثائق ، قد استمع اليه كما استمع الى الأعضاء الآخرين في المجموعة الصغيرة التي تضم «ذوي الهوي العربي» (٦٧) .

وقد لقيت آراء إسماعيل أوربان قبولاً حسناً لأنها تتمشي مع تصور خاص لدي نابوليون الثالث – فهذا الأخير حساس بطبيعة الحال تجاه التوجه العربي لعمه . وهو وريث سياسة الحملة الفرنسية في مصر وكتابات (نابوليون الأول المنفي في) سانت – هيلين . وقد بدا دائماً معادياً لاستيطان وفق النموذج الأمريكي يترافق بالضرورة مع إبادة السكان الأصليين (٦٨) . وهو يؤمن إيماناً صادقاً برسالة فرنسا التمدينية ولا يمكنه التسليم بأن تبيد بلاده قومية من القوميات . وعلى أثر التدخل العسكري الفرنسي في لبنان ، ينهمك الإمبراطور في سياسة عربية وشرقية نشطة . والحال أن الجزائر لا يجب أن تكون عقبة بل يجب أن تكون دعامة لهذا المشروع . وجميع هذه العوامل ، وهي الاستقلال تجاه المستوطنين ، والنزعة السان – سيمونية ، والأفكار النابوليونية ، والسياسة العربية ، وأريحية شخصية لا تنكر ، إنما تفسر الرسالة الشهيرة الموجهة الى پيليسييه والمؤرخة في ٦ فبراير ١٨٦٣ والتي تذكر بأن فرنسا قد ذهبت لإدخال مزايا التمدن الى الجزائر وليس لاضطهاد العرب أو نهبهم وبأنه ترتيباً على ذلك فإن «الجزائر ليست مستعمرة بالمعني المفهوم من هذا المصطلح ، بل هي مملكة عربية . والأهالي لهم ، كالمستوطنين ، حقاً مساوياً في حمايتي وأنا إمبراطور للعرب مثلما أنا إمبراطور للفرنسيين» (٦٩) .

وبناء على ذلك ، ينخرط الإمبراطور في سلسلة من الإصلاحات التي تهدف الى حماية الفلاحين العرب واختزال سلطة الأرستقراطية الجزائرية بإضعاف الإطار القبلي . ورحلة مايو

- يونيو ١٨٦٥ هي أوج هذه السياسة . والحال أن نابوليون الثالث يستعيد لدي وصوله الى الجزائر التراث التليد ، تراث البيانات الموجهة الى العرب في عام ١٧٩٨ وفي عام ١٨٣٠ مؤكداً هذه المرة بقوة على ضرورة الاستيعاب : «عندما نزلت فرنسا الى الأرض الأفريقية ، قبل خمسة وثلاثين عاماً ، فإنها لم تأت من أجل القضاء على قومية شعب بل جاءت ، على الضد من ذلك ، لكي تخلص هذا الشعب من اضطهاد دام قروناً : ومحل السيطرة التركية ، أقامت حكماً أكثر مرونة وأكثر عدلاً وأكثر استنارة . لكنكم بالرغم من ذلك ، حاربتم محرريكم ، على مدار الأعوام الأولي ، بسبب نفاد صبركم تجاه أية سيادة أجنبية . وبعيد عن فكري أن أتهمكم بأنكم قد ارتكبتم جرما إذ تصرفتم على هذا النحو ؛ على العكس ، انني احترم شعور الشرف المقاتل الذي دفعكم ، قبل أن تلقوا السلاح ، الى أن تلتمسوا بالسلاح حكم الله . لكن الله قد أصدر حكمه . فلتعترفوا إذاً بما حكمت به العناية الإلهية التي ، بتدابيرها التي لانفهمها ، غالباً ما تقودنا الى الخير إذ تخيب آمالنا وإذ تحبط جهودنا . إن أجدادنا ، شأنهم في ذلك شأنكم ، قد قاوموا ببسالة ، قبل عشرين قرناً ، غزواً أجنبياً ، على أن إحياءهم إنما يرجع الى زمن هزيمتهم . فالغاليون المغلوبون قد استوعبهم الرومان الغالبون ومن الاتحاد القسري بين الفضائل المتباينة للحضارتين المتقابليتين ولدت ، بمرور الزمن ، تلك القومية الفرنسية التي ، بدورها ، نشرت أفكارها في العالم كله . ومن يدري ، فربما يجيء يوم يستعيد فيه الجنس العربي ، وقد استعاد الحياة وامتزج بالجنس الفرنسي ، شخصية قوية مماثلة لتلك الشخصية التي كانت قد جعلت منه على مدار قرون سيد الضفاف الجنوبية للبحر المتوسط»[٧٠] .

ثم إن الرسالة الموجهة الى ما كما هون ، الحاكم الحاكم العام للجزائر ، والمؤرخة في ٢٠ يونيو ١٨٦٥ ، إنما تستعيد هذه اللغة بتأكيدها على أنه من غير الوارد طرد ملايين الأهالي الثلاثة الى الصحراء كما فعل أمريكيو الشمال مع الهنود ، ولا إبادتهم . وبشكل ضمني ، فإن مثل هذا التأكيد لا يمكنه أن يقود إلاّ الى خيار استيعابي سعياً الى صون المستقبل . وهكذا فإن الرسالة تحتوي قائمة كاملة بالتدابير التي من شأنها تسهيل حصول سكان الجزائر على الجنسية (الفرنسية) ومنح جزء من الحقوق السياسية للأهالي غير الحاملين للجنسية (الفرنسية) كحق الانتخاب والترشيح للمجالس البلدية بما في ذلك في الكوميونات الفرنسية كلية الصلاحيات . ويجب أن نلاحظ أن الأهالي يسمون في جميع هذه النصوص على نحو موحد بـ «العرب» وأن البربر لا يظهرون كجماعة متميزة . فعروبية الجزائر تخص جميع السكان المسلمين ، أو لكي نكون أكثر دقة على المستوي الحقوقي ، جميع الأشخاص الذين تعتبر الشريعة الإسلامية قانونهم المدني [٧١] .

ومن جراء اتساع السيطرة الفرنسية بعد استسلام عبد القادر ، فقد جري فتح المناطق الناطقة بالبربرية . ومنذ ذلك العهد تبدأ سياسة قبايل (بربر) قوامها الرغبة في فصل هؤلاء السكان عن العروبية والإسلام . وهذه الأفكار تفسير جديد لنظرية الفتوحات ، التي تذهب الى أن السكان الأصليين للشمال الأفريقي ، والذين تأثروا بالفعل في العصر القديم بالحضارة الرومانية والمسيحية ، سيكونون ، «قابلين للتمدن» بشكل أسهل . وكانت هذه الآراء بشكل خاص آراء عدد معين من المسئولين العسكريين والمدنيين في الساحة وليست آراء حكومة المتروبول . والوثيقة نفسها توضح تماماً الاتصال الضروري مع سياسة فرنسا تجاه الشرق : «إن فرنسا ، التي تتعاطف في كل مكان مع أفكار القومية ، لا يمكنها أن تبرر ، أمام العالم ، التبعية التي تضطر الى إبقاء الشعب العربي فيها ، ما لم توفر له حياة أفضل . وعندما يصبح أسلوبنا في حكم شعب مغلوب ، في نظر ملايين العرب الخمسة عشر المنتشرين في الأجزاء الأخري من أفريقيا وآسيا ، أسلوباً يفتح شهيتهم ؛ وعندما تظهر لهم سلطتنا القائمة على سفوح جبال أطلس بوصفها تدخلاً من جانب العناية الإلهية لإيقاف جنس خارت قواه على قدميه من جديد ؛ عندئذ فإن مجد فرنسا سوف يدوي من تونس الى الفرات ، وسوف يكفل لبلدنا ذلك التفوق الذي لا يمكنه أن يستثير غيرة أحد ، لأنه يستند ، ليس الى الفتح ، وإنما الى حب البشر والتقدم . و«السياسة الذكية هي الأداة الأقوي لتحقيق المصالح التجارية . وما هي السياسة الأذكي بالنسبة لفرنسا من السياسة التي تتمثل في أن تمنح في ولاياتها هي للأجناس المحمدية ، جد العديدة في الشرق وجد المتضامنة فيما بينها ، بالرغم من تباعد المسافات ، دلائل لا يمكن معارضتها على التسامح والعدالة واحترام اختلاف العادات والعبادات والأجناس؟ » (٧٢) .

إخفاق المملكة العربية

من المؤسف أن سياسة نابوليون الثالث الجزائرية لن تطبق في الواقع إلاّ بشكل جزئي . وكان على الإمبراطور أن يبقي في الساحة الكادر الإداري والعسكري الموجود هناك بالفعل ، إذ لم يكن يملك بديلاً عن أولئك الأفراد . وبوسعه أن يأمل في أن العسكريين الذين يعلنون أنهم حماة العرب سوف يطبقون أفكاره . لكن المنفذين من نوع ماكماهون يفعلون كل ما من شأنه جعل القرارات الإمبراطورية فارغة من المعني . ولا يمكن اللجوء الى الموظفين المدنيين الذين يعدون ، في مجموعهم ، أنصاراً لتقييد متزايد لحجم الأرضي الواقعة تحت السيطرة العسكرية وذلك سعياً الى توسيع المجال المدني المخصص للاستيطان الى أقصي حد ممكن . ولا يمكن للإمبراطور أن يعتمد إلاّ على فعل الزمن من أجل تغيير العقليات بشكل تدريجي .

ومما له دلالته أن المحاولات النادرة من جانب جزائريين ساعين الى نيل الجنسية الفرنسية إنما

تصطدم برفض تسجيل من جانب الموظفين الفرنسيين . وكان على بوضربه العجوز ، الذي كان يريد ضرب المثل ، أن يطلب أولاً إلغاء زواجه الذي تم أمام القاضي المسلم وأن يجري بعد ذلك مراسم زواجه أمام العمدة الفرنسي (٧٣) .

على أن السنوات التالية لإعلان سياسة المملكة العربية هي فترة مجاعات وأوبئة تقضي على السكان الأصليين . وترجع نسبة الوفيات العالية جداً الى تفكك الهياكل التقليدية والى الإندماج في الاقتصاد النقدي : لقد اختفت احتياطيات الحبوب التي كانت تسمح ، في السابق ، للمجتمع الأفريقي الشمالي بإجتياز الفترات المناخية الكارثية دون شقاء كبير . ويتفكك المجتمع العربي القديم الذي كان الإمبراطور يريد الإبقاء عليه للسماح بتطور تدريجي نحو التمدن الأوروبي .

وقد برر المشروع الإمبراطوري نفسه بتصور اقتصادي يجعل من العرب سكاناً ريفيين أساساً ومن الأوروبيين شاغلي المدن . والحال أن انهيار الزراعة العربية إنما يتوافق مع توسع سافر للزراعة الأوروبية ، الأمر الذي يتنافي مع مجمل منطق العمل الإمبراطوري .

والمعارضة الليبرالية والجمهورية وثيقة الارتباط بالمستوطنين . وجول فافر ، المحامي الجمهوري الكبير ، يكثر من المداخلات البرلمانية باسم المستوطنين ويطالب بتطبيق القانون المدني الفرنسي على مجمل الأرض الجزائرية . ومنطقه واضح : «إذا كان الاستيطان يمثل الحضارة في الجزائر ، فإن من حقي القول بأن السلطة العسكرية هي عدو الحضارة» (٧٤) . (صيحات : أحسنت ! على يسار الخطيب) .

وحجاج الجمهوريين والمستوطنين يتوخي أن يبدو إنسانياً . فالمقصود هو إنجاز صهر الجنسين عن طريق تداخلهما ، ووحدة التشريع إلاّ فيما يتعلق بالدين وبالأسرة ، وحرية التعامل . وبهذا سوف يتسني لفرنسا تحرير الفلاح من استغلال سادته له ، بما يسمح مع مرور الزمن بهيمنة العدل والإنسانية (٧٥) .

وهذا الصهر للجنسين هو رفض اعتراف بعرب الجزائر من حيث كونهم أمة . وبالنسبة للجمهوريين ، فإن الاستيعاب هو الحل الوحيد للمسألة الجزائرية . لكن الحرية الوحيدة التي يجوز منحها للعرب الآن هي حرية بيع أراضيهم للمستوطنين . ويجري بنشاط شجب التحركات التي اضطلع بها نابوليون الثالث من أجل اشتراك الأهالي في الانتخابات المحلية . والمبرر الوحيد الذي يفلح جول فافر في العثور عليه هو أن العرب خاضعون للعسكريين الذين سوف يستفيدون من ذلك من أجل كبت حريات المستوطنين المدنيين (٧٦) .

وفي استطلاع رسمي حول مستقبل الزراعة الجزائرية بعد سنوات المجاعة ، فإن عدداً من كبار الزعماء ، يستلهمون على الأرجح آراء إسماعيل أوربان ، يجيبون على سؤال ما إذا كان

يجب إخراج المسلمين من ولاية الشريعة الإسلامية ، بأنه يجب أولاً أن يترك للمسلمين اختيار مسئوليهم الحقوقيين وخاصة استعادة مؤسسات التعليم التي أزالها الفرنسيون منذ بداية الفتح . وهم يضعون الفرنسيين أمام مسئولياتهم : «أليس غريباً أن اناساً متحضرين يلزمون العرب ، من جهة ، بالتآخي مع الأوروبيين وبالارتباط بهم بأواصر الصداقة بينما يسعون على الضد من ذلك ، من جهة أخري ، الى الفصل بين الجنسين بالحط من شأن جنس وبالإعلاء من شأن الجنس الآخر ! إن كل صاحب إمتياز أوروبي يتحول الى أمير (. . .) . والحال أن الإدارة قد تنازلت لهم عن أراض (. . .) لكي يقدموا البراهين على خبرتهم المزعومة في مجال الزراعة لا للمضاربة في لحم العرب ودمهم . إن الحضارة تنبذ مثل هذا الأسلوب في التصرف والذي يذكر بالأحري ببربرية الأزمنة الغابرة» (٧٧) .

والحال أن سياسة الإمبراطور ذات الهوي العربي إنما تنحدر مع إنحدار سلطته الشخصية . وفي مارس ١٨٧٠ ، فإن چول فافر ، مدعوماً من جانب جامبيتا ، يقدم الى الجهاز التشريعي جدول أعمال يكلف الحكومة بإقامة حكم مدني بكامل اتساعه في الجزائر . ويضطر إميل أوليفييه الى التراجع والى قبول مبدأ هذا الاقتراح . وبهذا تصدر شهادة وفاة المملكة العربية بالرغم من تأجيل إعمالها .

ويمثل مجيء الجمهورية الثالثة انتصاراً بالنسبة للمستوطنين . فمراسيم حكومة الدفاع الوطني من أكتوبر ١٨٧٠ الى فبراير ١٨٧١ تلغي الجانب الأكبر من المسئوليات العسكرية ومن ثم تلغي آخر حماية للمسلمين . ويجري إلغاء انتخاب مستشارين عموميين مسلمين . ويرمز قمع انتفاضة القبايل (البربر) في عام ١٨٧١ الى نهاية المجتمع القبلي التقليدي . والحال أن المجتمع الإسلامي القديم لن ينهض من هذه الضربة الحاسمة . إن انتصار المستوطنين تام . ولا تجرؤ باريس بعد على تقييد سيطرتهم على مجمل الجزائر .

چول فيري

نرصد التراجع مع الاستقصاء الكبير الذي قام به مجلس الشيوخ في عام ١٨٩٢ والذي أشرف عليه چول فيري . ومن المؤكد أنه قرار اتهام ، عنيف أحيانا ، ضد المستوطنين : فهم ليسوا جديرين بالرسالة التعليمية والتمدينية التي كان لابد لها من أن تكون رسالتهم هم بوصفهم ممثلين للجنس الأرقي . والاستقصاء يحذرهم من الخطر الذي تنذر به بداية الانطلاق الديموغرافي للسكان المسلمين ، الذين لم يجر البتة استيعابهم في الأمة الفرنسية(٧٨) . لكن چول فيري لايستطيع أن يتصور إلاّ الرجوع الى نزعة أبوية حامية للمسلمين . والكثير من التدابير التي يجري تدارسها ليس غير التدابير التي كان نابوليون الثالث قد تبناها وكانت

الجمهورية قد ألغتها . ويدعو الرئيس السابق للمجلس الى إعادة تعيين حاكم عام قوي ، قادر على فرض إصلاحات وعلى اختزال ضغط المستوطنين . ودون أن تخامره أوهام حول فضائل الشعب المغلوب فإنه يدعو الى إلغاء التدابير الاقتصادية الجائرة وغير المدروسة التي تنيخ بكلكلها على الأهالي وتبقيهم في تذكر صراعات الفتح الدامية . لكنه لا يتحدث عن قومية عربية أو عن حقوق سياسية : «إن الشعب العربي لا يطلب منا أن نشركه في حرياتنا السياسية . فالمسلمون ليس لديهم مفهوم النيابة السياسية ، ولا مفهوم السلطة التعاقدية والمقيدة ؛ ونظام الحكم النيابي وفصل السلطات سواء بسواء لا يعنيان بالنسبة لهم أي شيء ، إلاّ أن لديهم ، بأعلى درجة ، غريزة ، والحاجة الى ، والمثل الأعلى الخاص بالسلطة القوية وبالسلطة العادلة . وفي نظرهم ، فإن فرنسا هي القوة ؛ ولابد لها بشكل خاص من الآن فصاعداً أن تكون العدالة . إلاّ أنه لتحقيق هذه المهمة ، والتي تمليها على المتروبول السياسة والإحساس ، الواجب والبصيرة ، فإن المتروبول لا يمكنه أن يعتمد في ذلك إلاّ على نفسه ، على نوابه المباشرين ومسئوليه . وهذا هو السبب الحاسم الذي لأجله يعد مهما ، في رأينا ، وضع الحاكم العام للجزائر فوق المؤثرات المحلية وفوق عمل الأجهزة المنتخبة» (٧٩) .

وجول فيري هو وريث مواقف الثورة من حيث إنه يعترف بأن السيادة إنما ترجع الى الأمة التي هي واحدة ولا تقبل التجزئة . ولا يمكن أن توجد في داخل هذه الأمة طائفة لها وضعية قانونية مغايرة . والمفهوم الفرنسي للأمة لا يمكنه الاعتراف بواقع طائفي في الحياة العامة . والمسلم من حيث هو مسلم لا يمكنه إلاّ أن يكون تابعاً . وهكذا يصطدم الموقف الاستيعابي بصعوبة يتعذر التغلب عليها . والسلطات الاستعمارية لا تريد مثل هذه السياسة (الاستيعابية) التي تفترض نزع الطابع الإسلامي عن المجتمع الجزائري ، وذلك لأنها ، من الناحية الرسمية ، تنذر بإثارة تمردات رهيبة . فهذه السلطات تؤثر بالأحري سياسة «إسلامية» قوامها زيادة أشكال المراعاة تجاه رجال الدين ذوي المرجعية مع توريطهم في النظام الاستعماري . والحال أن تمدين الجزائريين ، أي العمل على تفرنسهم ، إنما يؤجل الى مستقبل جد بعيد ، الأمر الذي يخلق الظروف لحل وسط استعماري مع المسلمين الذين يرون بذلك أنه لم يتم خلق شيء غير قابل لقلب اتجاه سيره . وهكذا فإن أنصار توسيع التعليم العلماني ليشمل الأطفال المسلمين إنما يصطدمون بسلسلة كاملة من المعارضات : المعارضة من جانب المسلمين المتمسكين بالدفاع عن شخصيتهم الدينية والثقافية ، والمعارضة من جانب المستوطنين الذين لا يريدون أي تحرير للأهالي ، والمعارضة من جانب الاستعماريين أنصار السياسة الإسلامية . والمتروبول الذي لا يملك إرادة سياسية حقيقية ، لا يملك سوي إبقاء هذا الأمر الواقع ويكتفي بعدد من التدابير المترددة المحبذة لتعليم المسلمين ، وذلك أساساً لكي يعلن حسن نواياه .

وهكذا فبرغم أنف تصديق مجلس الشيوخ على تقرير چول فيري ، لن تفعل حكومة الجمهورية شيئاً من الناحية العملية . وسوف تشهد العقود التالية الإبقاء على اسم «العرب» النوعي الشامل للإشارة الى سكان الجزائر ، إلا أنه ، خلافاً للعقود الأولي للفتح ، لن يتم أي اعتراف بواقع قومي . والمفارقة مروعة لاسيما وأن فرنسا ، منذ مستهل القرن العشرين ، سوف تُواجَهُ في الشرق بنهضة للشخصية العربية كانت قد عملت على ما هو أكثر من تشجيعها قبل أن تحاربها مع اضطرارها الى هذا الحد أو ذاك الى التسليم بوجودها .

حواشي الفصل الثالث

١ - Le rapport de Boutin a été publié en 1924 par Georges Yver sous le titre "Reconnaissance des villes, forts et batteries d'Alger, par le chef de bataillon Boutin (1808)", *Collection de documents inédits sur l'Histoire de l'Algérie après 1830*, 2e série, Paris, 1927

٢ - Gabriel Esquer, *La Prise d'Alger*, Alger, 1923, pp. 151 - 152

٣ - يذكر دوسّيه أن سيدني سميث «جاءني ذات صباح يتبعه حَمَّالان أنزلا في مكتبي سلة ضخمة استل منها ما لا أدري كم من القوارب والعربات والعجول. وحتى يتسنى له جمع هذه المجموعة المثيرة من الأشياء، لابد أنه كان عليه أن يأخذ كل ما في حوانيت جميع تجار الأنتيكات في باريس. وقد رتب كل هذه الأشياء على مائدة وأبلغني بأن هذا ليس أقل من خطة إنزال على الساحل الإفريقي.

«وسوف يكون مستحيلاً عليّ القول بأن هذه الخطة برمتها تنطوي على حماقة حتى وإن كنت قد اضطررت الى أن أشهد شرحاً ثانياً لها أبدي الملك صبراً كافياً للاصغاء اليه حتى النهاية. وقد أعربت للخطيب عن الأسف لأنني التزمت بنظرية أخري قطع تنفيذها شوطاً بعيداً بحيث يتعذر عليّ التخلي عنها، لكن أدبي لم يكن بوسعه أن يساعد على اغتفار رفضي. فقد قام الأميرال الإنجليزي ساخطاً برمي سفنه وجياده ومدافعه في السلة المستخدمة في نقلها، و، منذ ذلك اليوم، قطع العلاقات جد النشيطة التي كانت له معي». نقلاً عن Henri Noguères, *L'Expédition d'Alger*, Paris, 1962, p. 79

٤ - Gustave Gautherot, *La Conquête d'Alger, 1830*, d'après les papiers inédits du maréchal de Bourmont, Paris, 1929, pp. 60 - 61

٥ - Gabriel Esquer, *La Prise d'Alger*, 1923, p. 295 : «علم القائد العام أن حشود فرسان غير نظاميين عديدة تنتظرنا على الضفة وتستعد لتغطية جبهتها بآلاف الجمال ولن يدهش الجنود من شكل هذه الحيوانات قدر دهشتهم من عدد أعدائهم. وسوف يأسفون من أن الانتصار لن يكلفهم سوي القليل جداً من الجهود. إن ذكريات (معركة) هليوبوليس سوف تحفز بينهم مباراة نبيلة. وسوف يتذكرون أن أقل من عشرة آلاف رجل من رجال جيش مصر (جيش الحملة الفرنسية على مصر) قد انتصروا على أكثر من سبعين ألف تركي أكثر جسارة وأكثر دراية بفنون الحرب من العرب الخاضعين لاضطهادهم».

٦ - Silvestre de Sacy, *Chrestomathie arabe*, *Paris*, 1827, III, p. 368

٧ - «إن حضورنا عندكم ليس هو لأجل محاربتكم وإنما قصدنا محاربة باشتكم الذي بدأ وأظهر العداوة والبغضاء ومما لا يخفي عليكم غاية تحكمه وقبح طبعه المشوم ولا ينبغي لنا أن نطلعكم على أخلاقه

الذميمة وأعماله الرذيلة فإنه واضح لديكم أنه لايسعي إلاّ على خراب بلادكم ودثارها وتضييع أموالكم وأعماركم ومن المعلوم أنه إنما يريد أن يجعلكم من الفقراء المنحوسين المبهدلين الخاسرين أكثر من المسخط عليكم فمن أعجب الأمور كيف يُغبي عنكم أن باشتكم لا يقصد الخير إلاّ لذاته والدليل كون أحسن العمارات والأراضي والخيل و السلاح وما أشبه ذلك كله من شأنه وحده فيا أحبابنا سكان المغرب إنه عز وجل ما سمح بأن يصدر من باشتكم الظالم ما فعله من أعمال الخبث والردى إلاّ إنعاماً منه سبحانه وتعالي عليكم حتى تحصلوا بهلاكه وبزوال سلطنته على كل خير ويفرج عنكم ما أنتم فيه من الغم والشدة .» النص العربي ، والترجمة والتعليق في مقال : Berbrugger et Bresnier "Première proclamation française aux Algériens", *Revue africaine*, VI (1862), pp. 147 - 158

٨ – Henri Noguères, *L'Expédition d'Alger*, Paris, 1962, p. 171

٩ – Gabriel Esquer, *La prise d'Alger*, Alger, 1923, p. 379 : «إنكم سوف تعيدون معنا فتح باب المسيحية في افريقيا . ولنأمل في أنها سوف تتوصل بسرعة الى إعادة ازدهار الحضارة التي ذوت» .

١٠ – من الدوق دو روفيجو الى رئيس المجلس ، «بحث حول استعمار الجزائر» ، ٢٩ أكتوبر ١٨٣١ : «توجد في دار الطباعة الملكية ، في باريس ، مطبعة عربية بجميع حروفها ؛ وهي المطبعة التي أعيدت من مصر والتي لم تفرَّغ حتى الآن من صندوقها . ولا يمكن لشيء أن يكون ثمينا بالنسبة للمستعمرة أكثر من هذا المكتسب (المطبعة) . إنها سوف تكون وسيلة لمحاربة المؤثرات المعادية بإطلاع أعيان مجتمع هذه البلاد على قرارات وأعمال حكومة فرنسا ، كما على كل ما قد يكون من المفيد ترسيخه في عقولهم ؛ الأفكار الخاصة بحرمة الملكية ، والقضاء العادل النزيه المكفول لجميع المواطنين و ، بوجه عام ، جميع أجزاء تشريعنا التي تمس المصالح الخاصة . والحال أننا بالاستخدام الذكي لهذه الوسيلة القوية وفي هذا الاتجاه وحده ، سرعان ما سوف نجني من وراء ذلك ثماراً غالية .

«والواقع أنه للتأثير الذي أحدثته في الشرق ، في ظل الجنرال بونابارت وفي ظل خليفته ، تدين شعوب تلك الأقطار بتطور المباديء التي أُجبر باشا مصر (محمد على – المترجم) على قبولها والتي ، بالرغم منه ، سوف تمتد الى سوريا وبلاد العرب ، خاصة إذا ما استخدمناها في الجزائر» .

Gabriel Esquer, "Correspondance du duc de Rovigo, commandant en chef du corps d'occupation d'Afrique (1831 - 1833), *Collection de documents inédits sur l'Histoire de l'Algérie après 1830*, 1 re série, Alger, 1914, I, p. 13

١١ – H. Khodja, *Le Miroir*, nouvelle édition, Paris, 1985 , p. 69

١٢ – *Ibid.*, p. 213 : «إن إقتراف كل هذا الحجم من الأعمال التعسفية إنما يلزمني بإذاعتها ، حتى يأخذ التاريخ بها علماً ، وحتى أوضح للأجيال القادمة كيف يفهمون الحضارة في القرن التاسع عشر . إنهم يضطهدوننا في الجزائر وإذا ما واتتنا الجرأة لرفع صوتنا ضد نظام الاضطهاد هذا ، فإنهم ينفوننا . . .» .

١٣ – *Ibid.*, p. 237 : «وهكذا فما دام الفرنسيون ينوون إدخال الحضارة الى افريقيا ، فلماذا يهدمون هذا

المورد الذي تنبع منه المعرفة والدراية بجميع الأمور ؟ إن هذا المسلك إنما يبين أن هذا الجنرال ، بدلاً من أن يكون راغباً في أن ينشر بيننا المعارف والحضارة ، فإنه ينوي على العكس من ذلك إغراقنا في الدياجير وفي الجهالة» .

١٤ - *Ibid.*, p. 236

١٥ - *Ibid.*, pp. 261 - 262 : «إن تجربة ثلاثة أعوام من الاحتلال قد بددت كل ضروب الشك في هذا الصدد . إن فرنسا لن تنتزع أية فائدة من الجزائر ولن تدخل الحضارة اليها إلاّ إذا طبقت أحد هذين المبدأين ؛ الأول هو الإبادة والثاني هو دعوة جميع سكان الإيالة دعوة صريحة ، عبر تدخل إمبراطور مراكش وباي تونس وباشا طرابلس ، الى بيع ممتلكاتهم والي الرحيل عن إيالة الجزائر أو الى تقديم ضمانات الى فرنسا بالتزام الخضوع لها وإلاّ فإنها سوف تكون مضطرة الى إراقة الدم البشري» .

١٦ - *Ibid.*, pp. 262 - 263

١٧ - *Ibid.*, note de la page 8

١٨ - Voir Abdeljedil Temimi, "À propos du *Miroir* de Hamdan khudja" in *Reherches et documents d'histoire maghrébine*, Tunis, 1971, pp. 109 - 171

١٩ - Voir Georges Yver, "Mémoire de Bouderbah", *Revue africaine*, 1913, pp. 218 - 244

٢٠ - Temimi, *ibid.*, p 151 et surtout p. 153 ، نص حمدان خوجه في عام ١٨٣٤ : «لقد امتدح هذا المتحول (عن الإسلام) عربياً وهو يزكيه للفرنسيين حتى يتولوا تعيينه والياً ، واسمه عبد القادر محيي الدين ؛ وكان في وهران ونواحيها ، وقد أعلن نفسه بالاشتراك مع أبيه حاكماً للبلاد» .

٢١ - *La Revue des Deux Mondes*, Chronique de la quinzaine, le 14 février 1837

٢٢ - خطابا ٢١ و٢٤ أبريل ١٨٣٧ ، في *Discours parlementaires de M. Thiers*, Paris, 1879, t. IV, pp. 122 - 169

٢٣ - خطاب ٢٢ أبريل ١٨٣٧ ، في Guizot, *Histoire parlementaire de France*, Paris, 1863, t. II, p. 65 : «أعتقد أننا بالتخلي عن هذه المستوطنات الدائمة على جميع المحاور المهمة للمناطق الداخلية من البلد ، وبالاكتفاء باحتلال محدود ، لا يقتصر فحسب على ثلاثة أو أربعة موانيء لانتخطاها ، بل على عدد من الأجزاء من الأراضي حول المحاور الرئيسية ، وبالانكباب على العيش في علاقات طيبة مع الأهالي ، فإننا إنما نتصرف بشكل أكثر تمشيا بكثير مع مصالح فرنسا في افريقيا ، كما أعتقد أننا نكفل لها عين المزايا بتحميلها أعباء أقل» .

٢٤ - من Georges Yver, *Documents relatifs au traité de la Tafna*, Alger, 1924, pp. 39 - 40 بوجو الى وزير الحربية ، ٥ مايو ١٨٣٧ : «إن عبد القادر هو الزعيم العربي الوحيد الذي يمكنه أن يقدم لنا ضمانات السلم وضمانات التجارة ؛ وهو يتميز بعظمة أفكاره وبمقاصده التمدينية ؛ وسوف يقود العرب في مناحي تقدم الفنون والصناعة ، متيحاً لنا بذلك مصادر لعلاقات تجارية عديدة . أما إذا ما

تحملنا بأنفسنا مسئولية قيادة هذه الشعوب ، فإن هناك الكثير من التعارضات الخاصة بالدين وبالأخلاق وبالقوانين وبالعادات ، بحيث أننا لن نصل الى شيء إلاّ الى حرب لا تنتهي ، إلاّ إذا جري السهر على مدار عدة أعوام على إرسال القوات والنفقات الضرورية للتمركز بشكل راسخ في المناطق الداخلية من البلد . ومما لا مراء فيه أنه ليس من المستحيل إخضاع العرب و ، إذا ما جري تأمين قوة كافية لي على مدار ثلاثة أعوام ، فسوف أضطلع بذلك وأنا على ثقة من أنني سوف أنجح فيه . إلاّ أنه بما أن فرنسا لن ترغب في توفير هذه القوة ، وسوف تكون محقة في ذلك في رأيي ، فإنني أعتقد أن من الحكمة أكثر استغلال البلد استغلالاً تجارياً ، مع حيازة منطقة صغيرة لتجريب الاستيطان وزراعة نباتات فيها ، ليس من شأنها الإضرار بزراعة فرنسا الصناعية» .

٢٥ - *Ibid.*, p. 300 ، من وزير الحربية الى بوجو ، ٢٦ مايو ١٨٣٧ : «إن الحكومة لم تتأثر بالمزايا التي يبدو لك أن خلق وحدة عظمي عند العرب في شخص عبد القادر يتيحها . وبالرغم من أفكاره التمدينية ، أو بالأحري بسبب أفكاره هذه ، فإنها تعتقد أن هذه الوحدة خطرة ؛ ويبدو لها مدعاة للخوف أن عبد القادر ، عندما يصبح سيداً للمناطق الداخلية ، سوف يود أيضاً أن يكون سيداً للساحل وسوف يكون من الصعب علينا آنذاك الى أقصي حد زحزحته عن هنالك ، حين لا نجد في البلد بعد أية منافسة يمكننا تحريكها ضده وحين لا نمارس بعد تأثيراً مباشراً على أي جزء من السكان .»

٢٦ - *Ibid.*, p. 536 ، من دامريمون الى رئيس المجلس ، ١٥ يونيو ١٨٣٧ : «في فرنسا ، تنتشر الأفكار الأكثر زيفاً عن عبد القادر ؛ إذ تجري المبالغة في تقدير قواه ؛ ويسود الاعتقاد بأنه أمير عظيم ، ويجري وضعه على مستوي باشا مصر تقريباً . ويغيب عن البال أن هذا الرجل لم يكن شيئاً ، قبل أربع سنوات خلت ؛ وأن المكانة التي اكتسبها ، قد عاد بها عليه ما ارتكبناه من أخطاء ؛ وأن النفوذ الذي يتمتع به ، نحن الذين تسببنا فيه . ونحن ننسي الى أي درك كان قد انحط في العام الماضي . ولا نأخذ في الحسبان الأحقاد والتنافسات التي أثارها ، وأعمال السلب والنهب التي قام بها ، وسأم العرب واحتياجهم الى التجارة معنا والتعاسة وفتور الهمة اللذين خَلاّ بهم» .

٢٧ - Sidi Ferruch سيدي فروج .

٢٨ - *Ibid.*, p. 543 et p. 549

٢٩ - نجد في كتاب اليكس بيلمار *Abd el - Kader, sa vie* Alex Bellemare, *Politique et militaire*, Paris, 1863, pp. 220 - 241

عرضاً كاملاً قدمه الأمير خلال فترة أسرة في فرنسا الى الجنرال دوماً حول التنظيم الذي أضفاه على دولته .

٣٠ - *Muqaddima*, pp. 298 - 299 ، العرب لا يحصل لهم الملك إلاّ بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة : «والسبب في ذلك أنهم لخلق التوحش الذي فيهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض للغلظة والأنفة ، وبُعد الهمة والمنافسة في الرئاسة ، فقلما تجتمع أهواؤهم . فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم ، فسهل انقيادهم

واجتماعهم ، وذلك بما يشمله من الدين المذهب للغلظة والأنفة ، الوازع عن التحاسد والتنافس . فإذا كان فيهم النبي أو الولي الذي يبعثهم على القيام بأمر الله ، ويُذهبَ عنهم مذمومات الأخلاق ، ويأخذهم بمحمودها ، ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق تم اجتماعهم ، وحصل لهم التغلب والملك . وهم مع ذلك أسرع الناس قبولاً للحق والهدي لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الأخلاق» (أنظر ، **مقدمة** ابن خلدون ، دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ١٣٦ – المترجم) .

٣١ – حول المدن التي أنشأها الأمير ، انظر Charles - André Julien, *Histoire* de *l'Algérie contemporaine, conquête et colonisation (1827 - 1871)*, Paris, 1964 , pp. 184 - 185

٣٢ – *Muqaddima*, pp. 711 - 712 (أنظر ، **مقدمة** ابن خلدون ، دا الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٣١٠ – المترجم) .

٣٣ – Bellemare, *op. cit.*, pp. 22 - 23 : «ويحكي العرب أنه غداة وصول محيي الدين وابنه الى بغداد ، غاية رحلتهما ، ذهب عبد القادر لمراقبة الجياد التي ترعى في السهل ، وآنذاك ظهر فجأة أمام أبيه زنجي وسأله بصوت حاد : «أين السلطان ؟

فأجاب محيي الدين : ليس بيننا سلطان ؛ فنحن قوم فقراء وقادمون من مكة ، حيث زرنا بيت الله .

فقال له الزنجي : إن السلطان هو ذلك الذي أرسلته لتوجيه الجياد الى المرعى كأن مثل هذه الرعاية لابد لها من أن تقع على عاتق الرجل الذي لابد له يوماً ما من أن يقود كل الغرب (المغرب) .

وبما أن المرابط قد نبهه الى أن هذه الأقوال غير الحكيمة قد تشد اليه انتباه الأتراك الخطر دائماً ، فقد أضاف (الزنجي) المجهول :

«إن عهد الأتراك يوشك على الانقضاء في الغرب (المغرب) .»

٣٤ – توجد صورة لأصل معاهدة ديميشيل وصورة أخري لأصل معاهدة التافنة في Raphael Danziger, *Abd al - Qadir and the Algerians, Resistance to the French and Internal Consolidation*, Londres, 1977 , pp. 241 - 256

٣٥ – Voir Abdeljedil Temimi, "Réflexions sur les relations d'Abdelkader avec la Sublime Porte et l'Angleterre en 1840-1841", in *Recherches et documents d'histoire maghrébine*, Tunis, 1971, pp. 175 - 206

٣٦ – *Ibid.*, pp. 197-198 : «إن السكان بحاجة من ثم الى من يقود معاركهم وينظم شئونهم ويحشدهم ويزودهم بإمكانات القتال ويهتم بهم ويتولي القيادة السياسية في البلاد . وقد وَقَعَ الاتفاق بين الأعيان على أن يطلبوا الى والدي تولي هذه المسئولية ، لكن والدي رفض رفضاً قاطعاً هذه المهمة ، بالرغم من اشفاقه على المسلمين ، فقد كان رجلاً ورعاً وأكثر الرجال تمسكاً بالفضيلة بين جميع السكان .

«وعندئذ طلبوا اليه أن يسمي أحد أولاده ، ولما كنت قد درست القرآن دراسة عميقة فقد وقع اختياره عليَّ ؛ فنزلت على أمره بالرغم من إدراكي أن هذه المهمة مهمة جسيمة ؛ والحال أنني لم يحدث قط أن

خرجت على أمره ولو مرة واحدة في حياتي ؛ وقد انغمست في عمل جاد ، وقدمت نصائحي الى المسلمين داعياً إياهم الى الجهاد والى الاتحاد ؛ وقد اجتهدت في أن أضفي على أعمالي هدفاً مزدوجاً ، فتارة أعمل من أجل إصلاح ذات البين وتارة من أجل حماية المسلمين وسحق الكفار الظالمين ؛ وقد ذدنا ، بفضل الله ، عن حياض الدين وجنبناه الشرور التي كان يمكن أن ينزلها به الكافر وتمكنّا من إبقائه قوياً على أساس راسخ يسعي الكافر الى تقويضه . وقد تسني لنا الحد من مناطق تحركات الكافر ، ومن ثم ، فإنه قد عرض سلامته للخطر» . (أعدنا ترجمة الاستشهاد عن الفرنسية ، لتعذر الوصول الى أصل عربي – المترجم) .

٣٧ – Voir par exemple L. Gognalons : "Une proclamation de l'émir Abd el - Kader aux habitants de Figuig en 1836", *Revue africaine*, 1913, pp. 245 - 264

٣٨ – *Ibid.*, pp. 202 - 204

٣٩ – Bellemare, *op. cit.*, p. 20

٤٠ – البحر الأحمر .

٤١ – Le livre d'Abd el - Kader intitulé *Rappel à l'intelligent, avis à l'indifférent*, traduit par Gustave Dugat, Paris, 1858, pp. 177 - 179

(انظر ، الأمير عبد القادر الجزائري : **ذكري العاقل وتنبيه الغافل** ، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ١٦٠ – ١٦١ – المترجم) .

٤٢ – Georges Yver, *Correspondance du maréchal Valée*, Paris, 1949 , I, pp. 241 - 242 ، ٩ فبراير ١٨٣٨ ، من فاليه الى موليه : «وهكذا ففي الحالة التي سوف تتأسس في البلد ، سوف تتواجد ثلاثة نظم في آن واحد : الاستيطان حول محاور محددة ، والسيطرة المباشرة على الأرض المتاخمة لمستوطناتنا و ، أخيراً ، في الداخل ، الاحتلال العسكري للمحاور الرئيسية مع ترك مهمة إدارة البلاد لإقطاعيين خاضعين لأداء ضرائب وحاصلين على تخويلهم الإدارة باسم الملك .

«إننا سوف نمد بذلك شبكة واسعة على الجزائر كلها ؛ وسوف تهيمن قوة فرنسا على البلد . وجيشها ، المؤلف في غالبيته من العرب ، سوف يكفل امتلاك الأرض ضد العدو الخارجي . وسوف يتولي سباهيون نظاميون جباية الضرائب وسوف تحتل قوات أوروبية المدن وتكفل خضوع البلد . ومن هذه المدن ، سوف تتغلغل الحضارة شيئاً فشيئاً بين العرب ؛ وستجد فرنسا بذلك عنصر قوة جديداً في ممتلكاتها الأفريقية ، الى الزمن الذي سوف تطالب فيه القوة العربية ، وقد طورتها هي نفسها الحضارة ، باستقلال قد لا تسمح الحكمة برفضه» .

٤٣ – *Ibid.*, III, pp. 177 - 178 ، من فاليه الى وزير الحربية ، ٢٤ أغسطس ١٨٣٩ : «إن كل ما يمكن لحكومة الملك أن تطمح اليه في هذه اللحظة ، هو دفع الجنسين الى العيش في سلام متجاورين أحدهما الى جانب الآخر . ولا مراء في أنهما سوف يكونان على اتصال من خلال العلاقات التجارية ، وسوف تكون الأسواق مشتركة ، وسوف يطلب كل منهما الى الآخر إطلاعه على الفنون والصنائع التي لم

يطلع عليها من أسلافه ، إلاّ أنه قد لا يكون من الوارد أن تنشأ أبداً بينهما حياة مشتركة ؛ وسوف يوجد باستمرار كثير من الخلافات ، وسوف تفصل العادات المختلفة الكثيرة الأوروبي عن العربي بحيث يصعب عليهما العيش على أرض مشتركة . فالنشاط والركون الى الراحة المنهجيان ، والحياة العامرة بالعمل ، من جانب ، والركون الى التأمل ، من جانب آخر ، لا يمكنهما الالتقاء على أرض واحدة ، و ، على مدار قرون قادمة ، سوف يظل أبناء إسماعيل منفصلين عن الشعوب الشمالية التي تحيط بهم بشبكة قوية ، والتي تهيمن عليهم بالإرادة وبالعمل .

«وسوف يتراجع العربي أمام نظام اجتماعي يخلق حاجات لا يسمح له فقره بإشباعها ، ويمنعه كسله من السعي الى تجاوزها .

«وسوف يتمثل ذكاء حكم الجزائر في إحداث التراجع بحكمة . فعندما تتقدم المستعمرة الى الأمام ، سيتوجب على الإدارة أن تعد مسبقاً أرضاً لاستقبال السكان المجردين من ممتلكاتهم . ويجب لهذه العملية أن تتم دون صدام و ، بما أن افريقيا واسعة ، وأهل البلاد قليلون ، فليس بإمكاننا أن نخشي من أن الأرض ، على أجل طويل ، سوف تضيق على سكانها . ومن جهة أخري ، ففي الزمن جد البعيد دون شك والذي سوف تكون أوروبا قد غزت فيه كل الشمال الافريقي ، فربما سيكون بالإمكان أن يتحقق انصهار الأجناس . وإذا كان الاتحاد الشامل والفوري غير ممكن ، فإن الانصهار أفراداً أفراداً قد يتحقق بمرور الزمن .

«إن أبناء وأحفاد الرجال الذين يحاربوننا ، قد ينحازون واحداً فواحداً الى عاداتنا والى مؤسساتنا ، والزمن ، إن كان بوسعه عمل أي شيء حول تنافرات الأجناس ، سيكون قد عمل عمله قبل أن يتسني لنا احتلال الجزائر كلها . . .

«وما تعتبرُ الإدارةُ مدعوةً الى ايجاده في نطاق الاستيطان هو كوميونات أوروبية لأن مصلحة المسيحي يجب أن تهيمن في الدائرة المرسومة لنشاطه . أما العربي الذي يواصل وجوده هناك ، إذا ما وافق على البقاء بيننا ، فسوف يوضع تحت حماية قوانين مشتركة ، تحت ضمانة الأحكام التي تكفل له حرية عبادته وممارسة الحقوق المعترف بها له . لكن ما يهمه هو أن يتبع التقسيمُ الإداريُ الحدودَ القديمة لقبيلته ، في حين أن انقلاباً عظيماً سيكون قد تحقق على الأرض نفسها بحيث إنه لن يبقي هنالك بعدُ أي أثر من آثار الأزمنة القديمة وبحيث أنه (هذا العربي) ، إذ يجيل النظر في الأفق الذي يحيط به ، سوف يري نفسه محصوراً من جميع الجهات من جانب الشعب الفاتح» .

٤٤ - خطاب بتاريخ ٨ يونيو ١٨٣٨ *Histoire parlementaire* ...., t. IV, p. 176 : «على مدار قرون ، توحدت فكرة تحويل الوثنيين الى اعتناق الدين المسيحي مع كافة المشاريع الكبري لأوروبا ، بصرف النظر عما إذا كانت مشاريع تجارية أم عسكرية ، وقد أثمرت ثماراً جمة . واليوم ، وبالرغم من أن المشروعين لا يستبعد أحدهما الآخر بالمرة ، فإنه يجري الحديث عن نقل التمدن . وقد قبلت فكر الدين ، وأنا أقبل فكر التمدن . وعندما استقرت شعوب الأزمنة القديمة الأغريقية والرومانية على سواحل أسبانيا أو سواحل بلاد الغال ، لم يدر بخلدها تمدين الايبيريين أو الغاليين ؛ على أنها قد قامت

به : فذات يوم ، تحققت هذه النتيجة العظيمة . (. . .) لا يجب ، أيها السادة ، أن نتخلى عن الطموحات الجميلة . إنها لا تكون مرئية في البداية ؛ لكنها تكافيء وتضفي النبل دائماً تقريباً على كل عمل اجتماعي يجري التفكير فيه جيداً ويجري تنفيذه جيداً» .

٤٥ – خطاب بتاريخ ١٤ مايو ١٨٤٠، *Discours parlementaires de M. Thiers...*, t. IV, p. 624.

٤٦ – Danziger, *op. cit.*, p. XI

٤٧ – *Exposé de l'état actuel de la société arabe, du gouvernement et de la législation qui la régit*, Alger, 1844, p. 45 et p. 29

٤٨ – يشكل أوغسطين بيرك Augustin Berque استثناءً . وفي كتاب *Esquisse d'une histoire de la seigneurie algérienne* الذي نشر لأول مرة في عام ١٩٤٩ وأعيد نشره في عام ١٩٨٦ ، فإنه يُعَرِّفُ بشكل يدعو الى الإعجاب استشراق الفاتحين : «إن قواتنا تحمل ، في عام ١٨٣٠ ، أقراباذيناً (دستور صيدلة) وافياً ، وعلم تربة زراعية غنياً خاصاً بالبلاد الحارة ، وأمصالاً ، وخريطة كاملة للمحاصيل الاستوائية : القطن ، قصب السكر ، الموز . لكن كانتينات الأركان العامة تشمل أيضاً الجزائر الشرقية ، الجزائر العربية ومرادفها الجزائر الاقطاعية وجزائر العصور الوسطى . والمفهوم مفهوم رومانتيكي أساساً : إنه يربط العصر الوسيط بجن ڤيكتور هيجو . ومن ثم فسوف يكون العربي مترفاً وذا أبهة وفروسياً وفخيم السيف . ذلك هو النموذج المطروح . ولن نسمح بتجاوزه . فلتأخذوا في اعتباركم جيداً أن الزعماء أبناء البلد ، سعياً منهم الى إدخال السرور على قلوبنا ، إنما يجتهدون في أن يكونوا شبيهين به . إنهم آنذاك واليوم على حد سواء خبيرون رائعون بالآخر ، وهم يحدسون الأمور التي نفضلها ؛ ويتمشون معها ، ومرونتهم تتقولب مع أذواقنا . إنكم تريدونهم إقطاعيين . هل تشتهون قصيدة سيرة؟ إن المقراني ، في قصيدة سيرته ، إنما يكشف عن قصيدة سيرة مونمورينسي . وبما أنكم تقولون الشرق ، فإن إيماءاتهم سوف تشير الى بلاد العرب . لكن هذه اللعبة إنما تنطوي على حربائية روحية لا نهاية لها . والحال أن المحاكاة ، بالرغم من نعومتها الشديدة ، لها حدودها . ولا مراء في أن الإنسان هو فكرتنا عنه ؛ وتجيء لحظة ينبجس فيها الجنس و ، بنفثة لاهبة ، يذيب تجمد الأنا العابر . إن العربي – البربري (نسبة الى البربر) ينبثق من الشرقي . (. . .) يالها من خيبة أمل وتحرر من الأوهام ! إننا نادراً ما نغفر للمقربين منا انتهاك الصورة التي كونَّاها عنهم . (. . .) والخلاف ينبع من التحررات من أوهام هذه الأيديولوجية ، بأكثر مما ينبع من صدام العادات . لأننا نكن كراهية غير واعية لمن يشذ عن مذاهبنا . وإذا ما غفرنا أحياناً خيانة ، فإننا لا نغفر له تكذيبه لأفكارنا» . أنظر ، Augustin Berque, *Écrits sur l'Algérie*, Édisud, 1986, pp. 62 - 63

٤٩ – Guizot, *Mémoires pour servir à l'histoire de mon temps*, Paris, 1865, t. VII, p. 132

٥٠ – *Ibid.*, p. 187 . انظر أيضاً خطاب ١٠ يونيو ١٨٤٦ حيث يوضح أن عنف الجنود الفرنسيين إنما يتحمل وزره أبناء البلد : «لاتنسوا أبداً بدوركم أنه ، عند التعامل مع شعوب شبه متوحشة ، مع سكان معتادين على التدمير والقتل ، على الاقتتال فيما بينهم بشكل وحشي ، لا تنسوا أبداً أن المرء يكون

مضطراً للدفاع عن نفسه الى استخدام الأساليب الأكثر عنفاً ، والأكثر قسوة أحياناً مما يمليه الشعور الطبيعي لدي الرجال الذين يقودون جنودنا . (تأييد في الوسط)». *Histoire parlementaire...*, t. V, p. 244

٥١ – Guizot, *Mémoires pour servir à l'histoire de mon temps*, Paris, 1864, t. VI, p. 388-٥٢

٥٢ – *Ibid.*, p. 399

٥٣ – *Ibid.*, pp. 274 - 275

٥٤ – المرجع الأساسي حول السان – سيمونيين هو كتاب Marcel Émerit, *Les Saint - Simoniens en Algérie*, Paris, 1941

٥٥ – *Œuvres de Sint - Simon et d'Enfantin*, Paris, 1866, t. X, pp. 230 - 238

٥٦ – *Œuvres de Saint - Simon et d'Enfantin*, Paris, 1867 , t. XI, pp. 86 - 88 ؛ من انفانتان الى آرليه ، الجزائر ، ١٥٠ أغسطس ١٨٤٠ : «أنا أقول غزو الشرق على يد الغرب وهذه الكلمة سيئة ، لأنها تستحضر حتما شكل الغزو القديم ، الشكل العسكري ، الشكل التدميري ، الذي هو مع ذلك عكس فكري ؛ إلاّ أنني احتفظت بها لأنها تفترض في اتصال طرفي النصف الذي نحيا فيه من المعمورة هذين ، مؤقتاً على الأقل ، نشاط طرف وسلبية الآخر ، وأن الأمور إنما تبدو على هذا النحو اليوم ، وأننا نحن الذين يجب أن نذهب اليهم وسوف نذهب ، ويجب ، عبر نفوذ فرنسا ، أن نذهب الى هناك بشكل لائق ، لا أن تحول فرنسا دون الذهاب الى هناك .

«وسوف يذهب الروس من ثم الى القسطنطينية والإنجليز الى الإسكندرية ؛ ويجب ليس فقط تأييد ذلك لأنه حتمي ، لأنه قدر كإله المسلمين ، بل يجب كذلك الابتهاج له لأنه ترتيب سعيد كترتيب إله المسيحيين . والحال أن عدم وضع هذه النتيجة أمام الأعين بشكل دائم وبشكل يدعو الى الفرح ، إنما يعني أن يحكم المرء على نفسه بعدم فهم شيء من سياسة زماننا .

«تلك إذاً هي الفكرة التي يجب إيقاف العالم عليها من خلال ديبلوماسيتنا ، على المكشوف ؛ إن الديبلوماسيين الكبار والصغار ، والملوك والشعوب ، والمسيحيين والمسلمين على حد سواء ، هم مستعدون بما يكفي لفهم دعوة الاتحاد هذه بين الجميع وأولئك الذين ، من بينهم ، لا يريدون الإذعان لها ، بالرغم من فهمهم لها ، سوف يجري جرهم ، برغم أنوفهم ، الى السير في هذا الدرب الذي رسمه الله للبشرية» .

٥٧ – حول توكفيل والجزائر ، انظر مقدمة تزفيتان تودوروف الرائعة للطبعة التي تضم مختاراته من نصوص توكفيل المكرسة للجزائر ، والصادرة تحت عنوان *De la colonie en Algérie*, Bruxelles, 1988 ويوجد تعبير «المسألة الافريقية» في مداخلته في المجلس في ٩ يونيو ١٨٤٦ ، *Œuvres complètes*, Paris, 1962, III, p. 298

٥٨ – Travail sur l'Algérie (octobre 1841), *Œuvrs complètes*, Paris, 1962, III, p. 212-

٥٩ – مقال حول العبودية في عام ١٨٤٣ : «على أنني اعترف بأن الميزة الرئيسية لمستعمراتنا لا تكمن في

أسواقها ، بل في الموقع الذي تحتله على الأرض» Ibid., III, p. 85 .

٦٠ – Travail sur l'Algérie, p. 223 : «يجري في هذه اللحظة في هذه البلدان الأفريقية شبه المتوحشة عمل اجتماعي جد شبيه بالعمل الذي جري في أوروبا في أواخر العصر الوسيط . إن عبد القادر ، الذي من المرجح أنه لم يسمع قط بما حدث في فرنسا في القرن الخامس عشر ، إنما يتصرف تجاه القبائل بذات الأسلوب الذي تصرف به ملوكنا وخاصة شارل السابع ضد الإقطاع . إنه ينشيء سرايا مساعدة . وبمساعدة هذه القوة المستقلة ، يتغلب معركةً إثر معركة على القوي الصغري التي لو اتحدت لفرضت قانونها عليه . والحال أن ملوك فرنسا قد استفادوا من كل تمرد صغير لكي يجردوا كبار الإقطاعيين من ممتلكاتهم ولكي يعيدوا أراضي جديدة تحت إدارتهم المباشرة . وينتهز عبد القادر الفرص نفسها لكي يتوصل الى القضاء في كل قبيلة بشكل متتال على الرجال الأهم الذين يثيرون انزعاجه . إنه الإجراء عينه يجري تنفيذه بأسلوب مختلف الى حد ما . ودون أن يعرف (عبد القادر) تاريخ هؤلاء الملوك ، وإن كان يتبع غريزة مماثلة للغريزة التي دفعتهم الى التحرك والفعل ، فإنه يلجأ كل يوم الى تبديد شمل أو تدمير العائلات القديمة والقوية ويعمل على انبثاق عائلات جديدة تدين له بسلطتها ولا تملك سلطة جد قديمة وجد مستقرة بما يمكنها من إزعاج سلطته . إنه لا يحارب الفرنسيين وحدهم ، بل يحارب أيضاً الأرستقراطية الوراثية في بلده» .

٦١ – Ibid., pp. 223 - 224 : «إنه أول من أخذ من الاتصالات مع أوروبا الأفكار القادرة على تأمين النجاح تأميناً دائماً لمشروعه» ؛ أي على الأرجح شكل الدولة الحديثة .

٦٢ – Ibid., p. 224

٦٣ – مداخلة بتاريخ ٩ يونيو ١٨٤٦ ، Ibid., p. 293 : «إن فكرة تملك أفريقيا ، الاحتفاظ بأفريقيا بمساعدة وبدعم من السكان أبناء البلد ، هذه الفكرة ، التي هي حلم الأفئدة النبيلة والكريمة ، هي وهم ، فيما يتعلق بالحاضر على الأقل . وبقدر ما أن الحرب قد ساعدت على معرفة هذه الجماعات السكانية المتباينة وأعرافها وعاداتها وحالتها الاجتماعية ومشاعرها وكراهياتها وعدم ثباتها ، بقدر اكتساب جميع هذه المعارف ، أيها السادة ، فقد اتضح ، وبوسعي أيضاً أن أثبت ذلك بالإشارة الى حقائق واقعية ، لكنني اكتفي بالاقتصار على الأفكار العامة ، أقول إنه اتضح أن الفكرة التي تدعو الى وضع أفريقيا تحت قوانيننا ، بمساعدة السكان أبناء البلد ، هذه الفكرة هي من قبيل الأوهام» .

٦٤ – Ibid., pp. 293 - 294 : «إنني أود أن يتم طرد السكان الأصليين ، ولا أريد خاصة إبادتهم ، حيث إن ذلك إن لم يكن قد تم اقتراحه ، فقد تم أحياناً الايحاء به أو إضماره .» .

٦٥ – تقرير قدمه السيد دو توكڤيل حول مشروع القانون الخاص بالاعتمادات الاستثنائية المطلوبة من أجل الجزائر ، ٢٤ مايو ١٨٤٧ ، Ibid., p. 329 .

٦٦ – انظر دراسة شارل – روبير آجرون Charles - Robert Ageron, "L'Algérie Algénienne" sous Napoléon III : Ismaïl Urbain", في مجموعة مقالاته L' "*Algérie algérienne" de Napoléon III à de Gaulle*, Paris, 1980, pp. 17 - 36

٦٧ - العمل الأساسي حول سياسة نابوليون الثالث هو الكتاب الضخم من تأليف Annie Rey-Godzeiguer, *Le Royaume arabe : La politique algérienne de Napoléon III, 1861-1870*, Alger, 1977

٦٨ - رسالة نابوليون الثالث الى بيليسيه ، بتاريخ ١ نوفمبر ١٨٦١ : «باختصار ، بدلاً من أن نحذو حذو الأمريكيين الشماليين الذين يدفعون أمامهم جنس الهنود المتأخر الى حد القضاء عليه ، يجب علينا أن نحذو حذو الأسبان في المكسيك والذين استوعبوا جميع الشعوب الأصلية» .

٦٩ - Charles - André Julien, *Histoire de l'Algérie contemporaine*, Paris, 1964, pp. 424- 425

٧٠ - بيان الإمبراطور الى الشعب العربي ، ٥ مايو ١٨٦٥ ، *Tableau de la situation des établissements français dans l'Algérie*, 1865 - 1866, Paris, 1868, p. XII.

٧١ - *Ibid.*, p. XXXI تدابير مقترحة :

«١ - إعلان أن العرب فرنسيون ، لأن الجزائر أرض فرنسية ، إلاّ أنهم سوف يظلون محكومين بتنظيم أحوالهم الشخصية ، وفقاً للشريعة الإسلامية وأن العرب الذين يريدون ، على أية حال ، الاستفادة من القانون المدني الفرنسي سوف يخولون حقوق المواطن الفرنسي ، بناءً على طلبهم ، ودون شروط مرحلية .

«٢ - إعلان إمكانية دخول العرب الى جميع الوظائف العسكرية للإمبراطورية والى جميع الوظائف المدنية في الجزائر» .

٧٢ - *Ibid.*, p. XIX

٧٣ - Annie Rey - Godzeiguer, *op. cit.*, pp. 426 - 427

٧٤ - خطاب بتاريخ ١٦ يوليو ١٨٦٨ في الجهاز التشريعي ، Jules Favre, *Discours parlementaires*, Paris, 1881, t. III, p. 554

٧٥ - خطاب ألقي في قسنطينة ، أبريل ١٨٧٠ ، *Discours parlementaires*, Paris, 1881, t. IV, p. 383

٧٦ - خطاب بتاريخ ٨ مارس ١٨٧٠ في الجهاز التشريعي ، Jules Favre, *Discours parlementaires*, Paris, 1881, t. III,p.772 : «إنني لا أتحدث عن المبادىء التي جري استحضارها بهذا القدر من القوة (. . .) ، عن هذا التمايز بين هذا الممثل لأهل البلد المستعمرين الذي يختاره ابن البلد والذي يجيء للجلوس بين فرنسيين في المجالس البلدية والإقليمية ، وممثل الجزائر ؛ إنني أتحدث عن كرامة هذا المجلس ، عن جوهر سلطته ، عن هذا العنصر الذي سوف يدخل فيه ، ليس فقط بما يتعارض مع المبادىء ، وإنما أيضاً بما يتعارض مع مصالحه . إنكم تريدون أن تكون الجزائر ممثلة تمثيلاً حراً وتدسون في اكليل هذا الانتخاب سيف العسكر الذي سوف تزيد وطأته على ضمير وعزائم جميع هؤلاء الأهالي ، الذين بحكم تفوقهم بكثير على الناخبين الفرنسيين ، سوف يقررون حتماً بحكم عددهم الاقتراعات التي سوف يجري التعبير عنها !» .

٧٧ - Annie Rey - Godzeiguer, *op. cit.*, pp. 506 - 507

٧٨ - Jean - Michel Gaillard, *Jules Ferry* , Paris, 1989, p. 604 ، مقتطف من تقرير مجلس الشيوخ : «من الصعب إفهام المستوطن الأوروبي أن هناك حقوقاً أخري غير حقوقه في بلد عربي وأن أبناء البلد ليسوا جنساً قابلاً للاستغلال وللسخرة حسب الهوي (. . .) . وإذا لم يكن العنف ماثلاً في الأفعال ، فإنه ماثل في اللغة وفي المشاعر . ويشعر المرء أنه يهدر مايزال ، في أعماق القلب ، موج كراهية واحتقار ومخاوف لم تجر تهدئته بشكل طيب . وما أندر المستوطنين المشبعين بالرسالة التربوية والتمدينية التي تعود الى الجنس الأرقي ؛ وأندر منهم أولئك الذين يؤمنون بتحسن ممكن للجنس المغلوب . إنهم يعلنون كلما اشتهوا ذلك إنه غير قابل للإصلاح وغير قابل للتربية ، وذلك دون أن يكونوا قد حاولوا البتة على أية حال عمل أي شيء منذ ثلاثين سنة لانتشاله من بؤسه المعنوي والفكري . (. . .) إن المستوطنين ليست لهم وجهات نظر عامة حول المسلك الذي يجب التمسك به مع أبناء البلد . وقلما يفهمون ، في التعامل مع هذه الملايين الثلاثة من البشر ، سياسة أخري غير سياسة الضغط . ولاشك في أننا لا نفكر في إبادتهم ، بل إننا ننفي عن أنفسنا تهمة الرغبة في طردهم ؛ إلاّ أننا لا نهتم لا بشكاياتهم ولا بعددهم الذي يبدو أنه يتزايد مع فقرهم . وهناك شعور بخطر محتمل ، إلاّ أنه لا يجري اتخاذ أي إجراء لتبديده» .

٧٩ - *Ibid.*, p. 605. Voir aussi les deux études de Charles - Robert Ageron, "Jules Ferry et la question algérienne", in *L' "Algérie algérienne" de Napoléon III à de Gaulle*, Paris, 1980, pp. 72 - 93 et "Jules Ferry et la colonisation", in François Furet éditeur, *Jules Ferry, fondateur de la République*, Paris, 1985, pp. 191 - 206

الفصل الرابع

ســـوريا

الدولة العثمانية ومشكلة الإصلاحات

منذ الشطر الثاني للقرن الثامن عشر، وسعياً الى ضمان بقاء الدولة في وجه الأطماع الأوروبية، أدرك المسئولون العثمانيون ضرورة إدخال إصلاحات عميقة. وفي البداية، لم تكن التدابير المرتآة غير أشكال من العودة الى ممارسات القرنين الخامس عشر والسادس عشر: مركزة السلطة، سياسة احتكارات اقتصادية في مجال الإنتاج والنشاط التجاري، وبشكل خاص، إنشاء وحدات عسكرية جديدة. ولا تدعي هذه المشاريع أي تحويل أساسي للمجتمع العثماني. ففكرة العودة الى القوانين الحسنة للأزمنة السابقة فكرة مهيمنة. إلاّ أنه، خاصة في ما يتعلق بالمسائل العسكرية، فإنه لابد من التفكير في استدعاء فنيين أوروبيين (وهو ممارسة شاعت في القرن الخامس عشر في أسلحة كالمدفعية). ويكفي هذا بالفعل لاستثارة عداوة مؤسسات عسكرية قديمة كمؤسسات الانكشارية، المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بطبقات التجار والحرفيين المدينية في العاصمة. وقد نجح الانكشارية في خلق تحالف مع **العلماء**، رجال الدين هؤلاء الذين يسيطرون على مؤسسات التعليم والقضاء العادي ويمارسون تأثيراً عظيماً على الجماهير الشعبية. وكما في مصر، فإن **العلماء** يعتبرون أنفسهم ضامني تطبيق الشريعة الإسلامية ويزعمون لأنفسهم حق خلع السلطان إذا ما تصرف هذا الأخير بشكل غير عادل وإذا مابدا جد متساهل تجاه التجديدات (**البدع**) القادمة من أوروبا[1].

على أن النتيجة المحزنة للحروب مع روسيا قد أدت الى إدراك جزء من الطبقة السائدة

العثمانية لضرورة إعادة تنظيم المؤسسات الإمبراطورية . وتتجسد هذه المحاولة في **النظام الجديد** الذي أنشأه السلطان سليم الثالث . وبالرغم من نجاحات لا جدال فيها ، خاصة في إعادة تكوين بحرية عثمانية جديرة بهذا الاسم ، فإن سياسة الإصلاحات هذه قد فشلت في عام ١٨٠٧ في وجه تمرد من جانب الانكشارية ، وافق عليه **العلماء** ، وهو آخر تمرد يؤدي الى خلع سلطان متهم بانتهاك الشريعة الإسلامية . ولم تستمر الردة غير عام واحد وفي يوليو ١٨٠٨ ، ينجح المصلحون في تنصيب سلطان شاب في الثالثة والعشرين من العمر ، سوف يكون مشجعاً لهم ، هو محمود الثاني . وتعتبر الظروف صعبة . فالإمبراطورية تواجه أخطار اقتسام للشرق بين روسيا والإمبراطورية النابوليونية . وفي الداخل ، تصل حركة استقلال الولايات الى أوجها . وبالرغم من أن الولاة هم دائماً جزء من الطبقة السائدة ، فإن أعيان الولايات يلعبون دوراً متزايد الأهمية بشكل مطرد بينما تبدأ في البلقان الانتفاضات المسيحية الكبري الأولي . وسوف يتعين على المصلحين أن يتصرفوا بحذر وأن يضعوا رجالهم في المناصب الحساسة بشكل تدريجي . وفي تلك البداية للقرن التاسع عشر ، فإن خطر فتح مسيحي إنما يقود الى مناقشة حقيقية حول طبيعة المجتمع الإسلامي . والتأكيد على أن السلطة ليست لها من مهام أخري غير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما عاد يكفي للرد على المشكلات الجديدة. والطبقة الحاكمة ، طبقة الموظفين المدربين لكي يكونوا في خدمة الدولة ، إنما يجري دائماً تعريفها من الناحية النظرية بأنها تتألف من عبيد بيت آل عثمان (**قول**) الذين تتوقف ممتلكاتهم وحيواتهم بالكامل على حسن نوايا السلطان . ويؤدي نوع من العقد الاجتماعي الضمني الى حصر الاستبداد السلطاني في سلطة مطلقة على خدمة وحماية بقية المجتمع من كل جور بتأمين الإعمال الكامل للشريعة الإسلامية . وإذا ما انتهكت السلطة السلطانية هذا العقد ، فإن انتفاضة الشعب أو الانكشارية ، والتي يخلع عليها **العلماء** الشرعية ، إنما تسمح بمعاقبة الوزراء الفاسدين أو بخلع السلطان نفسه . ولا يتمتع **القولات** بأية حماية قانونية بينما يشعرون بأنهم مختصون بمهمة الدفاع عن سلطة الدولة وضمان بقائها . وتشير الدراية الأوسع بإطراد بمجريات الأمور الواقعية الأوروبية بفضل تقارير السفراء الى أن قوة الدول الأوروبية إنما تستند الى رفاه رعاياها ، وهو الرفاه الذي تكفله إدارة تتميز بالكفاءة كما يكفله أمن الممتلكات والأفراد . وليس من شأن هذه الفكرة إلاّ أن تفتن كبار الموظفين هؤلاء الذين يرون فيها وسيلة إطالة عمر الإمبراطورية باحتلال مكانة أضمن ويلعب دور أساسي .

ويتعين استئناف النضال ضد التحالف الرجعي الذي يجمع الانكشارية **والعلماء** ، المسارعين الى اتهام المصلحين بخيانة الإسلام ؛ كما يتعين في الوقت نفسه محاربة نزعات

استقلال الولايات لدي الولاة والأعيان . وأمام خطر عودة الى المركزة ، ينضم دعاة الاستقلال الى رجعيي العاصمة ويسعون الى كسب دعم السكان المحليين الذين يعتبرون في غالبيتهم ، في البلقان ، مسيحيين . وهكذا فإن العمل الذي جري الاضطلاع به من أجل قمع واحد من أقوي ولاة البلقان ، وهو الألباني علي باشا الجانيناوي ، إنما يؤدي في عام ١٨٢١ الى تفجير الانتفاضة الكبري ليونانيي الإمبراطورية . وهذه الانتفاضة القومية تهدد وجود أحد العناصر الأساسية لبنية المجتمع العثماني ، الجماعة الطائفية أو **الملة** .

والملة جماعة دينية من غير المسلمين أو من **الذميين** . والحال أن الجماعة الطائفية ، المعترف بها من الناحية الرسمية ، إنما تتمتع بهامش استقلال اجتماعي واسع : فبوسعها أن تكون لها قوانينها الخاصة ، ومحاكمها التي تعمل على تطبيقها ، و ، بشكل عام ، مؤسساتها الدينية والثقافية . والحال أن الأوروبيين قد شبهوا حقوق الطوائف هذه بإمتيازات النظام القديم الأوروبي . ويقود **الملة** رجال الدين الممثلون للطائفة ويمكن دمجها في إدارة الإمبراطورية في عدد معين من المجالات . ثم إن **الذميين** ، بالرغم من احتقارهم من جانب جزء كبير من المسلمين الذين يدعون الى اتخاذ تدابير نحوهم من شأنها التذكير بوضعيتهم الاجتماعية والسياسية الأدني ، إنما يتمتعون بعدد معين من الحقوق ولهم مكانتهم المتميزة في المجتمع . والحال أن الانتفاضة اليونانية تميل الى التحول من انتفاضة دينية في البداية (حيث يعني «اليوناني» «المسيحي الأرثوذكسي») الى انتفاضة قومية لأنها تسعي الى توحيد جميع الناطقين باليونانية . وهي تنتهك عقداً اجتماعياً ضمنياً آخر ، أولاً ، في عين صفوف **الملة** الأرثوذكسية حيث سرعان ما ينشأ تعارض بين اليونانيين وغير اليونانيين ولكن أيضاً في المجتمع على إتساعه : وهكذا يصبح السكان من غير المسلمين مشبوهين في مجموعهم . والحال أن عنف الحرب ضد اليونانيين ، ومذابح غير المسلمين والمسلمين التي يرتكبها كل طرف من الأطراف الماثلة ، والتعاطف الذي يبديه الرأي العام الأوروبي تجاه المتمردين ، كل ذلك يخلق توتراً جديداً ، لم يكن معروفاً في العصور السابقة .

وفي عشرينيات القرن التاسع عشر ، يطرح السؤال الأساسي نفسه على المسئولين العثمانيين : كيف يمكن ضمان بقاء الإمبراطورية في وجه التهديد الأوروبي في حين أن توافقات الآراء التي كانت تشكل لحمة المجتمع التقليدي تعد بسبيلها الى الاختفاء ؟

هل تعد مصر نموذجاً ؟

في هذا الوضع المضطرب ، يبدو أن عمل محمد علي يشكل نموذجاً ملهماً . فكفاءة الإصلاحات الداخلية ، والإمكانات المالية المتنامية التي يتمتع بها عزيز مصر ، وجبروت قواته

العسكرية واعتراف أوروبا التي تمنحه لقب البطل التمديني إنما تشير كلها الى تجديد حقيقي للقوة المصرية . ومنذ القضاء على المماليك ، الذين يشبههم كثيرون مخطئين بالانكشارية ، فإنه يبدو أن عمل محمد على إنما يتم دون معارضة داخلية حقيقية . ويقرر محمود الثاني إلغاء سلاح الانكشارية ، وهو ما يتم عبر العنف وعبر المجازر في يونيو ١٨٢٦ . ويري المراقبون الأوروبيون محقين أن المجتمع العثماني القديم قد تلقي بذلك ضربة قاتلة . إن السلطة السلطانية وسلطة **القولات** المتحدتين تحت اسم الباب العالي الشامل قد أزالتا القوة الأساسية المضادة لقوتهما . وبحكم هذا ، فإن التمايز القديم بين السلطة الاستبدادية والمجتمع الإسلامي يتلاشي . وبالنسبة للرجعيين ، فإن الإصلاحات تعد خيانة مزدوجة للإسلام : فالشريعة الإسلامية لم تعد تملك إمكانات تأمين أعضاء الأمة من أشكال جور السلطة وهذه الأخيرة تفرض عادات كافرة قادمة من أوروبا المسيحية .

وبما أن الإمبراطورية في حرب ، فإنها لا تتمتع بمهلة حقيقية للسماح بإقامة جيش وفق النموذج الأوروبي . ويتم بذل جهد كبير مع اللجوء الى مدربين أوروبيين والتطبيق الجامد الى حد ما للقواعد الأوروبية ، إلاّ أنه يوجد افتقار مريع الى القيادة العسكرية المتميزة والى التلاحم في القوات الجديدة . ويري الرحالة الأوروبيون بشكل عام أن العثمانيين لم ينجحوا إلاّ في تبني الأشكال الغربية دون أن يتوصلوا الى استيعاب روحها وفعاليتها . ويدرك الباب العالي هذا الوضع ولا يمكنه أن يحلم بإخضاع اليونانيين إلاّ بالاعتماد على قوات محمد على ، التي يقودها ابنه إبراهيم باشا .

وكان الائتلاف الذي تشكل في عام ١٧٩٨ ضد فرنسا خلال الحملة على مصر قد بين أن أوروبا لن تتخذ بعد موقف اللامبالاة تجاه مصير الأراضي العثمانية . وقد أصبح مبدأ وحدة أراضي الدولة العثمانية خلال العصر النابوليوني قاعدة من القواعد الحيوية للديبلوماسية الأوروبية . ودول التحالف المقدس لا تكن أي تعاطف تجاه الفوضي التي أحدثتها الانتفاضة اليونانية . لكن الروس يشعرون أنهم مشدودون بشكل لا يقاوم الى الدفاع عن اخوتهم الأرثوذكس في الدين بينما يري الفرنسيون والإنجليز في نهضة الهيلينية قضية نبيلة يجب الدفاع عنها ، وقومية بسبيلها الى إحياء ذاتها والى التحرر من اضطهاد أجنبي رهيب . وهكذا تتوصل الدول الأوروبية الى الرغبة في فرض وساطتها في نزاع داخلي يخص الدولة العثمانية .

وتدخل فرنسا وإنجلترا في عام ١٨٢٧ في المسألة اليونانية هو سابقة كبري ، مثقلة بالعواقب بالنسبة للمستقبل . إذ يجري الانتقال من الحماية الديبلوماسية العادية لمسيحيي الدولة العثمانية الى تدخل حقيقي في شئونها الداخلية . ومنذ ذلك الحين ، فإن كل قوة سياسية عثمانية سوف يتعين عليها أن تأخذ في الحسبان هذا الوضع ، وسوف تحاول الحصول

على مساعدة دول أوروبية معينة من أجل تحقيق أهدافها الخاصة ومواجهة المعارضة السياسية من جانب دول أوروبية أخري . وعندئذ ، سوف تتخذ المسألة الشرقية معني جديداً لأنه الى جانب التوازن التقليدي للدول الأوروبية والذي ينذر بتهديده انهيارُ الإمبراطورية العثمانية ، يضاف توازن داخلي عثماني يرتبط ارتباطاً وثيقاً بلعبة الدول الأوروبية . ومنذ ذلك الحين فصاعداً فإن نشوب حرب شرقية سوف يجر الى التدخل المباشر أو غير المباشر من جانب الدول وسوف يلعب كل لاعب بهذه الورقة بهذه الدرجة أو تلك من الدهاء . والحال أن هذه الخصوصية للعبة السياسية الشرقية سوف تستمر بعد زمن من زوال الدولة العثمانية ونزاعات الشرق الأوسط الحالية إنما تواصل استخدام هذا المنطق الخاص بتدويل الأزمات والذي برز خلال العقود الأولي للقرن التاسع عشر . وتنتهي الوساطة الأنجلو - فرنسية بالتدمير «غير المقصود» للأسطول التركي - المصري في نافارين في ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧ ، والذي يقود الى جلاء القوات المصرية عن البيلوپونيز والي الحرب بين روسيا والدولة العثمانية في ١٨٢٨ - ١٨٢٩ . والحال أن إجماع الدول الأوروبية حول مسألة استقلال اليونان ، وهو الإجماع الذي قاد الى انسحاب القوات المصرية من تلك المنطقة ، قد كشف للدولة العثمانية مخاطر اختفائها هي نفسها وضرورة كسبها مهلة للتمكن من إعادة تنظيم القوات الإمبراطورية . وهذا هو ما يدعو اليه محمد على في ديسمبر ١٨٢٧ في رسالة مفتوحة الى أحد أعيان القسطنطينية : لا طائل من وراء إعلان **الجهاد** ضد الأوروبيين ما دمنا لا نملك وسائل هذه السياسة ومن الأفضل التسويف بعقد الصلح ، مثلما فعل النبي نفسه في ظروف مماثلة . ويجب أن يجند العثمانيون قوات جديدة من الأناضول ومن روميليا (الروميلي ، البلقان) . أما هو ، محمد على ، فهو مستعد لأن يعهد بمهمة إعادة تنظيم سوريا لابنه إبراهيم باشا و : «بدلاً من الموت موتاً غبياً ، بدلاً من موت بلا شائبة كما تظن لمجرد الرغبة في تجنب لعنة وسخط الأمة الإسلامية والأجيال القادمة ، فمن الخير ألف مرة أن نحيا وأن نخدم بهذا الشكل أوطاننا وديننا ثم نموت موت المؤمنين الصادقين تاركين بعدنا عملاً مقيماً (. . .) . لقد حان الوقت لكي أضع نفسي ، وكذلك ابني ، في خدمة الدولة والدين»[٢] .

ولا يقبل محمد على دعم حركة الإصلاحات العثمانية إلاَّ بقدر قيادته هو لها واستفادته منها من أجل توسيع مجال سلطته ، خاصة على سوريا . ويمكننا أن نفهم انزعاج الباب العالي من مثل هذا المنظور . وهكذا فإن الطموحات السياسية لمحمد على ولابنه إبراهيم باشا ، بعيداً عن أن تكون عوناً لأنصار الإصلاحات ، سوف تشكل خطراً بتعجيلها بحرب أهلية عثمانية ستكون سوريا هي رهانها المباشر وسيكون موضوعها هو بقاء أو زوال الإمبراطورية العثمانية .

سوريا العثمانية

لم تشكل سوريا قط ، في التاريخ الإسلامي ، كياناً سياسياً مستقلاً . ومنذ الفتح العثماني في القرن السادس عشر ، كانت مقسمة الى عدة وحدات إدارية عرفت عين منطق كسب الاستقلالية المتزايدة الذي عرفته بقية ولايات الإمبراطورية . وهي معروفة تحت اسم **بلاد الشام** ، أي دمشق ، كما أن **مصر** هي القاهرة ، لكن العثمانيين لا يترددون في استخدام المصطلح القديم ، مصطلح **عربستان** ، بلاد العرب . ومن المفارقات أن تنوعها البشري هو خاصية وحدتها . فالثقافة الاجتماعية والعادات والأعراف واللهجات جد متقاربة الى درجة أن السوريين يسمون على نحو جماعي **بالشوام** ، مثلما يسمي المصريون **بالفلاحين** والجزائريون **بالعرب** . لكن الخصوصية السورية إنما تكمن في الانقسام الطاغي للمجتمع الى جماعات طائفية بدرجة غير معروفة في المناطق الأخري للعالم العثماني . وخلافاً للبلقان ، فإن المسلمين يشكلون غالبية على نحو جد واضح والفتح الإسلامي قديم بحيث إن التباين الطائفي لا يحمل علامة اختلاف عرقي بين فاتحين ومفتوحين .

ويظهر الانقسام الحقيقي في مجالات السلطة . فالمدن الكبري تخضع للقواعد العثمانية الكلاسيكية مع توازن هش بين الأعيان المحليين والموظفين المرسلين من القسطنطينية . وتستند مرجعية العاصمة على التحكيمات المتعاقبة التي يضطلع بها الباب العالي بين الطموحات المتنافسة للفريقين . أما الأرياف فهي خاضعة لاستغلال كثيف من خلال **الالتزام** لحساب الطبقات السائدة المدينية . وقد حاول الباب العالي تقييد الأضرار الاقتصادية المترتبة على الاستغلال الزائد عن الحد للفلاحين ، والراجع الى قصر مدة الالتزام ، وذلك بخلق حيازات تدوم مدي العمر تعرف **بالملكانة** . ويعد هذا نصف نجاح : فإذا ما حدث استثمار حقيقي في الزراعة ، يسهله احتياج السوق الأوروبية الى المواد الأولية الزراعية العثمانية ، فإن الالتزام يميل الى أن يصبح شبه ملكية ، وهو ما يعزز وضع الطبقة السائدة على حساب السلطة المركزية ويحول دون أي إجراء حكومي جديد لحساب الفلاحين .

وهؤلاء الأخيرون يعانون معاناة رهيبة من اختراقات وغارات البدو الذين يضاعفون من الاغتصابات والابتزازات والإتاوات القاسية ويمنعون استثمار أراض جد عديدة . وكما في كل الهلال الخصيب ، فإن البدو يمثلون قوة عسكرية وسياسية ، وينشرون انعدام الأمن في المواصلات ويحدون من مساحات الزراعة . والجبال - الملاذات هي وحدها التي تفلت من السيطرة الحضرية ومن شراسة البدو . وقد سمحت بتجمع طائفي متجانس يجمع أولاً الأقليات المسلمة : الدروز في حوران والشيعة الاثني عشرية في جبل عامل (جنوب لبنان الحالي) والعلويين في جبل النصيرية . لكن المسيحيين الموارنة يكتسبون بشكل متزايد أهمية

في جبل لبنان ، حيث يتعايشون مع الدروز ، ويتمتع السنة الفلسطينيون باستقلال كبير في جبال نابلس . وقد نجحت هذه الجماعات السكانية في تكوين سلطات فعلية : وبالنسبة للعثمانيين ، ليس بوسع الأقليات المسلمة الحصول على وضعية **ملل** ومن ثم يجب اعتبارها جماعات من المسلمين خاضعة لقواعد الإسلام السني . كما أن الموارنة لا يشكلون **ملة** معترفاً بها من الناحية الرسمية . وهم من جهة أخري فخورون بأن البطريرك الذي يقف على رأس كنيستهم هو الوحيد بين جميع البطاركة المسيحيين الذي لا تثبته في منصبه شهادة صادرة عن الباب العالي . والحال أن سكان الجبال ، إذ يتمتعون في عمومهم بانخفاض مدفوعاتهم الضريبية ، وإذ يجدون أنفسهم في مأمن أفضل من غارات البدو وإذ يتجنبون بعزلتهم النسبية أوبئة الطاعون الكبري التي تصيب سكان السهل والمدن الكبري ، إنما يشهدون تزايداً ديموغرافياً سافراً ، مما يؤدي الى اختزال نسبة السكان السنة قياساً الى إجمالي السكان .

وقد تخلت السلطات العثمانية عن الأمل في فرض سلطتها المباشرة على الجبال . وهي تقتصر على تكليف عائلات الأعيان بجباية الضرائب . وتعترف بذلك لشخصيات محلية بسلطة شرعية ، بما يعد مصدراً للهيبة وللقوة . إلاّ أنها تلعب على تنافسات العائلات والجماعات ، سعياً الى تجنب تكوين قوي محلية بالغة القوة . وأهم الزعماء الجبليين هو أمير الجبل اللبناني الذي يعارض السلطة القادمة من مدن الساحل .

ومنذ الشطر الثاني من القرن الثامن عشر ، تعرف هذه المدن نمواً اقتصادياً وديموغرافياً ملحوظاً . وهذا الاتجاه يرجع الى عودة الى الهدوء في شرقي البحر المتوسط بفضل اختفاء القرصنة المسيحية ، والتي وقعت آخر أحداثها خلال حرب استقلال اليونان ، وبفضل الاندماج المتزايد للأراضي العثمانية في الاقتصاد العالمي الذي تسيطر عليه السوق الأوروبية . وفي العقود الأولي للقرن ، تظل عكا المدينة الأكثر أهمية ، فهي مقر السلطة الفعلية لخلفاء الجزار باشا ، قاهر بونابارت . والحال أن سادة هذه المدينة ، بالرغم من بقائهم جد مستقلين عن السلطة المركزية ، لم تعد لديهم القوة الضرورية لصد البدو ولحفظ النظام والتي كانت جلية خلال زمن البوسنوي الرهيب (أحمد باشا الجزار) [٣] .

وانحدارهم النسبي يشهد عليه تأكيد سلطة بشير الثاني ، أمير الجبل اللبناني . وبالرغم من أن مساحة الجبل تعد محدودة نسبياً قياساً الى المناطق الأخري في سوريا ، فإن سكانه يصلون الى مائتي ألف نسمة [٤] بالمقارنة مع الثلاثمائة وخمسين ألف نسمة الذين يسكنون فلسطين الأوسع بكثير [٥] ومع المليون وسبعمائة ألف نسمة الذين يشكلون مجمل سكان عموم بلاد الشام [٦] . والحال أن الأهمية الديموغرافية المتزايدة للموارنة هي أحد عناصر القوة الجديدة لأمير الجبل الذي أصبح واحداً منهم . وبعد موت الجزار في عام ١٨٠٤ ، نجح بشير في

الاحتفاظ بعلاقات طيبة مع خليفته المسالم سليمان باشا وفي تدعيم سلطته ، مقوضاً سلطة أعيان رئيسيين . وبعد موت سليمان باشا في عام ١٨١٩ وحلول عبد الله باشا محله ، يتحالف بشير في اللعبة السياسية العثمانية مع محمد علي ضد والي عكا ويزيل بالقوة في عام ١٨٢٥ الحزب اللبناني المستقل الأخير الذي يقوده بشير جنبلاط ، أقوى الزعماء الدروز(٧) . ومما له دلالته أن ميناء بيروت ، بفضل الحماية التي يوفرها بشير الثاني لمناطقه الداخلية وللطرق المؤدية اليه وبفضل توسع التجارة مع أوروبا ، إنما يبدأ في الحلول محل عكا ، مقر السلطة السياسية الإقليمية مع ذلك . والعامل الأساسي لهذا التطور هو التبادل غير المتكافيء بين تصدير المواد الأولية والمنتجات شبه المشغولة كالحرير واستيراد السلع المصنعة الأوروبية(٨) .

ونحو عام ١٨٣٠ ، تظل سوريا منطقةً حية وفقاً لقواعد اللامركزة العثمانية التي عرفها القرنان السابع عشر والثامن عشر . وتعدد السلطات هناك يبقي على قدر من الفوضى على حساب الحماية الضرورية للسكان المستقرين ضد البدو ، لكن هذه الفوضى المقيمة هي الضمانة لحرية تصرف واسعة بالنسبة لمختلف الجماعات الموجودة . وبالرغم من أن التعدد الطائفي هو الخاصية المميزة لهذا المجتمع السوري ، فإن وجود هيراركية للجماعات الطائفية في المدن ، تحدد لكل جماعة مكانة جد محددة ، ووجود حالات استقلال فعلى للجماعات السكانية الجبلية ، إنما يسمح بتعايش سلمي بين سكان سوريا . وفي هذا العالم الذي ما يزال تقليدياً ، فإن العنف بين الطوائف هو واقع نادر نسبياً . وإذا كان الاقتصاد العام يتحول بسبب الجاذبية المتزايدة للسوق الأوروبية ، فإن الإصلاحات العثمانية الأولي لا تطبق بعد . إن **بلاد الشام** ما تزال تجهل التحولات المؤلمة التي تنطوي عليها القرارات المتخذة في مصر واسطنبول .

محمد على وسوريا

كان عزيز مصر يستهدف سوريا منذ زمن بعيد . وهو في ذلك مواصل لسياسة كبار مماليك القرن الثامن عشر ، على بك الكبير ومحمد أبو الدهب اللذين قادا ، في سبعينيات القرن الثامن عشر ، حملات عسكرية وصلت الى عكا ودمشق . كما كان بوناپارت مثالاً للقاعدة التي تذهب الى أن كل سلطة قوية في مصر إنما تكون لها بالطبع أطماعها في **بلاد الشام** : وما دامت مصر جزءاً من الإمبراطورية العثمانية ، فإنه لا يمكن تأمين استقلالها ، في وجه محاولة تالية تهدف الى استعادة سلطة الباب العالي المباشرة ، إلاّ بالسيطرة على المداخل السورية لأراضيها(٩) .

وچيوپوليتيكا وادي النيل هذه تحورها الچيوپوليتيكا الأعم للدولة العثمانية في العقود

الأولي من القرن التاسع عشر . فقد أصبحت وحدة أراضي الدولة العثمانية قاعدة أساسية للتوازن الأوروبي . والدولتان الكبريان في غرب أوروبا ، فرنسا وانجلترا ، لا يمكنهما قبول توسع للدولة الروسية في البلقان وفي الأناضول يهدد ، بالنسبة لفرنسا ، دورها كدولة عظمي مطلة على البحر المتوسط والذي يكرسه موقعها ويهدد ، بالنسبة لإنجلترا ، أمن الطرق البرية المؤدية الى الهند .

وقد حاول محمد على أن يحصل على حكم الولايات السورية من باب العرفان بالجميل ومن باب التعويض عن خسائره الجسيمة خلال حرب استقلال اليونان . لكن الباب العالي ، المنزعج بشكل متزايد من صعود قوة عزيز مصر ، قد أدار لمطالبه أذناً صماء . وعندئذ تذرع محمد على بالدفاع عن قضية الإصلاحات الضرورية من أجل بقاء الدولة العثمانية وأبدي استعداده لتطبيقها في سوريا . لكن السلطة المركزية تمسكت بموقفها السلبي .

وبعد عودة إبراهيم باشا من البيلوبونيز ، انكب محمد على على تعزيز قدراته العسكرية تعزيزاً ملحوظاً . والحال أن مفاوضاته مع فرنسا حول موضوع تدخل ممكن في الجزائر إنما كانت تهدف بشكل خاص الى الحصول على مساعدة من شأنها إعادة بناء الأسطول المصري بعد تدميره في نافارين . وبما أن مشروع التوسع في سوريا هو الهدف الحقيقي لسياسته ، فإنه يُعدُّ له إعداداً دقيقاً على المستوي الديبلوماسي . وسوف يكون من السهل الإبقاء على الصَداقة الفرنسية : فعندما يقف إبراهيم أمام عكا سوف يكون بالإمكان تصويره ، دون أية مشكلة ، في صورة المواصل لعمل بونابارت والمدشن للتمدن في سوريا . والعقبة الأساسية هي إنجلترا .

وسوف يحاول تهدئة الدولة البريطانية بتصوير قوته الجديدة في صورة الحاجز الأفضل بكثير من الدولة العثمانية أمام التوسع الروسي . وعليه أن يحط من شأن نتائج الإصلاحات التي اضطلع بها الباب العالي منذ إلغاء سلاح الإنكشارية . وهو يكرر أمام الديبلوماسيين الأوروبيين أن السلطان موضع احتقار وأن الإمبراطورية العثمانية لا حول لها ولا قوة [١٠] ، وأنه هو وحده القادر على توحيد جميع المسلمين ضد الخطر الروسي [١١] . وهذه التأكيدات توضح أن محمد على قد رسم منذ عام ١٨٣٠ بالفعل المحاور الأساسية لدعايته : لقد منيت الإصلاحات العثمانية بالفشل التام ؛ وهو وحده الذي يمكنه أن يكون باعثاً ومجدداً للدولة العثمانية . وهو يتمتع من جهة أخري بتأييد الرأي العام العثماني المستعد للالتفاف حول شخصه . وهذا «الرأي العام» ، وهذا «الشعب» ، وخاصة هذه «**الناسيون الإسلامية**» التي سوف تظهر الآن بشكل متكرر جداً في أحاديث عزيز مصر مع الديبلوماسيين الأوروبيين ، ليست سوي المرادفات التي يجدها التراجمة للإشارة الى **الأمة** أو الجماعة الإسلامية .

والصراع الذي يتهيأ على سوريا سوف يكون أيضاً صراعاً على الولاءات . ومنذ أواخر القرن الثامن عشر ، وسعياً الى تأمين تلاحم أفضل للإمبراطورية ، تذكر الباب العالي أن السلطان العثماني هو أيضاً خليفة جميع المسلمين [١٢] . وقد أدت الصراعات الدورية ضد الغزاة المسيحيين الى زيادة إعلانات الجهاد وكلها دعوات الى الالتفاف حول السلطان - الخليفة باسم الدفاع عن جماعة المؤمنين المهددين بأن يسيطر عليهم الكفار . وبالنسبة للمسلمين ، فإن التمرد على السلطة العثمانية إنما يبدو على نحو متزايد في صورة خيانة للإسلام . والعقبة خطيرة في وجه محمد على . وسوف يضطر الى أن يرد على الباب العالي بتهمة معاداة الإسلام ، وهي مناورة سهلة نسبياً إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الظروف التي جرت فيها الإصلاحات منذ القضاء على الإنكشارية .

وإذا ما صدقنا ما جاء في رسالة من عزيز مصر الى ابنه ، فإن محمد على هو إنسان صادق عندما يزعم أنه إنما يتصرف ذوداً عن الإسلام في وجه دسائس الدول الأوروبية : «لا تهدف الدول الى تعضيد الدولة العثمانية ، ولكنها ترمي الى إضعاف الطرفين كي يتسنى لها الاستيلاء على البلاد الإسلامية بسهولة ، ولذا فإن قبول تدخل هذه الدول خيانة لملة محمد ولتمام استقلالها . وبدلاً من أن نقبل هذه الخيانة فنذكر باللعنة الى يوم القيامة أجدر بنا أن نموت في سبيل الدين فنشيد بذلك دنيانا وآخرتنا معاً . هذا إذا غلبونا ، وأما إذا لم يغلبونا ولم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً فحينئذ نجد في الدنيا الجنة التي يبحث عنها الناس في الآخرة . فيدوي في الآفاق صدي بطولتنا وسمعتنا الطيبة ويذكرنا العالم بخير الى يوم القيامة . هذا لا ريب فيه . والله كفيل بعباده» [١٣] .

فرنسا والمسألة السورية

منذ القرن السادس عشر وفرنسا ، حليفة الدولة العثمانية ، تتمتع بالاعتراف لها بحق حماية الكاثوليك اللاتينيين (الأوروبيين) المقيمين في الإمبراطورية . وسوف تتمثل السياسة الثابتة للملكية الفرنسية في توسيع هذه الحماية لتشمل جميع الكاثوليك ، بل جميع المسيحيين من الرعايا العثمانيين . وسوف يؤدي نمو الإرساليات منذ القرن السابع عشر الى السماح بإنشاء كنائس شرقية متحدة مع روما : (كنائس) الأرمن الكاثوليك واليونانيين الكاثوليك والسوريين الكاثوليك ، إلخ . وعلاوة على الكنائس الشرقية المعترفة بالمرجعية البابوية ، فإن الحماية الفرنسية تتجه منذ عهد لويس الرابع عشر الى أن تشمل الجماعات السكانية المارونية التي تشكل الجماعة الكاثوليكية الأهلية الأكثر أهمية من الناحية العددية ، والتي تتمتع بإقليم حقيقي . وقناصل فرنسا على علاقة جد متواصلة مع البطريرك والأساقفة

وكبار الأعيان . وتبدأ الإرساليات الكاثوليكية في تنمية تعليم بالفرنسية . وبشكل تدريجي ، فإن الإدعاء ، الذي لا يملك أي سند حقوقي فعلى ، بأن الموارنة «شعب يدفع الجزية للباب العالي ، لكنه تابع للتاج الفرنسي» إنما يصبح قاعدة سياسية بالنسبة للزعماء الموارنة (١٤) .

وكانت سياسة الثورة الفرنسية المضادة للدين وللكاثوليكية قد أزعجت الموارنة ، وذلك بالرغم من محاولات المؤتمر (اليعقوبي - المترجم) ثم حكومة الإدارة صون الحماية الفرنسية . والحال أن رجل الدين الماروني الموجود في روما كان قد أبلغ البطريرك على نحو محدد بأعمال العنف المضادة للأكليروس والتي قام بها الفرنسيون في إيطاليا اعتباراً من عام ١٧٩٦ . ولم يكن من شأن احتلال ولايات بابوية وطرد البابا طمأنة الكنائس الشرقية (١٥) . وهكذا فإن الموارنة سوف يتمسكون بالتعقل خلال حملة بوناپارت على سوريا : فقد تباهي هذا الأخير في مصر بأنه عدو للمسيحية وسعي بشير الثاني ، بعد أن حلل الموقف تحليلاً صائباً ، الى نيل حماية الإنجليز التي عرضها العميد البحري سيدني سميث (١٦) .

وبعد التصالح ، تحاول السياسة الفرنسية استعادة الساحة التي فقدتها خلال العصر الثوري . وليس من شأن الحماسة الدينية لزمن عودة الملكية إلاّ أن تدفع في هذا الاتجاه . وفي بداية ثلاثينيات القرن التاسع عشر ، تجري استعادة العلاقات التقليدية استعادة كاملة وتلعب الكنيسة المارونية دورها التربوي في مجال استيعاب واستعارة اسهامات أوروبا ، بحسب احتياجات الطائفة (١٧) . وهذه الحماية الفرنسية فعالة لاسيما وأن الطائفة المارونية تتمتع ، في إطار إمارة الجبل ، باستقلالية فعلية . وقيام دولة قوية في سوريا إنما يهدد بجر فرنسا الى مواقف صراعية كانت حمايتها قد نجحت ، حتى ذلك الحين ، في تجنبها . وسوف يتولي الممثلون الفرنسيون في بيروت الدفاع بنشاط عن المسيحيين ضد أي تدخل في شئونهم .

وفي القسطنطينية ، تهتم السفارة الفرنسية أساساً بالخطر الروسي . وفي بداية عام ١٨٣١ ، وأمام مخاطر نشوب حرب بين فرنسا والنمسا وروسيا ، في أثر الانتفاضة البولونية ، فإن الجنرال جيمينو ، سفير فرنسا ، قد وصل به الأمر الى حد جس نبض الباب العالي للوقوف على إمكانية عقد تحالف فرنسي - عثماني ضد دولة الشمال الكبرى . وإذ تتنصل منه حكومته ، فإنه يستقيل (١٨) . والآن ، فإن أي دخول من جانب الجيش الروسي الى الأراضي العثمانية سوف يدخل تعديلاً على التوازن الأوروبي بشكل يجعل نشوب حرب عامة مسألة حتمية . وبالرغم من إدراك جوانب ضعف عمل محمود الثاني الإصلاحي ، فإن هناك اعتقاداً بأن تحرك عزيز مصر إنما ينذر بأن يجر الى تدخل روسيا . والحال أن الأميرال روسان ، السفير الفرنسي ، إنما يؤكد منذ فبراير ١٨٣٣ على أن برهان الصداقة الحقيقي الذي

يمكن لمحمد على تقديمه الى فرنسا هو بالتحديد أن يمتنع عن أي تحرك يهدد بأن يجر الى نشوب الحرب العامة التي يخشي منها .

وفي مصر ، يظل قناصل فرنسا الجلساء المميزين لمحمد على الذي يطلعهم على مشاريعه وعلى ضرورة الدعم الفرنسي . ولا يسعهم أن يفلتوا من أسر جاذبية هذه الشخصية القوية ويشددون على القوة الفعلية التي تمثلها مصر في المنطقة . وهم يريدون أن تصعد مصر الى وضعية مستقلة استقلالية وضعية إيالات الشمال الأفريقي .

وفي باريس ، فإن مختلف حكومات عهد ملكية يوليو إنما تجد نفسها غارقة في تناقضات الوضع الشرقي : ضرورة الحفاظ على وحدة أراضي الدولة العثمانية ، مواصلة الحماية الفرنسية للمسيحيين الموارنة ، واستحالة التنصل من مشاريع محمد على التي يستمد منها الفرنسيون زهواً كبيراً . ويري المسئولون الفرنسيون أن الدولة العثمانية على حافة الانهيار لأسباب خارجية وداخلية على حد سواء . فعلاوة على أطماع الدول الأوروبية ، يرجع الانهيار الى أزمة داخلية ترتبط على نحو خاص بجهود الإصلاح العقيمة . ويري بروجلي ، وزير الشئون الخارجية ، في عام ١٨٣٢ ، أن محمود الثاني «يجتهد في استعارة تمدن من أوروبا تشين أساليبُ طابعه و(. . .) يتصور أنه قد أرسي أسسه بين شعبه لمجرد أنه قد أدخل عدداً من الأشكال الخارجية لتنظيمنا العسكري» ، والحال أن السخط كبير بحيث يبرز خطر نشوب تمرد عام لخصوم الإصلاحات بشكل متواصل (١٩) . ويعرف الفرنسيون أن هناك ثلاثة أسباب على الأقل لكره إنجلترا لعزيز مصر : وضعه على طرق الهند وخطر التدخل الروسي وعلاقاته الطيبة مع فرنسا التي تجد بذلك الفرصة لإتخاذ موقع قوي في شرقي البحر المتوسط في عين اللحظة التي يصبح فيه وجودها في الجزائر مقيماً ومستقراً . لكن الأزمة الشرقية هي تحويل مناسب للأنظار عن فتح الجزائر : فلن تستطيع الدولة العثمانية ولا الدول الأوروبية التصدي لسياسة فرنسا تجاه الشمال الأفريقي .

الحرب السورية الأولي

يتذرع محمد على بنزاع بين الباشاوات لكي يغزو فلسطين في أواخر أكتوبر ١٨٣١ . وهو يتهم سيد عكا بالترحيب بأعدائه وبإغراء عماله وباستقبال الفلاحين المصريين الفارين من دفع الضرائب ومن السخرة . ولفترة ، يحاول الباب العالي التهوين من شأن النزاع مقدماً نفسه كوسيط بين الواليين . وفي ديسمبر ، يحاصر المصريون عكا مثلما فعل بوناپارت قبلهم باثنين وثلاثين عاماً . والحال أن إبراهيم ، الأسعد حظاً من سلفه الشهير ، سوف يستولي على المدينة في يونيو ١٨٣٢ ، لكن الباب العالي كان قد دفع **العلماء** في شهر مايو بالفعل الى إعلان أن محمد

على وابنه خائنان وعاصيان . ويصبح من مصادر الشرف للمسلمين أن يحاربوهما بالسلاح . وفي يوليو ، يهزم إبراهيم الجيش العثماني قرب حمص ويفتح مجمل سوريا . وبعد تعزيزه لموقعه في **بلاد الشام** بفضل ولاء الأمير بشير خاصة ، ينتقل إبراهيم وجيشه الى الأناضول في خريف عام ١٨٣٢ . وفي ٢١ ديسمبر ، يسحق القوات العثمانية الأخيرة قرب قونيه . ومن الناحية العملية ، لاتوجد بعدُ عقبات أمامه على الطريق الى عاصمة الدولة العثمانية .

ومنذ بداية الحملة ، يستخدم إبراهيم باشا الإضفاء التقليدي للشرعية في الإسلام على التمردات : لقد جاء لمحاربة الظلم ، ممثلاً في عبد الله باشا الذي ضاعف المهانات على حساب السكان . وهو يضيف ضد السلطان تهمة خيانة الإسلام وفرض ممارسات المسيحيين على المسلمين (٢٠) . وإذ ينزعج محمد على من الإدانة التي دفع السلطان – الخليفة **العلماء** الى توجيهها ضده ، فإنه يبدأ في استحداث حجاج مثقل بالعواقب بالنسبة للمستقبل : إن السلطان العثماني ليس الخليفة الحق لأنه لا ينتمي الى بيت النبي . وبما أن عزيز مصر لا يمكنه هو نفسه أن يدعي لنفسه مكرمة كهذه ، فإنه يُبرز شخص شريف مكة الذي أصبح تابعاً وثيقاً له منذ استيلاء قواته على الحجاز . وهذا هو ما يوضحه في فبراير ١٨٣٢ للقنصل الفرنسي ميمو : «إن مكة لي ، والشريف يحي لمكة : وهو من ذرية نبينا . وأسرته قوامها مائة شخص . والحال أن سلطة الخلفاء كانت قد بادت من جراء الاغتصاب ومن جراء نوائب الدهر . لكنها تكمن في صميم ديننا وسوف تولد من جديد . فالخليفة هو وكيل وخلف النبي ؛ والشريف يحي هو الخليفة شرعاً . وسوف يجيء الى القاهرة . وسوف أبايعه وأقبل طرف ثوبه واعتبر نفسي أول جنوده . فسيد المسلمين هو ذلك وحده الذي يمكنه أن يؤم الحج الى الأماكن المقدسة وأن يذود عنه ويحميه . أمَّا ذلك الذي لا يملك إمكانات لذلك ويريد قيادتهم فهو مغتصب . يطيحون به . إن مائتي ألف بدوي على استعداد لتأييد إعلان عجز ذلك الذي دمر المؤسسات القديمة للدولة وخرب الإسلام وإعلان خروجه على الإسلام . وقد أتي حين من الدهر كان فيه الخلفاء يخلعون السلاطين في مصر وينصبون غيرهم . والأمم الإسلامية ، المغلوبة على أمرها والمنهارة ، بحاجة الى هزة عنيفة ، الى ثورة ترد لها الحياة وتجدد قواها . وبالإمكان تجنبها ، إلاَّ أنه بما أنها مطلوبة ، فسوف تحدث . والشريف يحي مدعو الى إنجازها ؛ وهو يعتبرها تكليفاً من السماء . وسوف تُنجز ، لأن الأفكار الدينية سوف تستعيد هيمنتها وسوف نري من جديد معجزات تاريخنا»(٢١) .

وبالرغم من أنه لم يوجد قط إجماع مطلق في التاريخ الإسلامي على شروط تولي الخليفة ، فإن من المؤكد أن الزعم بأن الخليفة يجب أن يكون من قريش ، قبيلة النبي ، كان دائماً أكثر تمتعاً بالترحيب من الزعم المضاد الذي يذهب الى أن منصب الخليفة إنما يعود الى

أكثر المسلمين جدارة ، بصرف النظر عن أصله . ومنذ أن ادعي السلاطين العثمانيون لأنفسهم هذا المنصب ، أصبحوا عرضة لتوجيه اعتراض عليهم من هذا النوع . وسوف يؤكدون على ضرورة أن يكون للأمة الإسلامية رئيس لا يمكنه أن يكون أحداً آخر غير حامي الأماكن المقدسة وحاكم أقوي دولة إسلامية .

مشروع الاستقلال

دون إشارة سافرة الى الخلافة ، يدافع إبراهيم عدة مرات أمام أبيه عن مشروع خلع السلطان . ويقترح عزيز مصر عليه أن يدفع **علماء** سوريا أولاً الى إعلان هذا الخلع وأن يتم نشر آرائهم الفقهية في الأناضول [٢٢] . وبعد معركة قونيه ، فإن الصدر الأعظم ، الذي تحول الى سجين ، يؤيد هذا الحل ويقبل مبدأ خلع السلطان وتنصيب ابنه الذي لا يزال حدثاً [٢٣] . على أن عزيز مصر يؤكد لفرنسا في الوقت نفسه أن هدفه هو إحياء الدولة العثمانية أساساً [٢٤] . وهذا ، من جهة ، لأن فرنسا كانت قد طلبت اليه بالفعل وقف زحف قوات ابنه ، ومن جهة أخري ، لأن التدخل الأوروبي يصبح مرجحاً بشكل متزايد .

والحال أن الحرب السورية الأولي ، شأنها في ذلك شأن الانتفاضة اليونانية ، إنما تبين أن مصير الشرق يعدّ الآن متوقفاً على تحكيمات أوروبية . ووفقاً لمنطق سوف يعاود الظهور مراراً في القرن العشرين ، فإن الحكومة العثمانية ، إذ تخسر على الساحة العسكرية ، سوف تحاول انقاذ قضيتها بتدويل النزاع . ويحاول إبراهيم استباق الأوروبيين باستئناف زحفه على القسطنطينية في ٢٠ يناير ١٨٣٣ . وفي ٢ فبراير ، يصل الى كوتاهيه ، التي تعتبر في منتصف الطريق تقريباً بين قونيه والعاصمة . وهناك ، على أثر ضغوط روسية ، يضطر الى وقف تقدم جيشه . وإذ يدرك إبراهيم أنه سوف يكون من الصعب عليه منذ ذلك الحين خلع السلطان ، فإنه يدعو والده عندئذ الى إعلان استقلال من طرف واحد لمصر ولجميع البلاد التي فتحها سعياً الى وضع الدول أمام الأمر الواقع . ولابد لجميع الأراضي العربية للإمبراطورية أن تدخل في هذه الدولة الجديدة لأن الفاتح يُدخل فيها ولايات العراق وطرابلس الغرب وتونس التي لم يجر الحاقها بعد بممتلكات عزيز مصر [٢٥] .

لكن الدول الأوروبية ترفض هذا المنظور . وفرنسا زمن بداية عهد ملكية يوليو ، بوضعها الداخلي جد المضطرب ، لا تريد المجازفة بنشوب حرب أوروبية بسبب مصير الدولة العثمانية . وهي تفضل تسوية تستند الى اعتراف السلطان لمحمد على ولابنه بحكم ولايات محتلة مختلفة . وتقترح أن تُمنح سوريا ، «في حدودها الطبيعية» منحاً مباشراً من جانب السلطان لعزيز مصر وفق عين شروط حكمه لمصر وقبل أن تفرض الدول الأوروبية تحكيمها [٢٦] .

وإذ يدرك محمد على أن إعلان استقلال الإمبراطورية المصرية مستحيل مؤقتاً بالنظر الى معارضة الدول ، فإنه يواصل التشديد على دوره كمجدد للدولة العثمانية في مجملها . وهو يقدم نفسه في صورة المدافع عن الأمة الإسلامية في وجه الخطر الروسي (٢٧) . وهذا التجديد إنما يتمشي تماماً مع صورة البطل التمديني التي نجح في رسمها لنفسه في فرنسا .

وحجة الخطر الروسي هي الآن حجة ذات مصداقية أكبر . فالباب العالي ، وقد انتابه الخبل من جراء استئناف زحف إبراهيم باشا ، إنما يوجه الى روسيا ، في ٢ فبراير ١٨٣٣ ، نداء الى تقديم العون . ويسارع العدو التقليدي للباب العالي الى تلبية النداء ، ومنذ ٢٠ فبراير ، يدخل الأسطول الروسي الى البسفور . ويتعين على قوات برية مهمة أن تجيء في أثره بسرعة . وتبدو الدولة العثمانية في صورة تابع لإمبراطورية القياصرة . والحال أن البارون روسان ، السفير الفرنسي الجديد ، لا يري آنذاك حلاً إلاّ في جلاء سريع عن الأناضول من جانب قوات إبراهيم باشا ويضاعف الانذارات الموجهة الى إبراهيم باشا ومحمد على .

ويتردد محمد على تجاه الموقف الذي يجب عليه اتخاذه . فهو إما أن يستأنف العمليات العسكرية قبل وصول التعزيزات الروسية ، وإن كان ذلك ينطوي على خطر تدخل الدول الأوروبية الأخري ضده أو ، على العكس من ذلك ، أن يبدأ مفاوضات معقدة ، أكانت مع الباب العالي أم مع ممثلي الدول الأوروبية . وهو يختار في النهاية الحل الأخير ، لاسيما وأن البلاطات الأوروبية ترسل اليه مبعوثين خاصين للتحدث معه حول الوضع .

عودة النزعة العربية الى الظهور

في أوروبا ، أدت حملة الجزائر الى إحياء النزعة العربية الموروثة عن نابوليون . والحال أن المسئولين الأوروبيين ، إذ يستشعرون بشكل مشوش أن تطور إصلاحات الدولة العثمانية بسبيله الى أن يقلب الهياكل الاجتماعية التقليدية ، إنما يفسرون هذه التحولات وفقاً لفكرة القومية التي أحيتها ثورة يوليو (١٨٣٠) في مجمل أوروبا . ويري منظرو البورجوازية الحاكمة أن الغاليين – الرومان قد انتصروا بشكل حاسم على غالبيهم الفرانك .

وبما أن النموذج التقليدي للحكم العثماني يمر بأزمة ، وأن ما هو مجهول هو أن المسألة هي بالأحري مسألة تقسيم وظيفي بأكثر مما هي مسألة قطيعة عرقية بين غالبين ومغلوبين ، فإن القطيعة بين محمد على والباب العالي وتكوين كيان سياسي يدور في فلك مصر ، قد جري ، بشكل منطقي ، تفسيرهما على أنهما نهضة للقومية العربية في وجه الاضطهاد التركي . وأمام هذه الظاهرة ، فإن الليبراليين الأوروبيين ، الذين يقدمون أنفسهم في صورة ورثة للثورة ، لا يسعهم إلاّ أن يصفقوا مرحبين . كما أن رومانسية مجمل البلدان الأوروبية تري في

هذه الأحداث ، التي تهز الشرق ، انتفاضة قومية جديدة تستحق المؤازرة التي قدمت بالفعل لليونانيين في عشرينيات القرن التاسع عشر .

وقد أرسلت إنجلترا والنمسا وفرنسا رسلاً الى عزيز مصر . والحال أن الإنجليزي ، الكولونيل كامبل ، الذي وصل الى الاسكندرية في ٢٦ مارس ١٨٣٣ ، إنما يهتم أساساً باقناع محمد على بضرورة الحفاظ على وحدة أراضي الدولة العثمانية وبتمسك بريطانيا العظمى بهذه السياسة . أما النمساوي ، پوركش - أوستن ، الذي وصل في ٢ أبريل ١٨٣٣ ، فهو شخصية أكثر إثارة للاهتمام . فهذا الديبلوماسي الشاب ، المخلص من حيث المبدأ لأفكار مترنيخ عن الشرعية ، هو في الواقع رومانسي عاشق للاستشراق ، الأمر الذي سيقوده بعد ذلك الى أن يصبح صديقاً لجوبينو . ويبدو أنه يتجاوز بسرعة حدود مهمته الرسمية لكي يرسم مشروع خلافة عربية لحساب محمد على . ويقال إنه قدم مذكرة كاملة حول هذا الموضوع الى عزيز مصر في ١٧ مايو ١٨٣٣ : «بوسع صاحب السمو ، عن طريق شراء ثورة البانيا ، دعم ثورته هو . ومنذ ذلك الحين ، فإن الترتيب الأكثر طبيعية والأكثر رسوخاً سوف يتمثل في إنشاء إمبراطورية عربية . إن مصر والنوبة وسنار ودارفور وكردفان في أفريقيا ، وكل شبه الجزيرة العربية حتى الخليج الفارسي وعلى طول الضفة اليمني لنهر الفرات بما في ذلك سوريا كلها ، يجب أن تكون جزءاً من تلك الإمبراطورية .

«وسوف يتوصل صاحب السمو الى كسب التأييد والترحيب بوصفه آخذاً بثأر الخلفاء (العرب - المترجم) ، وبوصفه الرجل المدعو من جانب الله الى إعادة بناء المجد الإسلامي . إن العربي يعتبره الآن بالفعل محور جنسه النبيل .

«لقد ارتدت الحماسة الدينية والسياسية الى نحر السلالة الحاكمة في القسطنطينية . وشريف مكة هو الراعي الأوضح لعظمة ولقوة صاحب السمو ؛ والرأي العام يؤازره وكذلك دعم أمانيه الخيرة ؛ وتفوق إمكاناته على إمكانات الباب العالي تفوق هائل .

«ويجب البدء بالتفاوض مع زعماء بغداد ومع زعماء العشائر على الضفة اليمني لنهر الفرات . ولن يعترض الإنجليز البتة على تقارب مع الأئمة على المحيط وفي الخليج الفارسي . وسوف يتوصل صاحب السمو الى أن يؤكد هناك سلطته واعتباره بحمايته للتجارة وللصناعة وللدين وبمغازلته للمشاعر ، وبشرائه لأولئك الذين يحتمل أن يكونوا مصدر إزعاج .

«ولا مفر من حدوث كارثة في القسطنطينية ؛ وهذه الكارثة وشيكة الوقوع . ولن يكون بوسع إنجلترا وفرنسا منعها ؛ والنمسا وروسيا لا تريدان ذلك .

«عندئذ سوف يتخذ صاحب السمو موقفاً دفاعياً . وسوف يترك تركيا الأوروبية بل والولايات الموجودة وراء جبل طوروس للترتيبات التي سوف تتخذها الدول (. . .) .

«إن نشوب حرب أوروبية سوف يكون اللحظة الأنسب لرمي القناع ولإعلان محمد على قائداً للإمبراطورية العربية» (٢٨) .

وقبيل شرح پوركش أفكاره عن الخلافة العربية أمام محمد على ، تلقي هذا الأخير رسالة من كلوت بك ، تنقل اليه التصريحات التي أدلي بها اليه لوي - فيليب خلال اجتماع عقده معه ملك الفرنسيين . والنص على جانب كبير من الأهمية لأن لوي - فيليب يذكر صراحة ڤولني ، ملهم بوناپارت فيما يتعلق بالشئون العربية : «لقد رأي دائماً ، متفقاً في ذلك مع ڤولني ، أن الثورة التي تهدد الدولة العثمانية منذ زمن بعيد ، لابد من تدشينها عن طريق مصر ، وأن مصر هي الطريق الحقيقي الى القسطنطينية ، بشكل لن يكون عزيز مصر معه غير أداة لحدث لا مفر منه ومتوقع . وكان صاحب السمو الدوق دورليان قد تحادث مع ڤولني ، عندما زار أمريكا ، حول الموضوع نفسه ، في عين الزمن الذي كان الفرنسيون يحتلون فيه مصر . وقد أعرب ذلك الكاتب الشهير عن هذا الإحساس نفسه إعراباً قوياً ؛ حيث أن مصر هي البلد الوحيد في الشرق الذي يتصل بالحضارة الحديثة اتصالاً سافراً والذي يمكنه توفير القوة الضرورية للإطاحة بالعرش ولإنجاز الثورة السياسية ، وقد قال «إن مصر هي التي سوف تفعل كل شيء» .

«ولذا فليس هناك ما يدعو الى الدهشة تجاه ما يحدث اليوم ؛ إن لحظة الحسم لن تتأخر لأكثر من ثلاثة أو أربعة أعوام تقريباً ، ولا يمكن لهذه اللحظة أن تتأخر أكثر من ذلك . فالكادر السياسي والديني القديم الذي يدعم الجهاز قد فقد كل اعتبار من جراء الفساد ؛ والميليشيا القوية التي تدعم العرش ومؤسسة رجال الدين قد أبيدت أو شتت شملها . وروسيا تتقدم كل عام نحو البسفور مسافة خمسين فرسخاً أو أكثر في المرة الواحدة . ومن ثم فلن يتأخر يوم نيل الاستقلال بالنسبة للولايات البعيدة !

«والحق أن مصالح وتنافسات الدول إنما تفرض الحفاظ على بقاء الإمبراطورية لبعض الوقت ؛ لكن هذا هو كل ما في الأمر ، ولن يكون بوسعها (الإمبراطورية) تجنب التفكك ، فهي لم تعد تملك لا الدعم ولا الإيمان ولا القوة . وفي جميع الأحوال ، فإن مصر هو المؤهلة ، مادياً ومعنوياً ، للتحرر من النير (التركي) عاجلاً أم آجلاً الى حد ما ، وعندما تتحرر ضفاف النيل ، فلن تتأخر ضفاف الفرات عن أن تتحرر بدورها ، لكي تشكل معاً مركز خلافة جديدة ذات طابع سياسي وذات حياة جديدة مستمدة من علوم ومعارف أوروبا» (٢٩) .

وعزيز مصر يستشهد متفاخراً بهذا النص أمام ميمو ، في أوائل مارس ١٨٣٣ . ويحاول قنصل فرنسا إقناع محمد على بأن تصريحات لوي - فيليب ليست ذات أهمية كبيرة ، ولكن بلا طائل (٣٠) .

وفي هذا السياق ، يصل المبعوث الفرنسي بوالكونت في ٢٩ ابريل ١٨٣٣ . ومهمته صعبة إذ يتعين عليه التوصل الى سحب القوات المصرية من آسيا الصغري . وتتركز المناقشة على رغبة إبراهيم باشا في البقاء في قيليقيا ، في منطقة أضنه ، لكي يؤمن لنفسه الموارد الخشبية اللازمة للأسطول المصري ولكي يسد مداخل سوريا . ومن المثير أن عزيز مصر ، في لقائه الأول مع الديبلوماسي الفرنسي ، يذكر الحجة الجديدة التي تذهب الى أن هذه المنطقة مأهولة بالفعل بالعرب وأن هؤلاء الأخيرين يطلبون دعمه لهم (٣١) . وعلاوة على هذه المهمة الديبلوماسية بشكل محدد ، فإن بوالكونت مكلف بإعداد وصف عام لفتوحات محمد على وللدولة العثمانية بوجه عام .

وقد جاء بوالكونت لكي يثني سيد مصر عن إعلان استقلاله . ويرد عزيز مصر بأن الدول قد اعترفت بالفعل باستقلال اليونانيين والبلچيك وأنها ليست قادرة حتى على أن تضمن له أمنه في وجه الباب العالي (٣٢) . وينبع الاختلاف بين الموقفين من اعتراف أوروبا بالثورتين اليونانية والبلچيكية كتعبيرين عن القومية .

وهكذا يتساءل بوالكونت عن وجود القوميات في الشرق . وبشكل كلاسيكي ، فإنه يميز في مصر وجود جنسين (أو طبقتين أو أمتين . . . وعدم دقة مصطلحات الديبلوماسي له دلالته) ، جنس السائدين والجنس العربي ، جنس المسودين . والحال أن هذا الجنس الأخير ، من جراء قرون من الاضطهاد ، قد أصبح عاجزاً عن أن يحكم نفسه بنفسه وحده ، خاصة بسبب انقساماته وتنافساته (٣٣) .

وكل عمل عزيز مصر في بلاده إنما يستند الى الأتراك والحال كذلك فيما يتعلق بالحرب الجارية : «هناك رغبة في أوروبا في اعتبار هذه الحرب رد فعل من جانب الجنس العربي على الجنس التركي : لكن ذلك ليس طابعها . إن تركياً قد ارتأي خوض المغامرة بذهنية تركية والأتراك يقودون العرب في هذه المغامرة . وهؤلاء (العرب) يزحفون لأن هناك من يقودهم ، دون أن يكون لديهم علم بماهيتهم هم أنفسهم ولا بماهية أولئك الذين تجري قيادتهم الى محاربتهم . لكن النجاح قد تحقق في النهاية بهم ومن شأن الشعور بالانتصار أن يُحدث يوماً ما تحولاً معيناً في ذهنيتهم ؛ ولن يلزم لذلك غير رجل . ونحن لا نري بعد هنا شيئاً منبثقاً من مثل هذا التحول . وعندما أجد نفسي وسط جيش إبراهيم ، سوف أكون مهتماً جداً برصد مسألة بمثل هذه الأهمية» (٣٤) .

والحال أن بوالكونتاً ، أثار حماسته عمل محمد على التمديني ، وإن كان لا يؤمن ببعث القومية العربية ، هو الذي يرحل لكي يدرس سوريا ولكي يقابل إبراهيم باشا .

إبراهيم باشا والنزعة العربية

يدرك بوالكونت على الفور الفارق بين المجتمع المصري والمجتمع السوري . ففي المجتمع الأول ، يكون المرء عضواً في الطبقة التي تحكم أو في الطبقة التي تطيع ، بحسب ما إذا كان المرء قد ولد تركياً أم عربياً . وفي المجتمع الثاني ، ينتمي الجميع الى الجنس العربي ، لكن الناس يصنفون بحسب الأديان وبحسب الأمم . وبالرغم من أن الجميع يتكلمون لغة واحدة ويعترفون بوحدة أصلهم ، فإن شعور القومية يكاد يكون غريباً ويذوب في الجماعات الطائفية ، وهي العناصر الوحيدة التي تشكل الهوية الجماعية (٣٥) .

على أن الجيش المصري يبرز ملمحاً مختلفاً تماماً . ويجد بوالكونت أن إبراهيم باشا يبدو جد متراخٍ في فرض الانضباط الأوروبي لسماحه للجنود بالشكوى من تعسف الضباط في إنزال العقوبات بهم ، مما يؤدي الى انعدام الصرامة في إدارة الجيش . والقائد العام يضرب مثلاً مؤسفاً : «إن سلوك إبراهيم الشخصي مع الجنود قد عزز من هذا الجانب السلبي بدلاً من تصحيحه . فإبراهيم يتعامل معهم دون كلفة ، إذ يحيا معهم ، بل ويلهو معهم ، ممجداً دائماً الأمة التي ينتمون اليها ، الى درجة أنهم اعتادوا اعتباره سنداً لهم ضد ضباطهم وأنهم يرفضون بوقاحة تنفيذ أوامر قادتهم بل ويهددونهم بمخاطبة إبراهيم شاكين منهم»(٣٦) .

ويشدد بوالكونت على هذا الواقع الثوري : في هذا الجيش الذي يتألف ضباطه من أتراك وجنوده من عرب – مصريين ، فإن هوى القائد يميل الى العنصر القومي المسود وليس الى السادة . وقد جرى اللقاء الشهير بين ابن عزيز مصر والديبلوماسي الفرنسي في ١٧ أغسطس ١٨٣٣ في قيليقيا . ويشكو إبراهيم من موقف الدول الأوروبية بوجه عام ومن موقف فرنسا بشكل خاص . فلماذا أوقفت زحفه على اسطنبول بينما كانت الأمة الإسلامية مستعدة عن بكرة أبيها لمؤازرة سلطته القوية الجديدة ؟ وشأنه في ذلك شأن أبيه ، ينتقد إبراهيم موقف أوروبا التي اعترفت للأمتين البلچيكية واليونانية بحق اختيار السيد الذي شاءت كل منهما بينما تحرم الأمة الاسلامية من هذا الحق .

والحال أن بوالكونت ، في سعيه الى تطبيق معايير السياسة الأوروبية ، إنما يعرّف محمد على بأنه ينتمي الى الرأي الملكي بينما ينتمي إبراهيم الى الرأي الليبرالي . ثم إن هذا الأخير معاد لنظام الاحتكارات الاقتصادية . ومن اللقاء الثاني مع القائد العام الكبير ، يورد بوالكونت بشكل غير مباشر سلسلة كاملة من التصريحات تعد من أكثر التصريحات إثارة للجدل في تاريخ نشأة النزعة القومية العربية :

«إنه يعلن على المكشوف عزمه على إحياء قومية عربية ، وأن يرد بالفعل للعرب وطنهم

وأن يتيح لهم الوصول الى جميع المناصب ، أكان ذلك في الإدارة الداخلية أم في الجيش ، وأن يجعل منهم شعباً معتمداً على نفسه ومشاركاً في التمتع بالإيرادات العمومية وفي ممارسة السلطة ، كما في تحمل التكاليف التي يتطلبها استمرار عمل الدولة (. . .) .

«وغالباً ما يكرر أن جميع من يتكلمون العربية يجب أن يكونوا رعايا لأبيه ، السيد بالفعل لمصر وللنوبة ولسوريا ؛ وقد أعرب لي عن رغبته في أن يصبح والده سيداً لباشاليك بغداد وقال لي إن الجزيرة العربية تنتمي الى محمد على الذي يهتم في هذه اللحظة بإنجاز فتحها(. . .) .

«وفي اتصالاته بأهل البلاد ، يستخدم إبراهيم عادة اللغة العربية . وهو يعتبر نفسه عربياً ويود أن يعامل باعتباره عربياً . وسعياً الى ذلك ، فإنه غالباً ما يستخدم لغة جد تحقيرية عند الحديث عن الأتراك . وقد لاحظ جندي عربي عليه ذلك ذات يوم فسأله ، بتلك الحرية في التعبير التي يحب تشجيعها بين الجنود : «كيف يقول سموكم كل هذا الكلام السيء عن الأتراك وأنتم أنفسكم منهم ؟ » .

«ويرد إبراهيم بحيوية : «أنا لست تركيا ؛ لقد جئت الى مصر طفلاً ، ومنذ ذلك الحين ، غيرت شمس مصر دمي وجعلته كله عربياً» .

«وقد تكلم معي مختار بك بأسلوب مماثل فقال لي : «لقد ولد أغلبنا في تركيا ، لكن اقامتنا في مصر قد منحتنا حق كسب جنسيتها ؛ ولكي يحصل المرء على الجنسية الفرنسية ، فإنه لا يحتاج إلاّ للإقامة لمدة عشر سنوات في فرنسا : أما نحن فقد جئنا الى مصر ونحن لم نكد نتجاوز طفولتنا ؛ إننا لم نعد أتراكاً ؛ ولم يعد هناك ما يجمعنا بشعب لن يخلف وراءه غير الخرائب شاهداً على مروره على الأرض . إننا ننتمي الى جنس أكثر نبلاً ، وأكثر استنارةً ، الى تلك الأمة العربية التي سبقت أوروبا في الحضارة والتي وسمت أيام عزتها بإنشاء المدن المزدهرة والآثار الرائعة التي غطت بها وجه الأرض ، من جبال الأندلس الى النيل وحتى حدود فارس» .

«إن فكرة إبراهيم باشا المتمثلة في تحويل الدولة التي أسسها أبوه الى إمبراطورية عربية تماماً ، ينتمي فيها الى أمة واحدة كل من الحكام (ما عدا الأسرة المالكة) والمحكومين ، الضباط والجنود ، ورد القومية والوجود السياسي الى الجنس العربي ، بما أن له لغته الخاصة وأدبه وتاريخه ، هذه الفكرة توحي دون شك بمفهوم أكثر تماسكاً ، وأكثر اكتمالاً ، يشتمل على ضمانات استقرار ودوام أكثر مما ترتب على الخطة التي اتبعها حتى الآن محمد على حول أمة عربية يقودها ضبّاط أتراك . والمسألة كلها تتلخص في ما إذا كان العرب قادرين على حكم أنفسهم بأنفسهم ؟ وبينما يؤكد محمد على أنهم ليسوا قادرين على ذلك ، فإن إبراهيم يعبر

عن الرأي المقابل ، لكنه يضيف في الوقت نفسه أنه يعتبر نظام الحكم الذي أقامه أبوه نظاماً انتقالياً ضرورياً بين حالة العبودية والانحطاط ، التي أبقيت الأمة العربية فيها على مدار قرون ، وحالة الوجود القومي والمستقل التي يتصدر عملية إعادتها اليها ، عندما يضع موت محمد على بين يديه مصائر هذا الشعب وقيادة الدولة الجديدة التي أسسها نبوغ أبيه ووسعتها فتوحاته هو .

«والى هذه الفكرة الأولي الخاصة بتكوين دولة خاصة لأجل العرب عن طريق توحيد جميع البلدان الناطقة بلسانهم ، يضم محمد على وابنه المشروع اللاحق والخاص بتجديد الدولة العثمانية ، ليس على وجه التحديد بالاستيلاء عليها باسمهما ، وإنما على الأقل بقيادتها من الناحية الفعلية ، تحت اسم سلطان يبقيانه تحت سيطرتهما . وهذه الفكرة ، الأكثر رسوخاً في ذهن محمد على مما في ذهن إبراهيم ، لا يجب التغاضي عنها عند الحكم على سياسته الخارجية أو نظامه الخاص بالإدارة الداخلية» (٣٧) .

تفسير تصريحات إبراهيم باشا

سوف تصبح تصريحات ابن محمد على هذه شهيرة عندما ينشرها چورچ دوان في عام ١٩٢٧ . وفي ذلك العصر ، تصبح الأيديولوچية العربية واقعاً سياسياً واجتماعياً أساسياً . وعندئذ ، سوف يتولي كتاب سوريون كبار مثل محمد كُرد على تطوير فكرة الفرصة الكبري الضائعة لقيام عالم عربي موحد حول مصر وسوريا . وفي أواخر الثلاثينيات من القرن العشرين ، عندما تنفتح مصر نفسها على الحقائق العربية تحت قيادة أحد أحفاد إبراهيم ، فإن التصريحات التي نقلها بوالكونت سوف يجري استخدامها كسابقات تاريخية مجيدة وكمبررات للسياسة الجديدة . وفي العصر الناصري ، وبالرغم من الإدانة العامة لعمل أسرة محمد على ، سوف يجري استخدام هذه النصوص للبرهنة على ميل الجيش المصري الدائم الى خدمة القضية العربية .

وإذا كان التصور العروبي ، في حالة عبد القادر ، قد جاء بشكل واضح من محادثيه الأوروبيين ومن حاشيته العليمة بالأفكار الفرنسية ، فإننا نجد أنفسنا هنا بإزاء أول تصريح من جانب زعيم سياسي شرقي رئيسي يتوحد مع القضية العربية . ومن الواضح أن إبراهيم هو مواصل الفكرة التي أطلقها بوناپارت خلال الحملة الفرنسية على مصر .

ولابد من أن نستبعد باديء ذي بدء فكرة أن المسألة كلها تستند الى اختلاق من جانب بوالكونت . فقد أوضحت الاستشهادات السابقة أنه إذا كان يعترف بانبثاق واقع عربي ، فإنه لا يثق ثقة كبيرة في مستقبل هذا الواقع . وبالمقابل ، فقد تكون هناك مشكلات ترجمة .

فاستخدام مصطلحات كـ «عربي» و«تركي» لا يتمشي مع الاستخدامات الشائعة لها في اللغات الشرقية آنذاك . فمصطلح «العربي» إنما يعني بشكل ملموس «البدوي» في حين أنه في جزء من التصريحات محل البحث يضع مصطلح «الفلاحين» الأدق للإشارة الى الجنود المصريين بدلاً من مصطلح «العرب» . أما مصطلح «التركي» نفسه فهو مرادف لمصطلح «الفلاح» ويحيل بشكل محدد الى الفلاح الأناضولي . ثم إنه ، في النص ، يحل محل مصطلح «العثماني» الأنسب في مفاهيم العصر . وإذا كان إبراهيم قد استخدم فعلاً هذه المصطلحات ، فإن ذلك إنما يرجع الى أنه يضع نفسه من تلقاء نفسه ضمن منطق التحليل التاريخي السائد بين الأوروبيين .

أما الاستشهاد المنقول عن مختار بك فهو محدد على هذا المستوي : إن تصوره عن الأتراك إنما يتطابق تماماً مع الأفكار التي طرحها أنصار فكرة الاستبداد الشرقي وتأكيداته حول دور العرب في التاريخ إنما تتمشي مع خط أسطورة - تاريخ العقل التي طورها التنوير . والحال أن مختار ليس أحداً آخر غير التلميذ السابق الذي حصل على منحة دراسية في باريس وهو فيما بعد جليس السان - سيمونيين .

ومن السهل جداً تتبع أصل التصريحات . فوجود إشارة الى اليونان وبلچيكا إنما يوضح أنه كانت هناك مراسلات بين إبراهيم وأبيه . ودعوي النزعة العربية لها أصلان مختلفان ومتممان أحدهما للآخر . أولاً ، يحيل التهديد بمنازعة الشرعية الخليفية لسلاطين القسطنطينية والذي لجأ اليه عزيز مصر الى فكرة أن الخلافة إنما تخص قبيلة قريش التي يمثلها شريف مكة . لكن الأوروبيين ، الذين اعتادوا النظر الى عصور الخلفاء بوصفها عصور مجد العرب ، إنما يرون في ذلك مطالبة بخلافة عربية ، مما يعد علامة على الإحياء القومي لهذا الشعب . وعلى هذه الإشارة ، التي أرسلها سيد مصر دون قصد ، ترد تصريحات لوي - فيليب أمام كلوت بك مع التذكير بآراء ڤولني وبوناپارت الثورية .

والأفكار التي طورها پوركش - أوستن و ، بشكل أعم ، فهم محمد على وإبراهيم باشا أن شرعية القوميات هي وحدها التي يمكنها ، في الفكر الأوروبي ، منازعة الشرعية الملكية ، إنما تقود عزيز مصر وابنه الى استخدام هذا السلاح الجديد في العلاقات الدولية .

ونزعتهما العربية هي ذريعة للتزود بدعم فرنسا ، باعتبارها حامية تقليدية لحقوق القوميات . وفي الصيغة التي أوردها بوالكونت ، فإن خطاب إبراهيم باشا ، غير المفهوم بالمرة من جانب السكان السوريين ، إنما هو للاستهلاك الأوروبي بشكل محدد .

والحال أن نوبار الذي عرف جيداً إبراهيم (حيث كان سكرتيراً له في الأربعينيات) ومحمد على إنما يشدد على واقع أن هذين الرجلين لم يحدث أن فعلا شيئاً دون إمعان التفكير

فيه[٣٨] . وهو ينفي وجود مشروع عربي لدي محمد على : «لقد نُسبت الى محمد على فكرة اعتزام تأسيس إمبراطورية عربية ؛ وعندما كنت صبياً ، سمعت ما كان يقال عن هذه الفكرة في مدرستنا في فرنسا ؛ وعندما بلغت سن الرجولة ، حاولت أن أفهم ما هو المراد بـ «الإمبراطورية العربية» .

«ومازال علىَّ طرح السؤال نفسه على نفسي . إن فكرة عديمة المعني كهذه ما كان لها البتة أن تخطر ببال محمد على . ولا بأس في أن يحكم شبه الجزيرة العربية ، ما دام يحكم سوريا ؛ أما إنشاء إمبراطورية عربية ، فقد كان تركياً بما يكفي وحريصاً على وقته بما يكفي لألاّ يفكر في مشروع كهذا ؛ وكان يعرف وقد قال هو نفسه أن زمن الأنبياء قد ولّى .

«كما نُسبت اليه ، عندما هزم ابنه إبراهيم الجيش التركي في قونيه ولم تكن تفصله (إبراهيم) عن القسطنطينية غير مسيرة أيام قليلة ، فكرة الاستيلاء على الإمبراطوية وإعلان سقوط السلطان محمود وإعلان نفسه سلطاناً بدلاً منه . والحال أن محمد على كان ابن جنسه بما يكفي وكان يعرف بلاده بما يكفي لألاّ يفكر أيضاً في مشروع كهذا .

«وإذا كان قد تطلع الى شيء أكبر من السيادة على مصر وسوريا ، فإن ذلك الشيء لا يمكن أن يكون غير أن يلعب في القسطنطينية الدور الذي لعبته عائلة كوبريلي في القرن السابع عشر - حيث شغل أربعة أفراد من هذه العائلة الواحد بعد الآخر منصب الصدر الأعظم ، وهو منصب سلطة رفيع . وأنا أعتقد أنه كان لديه مثل هذا الطموح ؛ كما أعتقد أيضاً أنه قد راودته فكرة دخول القسطنطينية وخلع السلطان أو التخلص منه وحكم الإمبراطورية بوصفه رئيساً للقصر أو صدراً أعظم يعمل في ظل أحد أبناء محمود ؛ لكن تفكيره ما كان ليذهب الى ما هو أبعد من ذلك»[٣٩] .

وإذا كانت استراتيجية إبراهيم السياسية تسمح بفهم معني تصريحاته ، فإن هذه التصريحات إنما تخضع مع ذلك لشواغل فاتح سوريا المباشرة . وعندما كان إبراهيم ما يزال طفلاً ، جري إرساله رهينة الى اسطنبول وقد احتفظ من هذه التجربة بعداوة عميقة للنظام العثماني [٤٠] . وبرغم أنه قد ولد خارج مصر ، فقد وصل اليها في فترة مبكرة من العمر بما يكفي لأن يعتبرها وطنه الحقيقي . وهو يحب خاصة التحدث باللغة العربية خلافاً لوالده الذي رفض دائماً معرفة هذه اللغة والذي لم يكن يخاطب المصريين إلاّ من خلال تراجمة .

والحرب ضد السلطان تجر الى تعقيدات داخلية . فحاشية القصر التي تؤلف الجانب الأساسي من إدارة مصر ومن كوادر الجيش ، إنما تنتمي الى عالم **القولات** ويمكن النظر اليها على أنها تتألف من عثمانيين . وقوة العلاقات الشخصية لا يمكنها إبعاد خطر الفرار . والحال أن التجنيد من بين صفوف الرعايا ، المبعدين حتى الآن عن جهاز الدولة ، إنما يسمح بتأمين

ولاء أعظم من جانب الجنود . ثم إنه يجب تجنب حدوث صدام بين **القولات** والقادمين الجدد ، وهذا هو معنى السياسة التي يطبقها إبراهيم في جيشه . فهو يشجع ترقية أبناء **الفلاحين** ويراقب بحرص الضباط حتى لا يصدم هؤلاء الأخيرون حساسية الجنود .

كما أن محمد على قد أتاح للمسيحيين دخول سلك الإدارة . والأرمني بوغوص لا يقتصر دوره على تقديم المشورة ، مثلما كان يمكن للحالة أن تكون كذلك في زمن كبار المماليك في القرن الثامن عشر ، فهو بالإضافة الى ذلك موظف في الدولة وسوف يكون له الحق في أن يجري تشييع جثمانه في جنازة رسمية (٤١) . وبحسب تعبير نوبار الجيد تماماً ، فإن عزيز مصر الذي كان داعية عظيماً لمحو التمايزات قد اعتبره الأكراد وسكان الأناضول الممثل الحقيقي للدين والمدافع عن الإسلام خلافاً لمسلمي القسطنطينية الذين يلبسون الملابس الأوروبية ويتحالفون مع الموسكوفيين ، و ، في تلك الأثناء ، كان يمحو الحواجز بين المسلمين والمسيحيين في مصر ويلتمس عون الأوروبيين في تحويل حال بلاده (٤٢) .

و ن الواضح أن الواقع العميق لتصريحات إبراهيم باشا ، بعيداً عن الاختيار السياسي للمصطلحات المستخدمة بقصد جعل صورته جيدة في أوروبا ، إنما يتمثل في هذا الإلغاء للتمايزات الوظيفية التقليدية بين الحكام والرعايا وبين المسلمين وغير المسلمين . ومن الواضح أن الاستخدام الدائم لمصطلح الأمة ، للإشارة الى المسلمين تارة ، وللإشارة الى الشعوب الخاضعة لمحمد على تارة أخرى ، إنما يحيل الى هذه المساواة السياسية التي يجب أن تُبني وليس الى تعارض عرقي بين الأتراك والعرب ، لم يكن من الوارد أن يدور حديث عنه بعد في عام ١٨٣٣ .

تمدين سوريا

تجيء المناداة بالنزعة العربية بعد ذلك بكثير . ومن المؤكد أن العثمانيين يتزحزحون فيما يتعلق بمنطقة أضنه التي تظل تحت إدارة محمد على . لكن جميع الأراضي التي يحكمها عزيز مصر إنما يتم حكمها باستمرار باسم السلطان الذي لا يعتبره ، من الناحية الرسمية ، غير موظف عادي من موظفي الباب العالي . وهكذا يجري الحفاظ على خرافة وحدة أراضي الإمبراطورية بما يريح الباب العالي والدول الأوروبية على حد سواء . وإذ يواصل العثمانيون المناورة بدهاء ، فإنهم يوقعون في أونكار سكيليسي (٤٣) ، في ٨ يوليو ١٨٣٣ ، معاهدة دفاع متبادل مدتها ثمانية أعوام ، تسمح بالجلاء الفوري للقوات الروسية . كما يضع الباب العالي إنجلترا ضمن لعبته إذ لابد للإنجليز من أن يشكلوا ثقلاً مضاداً في الوقت نفسه للحماية للروسية وللخطر الفرنسي - المصري . ومن ثم فإنهم يصبحون مضطرين الى الإبقاء على وجود سلطة عثمانية مستقلة .

وفي باريس ، يتجنب بروجلي تناول المسألة الأساسية ، مسألة دوام عمل عزيز مصر بدءاً من اللحظة التي لم يحصل فيها هذا الأخير على استقلاله . بل إنه ، على الضد من ذلك ، يطلب اليه التخلي عن مشاريعه الخاصة بالنضال ضد الروس وبإحياء الدولة العثمانية ويدعوه الى التركيز على رفاه أراضيه . ويجب عليه أن يعيد التمدن الى سوريا وأن يوقف الى الأبد «عن طريق سطوة إدارته الحازمة والمستنيرة المتاعب التي يسببها للسلطة هناك منذ زمن طويل تنوع السكان والعقائد ، والروح الاستقلالية ، لدي هؤلاء السكان وعادات الشغب والتمرد التي تكاد تكون ، بصدد مسائل معينة ، راسخة الجذور بين صفوفهم» (٤٤) .

لامارتين والشرق

لا تصدق الحكومة الفرنسية مشروع الإمبراطورية العربية . لكنها تأخذ بعين الاعتبار ، الى حد معين ، أن مشروع محمد على وإبراهيم باشا يميل الى إلغاء التباينات الاجتماعية من أجل بناء دولة حديثة . ولن يكون هناك مفر من أن تنطرح مسألة وضعية مسيحيي الشرق ، و ، بدرجة أقل ، مسألة وضعية اليهود . والحال أن المناقشات البرلمانية لزمن ملكية يوليو إنما تضع المدافعين عن عمل محمد على التمديني ، في وجود أو عدم وجود «نظام عربي» ، في تعارض مع خصومهم أنصار تدخل مباشر من جانب أوروبا التي يجب لها أن تعتمد على المسيحيين كعناصر تمدينية ؛ وبما أن المسلمين جبريون يسلمون بالقضاء والقدر كما يعرف الجميع ، فإنهم سوف يستسلمون لذلك . وهذا بشكل خاص هو موقف لامارتين الذي ، وقد عاد مؤخراً من رحلة الى الشرق ، يتخذ مظهر الخبير العليم بهذه المسائل ويكرس لها مداخلاته الأولي في مجلس النواب .

ولامارتين على وعي تام بخطر الحروب الأوروبية من أجل اقتسام الإمبراطورية العثمانية . وهو يدعو الى وفاق أوروبي في إطار العمل التمديني : إذ يجب عقد مؤتمر أوروبي يفرض حماية الغرب العامة والجماعية على الشرق ؛ وسوف يُعهد لكل دولة أوروبية بجزء من أجزاء الإمبراطورية العثمانية و«على هذه الأسس الأولية ، أيها السادة ، سوف يتأسس هذا النظام الواسع للسيطرة السلمية والذي سوف يعيد إسكان ، وسوف يمدن جزءاً من الأرض ويصهر أوروبا وآسيا ، بمساعدة الزمن ، في لحمة مشتركة توحد بين الأجناس والديانات والعادات والصناعات والاقتصادات» (٤٥) . والحال أن ما يسميه لامارتين بـ «التحالف الحضاري المقدس» لن يتحقق إلاّ بعد الحرب العالمية الأولي تحت شكل نظام الانتدابات الذي فرضته عصبة الأمم . أمّا الآن ، فإن المسألة هي معرفة ما إذا كان بالإمكان الاضطلاع بمهمة تحقيق التجانس بين صفوف السكان السوريين .

إبراهيم باشا وسوريا

من الواضح أن هذا هو معني العمل الإداري الذي يضطلع به إبراهيم باشا . وإذ كان يتمتع بقوات عسكرية ملحوظة قياساً الى إجمالي سكان المنطقة ، فإنه يخلق إدارة جديدة تتمحور حول دمشق . ويجري تقسيم المنطقة الى مديريات وفقاً للنظام المصري . ويتم تعيين سوريين في مناصب حساسة . ويتسنى لعدد من المسيحيين لعب دورٍ مهم ، خاصة في إدارة الشئون المالية .

ويجري نزع سلاح سكان المدن . ويفقد الأعيان التقليديون سلطتهم لحساب موظفي الدولة . ويتم إنشاء مجالس تمثيلية يدخل في عضويتها المسيحيون واليهود . أما العلماء فسوف يقتصر نشاطهم القضائي على مسائل الأحوال الشخصية (القانون المدني) ، بينما سوف تكون القضايا الجنائية من اختصاص الموظفين . ويجري فرض التجنيد . ويهيمن القانون والنظام . ويجري قمع البدو بنشاط كما يجري بشكل عام قمع كل أشكال قطع الطرق . ويتم تشجيع فلاحة الأراضي المهجورة . كما يجري تجريب زراعة محاصيل جديدة . ويتم بذل جهد نشيط من أجل حث البدو على الاستقرار وترك حياة الترحل .

إلاّ أنه يجري فرض الضريبة الشخصية أو الفرده . والحال أن المسلمين يعتبرونها مهينة فهم يرون أن ضريبة الرأس هي علامة الخضوع المفروض على غير المسلمين . ثم إن الإدارة الجديدة هي إدارة أكثر حزماً وفعالية بكثير من الإدارة السابقة . ويتزايد السخط مع السماح بتواجد قنصليات أوروبية في المدن التي لم تعرفها حتى ذلك الحين . وفي بيروت وفي المواقع القديمة ، يبدو القناصل معادين بشكل خاص للعمل الذي يجري الاضطلاع به ويكثرون من الحمايات القنصلية ، التي يساء تبريرها باسم الامتيازات . فهم لا يمكنهم قبول تهديد المزايا المكتسبة التي كان قد تم كسبها خلال الفترة السابقة . ويحصل غيرُ المسلمين على حرية حقيقية في ممارسة شعائر أديانهم مع إمكانية إنشاء أماكن عبادة متي رأوا ذلك مناسباً . ويجري إلغاء الضرائب المفروضة على حجاج وكنائس وأديرة الأراضي المقدسة (فلسطين) . أما التجنيد الذي أصبح إلزامياً للمسلمين فهو عديم الشعبية بشكل خاص . ويقود التحالف مع الأمير بشير الى استخدام وحدات مسيحية في العمليات ضد تمردات السنة في نابلس وضد العلويين والدروز (خاصة في حوران) الذين يرفضون نظام الدولة القوية والمركزية الجديد .

ويتفاقم التناحر الجديد بين الدروز والموارنة . لكن الموارنة أنفسهم يستاءون من ضياع حريتهم من جراء تبعية الأمير المتزايدة تجاه السلطات المصرية ومن جراء نزع سلاح جزء كبير من سكان الجبل . ويتولي قنصل فرنسا في بيروت الدفاع عنهم ويشكو من استبداد إبراهيم الذي يحصل ، من ناحيته ، على الثناء والمديح من جانب قنصل فرنسا في القاهرة . والحال أن

الحماية التقليدية التي تقدمها فرنسا للموارنة إنما تبدأ في أن تصبح متناقضة مع سياسة المصريين التمدينية ، التي تشجعها فرنسا مع ذلك . ومن المفارقات أن بناء دولة حديثة قائمة على المساواة بين الأفراد إنما يؤدي الى سخط الجميع . فضياع الامتيازات التقليدية والاستقلاليات التي كان قد تم كسبها بفضل التاريخ وبفضل الجغرافيا إنما يجري الاستياء منه بوصفه عدواناً لا يمكن اغتفاره .

وتسوية عام ١٨٣٣ التي يواصل محمد علي بموجبها إدارة هذه المناطق لم تسو شيئاً . ويواصل إبراهيم الدفاع عند أبيه عن ضرورة إعلان استقلال مصر . وهو يؤكد أنه بما أنهما قد أصبحا سادة للمدن المقدسة ، فإنه لم يعد هناك ما يدعوهما الى الخوف من عدم صدور اعتراف خليفي من جانب سلطان القسطنطينية (٤٦) . ويتردد محمد علي ويكتفي بمحاولات كسب ود الدول التي تبدو معادية لهذا المشروع . وهو يبين لفرنسا ضرورة تقديم دعم نشيط لسياسته : فما دامت القسطنطينية قد أصبحت تقريباً في قبضة الروس وما دامت انجلترا تسعى الى الاستيلاء على مصر ، فإن الجزائر سوف تكون عرضة للخطر . . . (٤٧) لكن فرنسا تفضل الإبقاء على **الوضع القائم** مع تأكيد للقوة المصرية . وخلال فترة السلام المسلح هذه ، يواصل السلطان محمود الثاني تعزيز مؤسساته العسكرية بالاعتماد على الفنيين الروس والإنجليز والپروسيين (ومن بينهم مولتكه الشهير) والعمل على دفع الإصلاحات الى الأمام : إذ تجري إعادة تنظيم الإدارة عن طريق إنشاء وزارات حقيقية وفق النموذج الأوروبي . ويجري تعديل النظام الأساسي للوظيفة العمومية تعديلاً عميقاً . ومما له دلالته أنه يجري إلغاء لقب **القول** لحساب لقب **المأمور** ، الموظف (٤٨) . ويجري تشجيع الترجمات عن اللغات الأوروبية وبوجه خاص يتم اختيار المترجمين الجدد من بين المسلمين وليس بعدُ من بين المسيحيين العثمانيين . ويتم إنشاء مدارس ثانوية وعليا لتخريج الكوادر الجديدة اللازمة لإنشاء دولة حديثة . وتجدد جماعة المصلحين صفوفها مع ظهور رجال أكثر شباباً لهم خبرة مباشرة بالشئون الأوروبية يعد الرجل الأكثر تمثيلاً لهم هو مصطفي رشيد باشا ، وزير الشئون الخارجية بعد أن كان سفيراً في باريس وفي لندن .

وبما أن تدخل الدول الأوروبية يصبح واحداً من المعطيات الدائمة في الحياة السياسية العثمانية ، فإن هؤلاء المصلحين يجري تصنيفهم الى هذا الحد أو ذاك كحزب «إنجليزي» ، لأن دعم فرنسا لمحمد علي وسياستها في الشمال الأفريقي تولدان انعداماً ملائماً للثقة . ويري رشيد باشا أن هذه التسمية السياسية صحيحة تماماً بحيث أنه يوقع ، في عام ١٨٣٨ ، مع بريطانيا العظمي ، معاهدة تجارية تحظر احتكارات الدولة والجمارك الداخلية في الاقتصاد العثماني . وهدف هذه المعاهدة هو في آن واحد إثبات القبول الصادق لمبادىء الليبرالية

الاقتصادية من جانب العثمانيين وأن تكون (هذه المعاهدة) أداة حرب ضد عزيز مصر الذي شيد دعائم قوته في مصر على احتكارات الإنتاج والتسويق .

وإذ يطمئن العثمانيون الى حسن نوايا بريطانيا العظمي ، فإنهم يستأنفون الأعمال الحربية ضد محمد على في إبريل ١٨٣٩ .

انهيار إمبراطورية محمد على

مرة أخري ، تثبت القوات المصرية تفوقها إذ تلحق بالعثمانيين هزيمة قاسية في نزيب في ٢٤ يونيو ١٨٣٩ . ومرة أخري ، يتكشف الانقسام السياسي للنخبة الإمبراطورية مع فرار الأسطول العثماني الذي ينتقل تحت قيادة كبار ضباطه الى صف محمد على ، ولكن مرة أخري ، يؤدي الخطر الملموس في حدوث تدخل من جانب الدول الى إرغام إبراهيم باشا على عدم المجازفة باختراق الأناضول . والحال أن الباب العالي الذي أصبح حراً في حركته مع موت محمود الثاني في ٣٠ يونيو ١٨٣٨ وحلول سلطان شاب عديم الخبرة محله ، هو عبد المجيد ، إنما يختار ، إدراكاً منه لانحدار موقفه ، ألاّ يتفاوض مع التابع المتمرد وأن يضع نفسه تحت حماية الدول الأوروبية .

واعتباراً من ٢٥ يوليو ١٨٣٩ ، يصبح تدويل الأزمة الشرقية تاماً من جديد لأن الدول الأوروبية الخمس ، فرنسا وإنجلترا وپروسيا والنمسا وروسيا ، تفرض تحكيمها بوصفه الوسيلة الوحيدة لتسوية الوضع .

وسرعان ما تجد فرنسا نفسها معزولة . فهي الوحيدة التي تريد إبقاءً جزئياً على الإمبراطورية المصرية في حين أن الدول الأخري تفكر بسرور في تفكيكها في مقابل مجرد ترك حكم مصر وراثياً لمحمد على وأسرته . ويقدم محمد على تنازلات مهمة ويتعهد بالجلاء عن شبه الجزيرة العربية وهو موقف من شأنه ، في نظره ، أن يخفف الانزعاجات البريطانية على طريق الهند وأن يسكّنَ المخاوف العثمانية من احتمال إعلان خلافة عربية (٤٩) .

والحال أن تيير ، رئيس المجلس اعتباراً من أول مارس ١٨٤٠ ، يري أن بالإمكان الرجوع الى اتفاق مباشر بين عزيز مصر والباب العالي دون الرجوع في ذلك الى دولة أخري . وهو يؤمن مخلصاً برسوخ عمل عزيز مصر . ويستخلص استنتاجاً منطقياً من مجمل مسيرة السياسة الفرنسية منذ عام ١٨١٥ : إن فرنسا تتمتع بنفوذ قوي على الحكومة المصرية في حين أن السلطان ، في القسطنطينية ، يعتمد على الروس والإنجليز (٥٠) . ومع رفضه من الناحية الرسمية لتقسيم الإمبراطورية العثمانية ، والذي من شأن إنشاء دولة عربية أن يكون إشارة البدء فيه ، فإنه يري أنه يجب على فرنسا تعزيز وضعها المحلي تحسباً لمثل هذا الاحتمال (٥١) .

ويؤدي الخيار المصري الى العزلة الديبلوماسية لفرنسا . والحال أن بالمرستون ، الذي يقود السياسة الخارجية البريطانية ، إنما يستفيد من ذلك لكي يعقد في ١٥ يوليو ١٨٤٠ معاهدة مع الدول الأوروبية الأربع الأخري تقترح على محمد على حكم مصر وراثياً وحكم باشاليك عكا مدي حياته . وهذه الولاية مخلوق جديد لأنها لا تتطابق مع أي تحديد تقليدي للدوائر السياسية العثمانية : فللمرة الأولي يجري تحديد حدود ما سوف يصبح في القرن العشرين فلسطين الخاضعة للانتداب (٥٢) . وهذا اعتراف بعمل سادة عكا بعد موتهم في اللحظة التي سوف ينتقل فيها المركز الحيوي للمنطقة من الساحل الى القدس . وإذا لم يقبل عزيز مصر هذه المقترحات ، فلن يُترك له سوي مصر ، وبعد مهلة جديدة ، سوف يخسر كل شيء .

ويثير إعلان المعاهدة في فرنسا انفجاراً للمشاعر الوطنية . فالرأي العام لا يقبل هذا الإئتلاف الجديد الذي يعيد فرنسا الى وضع عام ١٨١٥ وتعاود الظهور المطالب القديمة في الضفة اليسري لنهر الراين ، الأمر الذي يثير عاصفة قومية في ألمانيا . وبما أن تيير ينخرط في سياسة إعادة تسلح كوسيلة للضغط الديبلوماسي ، بما يعد سياسة حافة هاوية حقيقية (٥٣) ، فإن خطر الحرب يعد خطراً واقعياً ، في لحظة تبلغ فيها الذكري النابوليونية قمتها مع عودة الرفات (رفات نابوليون من سانت هيلين الى فرنسا . - المترجم) . لكن تيير لا يفكر في التدخل عسكرياً في الشرق ويركز جهوده في أوروبا . وهو يترك المجال مفتوحاً أمام السياسة البريطانية في سوريا .

ومن الواضح تماماً أن محمد على يرفض شروط الدول ويعلن السلطانُ خلعه . لكن التحرك الرئيسي يتم في سوريا : فمنذ ما قبل ١٥ أغسطس ، شجع الإنجليز انتفاضة واسعة ضد سلطة إبراهيم باشا . وقد بدأت التحركات الأولي نحو مايو - يونيو ١٨٤٠ وشملت المسلمين كما شملت المسيحيين : وكان بطريرك الروم الكاثوليك المقيم في دمشق أحد ملهميها (٥٤) . أما حوران الدرزية فهي إحدي بؤر التمرد ، لكن العنصر الأساسي يجيء من الجبل .

وفي الجبل اللبناني ، كان سبب التمرد هو رغبة الأمير بشير في فرض نزع جديد للسلاح . فالجبليون يرفضون هذه المهانة الجديدة ويخشون من الإنجرار الى الحرب بين السلطان ومحمد على . وهم يتمردون طارحين كشكايات الخسائر البشرية المترتبة على الحملات ضد الدروز والعلويين وسكان نابلس ، وفرض ضريبّة الرأس والسخرة والتجنيد . وهم يطالبون بالعودة الى النظام القديم مع ضمان من جانب القناصل الأوروبيين لصدق تعهدات الأمير وإبراهيم(٥٥) . ويضاف الى شكايات عموم السكان هذه ، إنزعاج الموارنة من اتساع الهوة بينهم وبين الدروز(٥٦) . وخلال تلك الفترة ، يدرس المسئولون العثمانيون في عاصمة

الإمبراطورية إنشاء ولاية مسيحية تُعهد إدارتها الى أحد أفراد عائلة محمد على (٥٧) . والحال أن بورييه ، القنصل الفرنسي في بيروت ، يؤيد المتمردين ، الأمر الذي يؤدي الى إثارة سخط تيير الذي يسحب القنصل .

ولدعم الانتفاضة ، يقرر الإنجليز التدخل عن طريق مساندة بحرية . وتوزع السفن الإنجليزية أسلحة على المتمردين وتنزلُ قوةَ حملة تركية وتقصفُ بيروت في ١١ سبتمبر ١٨٤٠ . وينتقل الأمير بشير الى الصف العثمانيّ ، لكنّ ذلك يجيء بعد فوات الأوان ولذا فإنه يضطر الى الرحيل الى المنفي . ويضطر إبراهيم الى الانسحاب الى داخل سوريا في أواخر أكتوبر ١٨٤٠ . وبما أن مصر مهددة بإنزال إنجليزي - عثماني ، فإنه يجري استدعاء الجيش المصري الموجود في سوريا . لكن محمد على كان قد عقد بالفعل في ٢٧ سبتمبر اتفاقاً مع العميد البحري الإنجليزي ناپييه يعترف له بحكم مصر وراثياً في مقابل الجلاء عن سوريا ورد الأسطول العثماني .

وفي فرنسا ، تدفع سياسة تيير المغامرة ملك الفرنسيين الى اقالة وزارته وتعيين وزارة أخري برئاسة جيزو . ومع ابتعاد خطر الحرب وبما أن الدول تحصل على الجانب الأساسي مما أرادته ، فإن وزير الخارجية الفرنسية الجديد ينجح في الاندراج من جديد في الدبلوماسية الأوروبية ويكفل استقرار الوضع النهائي لعزيز مصر بالرغم من سوء نية الإنجليز والعثمانيين . ويعيد اتفاق حول المضائق جري توقيعه في لندن في ١٣ يوليو ١٨٤١ حظر اجتياز السفن الحربية لمختلف الأمم هذا الطريق البحري الاستراتيجي ، الأمر الذي يحرر الإمبراطورية العثمانية من أية وصاية روسية . وقد نجح بالمرستون في القضاء على الخطر الروسي والفرنسي - المصري المزدوج الذي يتهدد طريق الهند لكن هذه السياسة تفترض ، في مرحلة تالية ، إعادة فرض سلطة عثمانية قوية على سوريا . وبالرغم من أن الانتفاضة السورية قد جرت أساساً باسم العودة الى نمط الحياة التقليدي ، فإن التحولات التي أحدثتها الإصلاحات المصرية والعثمانية إنما تحول دون إعادة خلق النظام التقليدي . ويجب الآن على المجتمع السوري أن يواجه الحداثة التي فرضتها أوروبا في سياق أصبح فيه تدخل الدول من حين لآخر واقعاً دائماً بالنسبة لجميع القوي السياسية المحلية . والحال أن سوريا ، بعيداً عن أن تعرف تاريخاً هادئاً نسبياً كمصر بعد عام ١٨٤٠ ، فإنها سوف تواجه سلسلة كاملة من الأزمات المرتبطة بالإعادة الحتمية لهيكلة مجتمعها ، وسوف تحدد عبر هذا الطريق نفسه رؤي جديدة للعالم ، ومشاعر هوية جديدةً .

جيزو وتوكفيل ولامارتين والشرق

في المناقشة البرلمانية الكبري حول الشرق والتي جرت في ٢ يوليو ١٨٣٩ ، اعترف جيزو بوجود انحطاط للإمبراطورية العثمانية . لكنه يستشهد بمثال الإمبراطورية البيزنطية لكي يعيد الى الأذهان أن «الإمبراطوريات التي عمرت طويلاً إنما تستغرق زمناً طويلاً في انحدارها ويجري التنبؤ بسقوطها وترقبه ربما قبل قرون من حدوثه» . والخسائر العثمانية لا ترجع الى فتوحات أوروبية إلاَّ فيما يتعلق بالقرم في القرن الثامن عشر ، بل الى تمزقات عفوية ناجمة عن انتفاضات داخلية أدت الى إنشاء دول جديدة وأمم جديدة . وتلك هي حالة اليونان سابقاً وحالة مصر الآن . ولابد لفرنسا من أن تسهم في هذا التطور ، ولكن في إطار سياسة تعاون مع الدول الأوروبية الأخري (٥٨) . ويجيء الخطر الأكبر من نشوب حرب عامة منبثقة عن التهاب المشاعر القومية . ويخشي جيزو من أن تنبثق من أزمة الشرق هذه الحرب التي تهدد بأن تجر الى دمار الحضارة الأوروبية . وهذا هو سبب سياسته التصالحية بعد سقوط تيير . والحال أن مخاوف جيزو ليست عديمة الأساس . وعلاوة على عمل تيير المربك الى حد ما ، يعد موقف توكفيل مزعجاً بالفعل في هذا الموضوع .

فشأنه في ذلك شأن غالبية معاصريه ، يري الفيلسوف والسياسي الليبرالي أن هذه المسألة هي «أعظم مسألة في هذا القرن» (٥٩) . ومن جهة أخري ، فإنه يدلي عن طريق خطاب حول هذا الموضوع على وجه التحديد بمداخلته البرلمانية الأولي ، في ٣ يوليو ١٨٣٩ ، في المناقشة حول الشرق . وهو يدعو الى ترك حسم النزاع بين الطرفين المتنافسين على السيطرة على الإمبراطورية العثمانية لحكم السلاح في ساحة القتال . وهو يعترف بأنه لا يؤمن بـ «القومية العربية المزعومة» (٦٠) . إلاَّ أنه إذا ما تدخلت دولة أوروبية – روسيا آنئذ – ، فإن على فرنسا خوض الحرب وحدها أو بالاشتراك مع حلفاء .

وليس توكفيل بعيداً جداً عن لامارتين الذي يطالب ، في المناقشة نفسها ، بعمل نشيط يسمح أخيراً بتحويل أنظار القوي المتنازعة في المجتمع الفرنسي (٦١) . ففرنسا ، التي خنقها مؤتمر ڤيينا ، بحاجة الى محول أنظار يتمثل في تدخل أوسع وذي طابع اجتماعي أكبر في الشرق : فهناك سوف يجد جيشها وبحريتها وإدارتها وقواها المنتجة والصناعية المنافذ التي لا وجود لها في أوروبا (٦٢) .

ونزعة توكفيل الحربية تعاود الظهور في خطابه الثاني حول المسألة الشرقية في ٣٠ نوڤمبر ١٨٤٠ . فالنائب الشاب يجري مقابلة بين العاطفة القومية والعاطفة الثورية اللتين تمثلان التيارين الرئيسيين في المجتمع الفرنسي في زمنه . فإذا لم يجر إشباع العاطفة القومية ، فإن العاطفة الثورية تنذر بالانتصار وبتدمير الحضارة(٦٣) . والعاطفة القومية وحدها هي دعامة

النظام . وإذا كانت فرنسا تريد أن تظل قوة عظمي بالرغم من اختزال قواتها بعد عام ١٨١٥ ، فإنها يجب أن تكون مستعدة للمشاركة في السيطرة الأوروبية على الشرق والتي تمثل كبري حركات القرن : «لقد قيلت أشياء عظيمة حول المسألة المستعرة الآن على ضفاف البسفور ، إلاّ أنه لم يجر قول كل شيء ؛ فما يجري في مصر وفي سوريا ليس غير جانب من جوانب لوحة كبري ، ليس غير افتتاحية مشهد عظيم .

«هل تعرفون ما الذي يجري في الشرق ؟ إن عالماً بأكمله هو ما يتحول . ومن ضفاف نهر الإندوس الى ضفاف البحر الأسود ، في هذا الفضاء الشاسع ، تهتز كل المجتمعات ويتراخي جبروت جميع الأديان ، وتتلاشي جميع القوميات ، وتنطفيء جميع الأنوار ، ويختفي العالم الآسيوي القديم ؛ وفي مكانه يرتفع تدريجياً العالم الأوروبي . إن أوروبا أيامنا لا تتصدي لآسيا عن طريق مجرد ركن ، مثلما فعلت أوروبا في زمن الحروب الصليبية : إنها تهاجمها من الشمال ومن الجنوب ، ومن الشرق ومن الغرب ، ومن جميع الجهات ؛ إنها تخترقها وتطوقها وتقهرها .

«فهل تظنون أن أمة تريد أن تظل أمة عظمي يمكنها أن تشهد مثل هذا المشهد دون أن تشارك فيه ؟ هل تظنون أن علينا أن ندع شعبين من شعوب أوروبا يستوليان دون رادع على هذه التركة المهولة ؟ إنني أقول لبلادي ، بقوة وبإيمان ، أن الأولي من مكابدة ذلك هو خوض الحرب (أحسنت !)» (٦٤) . وهكذا يرسم توكفيل ما سوف يصبح سياسة فرنسا في سوريا . لكن المسألة هي مسألة ما إذا كان الشرق سوف يختفي أم سوف يجدد نفسه وهو يجتاز التحول .

حواشي الفصل الرابع

١ - بالنسبة للقرن الثامن عشر، انظر هنري لورنس H. Laurens, *L'Expédition d'Égypte*, pp. 132 - 135 (انظر ترجمتنا العربية: **الحملة الفرنسية في مصر، بونابرت والإسلام**، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٥، ص ص ٢٣٣ - ٢٣٦ - المترجم) وبالنسبة للقرن التاسع عشر، انظر روبير مانتران Robert Mantran, "Les débuts de la question d'Orient", in Robert Mantran éditeur, *Histoire de l'empire ottoman*, Paris, 1989 , pp. 420 - 458 (انظر ترجمتنا العربية: **تاريخ الدولة العثمانية**، دار الفكر، القاهرة، ١٩٩٣، الجزء ٢، ص ٥ - ٦٢ - المترجم).

٢ - Traduction de M. Sabry, *L'émpire égyptien sous Mohammed Ali et la question d'Orient*, Paris, 1930, p. 155, fac - similé du texte original dans Asad H. Rustum, *The Royal Archives of Egypt and the Origins of the Egyptian Expedition to Syria 1831 - 1841*, Beyrouth, 1936

٣ - انظر، هنري لورنس H. Laurens, *L'éxpédition d'Égypte*, pp. 57 - 60 et pp. 182 - 185 (انظر ترجمتنا العربية: **الحملة الفرنسية في مصر، بونابرت والإسلام**، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٩٢ - ٩٥ وص ص ٣٣٦ - ٣٤٠ - المترجم).

٤ - Dominique Chevallier, *La Société du mont Liban à l'époque de la révolution industrielle en Europe*, Paris, 1971, p. 48

٥ - Alexander Schölch, "The Demographic Development of Palestien 1850 - 1882", *International Journal of Middle East Studies*, 17, 1985, pp. 485 - 505

٦ - Antoine Abdel Nour, *Introduction à l'histoire urbaine de la Syrie ottomane*, Beyrouth, 1982

٧ - Chevallier, *op. cit.*, pp. 90 - 103

٨ - *Ibid.*, pp. 182 - 199

٩ - سيكون ذلك أيضاً أحد أسباب السياسة البريطانية تجاه فلسطين من بداية القرن العشرين الى عام ١٩٢٠.

١٠ - هذا هو ما فعله أمام المبعوث الفرنسي لا نجدورف، في ١٩ أبريل ١٨٣٠، انظر Georges Douin, *Correspondance des consuls de France en Égypte, Mohamed Aly et l'expédition d'Alger*, Le Caire, 1930, pp. 258 - 259

١١ – هذا هو ما قاله للقنصل الإنجليزي باركر ، في مارس ١٨٣٠ : Ibid., pp. XC - XXCI

١٢ – H. Laurens, *L'Expédition d'Égypte*, pp. 61 - 62 (انظر ترجمتنا العربية : **الحملة الفرنسية في مصر ، بونابرت والإسلام** ، سينا للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٥ ، ص ص ٩٦ – ٩٨ – المترجم) .

١٣ – النص العربي في كتاب أسد رستم : **بشير بين السلطان والعزيز** ، الطبعة الثانية ، جونيه ، ١٩٨٥ ، ص ص ٦١ – ٦٢ (انظر أيضاً : الجمعية المصرية للدراسات التاريخية : **ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا** ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ١٠٧ – المترجم) .

١٤ – حول جميع هذه المسائل ، انظر François Charles - Roux, *France et Chrétiens d'Orient*, Pris, 1939

١٥ – Nasser Gemayel "Les Maronites et la Révolution française", in *La Révolution française et l'Orient*, Mouvement culturel Antelias, Paris, Cariscript, 1989, pp. 251 - 272

١٦ – H. Laurens, *L'Expédition d'Égypte*, Joseph Mouawad, "Bonaparte et les communaités libanaises", *Cahiers de l'Orient*, n° 14, pp. 225 - 241

١٧ – Chevallier,*op. cit.*, pp. 267 - 268

١٨ – انظر المناقشة في مجلس الأنداد بين جيمينو وسيباستياني ، وزير الشئون الخارجية ، بتاريخ ٢ نوفمبر ١٨٣١ ، *Archives parlementaires*, LXXI, pp. 242 - 248

١٩ – Adel Ismaïl, *Documents diplomatiques et consulaires relatifs à l'histoire du Liban et des pays du Proche - Orient du XVII e siècle à nos jours*, Beyrouth, 1980, t. XXII, pp. 85 - 86

٢٠ – Rustum, *The Royal Archives...*, pp. 33 - 34

٢١ – من ميمو الى سيباستياني ، الاسكندرية ، ٢٤ فبراير ١٨٣٢ ؛ Georges Douin, *Correspondance des consuls de France en Égypte, : La Première Guerre de Syrie*, Le Caire, 1931, pp. 128 - 129 . وفي اسطنبول ، يؤخذ التهديد مأخذ الجد كما تدل على ذلك رسالة القائم بأعمال فرنسا في القسطنطينية الى سيباستياني ، بتاريخ ٢٧ ديسمبر ١٨٣١ : «يدور الحديث عن بيان من شريف مكة يعلن للمسلمين أن السلطان محمود قد أصبح كافراً وأن عليهم اعتبار محمد على خليفة للنبي . والى هذ التكفير يجري إرجاع التغير الذي يسهل رصده في أسلوب تعامل السلطان مع **العلماء** ؛ فهو يمنحهم معاشات وامتيازات ويبدو أكثر انضباطاً في ممارساته العلنية للدين .» (Adel Ismail, *Documents diplomatiques*, XXII, p. 25)

٢٢ – من محمد على الى إبراهيم ، ٩ رجب ١٢٤٨ (٢ ديسمبر ١٨٣٢) ؛ أسد رستم ، Asad Rustum, *A Calendar of States Papers from the Royal Archives of Egypte relating to the Affairs of*

Syria (en arabe), Beyrouth, 1941, t. II, p. 185 . يورد صبري تاريخاً آخر لهذا النص هو ٨ رجب (p. 210) .

٢٣ - Sabri, pp. 216 - 217 . Rustum, *A Calendar...*, pp. 208 - 209

٢٤ - من ميمو الى الدوق دو بروجلي ، Douin *La Première Guerre de Syrie..*, p. 441 ، الاسكندرية ، ١٠ ديسمبر ١٨٣٢ ، استشهادات من أقوال محمد علي : «إن محمد علي سيكون دائماً هو هو . وهو لن يطلب أكثر مما يطلبه اليوم : العفو عنه والصلح .

«إنه لا يريد ثورة ، الشيء الذي تخشاه الدول الأوروبية دون مبرر واقعي . ففي أوروبا تسود أفكار زائفة عن محمد علي ، وهو ما يزال غير معروف هناك .

«إن ما يريده ، يشاركه في ذلك كل عظماء الإمبراطورية وكل الأمة ، هو الاضطلاع باصلاح في إدارة وشئون الإمبراطورية ، هو العمل على إحيائها ، حتى تكون في حالة تمكنها من الصمود في وجه أعدائها الطبيعيين . ولسنا نحن ، بل هم الذين يريدون تمزيقها .

«وهناك وسيلة واحدة لتزويد الإمبراطورية من جديد بالقوة التي فقدتها ، بقوة أقوى مما توافر لها في أي وقت من الأوقات من قبل ، وهذه الوسيلة هي التصالح مع محمد علي .»

٢٥ - من إبراهيم باشا الى محمد علي ، ١٣ رمضان ١٢٤٨ : Sabry, pp. 227 - 228; Rustum, *A Calendar...*, II, p. 245

٢٦ - من الدوق دو بروجلي الى ميمو ، ٢٢ يناير ١٨٣٣ ، Douin, *La Première Guerre de Syrie*, II, p. 34 : «من جهتنا ، فإننا نتمنى من صميم فؤادنا أن يتوقف طموحه ضمن حدود محددة ، ولن نتردد ، وأنا أكرر ذلك ، في المساعدة ، عبر تدابير فعالة ، على كل ما من شأنه صون الدولة العثمانية . وأنا لا أشك في أن هذا هو أيضاً رأي وزارتي لندن وفيينا ، ويجب إقناع محمد علي تماماً بأنه ، بدلاً من مكابدة تدخل من جانب الروس الذين سوف يدفعون جيشهم الى قلب آسيا الصغرى وأساطيلهم الى أسفل أسوار السراي ، فإن الدول الأخرى لن تتردد في توحيد جهودها لاحتوائهم ولإرغامه على إجراء مفاوضات مع الباب العالي . ويجب على محمد علي ، مسترشداً بمصالحه الحقيقية ، أن يسارع من ثم الى إنهاء حرب ستكون مواصلتها من جانبه من الآن فصاعداً عديمة المبرر وسوف تجره لا محالة الى التورط في تعقيدات خطيرة . وما دام سيداً لسوريا ، فليكتف بتملكها مثلما يملك مصر وكريت وليكف عن التطلع ، وراء الحدود الطبيعية لتلك الولاية ، الى توسيع للأراضي لن يسفر إلاّ عن الإساءة الى موقفه بجعله أكثر عرضة للخطر . (. . .) وهو من رجاحة العقل بحيث يصعب عليه ألاّ يدرك أن من الأكرم له تماماً أن يتفاوض على نحو مباشر وبنفسه مع الباب العالي ، بدلاً من أن يسمح بتدخل دولة أجنبية» .

٢٧ - من ميمو الى البارون روسّان ، الاسكندرية ، ٥ مارس ١٨٣٣ ، Douin, *La Première Guerre de Syrie*, II, p. 125 : «إنه يذكر إن هدفه الوحيد قد تمثل دائماً في إعادة بناء وتدعيم الإمبراطورية ، وفي أن يكفل لها ، عبر توسيع الأرض ، إمكانات ونفوذ القوة المصرية ، وهي قوة مساعدة تدعو الى

الإعجاب ؛ وإن الهدف من هذا النهج هو القضاء على روح الغزو لدي روسيا ودعم حمية الأمة الإسلامية برمتها ، والتي تدعوه الى انقاذ الحكم والبلاد من العبودية الشائنة التي يفرضها عليها أعداؤها الطبيعيون .

«ذلك هو الرد الذي قدمه على الطلب الذي تكرر توجيهه اليه بأن يحدد ما يقصده بكلمة «الأمة» .

٢٨ – عثر صبري على هذه المذكرة المنسوبة الى بوركش أوستن في الأرشيفات الإنجليزية . كما أنه يتأكد من صحة نسبها اليه من خلال الرسالة التي بعث بها هذا الدبلوماسي الى حكومته في ١٦ يونيو ١٨٣٨ :

«إنني لا أود أن أتذرع بالرأي العام الذي يري أن تكوين إمبراطورية عربية هو ترتيب وشيك وحتمي ؛ وبالرغم من كل ما قد يكون عليه هذا الحجاج من غرابة ، فإنه يفترض دائماً وجود دوافع عديدة تجيز مثل هذا الحكم على الأمور . على أنني أري الى جانب ثراء إمكانات عقل الوالي (محمد على) ، الطَمُوحَ جد المعروف والمستتار دائماً لدي وريث قوته الذي ، بحكم تربيته وفق مباديء أيامنا ، قد تحرر من مباديء الدين . وأري الى جانب عجز إمكانات الباب العالي وتدهور اعتباره المتواصل جيشاً عربياً جيد التدريب ومنتعشاً بالنصر ، وأسطولاً قوياً ، وموارد كافية للوصول بهذا وبذاك الى ثلاثة أضعاف ما هو عليه ، وإدارة تفلت بالكامل تقريباً بالفعل من أيدي الأتراك ، والإيقاظ الذي حدث للروح القومية للعرب ، وميلاً معلناً من جانب أوروبيين عديدين الى جانب حكومة محمد على ، وأخيراً الاحترام المتنامي والضخم الذي يتمتع به هذا الأخير في طول وعرض البلاد التي يتكلم أهلها العربية .

«وأري أخيراً ، حشداً من الأشخاص حوله وحول ابنه لا يدعون إلاّ الى الاستقلال والى تكوين إمبراطورية . وأري عملاء يدفعونه الى تصور ، إن لم يكن حماية من جانب دولة ، فعلى الأقل انشقاقاً في أوروبا» (pp. 269 - 273) .

٢٩ – Douin, *La Première Guerre*, II, pp. 137 - 138 بالنسبة لأفكار فولني تجاه الحملة الفرنسية على مصر وخاصة نهضة مجد العرب وإنشاء مستعمرة فرنسية – عربية ، انظر ، هنري لورنس H. Laurens, *L'Expédition d'Égypte*, p. 185 (أنظر ترجمتنا العربية : **الحملة الفرنسية في مصر ، بونابرت والإسلام** ، سينا للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٥ ، ص ٣٤٠ – ٣٤١ المترجم) .

٣٠ – Douin, *La Première Guerre*, II. p. 135 ؛ من ميمو الى البارون روسّان ، ٨ مارس ١٨٣٣ :

«استشهد محمد على لي في اليوم نفسه باستشهاد آخر لا أولي له أهمية كبيرة كتلك التي يوليها هو له ، إذ يبدو أنه يعول عليه كثيراً .

«وهذا الاستشهاد هو استشهاد بتصريحات منسوبة الى صاحب الجلالة في تقرير عن لقاء أتاحة للدكتور كلوت بك عن موضوع مصر . ويبدو لي أنه لا يمكن استخلاص أية نتيجة من محادثة من هذا النوع .»

٣١ – Douin, "La mission de Boislecomte",*L'Égypte et la Syrie en 1833*, Le Caire, 1927, p. 9 من بوالكونت الى الدوق دو بروجلي ، ١٥ مايو ١٨٣٣ : «يرد محمد على بأننا متفقون حول الهدف ، لكنني إنما أريد أضنه لإضفاء طابع مستقر ونهائي على قوتي . وسوريا عرضة للهجوم من تلك الجهة

ويجب أن يصبح كل تفكير في العدوان مستحيلاً بيننا . ومن جهة أخرى فإن السكان العرب مهيمنون أيضاً في تلك الناحية ، وهم يمتدون حتى جبل طوروس وسوف يطلبون دائماً عوني وينشدون دائماً تلبية ندائي . وأخيراً فإننا نحتاج من أجل أسطولي الى أخشاب بناء وما عاد يجب لذلك أن يتوقف على ميل أحد الباشاوات الى تكرار كل المضايقات التي عانيت منها بالفعل عندما حاولت الحصول عليها من تلك الولايات نفسها» .

٣٢ - من بوالكونت الى الوزير ، ١٢ مايو ١٨٣٣ ، Douin, p. 40 .

٣٣ - من بوالكونت الى الوزير ، ١ يوليو ١٨٣٣ ، Douin, p. 104 : «يكمن أحد الأسباب الرئيسية لدونية الجنس العربي في التحاسدات التي يشعر بها أفراده أحدهم تجاه الآخر . والخوف هو مبدأ كل طاعة بالنسبة لهم بشكل جد واقعي بحيث إنهم يطيعون الأتراك طاعة أحسن وأكثر تلقائية من طاعتهم لعرب آخرين . وفي بعض الجهات ، جرت محاولات لإحلال رؤساء عرب محل رؤساء أتراك ؛ وسرعان ما أعقب هذا التجديد الانتفاضاتُ .» .

٣٤ - *Ibid.*, p. 104

٣٥ - من بوالكونت الى الوزير ، ١٠ أغسطس ١٨٣٣ ، *Ibid.*, p. 199 .

٣٦ - من بوالكونت الى الوزير ، ٣٠ أغسطس ١٨٣٣ ، *Ibid.*, p. 239 .

٣٧ - من بوالكونت الى الوزير ، ٣١ أغسطس ١٨٣٣ ، *Ibid.*, pp. 242 - 251

٣٨ - *Mémoires de Nubar Pacha*, introduction et notes de Mirrit Boutros-Ghali, Beyrouth, 1983, p. 31

٣٩ - *Ibid.*, pp. 36 - 37

٤٠ - Afaf Lutfi al - Sayyid Marsot, *Egypt in the Reign of Muhammad Ali*, p. 80

٤١ - *Mémoire de Nubar Pacha*, pp. 9 - 10 : «إن هذا الواقع ، واقع مرافقة قوات مسلمة لمسيحي الى مثواه الأخير ، ليس فيه ما يدعو الى الدهشة اليوم في مصر ؛ بل إن عكس ذلك هو الذي يمكن أن يدعو الى الدهشة . إلاّ أننا إذا رجعنا الى ذلك الزمن (إنني أتحدث عن عام ١٨٤٤) ، بل إذا رجعنا الى زمن أقرب ، في عام ١٨٦٠ ، في القسطنطينية ، فمن هو الباشا ، من هو الرجل صاحب المقام الرفيع ، الذي ، إذ يصادف في الشارع مسيحياً ، وليكن مستشاره الحميم ، الذي يكن له ، في أعماق قلبه ، تقديراً أكبر من التقدير الذي يكنه لزملائه مجتمعين ، من هو الباشا الذي يمكنه أن يجرؤ على أن يحييه بأكثر من إيماءة بطرفي عينيه أو ، على أكثر تقدير ، بإيماءة رأس ؟»

٤٢ - *Ibid.*, pp. 12 - 13

٤٣ - أو *Hünkar Iskelessi* حسب الكتابة الحديثة .

٤٤ - من الدوق دو بروجلي الى ميمو ، ٢٦ يونيو ١٨٣٣ ، Douin, *La Premiére Guerre*, II , pp. 450 - 451

٤٥ - الخطاب الثاني حول الشرق ، ٨ يناير ، ١٨٣٤ ؛ - Lamartine, *La France* parlementaire *(1834 - 1851). Œuvres oratoires et écrits politiques,* Paris, 1864, t. I, p. 17

٤٦ - Sabry, *L'E´mpire* égyptien ..., p. 281

٤٧ - *Ibid.*, pp. 323 - 325

٤٨ - Mantran, *Histoire de L' Empire Ottoman* ..., p. 453

(انظر ترجمتنا العربية : **تاريخ الدولة العثمانية** ، دار الفكر ، القاهرة ، ١٩٩٣ ، الجزء ٢ ، ص٥٥ - المترجم) .

٤٩ - تخامر رشيد باشا مخاوف واقعية حول مستقبل المدينتين المقدستين ، وهو ما يتكشف من محادثته ، في ١ نوفمبر ١٨٣٩ ، مع الكونت دو پونتوا ، سفير فرنسا الجديد لدي القسطنطينية : «ثم حدثني رشيد باشا عن خطتنا التي يجد أن شروطها جد مجحفة بشكل زائد عن الحد بالنسبة للباب العالي ، خاصة من حيث إنها إذ تجيز بشكل نهائي لمحمد على ، له ولخلفائه ، ملكية المدينتين المقدستين ، فإنها إنما تساعد على خلق خلافة جديدة ، تتعارض مع حقوق السلطان ومع وجود الإمبراطورية» (Adel Ismaïl, *Documents*..., t. XXIV, pp. 41 - 42)

٥٠ - *Discours parlementaires de M. Thiers*, Paris, 1879, t. V, p. 177 ، خطاب بتاريخ ٢٥ نوفمبر ١٨٤٠م : «من جهتي ، فقد كنت مقتنعاً على الدوام ، بأكثر مما قلته من هذا المنبر ، لأنني ، بحكم كوني من أنصار المحالفة الإنجليزية ، لا أحاول أن أزيد حساسية ما من شأنه أن يجعلها أصعب ، كنت مقتنعاً على الدوام بأنه سوف يكون من المستحيل علينا أن نحوز في القسطنطينية النفوذ الذي نحوزه في مصر ، لأننا لم نكن الحليف الأقوي للباب العالي ضد روسيا ، ولأن ارتباطنا بالباشا (محمد على) قد جعلنا مثار شبهات في القسطنطينية ؛ ولذا فإن علينا أن نبحث في الاسكندرية عن نفوذنا الحقيقي في البحر المتوسط ، وبأننا إذا ما ضحينا بهذه المصلحة ، فإنما نضحي بالمصلحة الأكثر واقعية لفرنسا» .

٥١ - *Discours parlementaires de M. Thiers,* Paris, 1879, t. IV, pp. 418 - 419 ؛ خطاب بتاريخ ١٣ يناير ١٨٤٠ : «لقد دار حديث كثير عن مختلف النظريات التي تطرحها المسألة الشرقية . فقد دار الحديث عن النظرية التركية والنظرية العربية والنظرية الأوروبية ونظرية الوضع القائم . وبالنسبة لي ، فإن كل النظريات المتخيلة في هذه المسألة إنما تُختزل في الواقع الى نظريتين : النظرية التي سوف أسميها بالسياسة النشيطة والتي تميل ، عاجلاً أم آجلاً ، الى تقسيم الدولة العثمانية ، والتي تعتمد على الدولة التي يبدو أنها الأكثر استعداداً لهذا التقسيم ، أي على روسيا . وهناك نظرية أخري ، وهي النظرية التي يبدو لي أن الحكومة قد اعتمدتها ، والتي تتألف ، ليس من اعتبار الدولة العثمانية أبدية وغير قابلة للزوال ، بل من اعتبارها ، إن لم تكن سهلة الانقاذ ، فعلى الأقل قابلة للإنقاذ ؛ والتي تتألف (هذه النظرية) ، ما دام الخطر قائماً باستمرار ، من اتخاذ جميع الاحتياطات بحيث تجد فرنسا نفسها ، في هذه المسألة - إذا ما وقعت الكارثة - ، في الوضع الذي تتطلبه مصالحها وكرامتها .

«وأعتقد أن جميع النظريات ترتبط بإحدي النظريتين اللتين أشرت اليهما لتوي : السياسة النشيطة التي

ترتأي التقسيم وتتمناه ، وسياسة الاحتياط التي تعتبر هذا التقسيم وارداً وتسعى الى اتخاذ موقف مناسب للحالة التي تقع فيها الكارثة . وأنا أوافق تماماً على إيثار الحكومة للنظرية الثانية» .

٥٢ - جري تحديد باشاليك عكا على أنه الجزء الجنوبي من سوريا ، وفقاً لخط «إذ يبدأ من راس الناقورة ، على ضفاف البحر المتوسط ، سوف يمتد من هناك مباشرة الى مصب نهر سيسبان ، أقصي شمال بحيرة طبرية ، وسيحاذي الضفة الجنوبية للبحيرة المذكورة ، ويتبع الضفة اليمني لنهر الأردن والضفة الغربية للبحر الميت ، وسيمتد من هناك يميناً حتى البحر الأحمر وصولاً الى الطرف الشمالي لخليج العقبة والضفة الشرقية لخليج السويس حتى السويس» . (Adel Ismaïl, *Documents*..., t. XXIV, p. 317).

٥٣ - *Discours parlementaires de M. Thiers*, Paris, 1879, t. V, p. 220 ؛ خطاب بتاريخ ٢٥ نوفمبر ١٨٤٠ : «إن العليمين ، أو أولئك الذين يزعمون أنهم عليمون ، قد يخامرهم الشك في أن فرنسا ، المهيمنة على جميع قواها ، كان بوسعها أن تحصل في الربيع على تعديل للمعاهدة . حسناً ! يجب عليَّ أيضاً الاعتراف بترتيبات أوروبا ، ولا يجب أن تخامرني أوهام كثيرة حول المسلك الذي كان بوسعها أن تسلكه . إنني على ثقة من أنه لو كانت فرنسا ، المهيمنة على جميع قواها ، قد عرضت ، في الربيع ، باللغة التي أتمناها ، والتي تمسكت بها ، والتي تُسند اليوم اليَّ على استحياء ، لو كانت فرنسا ، بلغة عزيزة لكنها متواضعة ، حازمة لكنها غير استفزازية ، قد عرضت على أوروبا أن تختار إما تعديل المعاهدة أو خوض الحرب ، لو كانت فرنسا قد قالت ذلك بصوت فرنسا ، بشكل يدفع الى تصديقه ، فلتكونوا على ثقة من أن أوروبا ما كانت لتضحي بسكينتها من أجل جزء أياً كان من سوريا» .

٥٤ - Sabry, *L'Empire égyptien* ..., p. 496

٥٥ - Adel Ismïl, *Documents*..., t. XXIV, pp.59 - 61 : من بوريبه ، القنصل في بيروت ، الى تيير ، ١٢ يونيو ١٨٤٠ .

٥٦ - Adel Ismaïl, *Documents*..., t.XXIV, pp. 245 : من بوريبه الى الكونت دو بونتوا ، ٣٠ مايو ١٨٤٠ ، طلبات شيوخ بيت الدين الى الأمير بشير : «في جميع هذه الظروف ، فقدنا الكثيرين من إخوتنا ، والآن يكرهنا جميع جيراننا ، خاصة الدروز ، وكل ذلك لأجل إرضاء صاحب السمو الذي لم يعط لنا شيئاً البتة ؛ في حين أننا ندفع الآن ضعف ما كانت عليه الضرائب والرسوم في السابق» (أعدنا ترجمة أقوال الشيوخ عن الفرنسية لتعذر الاهتداء الى وثيقة عربية تتضمنها - المترجم) .

٥٧ - Adel Ismaïl, *Documents*..., t. XXIV, pp. 299 - 300 ؛ من بوانتوا الى تيير ، ٢٤ يوليو ١٨٤٠ : «يدور الحديث دائماً ، في مجالس رشيد الخاصة ، عن إنشاء إمارة مسيحية لبنانية ، يمكن منحها لواحد من أفراد أسرة محمد على الرئيسيين . وهذه الفكرة تروق كثيراً للباب العالي ؛ ويجري دعمها ، في هذه اللحظة ، من جانب القاصد الرسولي الذي يريد بأي ثمن ، وأياً كان الأسلوب ، أن يكون له شأن ما في ترتيب المسألة المصرية ، والذي لن ترجو حكومته شيئاً أفضل من انتهاز هذه الفرصة لمحاولة أن تنتزع من فرنسا ، أو على الأقل أن تقتسم معها ، حماية الكاثوليكية في الشرق» . والقاصد الرسولي هو سفير النمسا .

٥٨ – خطاب بتاريخ ٢ يوليو ١٨٣٩، *Histoire parlementaire de France...*, t. III, pp. 266 - 279.

٥٩ – مداخلة في المكتب الأول لمجلس النواب حول مسألة الرد ، ١٠ نوفمبر ١٨٤٠ ، *Œuvres complètes*, . Paris, 1985, III **, p. 284

٦٠ – *Ibid.*, p. 260 ؛ خطاب بتاريخ ٣ يوليو ١٨٣٨ : «سأنظر الى جانب سيء آخر في الحالة التي أتحدث عنها ، الحالة التي تتدخل فيها فرنسا . ففي ذات الوقت الذي من شأن هذا الانتصار (انتصار السلطان)أن يثبت القوة المجهولة التي ما تزال بحوزة الأمة التركية ، فإن من شأنه أيضاً أن يثبت في الوقت نفسه الضعف المجهول الموجود في هذه الأمة العربية المزعومة التي ، من جهتي ، لا أومن بها كثيراً . إنني أجد نفسي مدفوعاً الى تصور أن هناك في مصر بداية إمبراطورية ، بداية إدارة ؛ وأنه ليس من المستحيل جعل مصر رأس إمبراطورية ومن ثم تخليص مصر ، تخليصها لوقت طويل على الأقل ، من شد دولة أوروبية ما . إنني أجد نفسي مدفوعاً الى تصور ذلك . إلاّ أنه إذا توصل السلطان ، الذي لا يملك سوي قواه الخاصة ، الى الانتصار على مصر والى القضاء على الباشا (محمد على) ، فسوف يتأكد عندئذ للعالم كله أن القوة التي كان يدور الحديث عنها ، هي قوة مستعارة ، قوة لا تتمتع باستقرار فعلي و ، من ثم ، لا تستحق الدعم المكلفَ الذي نود تقديمه اليها» .

٦١ – «إن كل شيء يهتز في الأذهان ، كل شيء يهتز في السلطة ، كل شيء يهتز في الأرض ، والأجيال التي تتراكم تضيف في كل عام أمواجاً جديدة الى محيط الهياج والشك الذي يهدد ليس فقط بإغراق الحكومة ، وإنما أيضاً بإغراق المجتمع» . خطاب بتاريخ ١ يوليو ١٨٣٩ ، *La France parlementaire ...*, t. II, pp. 226 - 227

٦٢ – *Ibid.*, pp. 227 - 228

٦٣ – *Ibid.*, p. 299

٦٤ – *Ibid.*, p. 290

الفصل الخامس

الأزمة المسيحية للدولة العثمانية

خط جُلخانه الشريف

على أثر موت السلطان محمود وارتقاء عبد المجيد الشاب العرش ، في قلب أزمة الحرب السورية الثانية ، يستفيد المصلحون العثمانيون من الوضع لفرض برنامجهم الداعي الى إعادة صوغ هياكل الإمبراطورية .

وهم يدفعون السلطان - الخليفة الى أن يعلن ، في ٣ نوفمبر ١٨٣٩ ، خط جلخانه الشريف الشهير ، وهو بيان التحولات التي سوف تتخذ في الإمبراطورية ، **التنظيمات** أو تدابير إعادة التنظيم .

والخط الشريف هو باديء ذي بدء رصد للضعف وللافقار اللذين أصابا الإمبراطورية منذ مائة وخمسين عاماً . وهو يطرح مباديء المؤسسات الجديدة التي يجب لها معالجة هاتين العلتين :

١ - تأمين ضمانات تكفل للرعايا أمناً تاماً فيما يتعلق بأرواحهم وكرامتهم وممتلكاتهم .

٢ - تأمين أسلوب نظامي لتحصيل ولجباية الضرائب .

٣ - تأمين أسلوب نظامي لتجنيد الجنود ولمدة خدمتهم .

وينصب التشديد على الأمن بوصفه مصدر قوة الدولة : «إذا لم يتوافر الأمن للممتلكات ، فسوف يلتزم الناس كلهم بعدم التجاوب مع نداء السلطان والوطن ، ولن يهتم أحد بنمو الثروة العامة ، ما دام غارقاً في انزعاجاته الخاصة . أمَّا إذا ما امتلك المواطن بثقة

ممتلكاته أياً كان نوعها ، فإنه ، على العكس من ذلك ، وقد امتلأ حماسة لأعماله ، التي يحاول توسيع مجالها حتى يوسع مجال الانتفاعات ، سوف يشعر كل يوم بتزايد حب السلطان والوطن في قلبه وبتزايد الاخلاص لبلاده . وهذه المشاعر تصبح فيه مصدر الأعمال الأكثر استحقاقاً للثناء» [1] .

وبما أن إلغاء الاحتكارات الأميرية كان قد تم التوصل اليه بالفعل بمناسبة المعاهدة مع بريطانيا العظمى ، فإن إعادة تنظيم شئون الضرائب إنما تعتمد على إلغاء الالتزامات . ويجري فرض التجنيد بهدف إيجاد بديل لوحدات الجنود المحترفين المتفرغين القديمة والتي أثبتت قصورها في الحروب الأخيرة . وسوف يكون القضاء محايداً بالنسبة للجميع .

وهذه المساواة الجديدة تخص أيضاً غير المسلمين : «بما أن هذه الانعامات السلطانية تمتد لتشمل جميع رعايانا ، أياً كانت ديانتهم أو ملتهم ، فإنهم سوف يتمتعون بها دون استثناء . ومن ثم فإننا نمنح سكان الدولة أمناً تاماً في أرواحهم وكرامتهم وممتلكاتهم ، وفقاً لما يفرضه نص شريعتنا المقدس» .

والمرجعية الإسلامية ماثلة . وقد جري الاحتفال (بصدور الخط الشريف) أمام مخلفات النبي – وهي أيضاً شارات الخلافة – وقد أقسم كبار **العلماء** باحترام محتوي الخط الشريف .

معني الخط الشريف

والحال أن هذا النص الشهير ، الذي قورن منذ زمن بعيد بالمواثيق الإنجليزية وبالإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان ، هو نتاج تطور للفكر الإصلاحي العثماني منذ الشطر الثاني للقرن الثامن عشر . والإحالات الأوروبية واضحة . فالتشديد على فكرة الأمن إنما يحيل الى التأكيدات المذهبية للاقتصاد السياسي لزمن التنوير والى الليبرالية الأنجلو – ساكسونية . والتأكيد على ضرورة تعزيز مفهوم الدولة وإنشاء وطن أو أمة عثمانية إنما يجيء من ملكوت أفكار الثورة الفرنسية . والخط الشريف ، الذي يجري تقديمه بوصفه «تجديداً تاماً للأعراف القديمة» ، هو برنامج إحياء الشرق ذلك الذي كان قد جري التشديد عليه في أوروبا منذ نهاية القرن السابق .

إلا أنه لا يمكن الحديث عن إسقاط للأفكار الأوروبية على واقع شرقي لا يتمشي بالمرة مع البرنامج الجديد . فالفكرة الأساسية هي أمن الأشخاص والممتلكات ، والذي تكفله الشريعة الإسلامية من الناحية الحقوقية بالفعل . وجماعة المؤمنين ليس لها أي حق إضافي يمكنها أن تكسبه من وراء الخط الشريف . ولا تجيء المطالبة (بالخط) من مجال المجتمع الإسلامي ، بل من مجال السلطة . **فالقولات** هم الذين كان قد جري إخضاعهم ، بتعريفهم

كعبيد لبيت آل عثمان ، لحمل تعسف السيد الممسك بزمام السلطة . وهؤلاء الموظفون لدي الدولة لهم هدف مزدوج : تأمين بقاء الإمبراطورية عن طريق تجديد هياكلها والحصول أخيراً على الاستقرار والأمن اللذين افتقروا اليهما دائماً . والخط الشريف يتمشي مع هذا المطلب الاجتماعي للنخبة الموجودة في السلطة . وأحد البنود يتميز بدلالة خاصة في هذا الصدد : «إن قضية كل متهم سوف تنظر ويصدر الحكم فيها علانية ، بما يتمشي مع شريعتنا الغراء ، بعد التحقيق والبحث ، وما لم يصدر حكم نظامي ، فلن يحق لأحد ، سراً أو علناً ، أن يأمر بالتخلص من أحد آخر عن طريق دس السم له أو عن طريق أي ايذاء آخر» .

وكان دس السم ممارسة شائعة ومعترفاً بها للتخلص من أي موظف كبير يسود الإحساس بأنه جد مزعج أو يفقد الحظوة عند السلطان . وأحدث حالة لا ترجع لأكثر من عامين .

وعبر الإلغاء النهائي للقوات المسلحة العثمانية القديمة ، يعبر الخط الشريف عن الرغبة في إزالة كل التقسيمات الوظيفية القديمة للدولة من أجل تأسيس مجال اجتماعي جديد متجانس تماماً . وكان مصطلح **القول** قد ألغي بالفعل في السنوات السابقة . وفي عام ١٨٣٩ ، يجيء الدور على مفهوم **الرعية** . ويجري استخدام كلمة جديدة ، هي كلمة **التابع** ، بمعني الشخص الذي يتبع سلطة حاكمة ، أكانت ملكاً أم جمهورية . وإذ كانت تستخدم للإشارة الى الأوروبيين في علاقتهم بالسلطة في بلادهم ، فإنها تستخدم الآن لتشمل عموم سكان الإمبراطورية ، دون أي تمييز أو تفرقة . ويمكن منذ ذلك الحين فصاعدا الحديث عن العثمانيين بما يشير الى جميع أولئك التابعين لسلطة السلطان ، في حين أن المصطلح (مصطلح «العثمانيين») لم يكن يشير في السابق ، في الاستعمال الدقيق له ، إلاّ الى عبيد بيت آل عثمان[٢] .

والإحالة الى الإسلام ليست مجرد احتياط بلاغي أو سياسي . فقد كانت جماعة المؤمنين منقسمة ، منذ زمن بداية الدولة العثمانية ، الى مؤمنين عاديين ، أعضاء الجماعة ، الذين تحميهم الشريعة الإسلامية ، وموظفين – عبيد للدولة ، يعدون تعبيراً عن السلطة الاستبدادية ويخضعون خضوعاً تاماً لهذه الأخيرة . وأحكام خط جلخانه تعيد توحيد هذه الجماعة .

والحال أن خط جلخانه الشريف ، وهو برنامج **قولات** يتحركون ذوداً عن مصالحهم وعن مصالح بقاء الدولة في آن واحد ، إنما يعد الرد المنطقي على الأزمات السياسية المترتبة على انحدار القوة السياسية العثمانية . وقد أدي إلغاء الانكشارية ، السلطة المضادة التقليدية وأداة إضفاء الشرعية الإسلامية على التمردات ، الى إدخال اختلال حقيقي للتوازن في تنظيم المجتمع . أما حرب الدعاية التي انهمك فيها السلطان وعزيز مصر باسم مصالح الأمة الإسلامية فقد أوضحت أزمة الشرعية التي تمر بها الإمبراطورية . وقد أشارت عمليات إغواء

كبار الموظفين التي انهمك فيها كل من الطرفين الى حدود الولاءات التي كان يتيحها نظام «البيوت» القديم . وقد ضرب محمد على وإبراهيم باشا المثل في سياستهما السورية بقيامهما على نحو عملي ودون قلاقل فعلية بإزالة التنظيم الوظيفي للسلطة .

تفسير مترنيخ

تعامل المسئولون الأوروبيون مع الخط السلطاني بوصفه ، من حيث الأساس ، تجلياً جديداً للإصلاحات التي استهلها محمود الثاني . وشأنه في ذلك شأن هذه الإصلاحات الأخيرة ، فقد كان الحكم الذي صدر عليه سلبياً : ففي أحسن الأحوال ، يمكن اعتبار المصلحين مخلصين إلا أنهم لا يملكون وسائل لتنفيذ سياستهم ؛ وفي أسوأ الأحوال ، فإن (الخط) هو دليل جديد على الدهاء من جانب عثمانيين راغبين في الفوز بعطف الدول الأوروبية ، خاصة إنجلترا .

ورجل الدولة الأوروبي الوحيد الذي دشن تأملاً حول معني الخط الشريف هو مترنيخ . وهو ينقل أفكاره الى سفيره في القسطنطينية لكي ينقلها بدوره الى المصلحين . وهو يهنيء العثمانيين أولاً على أنهم لم يكتبوا دستوراً فالدستور لا يمكن اختلاقه ، بل هو محصلة تاريخ . ويجد من المعقول أنهم اكتفوا بإعلان مباديء أساسية يستند الى أساس ديني . وهو يعترف بضرورة إصلاح السلطة العثمانية المنحدرة ، لكن ذلك لا يجب أن يتم عن طريق التبني الأعمي للمؤسسات الأوروبية غير المتمشية بالمرة مع الحقائق الواقعية الشرقية . ويجب على الإمبراطورية الإسلامية العظمي ، مع تجديدها لنفسها ، أن تظل نفسها ، باحترام روح الأعراف والعادات القومية .

«إذا كانت دولة تريد أن تكون قوية ، فإن عليها قبل كل شيء أن تكون نفسها . فإذا ما استوعبت هذه الضرورة ، فسوف يكون بوسعها عمل الكثير ، أما إذا ما سارت في الاتجاه المضاد ، فإنها لن تكون أبداً غير نسخة مقلدة باهتة من ذلك الذي قد يكون من جهة أخري فاسداً من أساسه هو الآخر . ونحن الذين نتبع هذه القاعدة ونحسن في جميع الأحوال تطبيقها على أنفسنا ، إنما نقدم بالتأكيد للحكومة العثمانية برهاناً على الاهتمام الصادق والنزيه الذي نوليه لبقائها بدعوتنا لها الى أن تظل مسلمة»[٣] .

والحال أن «البقاء مسلمين» هو السؤال الأساسيّ الذي يطرحه المصلحون العثمانيون على أنفسهم . إن حزباً رجعياً حقيقياً ، معادياً للاصلاحات ، موجود في البلاد واتهاماته (الموجهة الى المصلحين) بخيانة الإسلام هي سلاحه الأثير . لكن الإمبراطورية تتعرض ، في الوقت نفسه ، لتدخل متزايد من جانب الدول الأوروبية التي تطالب بالتعجيل بتنفيذ الاصلاحات

وتهدد الدولة العثمانية في وجودها ذاته . وهكذا فإن الرجال الممسكين بزمام السلطة إنما يتعرضون لضغوط متناقضة من جانب حراس الأشكال التقليدية للإسلام ومن جانب الأوروبيين الذين ، دون أن يأخذوا في الحسبان النتائج التي حدثت بالفعل وصعوبات تطبيق تدابير جديدة ، يطالبون بمزيد من التدابير . ومن ثم فإن برنامج مترنيخ هو برنامج طوباوي لأنه لا يأخذ في الاعتبار التدخلات المتواصلة من جانب الدول التي سوف تستخدم أقليات الإمبراطورية ، كحصان طروادة .

مسألة الأقليات

الدين الرسمي للإمبراطورية هو الإسلام السني . والدولة لا تعترف بوجود عقائد إسلامية أخري وتُخضع جميع الجماعات السكانية المسلمة المنشقة من شيعة ودروز وعلويين ، إلخ الى عين القواعد القانونية التي يخضع لها المسلمون السنة . ولما كان المسلمون من غير السنة لا يحوزون حقوقاً خاصة معترفاً بها ، فإنهم يجدون أنفسهم ، بشكل مفارق ، في وضع أدني من وضع غير المسلمين . **والتنظيمات** لا تبدل هذا الوضع . على أن وعيً هوية إسلامية مشتركة سوف يصبح تدريجياً أقوي من انعدامات الثقة القديمة المتوارثة كما أن المسعىً الإصلاحي يتيح للأقليات المسلمة إمكانات اندماج في المجتمع العثماني لم تكن معروفة حتى ذلك الحين .

وخط عام ١٨٣٩ الشريف ليس مقصوداً به أهل الكتاب . فالتأكيد على ضرورة دولة قانون إنما يخص بشكل أساسي النخبة الإدارية الموجودة في السلطة . ونظام حماية **الذميين** القديم يمر بأزمة منذ الانتفاضة اليونانية لعام ١٨٢١ ، لكن هذه الحركة قد أخذت مع مرور الأعوام توجهاً إثنياً بأكثر مما هو توجه ديني . وفي عام ١٨٣٩ ، في قلب الحرب السورية الثانية ، لا ترد مسألة المسيحيين واليهود في جدول الأعمال . وصحيح أن الخط الشريف يذكر أن المباديء الجديدة تنطبق على غير المسلمين ، لكن هذا التأكيد على الأمن إنما يتمشي مع الحفاظ على الحماية الإسلامية التقليدية .

وإذا كانت الإصلاحات لا تمس في التو والحال **الذميين** ، فإنها لن تكون كذلك في المستقبل . ذلك أن إلغاء التقسيمات الوظيفية الاجتماعية والنص الجديد على المساواة أمام القانون ، وهي ركن أساسي من أركان دولة القانون العزيزة على أفئدة المصلحين ، إنما يؤديان بشكل منطقي الى تصور اللحظة التي سوف يكون فيها للمسلم ولليهودي وللمسيحي وضعية قانونية واحدة . وبالنسبة لجمهور المسلمين ، فإن هذا التحول سوف يكون مؤلماً لأنه سوف يقضي على شعور بالتفوق تم اكتسابه منذ قرون . كما أن هذا التطور لن يكون أقل

إيلاماً بالنسبة للذميين جد المتعلقين بهوياتهم الطائفية : إذ سوف يتعين عليهم التخلي عن جميع امتيازاتهم ، أساس وجودهم الجماعي ، لكي يصبحوا مواطنين عاديين يتعاملون مع دولة لن تعترف بعد بوجود كيانات تلعب دور الوسيط بينها وبينهم . والاتجاه الى المساواة يحمل في أحشائه بذور صدامات تالية وسوف يتعين على المسئولين العثمانيين أن يتحلوا بالكثير من الخصال الإدارية اللازمة للتعامل مع وضع بهذه الدرجة من الحساسية . وتدخل الدولة الأوروبية والهجوم الثلاثي الصادر عن التيارات الأساسية للمسيحية إنما يجعلان من المستحيل نجاح هذه المحاولة الرامية الى تدشين تلاحم جديد للمجتمع العثماني .

الهجوم المسيحي : البروتستانت

كانت انقلابات العهد الثوري قد جرت الى نهضة دينية للبروتستانتية في الجزر البريطانية كما في القارة الأوروبية . وكانت بعض اتجاهاتها قد تبنت مذهب «تحقق النبوءات» ، أي تبنت تفسيراً معيناً لرؤيا يوحنا اللاهوتي : حيث المشاهد الأخيرة لنهاية الزمان تحدث في الشرق ؛ وحيث يجتمع شمل اليهود في الأرض المقدسة ويتحولون هناك الى اعتناق المسيحية ؛ ثم يجيء يوم الحساب الأخير . وخلال زمن الحملة الفرنسية في مصر بالفعل ، كان كثيرون من البروتستانت الإنجليز قد رأوا في ذلك المسيخ الدجال الذي كانه الجنرال بوناپارت أداة العناية الإلهية المكلفة بحشد اليهود في فلسطين بدعوي إقامة دولة لهم ومن ثم تأمين تحقق النبوءات بذلك[٤] .

وبالنسبة لمجمل تيارات البروتستانتية ، ترتبط فكرة الشرق بفكرة نهاية الزمان ، وهي لحظة منشودة ولا تدعو الى الخوف . وتطور المواصلات في الشطر الأول من القرن التاسع عشر وتمركز إنجلترا في البحر المتوسط يتيح إمكانية إبداء هذا الاهتمام . والحال أن مالطة ، التي يحتلها البريطانيون بعد الحملة الفرنسية على مصر ، إنما تصبح مركز إعداد الجهود التبشيرية البروتستانتية في المنطقة . وانتهاء الحروب النابوليونية يسمح بإرسال المبشرين الأوائل الى مجمل الولايات العربية للدولة العثمانية .

وهؤلاء الإنجيليون ، كما يسمون لأنهم يمحورون تبشيرهم على توزيع أناجيل مترجمة الى جميع اللغات المحلية ، هم أيضاً منتمون الى القارة الأوروبية ، كالألمان والسويسريين ، كما أنهم إنجليز - ساكسونيون ، كالبريطانيين أو الأمريكيين . ومع عدم تخليهم عن الأمل في أن ينجحوا يوماً ما في تحويل المسلمين الى اعتناق البروتستانتية (تحظر السلطات العثمانية بشكل صارم التبشير بين المسلمين) . فإنهم ينكبون على تحويل المسيحيين واليهود الى اعتناقها . والحال أن كنائس الشرق تعتبر مجيء هؤلاء القادمين الجدد عدواناً حقيقياً وتناشد السلطة العثمانية (وقف نشاطهم) . وهذه الأخيرة تنشر في ١٤ يونيو ١٨٢٤ فرماناً يحظر استيراد

وتوزيع الأناجيل وكتب المزامير المطبوعة في أوروبا ، حيث أن هذه الكتب تثير الفتن والمنازعات بين السكان (٥) .

وعندئذ يطلب المبشرون حماية القنصليات البريطانية حتى يتسنى لهم مواصلة عملهم . وبعد معركة نافارين ، ينسحبون مؤقتاً الى مالطة خوفاً من الأعمال الانتقامية من جانب المسلمين . على أن فتح سوريا من جانب إبراهيم باشا ، والذي لا تستحسنه السلطات البريطانية على أية حال ، إنما يسمح للإنجيليين باستئناف ترسيخ أقدامهم في تلك المنطقة وبمضاعفة نشاطاتهم هناك ، خاصة بين يهود القدس وعموم فلسطين . والحال أن تسامح السلطة المصرية الديني إنما يتيح لجميع الطوائف المسيحية إمكانية الانخراط في برنامج إنشاءات باذخة قرب الأماكن المقدسة . ويستتبع التبشير مولد طائفة بروتستانتية محلية صغيرة يوجهها المبشرون . ولا تعترف بها السلطات العثمانية ويتعين عليها البحث عن حماية السلطات البريطانية لها . وهذه السلطات الأخيرة لا تستاء من تشكل حزب بروتستانتي سوف يسمح أخيراً بندية اللعب مع الكاثوليك الذين تحميهم فرنسا ومع الأرثوذكس الذين تحميهم روسيا . وتعيين قنصل إنجليزي في القدس في عام ١٨٣٨ إنما يرمز الى هذا الاهتمام الجديد بالمسائل الدينية .

وتسمح الأزمة الشرقية الثانية بتوحيد المنظورات الدينية والسياسية . ويري عدد معين من المسئولين البريطانيين في اليهود وسيلة لتوطيد النفوذ الإنجليزي مع كفالة تحقق النبوءات . والحال أن فلسطين ، إذ تصبح مكاناً لتجميع اليهود ، سوف تشكل ساحة للتوسع للاقتصاد الإنجليزي وللتبشير البروتستانتي على حد سواء(٦) . والصحف اللندنية الكبري تستعيد هذه الفكرة في عام ١٨٣٩ .

وبالمرستون ووزارة الخارجية ليسا معاديين لهذه الأفكار . إلاّ أنهما لكونهما واقعيين فإنهما يكتفيان بتدابير براجماتية تسير في هذا الاتجاه . وفي أغسطس ١٨٤٠ ، تحيط الحكومة البريطانية السلطات العثمانية علماً بالفائدة التي سوف تعود على السلطان من وراء تشجيع عودة اليهود واستقرارهم في فلسطين . فهم سوف يجيئون برساميلهم وبمواهبهم المعروفة جيداً لتحقيق التطور الاقتصادي وسوف يواجهون ، بشكل خاص ، نزعات التوسع المصرية التي قد تحدث في المستقبل في هذه المنطقة . ويتوجب بالطبع لتحقيق هذا المشروع أن تكفل السلطات العثمانية تنفيذاً كاملاً وتاماً لخط جلخانه الشريف الذي يضمن المساواة والأمن لسكان الإمبراطورية .

وفي أواخر عام ١٨٤٠ ، وبما أن الباب العالي يبدو متحفظاً تجاه المطالب البريطانية ، فإن بالمرستون يعدل مشروعه ويقترح الآن منح الحماية البريطانية ليس فقط لبروتستانت

الإمبراطورية العثمانية ، وإنما لليهود أيضاً . ويرفض العثمانيون المطالب البريطانية باسم مباديء خط جلخانة تحديداً ولا يقبلون الهجرة اليهودية إلاّ بقدر خضوع القادمين الجدد خضوعاً تاماً للتشريع العثماني وعدم مطالبتهم بأية حصانة أو حماية خاصة . ويكف بالمرستون عن الإلحاح على مطالبه .

وهكذا فإن نذير الخطر الأول يجيء من جهة اليهود والپروتسانت بسبب السياسة الإنجليزية واستعادة التراث الألفي الذي يتحدث عن اقتراب ملكوت المسيح . لكن الباب العالي يتعين عليه أيضاً أن يواجه الضغوط الخطرة من جانب روسيا بشأن الأرثوذكسية .

الهجوم المسيحي : روسيا والأرثوذكس

كانت الكنيسة الأرثوذكسية ، تحت قيادة بطريرك القسطنطينية ، إحدي الوسائل المستخدمة من جانب الإدارة العثمانية لحكم سكان الإمبراطورية غير المسلمين . وكان هامش الاستقلال الممنوح للأرثوذكس يتوقف بشكل مباشر على نطاق تطبيق القانون الديني المسيحي . ومنذ القرن الثامن عشر ، مالت مسئوليات الكنيسة الى التزايد والى اتخاذ شكل سلطة طائفية حقيقية . لكن هذه الكنيسة كانت تحت قيادة اليونانيين الذين يحتكرون وظائف كبار رجال الدين حتى في المناطق التي لم يكن الأرثوذكس فيها يونانيين من الناحية الإثنية .

وفي الولايات العربية للدولة العثمانية ، كان هذا الوضع قد أصبح مصدراً للنزاعات . فالبورجوازية المسيحية العربية المهمة لم تعد تقبل احتكار اليونانيين الأصلاء للسيطرة . ولما كانت هذه البورچوازية راغبة في التمكن من إيجاد هيراركية نابعة من السكان المحليين ، فقد وجهت أبصارها شطر الإرساليات الكاثوليكية التي تمثلت غايتها في إنشاء كنائس تعترف بالمرجعية البابوية . وقد حدث انشقاق في الشطر الأول من القرن الثامن عشر : فقد تأسست كنيسة أرثوذكسية الملة لكنها تابعة لروما . وكان رجال الدين القائمون على هذه الكنيسة ناطقين بالعربية أساساً وقد استندت ثقافة هذه الجماعة الجديدة على نهضة أدبية للغة العربية . وهذه الطائفة الجديدة ، المسماة بالروم الكاثوليك ، تكونت من بين صفوف جماعات سكانية حضرية ميسورة وقد أتاح الاتصال الدائم بالكنيسة الكاثوليكية انفتاحاً إضافياً على معارف أوروبا . وبسبب قطيعة الروم الكاثوليك مع السلطة المركزية ، فقد شددوا على انتسابهم الى القبائل العربية للأزمنة القديمة وكانوا أول من طوروا نزعة عربية ثقافية حقيقية .

إلاّ أن الكنيسة الجديدة لم تلق اعترافاً من جانب الباب العالي الذي لم يعترف بالتمثيل إلاّ للكنيسة الأرثوذكسية الرسمية . ولم تتردد هذه الأخيرة في مناشدة السلطة الإسلامية ودعوتها الى محاربة المنشقين الأثرياء والأقوياء . وقد حدثت ظاهرة مماثلة بين صفوف

الطوائف الشرقية الأخري فالأرمن والكنائس الشرقية المعترفة بالمرجعية البابوية ، غير المعترف بها رسمياً ، تخلق مؤسسات مجاوزة للمؤسسات الكنسية التقليدية .

وإقتداءً بالسياسة الفرنسية الحامية للكاثوليك ، منذ الشطر الثاني للقرن الثامن عشر ، تحاول روسيا الحصول على الاعتراف بحق حماية أرثوذكس الإمبراطورية العثمانية . ومن الناحية القانونية ، يمتنع الباب العالي عن أي اعتراف بهذا الشأن ، لكن الديبلوماسيين الروس يتفننون بلا كلل ، ضمن إطار أحكام الامتيازات (الأجنبية) المتحركة ، في العمل على تحقيق حق حماية كهذا في الواقع .

ومن ثم يتعين على الحكومة الروسية أن تمارس ضغوطاً على الكنائس الشرقية المعترفة بالمرجعية البابوية والتي تحصل على مساندة فرنسا . وهذه الأخيرة تحرز انتصاراً كبيراً في عام ١٨٣١ بحصولها من الباب العالي على اعتراف رسمي بالكاثوليك الشرقيين المعترفين بالمرجعية البابوية (٧) . والحال أن أمل العثمانيين في التوصل الى تهدئة التوترات بين صفوف المسيحيين والى اختزال التدخل الأوروبي إنما يتكشف عن أمل خادع . ففي السنوات التالية تحتدم معركة القلنسوة - معركة البت في ما إذا كانت العادات الكنسية للكنائس الكاثوليكية الشرقية المعترفة بالمرجعية البابوية يجب أن تكون مطابقة أم غير مطابقة لعادات الأرثوذكس . وتساند روسيا المطلب الأرثوذكسي الخاص بالتميز عن طريق الثياب ، والذي يعد ضرورياً للنضال ضد التبشير المعترف بالمرجعية البابوية بين صفوف الأرثوذكس . وتري فرنسا في هذا التبشير وسيلة لتعزيز نفوذها في الإمبراطورية العثمانية . ثم إن الثقة التقليدية الممنوحة لهذه الطائفة تهتز من جراء تأسيس مملكة اليونان النابعة من انتفاضة ضد السلطة الإمبراطورية . وهذه الدولة الجديدة لا تتردد في إعلان برنامجها الخاص بتوحيد جميع الأراضي الأرثوذكسية الناطقة باليونانية أو المعتبرة كذلك .

وعلاوة على رغبة روسيا المعلنة دائماً في فرض حمايتها على المسيحيين الأرثوذكس ، فإنها تبدو متزايدة المطالب بشأن مسألة الأماكن المقدسة في فلسطين . وعلى مدار قرون ، كان الباب العالي قد عهد بإدارة هذه الأماكن لأهم كنيسة مسيحية في الدولة والتي كان خضوعها مكفولاً . لكن التحالف مع فرنسا قد قاد الى منح امتيازات متنامية للفرنسيسكان الممثلين للكاثوليك . واعتباراً من زمن عودة الملكية ، انهمكت فرنسا وروسيا في مباراة سواعد حديدية حقيقية رهاناتها الحقوق الخاصة لكل من الكنيستين . ومن الناحية الظاهرية ، كان الباب العالي في مركز قوة لأنه يلعب دور الحكم في النزاع ، إلا أنه ، من الناحية الواقعية ، بما أنه كان عليه أن يتجاوب مع ضغوط كل من الطرفين ، فقد اضطر الى أن يقبل ، في المجريات الواقعية ، حماية دينية من جانب الدولتين على مسيحيى الإمبراطورية .

الهجوم المسيحي : فرنسا والكاثوليك

أدت الثورة الفرنسية بدرجة كبيرة الى تدمير النفوذ الفرنسي على كاثوليك الدولة العثمانية . إلاّ أنه منذ العصر النابوليوني ، كانت الديبلوماسية الفرنسية متمسكة باستعادة هذا النفوذ وبتعزيزه . والحال أن تطور الكنائس الشرقية المعترفة بالمرجعية البابوية وصعود قوة الموارنة في الجبل اللبناني قد أوضحا الأهمية المتزايدة للعامل المسيحي في السياسة الشرقية لفرنسا ، ومن هنا المواجهة المتزايدة الخشونة باستمرار مع روسيا في هذه الساحة .

على أن اختيار دعم مصر محمد على باسم المشروع التمديني الموروث من الحملة الفرنسية في مصر وفكرة الإمبراطورية العربية قد أبعدا مسئولين فرنسيين عديدين عن هذه السياسة التقليدية . وفي بداية الاحتلال المصري لبلاد الشام ، بدا أن التحالف بين إبراهيم باشا والأمير بشير الثاني إنما يثبت عدم وجود تعارض بين السياستين ، لاسيما وأن السلطة المصرية تبدي نزعة ليبرالية في الشأن الديني لم تكن معروفة حتى ذلك الحين . لكن الأزمة الشرقية التي تفجرت مع تمرد الجبليين ، المدعومين من جانب إنجلترا ، ضد سلطة بشير الثاني وإبراهيم ، قد كشفت تناقض السياسة الفرنسية .

وقد دعم تيير إبراهيم وسحب بروسپير بوربيه ، قنصل فرنسا في بيروت ، المتهم بالانحياز الى صف الموارنة الثائرين . وتقارب الموارنة مع إنجلترا البروتستانتية والنمسا الكاثوليكية على حساب علاقاتهم القديمة مع فرنسا . والحال أن السلطة البابوية نفسها قد مالت الى التحرر من الحماية الفرنسية والى ايجاد علاقات مباشرة مع مسيحيى الشرق والحكومة العثمانية .

ومنذ وصول جيزو الپروتستانتي الى السلطة ، فإنه يعمل على استعادة وتوسيع احتكار فرنسا الحماية على الكاثوليك ، كما يعمل على النضال ضد الأطماع الروسية وعلى مواجهة التبشير الپروتستانتي الذي تدعمه الدول الجيرمانية والأنجلو - ساكسونية .

مسألة القدس

ويمتد صراع الطوائف المسيحية الثلاث ليشمل الصراع على القدس . فالفوضي المترتبة على جلاء القوات المصرية وبطءُ استعادة النظام العثماني يؤديان الى ظهور المشروع الطوباوي الى هذا الحد أو ذاك والخاص بإعادة تنظيم الشرق . ويرتأي بعض الإنجليز ، ضمن إطار فكرة تحقق النبوءات ، إنشاء مملكة يهودية - مسيحية تحت الحماية البريطانية . وعدد من ممثلي حزب الشرعية الفرنسيين يتصورون إعادة إنشاء مملكة كاثوليكية تكون خلفاً لدولة الصليبيين وتمنح للدوق دو بورديو ، الوريث الشرعي لبوربون فرنسا . وبشكل أكثر جدية ، تقترح بروسيا خطة حقيقية لتدويل القدس تحت الحماية المشتركة للدول المسيحية الأوروبية .

وروسيا تعارض هذا التحرك الأوروبي الجماعي المبذول لحساب مسيحيي ويهود الشرق وتطلب توسيع امتيازات الأرثوذكس . ويبدو أن الباب العالي يميل الى الجانب الروسي ويرفض الاعتراف رسمياً بالطوائف البروتستانتية الجديدة .

وفي أواخر عام ١٨٤١ ، يبدو أن السلطة العثمانية قد عادت بشكل واضح وأن مشاريع التحويل الجذري (لوضعية القدس . - المترجم) قد تعرضت للهجر بفضل تدخل روسيا . لكن الدول البروتستانتية ترد بإنشائها في نوفمبر ١٨٤١ أسقفية أنجلو - بروسية في القدس يمتد اختصاصها الى مجمل الشرق . وبالرغم من البدايات الصعبة ، فإن المؤسسة الجديدة تنجح في الصمود بفضل دعم إنجلترا لها . ويتم تدريجياً هجر مشروع تحويل اليهود الى اعتناق المسيحية . ويتوجه التبشير توجهاً حازماً الى مسيحيي الشرق . وفي نوفمبر ١٨٤٧ ، يعترف الباب العالي بالوجود القانوني للطوائف البروتستانتية في الإمبراطورية مع منحها وضعية مماثلة لوضعية الكنائس الموجودة بالفعل .

وليس من شأن نجاح السياسة البروتستانتية إلاّ أن يحفز القوي الأخري على لعب اللعبة نفسها . ويتزايد حضور الأرثوذكسية في المدينة المقدسة و ، بعد تحركات أولية ، يتم إنشاء بعثة كنسية روسية في عام ١٨٤٧ . والكنيسة الكاثوليكية ، في وجه استئناف المجادلات حول إدارة الأماكن المقدسة ، ترد في الاتجاه نفسه و ، بالرغم من تحفظات فرنسا الحريصة على صون احتكارها الحماية ، فإنها تعيد إنشاء بطريركية القدس الكاثوليكية في عام ١٨٤٧ والتي يتم تنصيب بطريركها الأول في عام ١٨٤٨ .

دور المسيحية

كان البند المتعلق بغير المسلمين في خط جلخانه الشريف لعام ١٨٣٩ عرضياً تقريباً في تظاهرة المصلحين العامة . والحال أن الفوضي المترتبة على انهيار الإدارة المصرية للأرض المقدسة ، وأطماع مختلف الدول الأوروبية ، وتأثير الحركات الدينية على سياسة حكوماتها قد دفعت بالمسألة المسيحية واليهودية ، منذ عام ١٨٤٠ ، الى الصدارة . ورداً على المطالب الخاصة بفرض حماية إنجليزية على يهود الامبراطورية العثمانية ، أكد الباب العالي أن الخط الشريف قد منح ضمانات كافية للذميين وأن الحماية الأوروبية لا ضرورة لها . وتؤدي التدخلات التالية من جانب الدول الأخري لحساب محمييها الى تعزيز التفسير الجديد لنص عام ١٨٣٩ . ويضطر المصلحون الآن الى التصدي مباشرة لمسألة غير المسلمين .

والحال أن الانبثاق الحاد لهذه المسألة في مستهل أربعينيات القرن التاسع عشر إنما يعد نتاجاً لعدة عوامل جد مختلفة : التطور الداخلي لهذه الطوائف التي ، بسبب وضعيتها كأقليات

على اتصال دائم بالمراكز الأوروبية ، تحرز تقدماً ثقافياً متزايد التعاظم باستمرار قياساً الى المسلمين ؛ وفي مجتمع الإصلاحات العثمانية ، فإن الدراية بأفكار وبتقنيات الغرب تصبح وسيلة لصعود اقتصادي واجتماعي أساسي . وبقدر ما أن جزءاً صغيراً فقط من السكان المسلمين هو الذي يواكب هذا التطور بينما تتيح المدارس التبشيرية المسيحية ثم المدارس اليهودية فيما بعد تعليماً حديثاً لعدد متزايد من أبناء الأقليات ، فإن غير المسلمين يجدون أنفسهم في مركز قوة في مضمار الحداثة التي لا غنى عنها .

والديموغرافيا تترجم هذا التمايز الاجتماعي . وبحسب علمنا وكما يشير الى ذلك تطور الجبل اللبناني ، فإن مسيحيي منتصف القرن التاسع عشر يستفيدون استفادة كاملة من الثورة الديموغرافية الأوروبية حيث تنخفض نسبة الوفيات ، خاصة في وجه الأوبئة الكبري ، وترتفع نسبة المواليد ارتفاعاً قوياً . ونموهم الطبيعي أعلى بكثير من نمو المسلمين الطبيعي الأمر الذي يمنحهم شعوراً بالتفاؤل المتزايد يلهم المسئولين الأوروبيين أفكاراً حول إمكانية إعادة تأسيس شرق مسيحي حقيقي .

ولا يؤدي تدخل الدول الأوروبية المتزايد إلاّ الى إعادة إنتاج بين صفوف الطوائف المسيحية لما هو موجود في عموم المجتمع العثماني ، أي الى ظهور «أحزاب» متوحدة مع هذه الدولة الأوروبية أو تلك .ويتعزز الوعي الطائفي بحوار مع أوروبا مثلما يتعزز بشعور معين بالتفوق ، غالباً ما يشكل تعويضاً عن الفترات السابقة الطويلة حيث كان المسلمون يفرضون هيمنتهم على «محمييهم» .

وينجر المصلحون العثمانيون الى عملية ما كانوا يريدونها في الأصل . ويتعين عليهم أن يحولوا اتجاه عملهم نحو منح حقوق متزايدةً للطوائف المسيحية . فالمساواة وحدها لا تكفي . وفي حين أن منطق الإصلاحات يقود الى إنشاء «النزعة العثمانية» ، وهي شعور انتماء جماعي فوق قومي الى الإمبراطورية ، يتجاوز جميع الفوارق الدينية لكي يختزلها الى مجرد حقائق حياة خاصة ، فإن المصلحين يضطرون الى الاعتراف دائماً بالمزيد من الطوائف المستقلة ، **بالملل** المتمتعة بحقوق أو بإمتيازات خاصة .

وبالنسبة للمسلمين ، فإن قبول المساواة الكاملة مع غير المسلمين هو بالفعل أمر يصعب التسليم به . والحال أن الوضع الذي يبدأ في أربعينيات القرن التاسع عشر بالتدخل الدائم من جانب الدول الأوروبية باسم ذرائع دينية إنما يزيد من صعوبة هذا القبول للنزعة العثمانية . وفي حين أن اختفاء الهوة الوظيفية بين **القولات والرعية** يتم دون صعوبات تقريباً ، فإن مجتمع الإمبراطورية يميل الى أن ينقسم الى مسلمين **ورعية** مسيحيين ويهود . ومما له دلالته أن مصطلح « **الرعية**» الذي كان حتى ذلك الحين مشتركاً بالنسبة للمسلمين ولغير المسلمين إنما يصبح مقصوراً في الاستخدام الشائع على **الذميين** السابقين .

ولا يملك المؤرخ الذي يقارن بين المجتمعات إلاّ أن يحار وهو يري التطور المتناقض للمجتمع الفرنسي ، وهو مجتمع مبني على مبدأ المساواة ، لكنه بسبيله الى تكوين مقولة حقوقية جديدة هي مقولة «الرعية المسلمة» في الجزائر ، والمجتمع العثماني ، وهو مجتمع مندرج في مشروع لحاق بالمجتمع الفرنسي ويصطدم بالعقبة الطائفية في سعيه الى تحقيق المساواة الحقوقية .

جيزو وتمدين الدولة العثمانية

لا يؤمن جيزو ، شأنه في ذلك شأن مترنيخ ، بفضائل تقليد المؤسسات الأوروبية . وهو يري أن المصلحين المسلمين يشهدون على خواء الإسلام وعجزه [٨] . ولا يمكن توقع أي خلاص من وراء عملهم . والعمل الوحيد الذي يمكن لأوروبا الاضطلاع به هو انقاذ مسيحيي الشرق من الاضطهادات العثمانية ، إلاّ أنه ، حتى في هذا المجال ، لا يمكن للمرء أن يأمل في الكثير : فالأتراك لا يمكنهم قبول ما هو مطلوب لأجل السكان المسيحيين ؛ وغياب الشبه والمشاركة في العادات والأفكار والمشاعر والسمات الكبري والتيارات الكبري للتمدن وللحياة الاجتماعية إنما يبطل أي تواصل حقيقي بين العالمين ؛ وسوف يستمر هذا الافتراق الجذري ما بقيت السيادة للأتراك ، الفاتحين غير المنتجين والمدمرين العاجزين عن استيعاب السكان الخاضعين لغيرهم [٩] .

ويركز جيزو عمله على المسألة المسيحية في الدولة العثمانية . وهو يتخلي عن كل مشروع تمديني أو أنه ، لكي نكون أكثر دقة ، يري أن تمدن الشرق لا يمكن أن يتم إلاّ من خلال المسيحيين . ومعه تنتصر فكرة الحضارة المسيحية ، معطياً من ثم للمفهوم (مفهوم الحضارة والتمدن) معني دينياً في نهاية الأمر . وبالانطلاق من مثل هذا الأساس ، فليس غريباً أن جيزو لن يكون مهتماً حقاً إلاّ بالمسألة اللبنانية .

تطور المسألة اللبنانية

في لبنان كما في بقية بلاد الشام ، تبدو العودة الى النظام السابق على الاحتلال المصري مستحيلة . ومحاولة حفظ نظام الإمارة عبر بشير الثالث الشهابي سرعان ما تفشل : فالدروز يريدون استعادة المواقع التي كانت لهم قبل مجيء بشير الثاني ؛ وقيادتهم الطائفية تظل باستمرار في أيدي **الشيوخ** الملتزمين . أما الموارنة فإنهم ينفصلون تدريجياً عن هذا الهيكل التقليدي ويتحدون خلف كنيستهم . وينشب العنف في مستهل عام ١٨٤١ بين الطائفتين .

ويستفيد الباب العالي من هذا الوضع في يناير ١٨٤٢ لكي يخلع الأمير الأخير للجبل

ولكي ينشيء نظام إدارة مباشرة . ويظل الوضع مضطرباً بينما تسعي الدول الأوروبية الخمس ، بتحريض من جيزو ، الى تدويل مسألة يعتبرها الباب العالي مسألة داخلية . وتشدد فرنسا بشكل خاص على ضرورة استعادة أمير مسيحي (لحكم الجبل) وتكوين إمارة تصبح حليفة لفرنسا . وتعارض إنجلترا ذلك وتتجه الى الطائفة الدرزية لكي تتصدي للسياسة الفرنسية . ويقترح الباب العالي الحل الوسط الذي يتمثل في تقسيم الجبل الى منطقتين يقود إحداهما درزي ويقود الأخري ماروني ، ويتم تعيين الاثنين بقرارين من الحكومة العثمانية .

وفي النظام الجديد الذي أقيم ، يتم اكتشاف صعوبة إدارة المناطق المختلطة . ويعاد تنظيم النظام في عام ١٨٤٥ وينجح في البقاء في السنوات التالية بالرغم من عودة القلاقل الى الظهور بشكل دوري .

ثم إن المساواة الجديدة في لبنان بين المسيحيين والمسلمين إنما تترجم ليس على مستوي الأفراد بل على مستوي الطوائف (١٠) .

كما يستند النزاع الطائفي على فوارق التطور الاجتماعي . ويظل الدروز متعلقين بتلاحمهم القبلي والذي يجد ترجمة له في تعيين الأكثر أهمية بينهم كملتزمين وكموظفين عثمانيين ؛ وهم يبدون في أعين الأوروبيين تحت قيادة ارستقراطية اقطاعية ؛ وبشكل مواز ، فإنهم يشددون على انتمائهم الى الأمة الإسلامية ويقللون ، قدر الإمكان ، من شأن الخلافات المذهبية والشعائرية مع الإسلام السني . ويبدأ الموارنة في التخلص من نظام القيادة القديم ويتجهون الى كنيستهم كبنية للتجمع ؛ وهكذا يبدون للفرنسيين كفئة ثالثة بسبيلها الى نزع النير الاقطاعي ؛ وهم يشددون من جهة أخري على الوشائج التي تجمعهم بفرنسا المسيحية ويصوغون الأساطير الجماعية الكبري التي تنسب أول لقاء لهم بالفرنسيين الى زمن القديس لويس (الملك لويس التاسع) .

وفي هذه الفترة برمتها ، يتواصل دمج الاقتصاد السوري في النظام العالمي الذي يسيطر عليه الغرب مع التحسن المستمر لأحوال النقل . وينجح المسيحيون في مجموعهم في التكيف مع الأوضاع الجديدة ويستفيدون من الظرف لكي يشكلوا بورجوازية تجارية دينامية متصلة بأوروبا . ويظل المسلمون أكثر تعلقا بالصيغ الاقتصادية والتقنية القديمة ويعانون من انحدار النشاطات الحرفية (١١) .

الأرثوذكس وحرب القرم

في تلك الأثناء ، تواصل روسيا ممارسة ضغوط لكي يتم الاعتراف لها بحق حماية على أرثوذكس الدولة العثمانية الى جانب امتلاك فعلى للأماكن المقدسة . ويراوغ الباب العالي

بينما تغرق أوروبا كلها في تيار ثورات عام ١٨٤٨ . والحال أن مجيء الإمبراطورية الثانية مع نابليون الثالث المحتاج الى دعم الكاثوليك إنما يعدل الوضع . فالإمبراطور الجديد يرغب في قلب الوضعية السياسية لأوروبا والموروثة من عام ١٨١٥ . وهو في هذا يتمشي مع مشاعر غالبية الرأي العام الفرنسي ويجد نفسه مدفوعاً الى هجر السياسة الحذرة التي شهدتها الأعوام الأخيرة لملكية يوليو . والعودة الى الوفاق الودي مع إنجلترا تسمح له بتجنب العزلة على المستوي الأوروبي مثلما فعل تيير في عام ١٨٤٠ . والحال أن النزاع الأوروبي الكبير على مصير الدولة العثمانية ، والذي ينذر بالانفجار منذ الأعوام الأخيرة لعهد عودة الملكية ، إنما يصبح وارداً . ومطالب روسيا المبالغ فيها تتيح له فرصة الانفجار .

وفي أواخر عام ١٨٥٢ ، قدم نيكولاي الأول عروضاً لإنجلترا حول اقتسام محتمل لتركة «رجل أوروبا المريض» . وفي عام ١٨٥٣ ، فإن مينشيكوف ، مبعوثه في القسطنطينية ، يطلب من العثمانيين الاعتراف للحكومة الروسية بحق الإشراف على قدم المساواة مع الحكومة العثمانية على صون الحقوق والامتيازات والحصانات المعترف بها للكنيسة اليونانية في الإمبراطورية ، أي انشاء حماية إدارية حقيقية على الجزء الأعظم من سكان الإمبراطورية المسيحيين . ويري الفرنسيون أن هذا يشكل فتحاً للنفوس لابد من أن يكون تمهيداً لفتح للأراضي [١٢] .

وبسبب اعتراض فرنسا وانجلترا ، فإن الأزمة تتحول الى حرب في عام ١٨٥٤ . وفي هذه الحرب تُمني روسيا بالهزيمة بعد أحداث جد دموية . ويظل حفظ وحدة أراضي الدولة العثمانية هو شعار السياسة الأوروبية . وعشية التسوية النهائية في مؤتمر باريس في عام ١٨٥٦ ، يُبلغ الباب العالي الدول بخط همايوني أكثر تحديداً بكثير من خط عام ١٨٣٩ الشريف . ففي هذه المرة ، نجد أن الطوائف غير المسلمة هي التي يتركز عليها الكلام . ويجري تكريس مراعاة حصاناتها التقليدية وحرية العبادة وحق إدارة ممتلكاتها دون عائق . وتصبح الجماعة الطائفية واقعاً حقوقياً معترفاً به اعترافاً كلياً من جانب السلطات العثمانية . ويجري النص على مساواة الجميع أمام القانون وسوف يتم تمثيل الطوائف في مجالس الولايات[١٣] . وتصدق معاهدة باريس المؤرخة في ٣٠ مارس ١٨٥٦ على الخط الهمايوني الذي جري إبلاغه الى الدول مع قصر بنوده على المسيحيين وحدهم وتجاهل اليهود [١٤] . وتعيد المعاهدة حق التدخل الجماعي من جانب الدول الأوروبية في الشئون العثمانية ، مكرسةً ممارسة ولدت من الحروب السورية في الشطر الأول من القرن : «إن الأطراف المتعاقدة السامية ، رغبة منها في اشتراك الباب العالي في مزايا الاتحاد الأوروبي المكون بين الدول الأوروبية وفق القانون العام تتعهد ، كل طرف من جهته ، باحترام استقلال ووحدة أراضي الإمبراطورية العثمانية ،

وتضمن بشكل مشترك المراعاة الصارمة لهذا التعهد وتعتبر ، بناء على ذلك ، أي إجراء أو حدث من شأنه أن يشكل تهديداً لها مسألة تهم أوروبا» [١٥] .

والنتيجة المفارقة المترتبة على تحرير ذميي الدولة العثمانية هي التأكيد ، في حركة واحدة ، على الحق الفردي في مساواة الجميع في الدولة ، والتعزيز الملحوظ للصلاحيات المؤسسية للطوائف الموجودة وخلق جديد منها ، وكل ذلك مع مراقبة حريصة ومستفيدة تضطلع بها الدول الأوروبية . والحال أن درس الحداثة إنما يتمثل في تعزيز النزعات الخصوصية ذات الأساس الديني ، وإن لم يكن إلاّ عن طريق التمايز المتنامي بين سبل التطور [١٦] .

أزمة عام ١٨٦٠

وهذه التناقضات تنفجر على نحو سافر مع أزمة عام ١٨٦٠ في لبنان وفي سوريا . ففي الجبل ، يواصل الموارنة توسعهم . ومن الناحية الديموغرافية ، فإنهم هم الذين يحرزون أكبر تقدم . ومن الناحية الاقتصادية ، فإنهم ينشئون علاقة أعمال استثمارية مثمرة مع تطور إنتاج الحرير الطبيعي الخام بالاتصال مع المشاريع الفرنسية . ومن الناحية الثقافية ، فقد جرى تجديد هياكلهم التعليمية مع تزايد المدارس التبشيرية الكاثوليكية والبروتستانتية . ومن الناحية الاجتماعية ، فإن طبقة الفلاحين ، بتشجيع من الكنيسة ، تنفصل بشكل متزايد عن سلطة الأعيان التقليديين الذين تنازع سلطتهم في مجال الضرائب .

ويشعر الدروز بأنهم ضحايا لهذا التطور ويتقاربون مع عموم مسلمي الولايات العربية . ويعاني هؤلاء أكثر من سواهم فهم لا يوافقون على الإصلاحات العثمانية . وسعي الدولة الى المركزة يقابل باستياء خاص في جانبه الأكثر سلبية : ارتفاع الضرائب وخاصة التجنيد الذي يسوق الرجال الى الموت في حروب في ساحات بعيدة . وبدلاً من الاستفادة من الإندماج في الاقتصاد الأوروبي ، فإن انحدار أشكال الإنتاج التقليدي إنما يجد ترجمة له في افقار السكان المدينيين في داخل الأراضي . والسكان المسلمون يستاءون من هذا التفاقم لوضعهم استياءً ممتزجاً بمرارة شديدة خاصة وأن السكان المسيحيين ، الذين يتخلصون من التجنيد في مقابل ضريبة ، يبدو أنهم يستفيدون من هذا التطور لكي يصبحوا كل يوم أكثر ثراءً وأكثر قوة وأكثر تحرراً من الأشكال القديمة للخضوع تجاه المسلمين . وليس من شأن التدابير الإدارية المتخذة بعد الخط الهمايوني لعام ١٨٥٦ سوى زيادة سخط وإحباط السكان المدينيين [١٧] . والأرجح أن سوريا هي المنطقة التي تحسس الناس التشريع الجديد فيها ، بأكثر مما في سواها من مناطق الدولة العثمانية ، بوصفه عدواناً على الإسلام . ومنذ عام ١٨٥٦ ، تنشب فتن معادية للمسيحيين في حلب وفي نابلس وفي عدد من المدن الأقل أهمية . ومما له دلالته أن هذه

الهجمات الدموية لا تستهدف اليهود . ويتعاظم الشعور المعادي للمسيحيين تعاظماً ملحوظاً ويرد المسيحيون على ذلك بالبحث عن حماية قنصلية أوروبية مباشرة تؤدي الى تخل عن الجنسية (العثمانية) (١٨) . وينتشر اعتقاد واسع بوجود مؤامرة مسيحية وأوروبية ، تهدف الى القضاء على الإسلام في سوريا وفي بقية أرجاء الدولة العثمانية . بل إن هذا الاعتقاد يروج في صفوف الجيش والإدارة العثمانيين (١٩) .

وفي أكتوبر ١٨٥٨ ، ينشب تمرد فلاحي ماروني في كسروان ضد الأعيان الموارنة . وبما أن الحركة تمتد الى المناطق ذات العناصر السكانية المختلطة في العام التالي ، فإنها تتخذ طابع نزاع طائفي . وفي مايو ١٨٦٠ ، تصبح المواجهة دموية في الأماكن ذات الغالبية الدرزية وتؤدي المجازر الى مصرع الآلاف وتشريد الآلاف من المسيحيين . والحال أن أحداث الجبل إنما تعطي الإشارة لمذابح ضد المسيحيين في دمشق في يوليو ١٨٦٠ .

والإدارة المحلية متواطئة جزئياً في هذه الأعمال التي يرتكبها السكان إلاّ أنه يتم ارتكابها أيضاً من جانب جنود نظاميين أو غير نظاميين مرسلين لحماية الأحياء المسيحية . وبعض الأعيان ، خاصة أولئك الحائزين على مناصب قضائية دينية ، يحبذون المذابح التي لا تستهدف إلاّ المسيحيين ، حيث يجري إعفاء اليهود منها كما في الحوادث السابقة . ويبذل أعيان آخرون كل ما في وسعهم من أجل منع هذه الفظائع . والمسلك الأشهر هو مسلك عبد القادر . وكان البطل الجزائري قد أفرج عنه من محبسه الفرنسي بقرار من ناپوليون الثالث الذي صرح له بالإقامة في بورصا في الأناضول ثم اقترح عليه الرحيل الى دمشق . وفي هذه المدينة ، فإنه يتمتع بحاشية من عدة آلاف من الجزائريين الذين تبعوه . والجميع تنفق عليهم فرنسا التي لا يزعجها أن ترى هؤلاء الرعايا الفرنسيين وهم يصبحون عاملاً إضافياً من عوامل نفوذها في المنطقة .

وينجح الأمير السابق ، بالرغم من عداوة السلطات العثمانية ، وبالتعاون مع قنصل فرنسا ، في انقاذ أرواح عدة آلاف من المسيحيين بفضل تدخل رجاله المسلحين . وهو صادق في سخطه على المذابح التي يعتبرها عاراً يشوه صورة الإسلام . لكن هذه البادرة الطيبة ، التلقائية بالتأكيد ، سوف تعيده الى المسرح السياسي .

الحملة الفرنسية

يقرر ناپوليون الثالث أن تتدخل فرنسا في المسألة السورية . فهو بحاجة الى تأكيد النفوذ الفرنسي في المنطقة ، الى أن يعطي طابعاً ملموساً لهذه الحماية الشهيرة المفروضة على الكاثوليك في لحظة تدفعهم فيها سياسة فرنسا تجاه إيطاليا الى الابتعاد عن الإمبراطورية الثانية . ومن جهة أخري ، فإن الصحف الفرنسية مجمعة على المطالبة بالتدخل .

والتعليمات الصادرة الى الجنرال بوفور دوتپو ، في مستهل شهر أغسطس ١٨٦٠ ، تعليمات غامضة . ومن الناحية الرسمية ، فإن الحملة ليست فرنسية بل أوروبية . ويجب عليها أن تكفل تهدئة سوريا بالتعاون مع السلطات العثمانية ولا يجب لإقامة قواتها أن تتجاوز ستة أشهر [٢١] . على أن رحيل الجيش الفرنسي يرافقه نشر سلسلة بأكملها من الكراسات الداعية الى إنشاء إمبراطورية عربية يُعهد بها الى عبد القادر [٢٢] .

مملكة الشام العربية

من المثير للدهشة أن تعاود الظهور فكرة إنشاء إمبراطورية عربية في الوقت الذي تبلغ فيه التناحرات الطائفية ذروتها .

وظهور هذه التيمة في الصحف الفرنسية ليس مجرد إحياء لأفكار ترجع الى زمن ملكية يوليو . فهو يتمشي مع أسلوب اعتادت عليه حكومة ناپوليون الثالث : تهيئة الرأي العام لقرار مهم . وفي عام ١٨٦٠ ، كان الإمبراطور قد بدأ في الاهتمام بدراسة المسألة الجزائرية وبحث وثائقها ، إلاّ أنه لم يكن قد اتخذ بعد أي إجراء مهم . وأسبقية السياسة المتعلقة بسوريا على السياسة المتعلقة بالجزائر أسبقية واضحة . وهذا الاختيار يتمشي مع قواعد سلوك ناپوليون الثالث : الانكباب أمداً طويلاً على دراسة مشروع ما مع تصور واسع المدي للمشكلات التي يمكن أن تترتب عليه في المستقبل . كما أنه يعرف عيوبه : عدم فهم من جانب منفذيه يتحول أحياناً الى تخريب سافر ؛ وفي عام ١٨٦٠ ، يشعر العسكريون الفرنسيون في سوريا أنهم أقرب الى مواقف المسيحيين . وهؤلاء الأخيرون يطالبون بالثأر ويترضية تتخذ شكل إنشاء في لبنان لسلطة سياسية مسيحية مماثلة لما كانته إمارة الجبل ، في هذه الأزمّنة الأخيرة .

وتجيء الصعوبة من موقف الدول الأخري ، وفي المقام الأول بريطانيا العظمي . فبالنسبة لهذه الأخيرة ، يجب الحيلولة ، بمجرد انتهاء فوران المجازر العاطفي ، دون إنشاء حماية فرنسية في سوريا وتجنب عودة ظهور خطر مماثل لخطر مصر محمد على . والحال أن المسئولين البريطانيين منزعجون بالفعل من المشروع الكبير الذي يشرف عليه فردينان دليسبس ، المتهم بالرغبة في إنشاء جيب فرنسي حقيقي على حدود مصر وفلسطين . ويتخذ الإنجليز مظهر المدافعين عن الدروز ، وينشطون في اتجاه تخفيف العقوبات المفروضة على هذه الطائفة ويدعون الى الحفاظ على وحدة أراضي الدولة العثمانية سعياً الى منع تحقيق الأطماع المنسوبة الى فرنسا .

ومن المفارقات أن الفكرة العربية إنما تنبع أولاً من رد الفعل الفوري من جانب الباب العالي على خبر المذابح . وينقل سفير فرنسا رد فعل الصدر الأعظم عالي باشا على إعلان عرض

فرنسا إرسال قوات أوروبية الى سوريا : إن هذا سوف يكون تدشيناً لكوارث عظمي ؛ والآن بالفعل تتهم كتابات عديدة السلطان ووزراءه بأنهم خائنون للإسلام ؛ ومن شأن تدخل فرنسي - عثماني أن يكون تدشيناً لانفجار التعصب في دمشق : «وفي آسيا ، يمكن لهذا أن يؤدي ، بين العرب ، الى خلع السلطان ، وما هي الآثار التي سوف تترتب على عمل كهذا ؟ انتفاضة مرجحة في روميليا (الروميلي ، البلقان) (٢٣) . وقد سألتني هذا الصباح عن الوضع في القسطنطينية . لقد قاومت ، الى حد ما ، فكرة المخاطر التي أشرتَ اليها ؛ لكنني أود أن أقول لك إنه ، بالنظر الى تدخل قوات أوروبية في سوريا ، فإنه لا أنا ولا أي أحد آخر يمكن أن يكون مسئولاً أمامك عن أمن العاصمة» (٢٤) .

ويلفت السفير انتباه الحكومة الى هذا التصريح (٢٥) . ولابد أنه قد وصل من الناحية العملية في ذات اللحظة التي وصل فيها نبأ مسلك عبد القادر الممتاز . وكان الأمير يشعر بالامتنان تجاه الإمبراطور لإفراجه عنه ولمعاملته إياه معاملة تتميز بحسن المراعاة . وينشأ نوع من الصداقة بين الرجلين . ومن المرجح أن نابوليون الثالث لابد وأنه قد أصدر آنذاك توجيهات من أجل شن الحملة الصحفية . لكن الأمر برمته إنما يتوقف على عبد القادر .

«تهرب» عبد القادر

لم ينكر بطل الاستقلال الجزائري عداوته للنظام العثماني . ثم إن الاستقبال الذي قوبل به من جانب السلطات ، خلال نفيه في بورصا ، لم يكن من شأنه إلاّ أن يعزز قناعاته . وإقامته في دمشق ، البعيدة بما يكفي عن القسطنطينية ، في مدينة تعتبر مقدسة بالنظر الى دورها في تنظيم الحج الى مكة ، إنما يمكن تفسيرها بهذا السبب . إلاّ أنه يشعر بأنه يعد غريباً في هذا البلد ، بالرغم من انتمائه الى الأشراف وبالرغم من دوره كمناضل من مناضلي **الجهاد** . فبالنسبة للمسئولين العثمانيين المحليين ، يعد وجود هذا الرجل ، الذي يحوز قوة مسلحة مهمة قوامها عدة مئات من الرجال ، مسألة تدعو الى الانزعاج . وعلاقاته الممتازة مع إمبراطور الفرنسيين معروفة للجميع والجزائريون الموجودون في المنفي لهم وضعية رعايا فرنسيين .

والحال أن الأمير ، بوصفه مؤمناً صادق الإيمان ، لا يقبل العنف الطائفي الذي يعتبره خيانة للإسلام . وإذ يجد نفسه مدفوعاً الى تأمل التطور المعاصر ، فإنه يخشي من الخطر المسيحي . ويمكن النظر الى تحركه في دمشق بوصفه رغبة في تفادي تدخل أوروبي في داخل سوريا . وإذا كان قد سلح رجاله قبل الفتن ببضعة أيام ، فإنه إنما فعل ذلك بهدف استعادة النظام بالرغم من تراخي الوالي العثماني ، أحمد باشا (٢٦) .

وهو يعرف أن تحركه قد جعله عديم الشعبية في دمشق وفي المنطقة المحيطة بها . وهو لا يتمتع بالقاعدة السياسية الضرورية لإقامة سلطة حقيقية في سوريا . وهو من جهة أخرى لا يهتم بذلك : فهو برحيله الى المنفي كان قد اختار طريق الاعتكاف الديني والحياة العائلية . ورداً على پوچولا الذي يسأله في ديسمبر ١٨٦٠ عن إمكانية أن يصبح يوماً ما حاكماً لسوريا ، وهو ما كان الفرنسيون قد اقترحوه عليه سراً [٢٧] ، فإنه يقول : «ليطمئن الأتراك ! لقد انتهي عملي السياسي . وأنا لم أعد أريد شيئاً ، لم أعد أشتهي شيئاً من مفاخر وأمجاد هذه الدنيا . إنني أود أن أحيا منذ الآن فصاعداً في عبادة الله سبحانه وتعالي ، في السلام الذي يجب أن يسبق رحيلي عن الأرض ، وفي المسرات الجميلة للحياة العائلية» [٢٨] .

ويبدو الرسل الفرنسيون شديدي الإلحاح في الأشهر الأخيرة من عام ١٨٦٠ ، لكن الأمير يتهرب من لقائهم ، بحجة المرض ، وهو مرض ديبلوماسي بالتأكيد . ويؤدي «تهرب» الأمير الى فشل المشروع الإمبراطوري ، الذي لم يكن صوغه قد اكتمل آنذاك .

الرد العثماني : سوريا

يدرك الباب العالي أن بقاء الدولة إنما يتعرض للخطر من جراء أحداث عام ١٨٦٠ . وهو يوفد الى سوريا والى لبنان واحداً من أنشط رجالات **التنظيمات** ، هو فؤاد باشا ، لتسوية الوضع . وسعياً الى تفادي حدوث تدخل فرنسي في داخل سوريا ، ولكن أيضاً من أجل فرض سلطة الباب العالي الإصلاحية في دمشق بصورة حاسمة ، ينزل فؤاد باشا عقوبات شديدة بأعيان المدينة : فيتم تنفيذ عدد معين من الإعدامات ويجري نفي عدد أكثر من الأشخاص . وعلاوة على الاهتمام المباشر بإثبات أن الباب العالي لا يتردد في معاقبة المذنبين ، يتحرك فؤاد ضمن منظور عثماني : فالأعيان الذين ينزل بهم العقاب ، حتى وإن لم يكونوا قد نظموا المذابح ، إنما يعدون مسئولين عنها لأنهم لم يفعلوا شيئاً لمنع وقوعها . ويجري فرض غرامات ضخمة على مسلمي المدينة لتعويض المسيحيين عن خسائرهم المادية .

وأحداث عام ١٨٦٠ هي فرصة بالنسبة للباب العالي لكي يستعيد السيطرة على سوريا . ويؤدي الخطر الأوروبي وكذلك قوة القمع العثماني الى إضعاف خصوم الإصلاحات إضعافاً مقيماً . ويجري دمج المنطقة التي كانت تاريخياً عديمة الانضباط دمجاً أفضل في الإطار الإمبراطوري [٢٩] . والحال أن عدم حدوث أزمة طائفية كبري في السنوات التالية إنما يجد تفسيره أيضاً في حدوث تحسن محسوس للأحوال الاقتصادية والاجتماعية .

واعتباراً من ستينيات القرن التاسع عشر ، يبدأ أثر الإصلاحات في الوضوح في الولايات .

فالنظام العام تتم كفالته بشكل أحسن فأحسن ، وتتم السيطرة على البدو ويبدأ تسكينهم . ويشرع السكان المسلمون بدورهم في النمو . وإذا كان الاقتصاد الحضري يواصل المعاناة من مزاحمة المنتجات الأوروبية ، فإنه يعيد تنظيم نفسه مع إنشاء دوائر تجارية جديدة تخفف من مضارها [٣٠] . ومجمل هذه العوامل يسمح بتوسيع ملحوظ للأراضي المزروعة في نظام ملكية كبيرة للأرض . ويخف إحباط المسلمين الاقتصادي مع تكون طبقة اجتماعية من كبار ملاك الأرض المتغيبين تتألف أساساً من أعيان مسلمين سنة . والجزء الأكبر بينهم يتألف من الملتزمين السابقين الذين عرفهم الشطر الأول من القرن وهذه العلاقة مع السلطة تظل قائمة وسط التحولات الجارية . والأعيان الذين يستمدون مكانتهم من الوظائف القضائية الدينية ينحدرون بينما يرتبط الجيل الجديد ارتباطاً متزايداً بمؤسسات **التنظيمات** (المجالس المحلية ، محاكم العدل ، غرف التجارة والزراعة ، مناصب المسئولية في سوريا أو خارج سوريا) . واعتباراً من عام ١٨٦٠ ، تبدأ عملية تقارب بين الولايات السورية والعاصمة . وأحد أسبابه الأساسية يتمثل في تحسن المواصلات مع التطور الراجع الى الثورة الصناعية .

الرد العثماني : لبنان

تؤدي المسألة اللبنانية الى إتقاد مشاعر الرأي العام الفرنسي . واللحظة مؤاتية لأن الأحداث تتزامن مع بدايات الإمبراطورية الليبرالية ولأن نابوليون الثالث يري في هذه المناقشات الصحفية ومناقشات المجالس البرلمانية دليلاً على العودة الى حرية أوسع للرأي . ويميل فريق من المتحدثين الى تحبيذ حل الإمبراطورية العربية التي يجب أن يتزعمها عبد القادر بينما تهتم الغالبية أساساً بالمسألة المسيحية . والحال أن الكاتب الاجتماعي الكبير سان مارك چيراردن ، في سلسلة من المقالات البارزة في عامي ١٨٦٠ و١٨٦١ في مجلة La Revue des Deux Mondes إنما يجري استقراءً للبيانات الديموغرافية المعروفة ويري أن الاتجاه العام هو الى الانحدار العددي للسكان المسلمين والى نمو للسكان المسيحيين بنسبة واحدة . ولذا فإنه يدعو الى سيطرة أوروبية على آسيا العثمانية تسمح بانتقال سهل الى تأسيس دولة مسيحية ، تكون حليفاً طبيعياً لفرنسا . وكثيرون يتقاسمون هذا الرأي .

لكن إنجلترا ساهرة . فهي لا يمكنها قبول هذا التصور للأمور ، هي التي لا محميين لها إلاّ الطائفة البروتستانتية الصغيرة . وفي مواجهة النوايا الفرنسية ، فإن اللورد دوفيرين ، المبعوث الإنجليزي لدي اللجان الأوروبية المكلفة بالتحرك مع العثمانيين في عملية إعادة تنظيم الشرق ، يقترح مشروع سوريا موحدة ، تدار من جانب حاكم عام يعينه الباب العالي وتوافق أوروبا عليه . وسوف يكون هذا الحائز للسلطة المحلية مسئولاً على نحو مباشر أمام أوروبا

وتحت إشراف قناصلها . وفي داخل سوريا الجديدة هذه ، سيكون مسيحي نائباً للحاكم بشكل إلزامي (٣١) .

وفرنسا تعادي هذا المشروع خاصة وأن عبد القادر ، الذي جست نبضه ، قد رفض ترشيح نفسه لتولي حكم هذه الولاية السورية ، وأن مرشح الإنجليز هو فؤاد باشا .

والواقعة مهمة لأنه ، للمرة الأولى ، يجري تصور فكرة سوريا كبري موحدة . ولا تخامر أحداً الشكوك حول مستقبل هذه الولاية الجديدة : فمصيرها كمصر والبلدان البلقانية التابعة للباب العالي هو الحصول على حكم ذاتي متزايد باستمرار سوف يتحول يوماً ما الى استقلال .

وبالرغم من أن الإنجليز لا يتبنون المعجم العروبي الذي يتبناه الفرنسيون بل يتبنون المعجم المنافق الخاص باحترام وحدة أراضي الدولة العثمانية ، فإنهم يؤثرون حل سوريا كبري مستقلة ومسلمة . واعتباراً من عام ١٨٦١ ، سوف يخشي المسئولون الفرنسيون من عودة ظهور هذه السياسة الإنجليزية التي يقصد بها محاربة أشكال النفوذ الفرنسي على مسيحيي الشرق .

ثم إن قيام عدد من الوجهاء الإسرائيليين الفرنسيين في عام ١٨٦٠ بإنشاء التحالف الإسرائيلي العالمي ، المكلف ، وفقاً لنموذج الإرساليات الكاثوليكية الفرنسية ، بإحياء يهود الشرق ، إنما يقابلُ باستحسان من جانب الحكومة الفرنسية : فالمؤسسة الجديدة تسمح بالتعدي على قطاع من نفوذ إنجلترا التقليدي . وهذا الإحياء يمر عبر فرنسة تعد علامة لا تنكر على التحديث والتمدن في الإمبراطورية العثمانية آنذاك .

والتعارض بين فرنسا وإنجلترا يتيح للباب العالي إمكانية المناورة والتوصل الى حل وسط في عام ١٨٦١ ، ليس غير مؤات جداً لمصالحه : إذ يصبح الجبل اللبناني ولاية ذات حكم ذاتي ، يحكمها مسئول مسيحي يعينه الباب العالي برضاء الدول الأوروبية . ويساعده مجلس منتخب بحسب نسب الطوائف . والأرض الجديدة ، جد المحدودة من حيث اتساعها ، تستفيد من عدد من الحصانات كالإعفاء جد الثمين من التجنيد .

وإذا كانت أوروبا تحصل على حق في التدخل ، فإنها لا يمكنها أن تتدخل إلاّ ضمن إطار عمل جماعي ، الأمر الذي يحد من أهميته . ثم إن الباب العالي سوف ينجح في أن يعين كولاة مسيحيينَ غير منحدرين من المنطقة وراغبين في مواصلة عملهم ضمن الإدارة العثمانية : وهكذا فسوف يجري الحد من التطور نحو استقلال سياسي أوسع ، على الأقل حتى أواخر القرن التاسع عشر . والحال أن سياسة نابوليون الثالث ، مع استئناف فكرة المملكة العربية الشرقية ثم رغبته في مساعدة الدولة العثمانية في برنامجها الخاص بالإصلاحات الداخلية ، لن يكون من شأنها تشجيع المسيحيين على المطالبة بالكثير من الحقوق . وسوف

تكون الإمبراطورية الليبرالية مؤاتية نسبياً للمسلمين كما يوضح ذلك المثال الجزائري [٣٢] .

وقد سمحت أحداث ١٨٦٠ - ١٨٦١ بتوضيح ثلاث سياسات مستقبلية جد متناقضة : سوريا الموحدة أو سوريا الكبري ، والإمبراطورية العربية التي من المرجح أن تتجاوز حدودها الحدود السورية ، والنزعة الطائفية السياسية المؤسسة من أجل السماح بإقامة تعايش بين الطوائف .

تنشيط سياسة المملكة العربية

في الأعوام التالية لأحداث عام ١٨٦٠ ، تستعيد الصحف الفرنسية بشكل دوري مشروع حكومة يرأسها عبد القادر في سوريا . وعندما ينهمك نابوليون الثالث في سياسة مملكة عربية جزائرية ، فإن الفكرة تعاود الظهور . بل إن البعض سوف يصل الأمر بهم الى حد تخيل أن الإمبراطور ينوي إعادة الأمير الى الجزائر . ومن الواضح أنه لا ينوي ذلك : فمشروع نابوليون الثالث إنما يستند بالأحري على مفهوم للجزائر يعتبرها من ممتلكات التاج لا أرضاً فرنسية . وفي الأجل البعيد ، فإن أراضي أفريقيا لن يجري ربطها بفرنسا إلا عن طريق التاج الإمبراطوري . والفكرة الملكية واحدة من مرتكزات سياسة الإمبراطور . لكن الارتباط بين السياسة الجزائرية والسياسة الشرقية أساسي . والحال أن نابوليون الثالث يدرك بشكل أوضح مما تسني لأسلافه في زمن ملكية يوليو أن استعمار الجزائر هو عقبة كأداء في وجه سياسة دينامية من جانب فرنسا في الشرق العربي . وأصالة مسلكه إنما تستند على رغبته في جعل النفوذ الفرنسي جذاباً بتحويل الجزائر الى نموذج للتمدن بالنسبة للسكان الناطقين بالعربية في الإمبراطورية العثمانية . بل إن بالإمكان طرح مسألة ما إذا كانت سياسة نابوليون الثالث تجاه الجزائر إنما تستمد أصولها من أطماعه الشرقية .

وما أن تصل الى أوروبا أنباء المسلك الرائع الذي سلكه الأمير عبد القادر ، حتى ترتفع المدائح من كل مكان . وتنهمر الأوسمة على المنفي ، الى درجة تثير سخرية المنفي في جيرسي (ڤيكتور هيجو) في نوڤمبر ١٨٦١ : «يتماهي الشرقي بشكل مثير للغضب أحياناً مع الغربي . وتسم الحضارة الأوروبية الأتراك بشكل مضحك .

«ويصبح عبد القادر مسيو پرودوم» [٣٣] (السيد مُوَفَّق) .

ويعتكف الأمير بحكمة لأكثر من عام في مكة ليتأمل مباديء دينه . وما أن يعاود الرحلة ، يرتبط بصداقة مع فردينانّ دليسبس الذي يقدم له أرضاً قرب قناة السويس . ويؤدي هذا الحادث الى إثارة انزعاج إنجلترا والخديو اللذين يشتبهان في أن المنفي يريد إقامة إمارة عربية في سيناء تكون في خدمة دليسبس وفرنسا وحدهما . وعندئذ يترك عبد القادر ممتلكاته المصرية.

ويرجع الى دمشق . ولدى عودة نابوليون الثالث من رحلته الى الجزائر ، يتم استقبال الأمير بحفاوة بالغة في فرنسا . ومن جديد ، يُطرح عليه اقتراح المشاركة في مشروع إحياء القومية العربية في الشرق والموجه الى أن يكون بديلاً عن السيطرة التركية . ومن جديد ، يرفض الأمير العروض الفرنسية رفضاً قوياً . والحال أن تعقيدات الوضع الأوروبي ، اعتباراً من عام ١٨٦٦ ، إنما تمنع الإمبراطور من مواصلة السير على هذا الطريق . وهو يوجه تحركه نحو مشاركة نشيطة في الإصلاحات العثمانية التي يشرف عليها رجلا الدولة ، فؤاد باشا وعالي باشا . ويزور السلطان باريس في عام ١٨٦٧ ، بينما تزور الإمبراطورة أوجيني القسطنطينية في عام ١٨٦٩ . وسوف يتمثل المكسب الرئيسي لهذه السياسة الجديدة في إنشاء ليسيه جالاتا سراي الفرنسي – العثماني في العاصمة العثمانية : وسوف تكون المؤسسة موقع التعليم المميز لنخب العقود الأخيرة من عمر الإمبراطورية .

حالة النزعة العربية في ستينيات القرن التاسع عشر

كل هذه المشاريع الأوروبية الخاصة بالمملكة العربية تستند كما في السابق على رؤية استشراقية موروثة عن التنوير . والمراسلات الديبلوماسية لا ترصد التغيرات الجارية في الشرق العربي . على أن الوضع قد تحول تحولاً ملحوظاً بالقياس الى ثلاثينيات القرن التاسع عشر . فالطباعة تصبح الآن واقعاً ملموساً . كما أن الصحافة قد ظهرت . والمواصلات أسرع بكثير بالنسبة للأفكار كما بالنسبة للبشر . وحركة نهضة الأدب العربي ، المولودة في أواخر القرن بين الروم الكاثوليك في الإمبراطورية العثمانية ، تتخذ اتساعاً جديداً . ويتحول الأسلوب العربي والتعبير العربي وتظهر لغة جديدة هي العربية الحديثة ، في ما يمكن تسميته بالنهضة الأدبية العربية والتي تعد مصر ولبنان ، مع بيروت ، موطنيها الرئيسيين .

وهذا النهوض الثقافي لا ينفصل عن إقامة مؤسسات تعليمية جديدة . وهذه الأخيرة هي في المقام الأول ثمرة المنافسة الصعبة التي ينهمك فيها المبشرون الكاثوليك والپروتستانت لاجتذاب مسيحيي الشرق . لكن العثمانيين يردون على هذا الوضع بانشائهم بدورهم مدارس حديثة مخصصة لتخريج الموظفين الأوفر عدداً باستمرار للدولة التي يجري إصلاحها . ومع أحداث عام ١٨٦٠ ، شعر المسلمون السوريون ببعد الهوة الثقافية التي تفصلهم عن المسيحيين . والحال أن الأعيان الجدد ، المدركين لواجباتهم ، إنما يشاركون عن طيب خاطر في تمويل المدارس الخاصة المخصصة للمسلمين . وسوف يؤدي تكوين هذه الشبكة التعليمية الى جعل سوريا في مجموعها البلد الذي من الأرجح أنه الأكثر إلماماً بالقراءة وبالكتابة في الدولة العثمانية ، والذي يسبق الأناضول كثيراً . ففي عام ١٨٠٠ ، لابد أن معدل الإلمام بالقراءة وبالكتابة في عموم

الدولة العثمانية لم يكن ليتجاوز نسبة واحد في المائة ؛ أما في عام ١٩١٤ ، فسوف يصل الى نسبة تتراوح بين خمسة وعشرة في المائة ، لكنه سوف يصل في لبنان الى نسبة خمسين في المائة وفي سوريا الى نسبة خمسة وعشرين في المائة(٣٤) .

إن عالماً جديداً يواجه التحدي الأوروبي . وقد أدت **التنظيمات** الى تبديل وتعديل تأويلات العالم . ويتم إلغاء التقسيمات الوظيفية المميزة للنظام القديم باسم المساواة بين الجميع . وقد طرحت هذه المساواة بشكل حاد مسألة مكانة غير المسلمين في المجتمع الذي يجري تجديده . لكن الأزمة المسيحية قد حجبت تحولاً جارياً آخر : فلأول مرة يتطابق المفهوم الإسلامي الخاص بالمساواة بين جميع المؤمنين مع الممارسة الفعلية التي تنتهجها الدولة . والحال أن السكان المسلمين السنة في عمومهم إنما يشعرون بأنهم العنصر القائد للدولة وقد سعوا الى أن يضموا اليهم المسلمين المنشقين كالدروز في سوريا . واندماج الأعيان السنة السوريين في جهاز الدولة العثمانية هو الكاشف لهذا التطور . إن حكم المماليك البلقانيين أو الشراكسة إنما ينتمي الى الماضي .

والحال أن أحداث عام ١٨٦٠ قد أشعرت أذهان النخبة بضرورة تجاوز الانقسامات الطائفية . وهذا هو معني واتجاه عمل واحد كبطرس البستاني (١٨١٩ - ١٨٩٣) ، الماروني الذي تحول الى اعتناق البروتستانتية . فهو يتمسك في دروسه كما في كتاباته بالدعوة الى وحدة قومية قائمة على اللغة العربية ووحدة سورية في إطار الدولة العثمانية . وهو يرى أن العرب كانت لهم حضارة عظمي في الماضي ، ترجع الى المسيحيين والى المسلمين على حد سواء . وقد انتقلت حضارتهم الى أوروبا ، إلاّ أنه يجب الآن على العرب أن يستردوا من الأوروبيين ما هو ارثهم حقاً . وسوف يتسني لهم السير بشكل أسرع من الأوروبيين كما سوف يتسني لهم اللحاق بهم . وسعياً الى هذه الغاية ، فإنه يبدأ في تحرير أول موسوعة حديثة بالعربية ، قام بتمويلها الخديوي إسماعيل(٣٥) .

وهذا التبني لتيمة التنوير الأوروبي إنما يتم ضمن إطار فكر لا يزال تقليدياً . فعرب البستاني هم أولئك الذين يمكنهم التفاخر بنسب عربي . وبهذا المعني ، فإن سوريا بتطورها الثقافي وبادعاء سكانها العام الانحدار من قبائل عربية استقرت فيها قبل أو بعد الفتوحات العربية التي عرفها القرن السابع هي المؤهلة لتبني العروبية . إلاّ أنه في ستينيات القرن التاسع عشر ، كانت العروبية ما تزال جد سابقة للأوان والتوجه السوري هو أيضاً إمكانية : فمصطلح **سوريا** يعاود الظهور للتو في الحديث العربي الدراج .

نزعة الجامعة الاسلامية

لكن الشيء المهم الآن هو شعور الوحدة الإسلامية في وجه التدخلات المتزايدة من جانب أوروبا . وفي الصحف الصادرة باللغة العربية آنذاك ، فإن الفكرة الي تذهب الى أن فرقة المسلمين هي المسئولة عن ضعف الإسلام إنما تعود بإلحاح . وعلى امتداد الساحة من الشمال الأفريقي الى البلقان ، تنتشر تيمة الوحدة الإسلامية خلف سلطان - خليفة القسطنطينية . والمقتطف التالي دال على الفكرة الجديدة ، فكرة الأمة الإسلامية : «ضعفنا نابع من انعدام وحدتنا . والواقع أنه لو عادت مصر وتونس - بدلاً من تشكيل دولتين شبه مستقلتين والعيش تحت نفوذ ، إن لم نقل تحت ضغط ، الوزارات الأوروبية - الى حضن الوطن الأم ، فإننا سنكون ليس أكثر قوة فحسب ، إذ نصبح بلداً متلاحماً ومتجانساً ، بل إن موارد هاتين الولايتين - التي يجري تبديدها الآن بالفعل على الأسلحة والحصون والقصور وغير ذلك مما لا طائل من ورائه - إذا ما جري ضمها الى موارد الدولة (العثمانية) ، سوف يكون بوسعها أن تحقق التوازن بسهولة لميزانياتنا وسوف تتيح إنطلاقة جديدة لعمل الإحياء الذي دشنه العهد الحاضر . ذلك هو ما يجب أن يكون عليه الهدف المشترك إذا كنا نريد ألاّ نكون تحت رحمة دولة أو أخري بشكل متواصل . . .

«والإسلام ليس ديناً فقط ، فهو أمة أيضاً . والعرب والأتراك يعترفون بسلطان اسطنبول حاكماً شرعياً وخليفة . وبما أنه لا يوجد أي فارق بينهم ، فمن الطبيعي إذاً أن تصبح وحدتهم واقعاً . فعندئذ فقط ، سوف يكون بوسعهم أن يمارسوا تأثيراً في محافل أوروبا ، وعندئذ فقط ، سوف يكون بوسعهم القول بأنهم ينتمون الى شعب عظيم للإسهام في تطوير المباديء التمدينية للأزمنة الحديثة» [٣٦] .

ومن المعروف أن الخديوي إسماعيل والمقربين اليه يشددون على الوعي القومي المصري في وجه ما هو بسبيله الى أن يصبح نزعة الجامعة الإسلامية . لكن هذا النص يوضح أيضاً أن اختفاء التقسيم الوظيفي قد سمح للتمايز الإثني بالظهور . وهذا النص الذي عثر عليه في الأرشيفات المصرية ، من المرجح أنه قد كتب في القسطنطينية . والحال أن الطبقة الحاكمة العثمانية تبدأ هي نفسها في الظهور بأنها تركية . وحتى ذلك الحين ، كان المصطلح «تركي» يحمل معني «فلاح» التحقيري وكان يحيل الى ساكن أرياف الأناضول . وفكرة التوحد مع كائن جد محتقر كهذا الكائن ليس من شأنها أن تخطر ببال خادم لبيت آل عثمان . لكن الدراية باللغة الفرنسية وبالثقافة الأوروبية تصبح الآن هي القاعدة بالنسبة للموظفين المصلحين . وهم يواجهون دائماً الاسم الذي يعطيه لهم الأوروبيون ويشرعون على نحو غير

واع بتبنيه هم أنفسهم . ولما كانوا خارجيين بالنسبة للعالم العربي ، فإنهم يميلون بالطبع ، كالأوروبيين ، الى اعتباره كلاً واحداً والى استخدام المصطلح «عربي» للإشارة الى الناطقين بالعربية . ومن المفارقات أن ظهور تيمة الوحدة الإسلامية بين الأتراك والعرب هو تدشين للانبثاق البطيء ولكن الأكيد ، عبر دعوي النفي ، لاثبات الاختلاف بين الشعبين .

إصلاح الإسلام

التأكيد الأول لنزعة الجامعة الإسلامية سياسي الطابع . فهناك نجد من جديد رغبة الباب العالي القديمة في حشد جميع المسلمين خلف سلطة السلطان - الخليفة . لكن تأكيد سبعينيات القرن التاسع عشر يتجاوز الى حد بعيد هذا الإطار . ومنذ بداية القرن ، تضطر المراجع الدينية الى إخلاء الساحة بشكل متواصل أمام عملية العلمنة . وإذا كانت المدارس الإسلامية تستمر ، فإنها تفقد احتكار التعليم مع ظهور المدارس التي تتبع الدولة . ولا تجري استشارة **العلماء** إلاّ استيفاءً للشكل . بل إن ساحة الشريعة الإسلامية تنحسر بشكل متواصل ليتم اختزالها الى مجرد قانون أحوال شخصية . والأزياء والعادات الغربية تصبح بشكل متزايد شائعة بين الأوساط العليا من المجتمع . والشيء الأخطر هو أن فقهاء الدين يضطرون الى الاعتراف بتفوق الغرب الساحق دائماً بشكل متزايد . ولا يعود بوسع أحد إنكار «تأخر» المجتمع العثماني عن المجتمع الأوروبي . ومن المؤكد أن بالإمكان العثور على عزاء في التقدم الحذر ولكن الفعلي الذي يحرزه الإسلام في القارة السوداء وفي المحيط الهندي . لكن الدين الذي كان من المفترض أن يكون دين خير أمة أخرجت للناس لا يميل الآن إلاّ الى أن يكون دين الخاضعين للسيطرة وللإستعمار . والمهانة رهيبة .

وبالنسبة لمحركي **التنظيمات** ، فإن هذه الأخيرة كانت وسيلة لانقاذ الإمبرطورية من هذا الانحدار الذي لا علاج له . وكثيرون من الناس يعتبرون هذا العلاج أبشع من الداء . فقد أقام سلطة استبدادية في الداخل ما عاد يمكن تقويمها من خلال اضفاء الشرعية الإسلامية على التمرد . وقد أنتج تغريباً للفئات العليا من المجتمع يعتبره البعض خيانة .

ومنذ عهد سليم الثالث ، ظهر رجال الدين بوصفهم رجعيين ، عاجزين عن طرح حلول واقعية للمساويء التي يشكو منها المجتمع الإسلامي . ويحدث التغير في سبعينيات القرن التاسع عشر مع ظهور تيار فكري ملتبس ، هو تيار الإصلاح الإسلامي ، **السلفية** أو العودة الى مثال المسلمين الأوائل . والمحركون له ، المصري محمد عبده أو الإيراني الشيعي جمال الدين الأفغاني ، يعارضون في آن واحد السلطات القائمة التي تعتبر استبدادية والتدخلات الإمبريالية الغربية . وكان محمد عبده قد تلقي تكويناً أولياً في الطرق الصوفية المصرية بينما تلقي الأفغاني

تكوينه الأولي في مدارس الفكر الشيعي في العراق وإيران والتي كانت تحتفظ بتراث عقلاني .

وهما يحبذان إصلاحاً للإسلام مماثلاً للإصلاح الذي أدخله البروتستانت في قلب المسيحية . وهما يتهمان **العلماء** بالبحث في الفراغ ، وبعدم التصدي للأسئلة الأساسية حول طبيعة العالم وأسلوب السيطرة على الطبيعة : فالعالم المسلم يدرس كتبه الشرعية على لمبة غاز لكنه لا يتساءل البتة عن السبب في أن هذه اللمبة تتيح مثل هذه الإضاءة ! والحال أنه لا وجود لعلم إسلامي وعلم أوروبي ، بل يوجد علم مشترك بين جميع البشر .

وهما يطالبان بالعودة الى التراث العقلاني للإسلام الكلاسيكي ويوجهان أعنف هجماتهما ضد الطرق الصوفية المتهمة بأنها بؤرة التجهيلية الأكثر خبثاً . وغالباً ما كانت إداناتهما للمؤسسات الإسلامية التقليدية أعنف من إدانات الأوروبيين المعادين لدينهما . وهما يزعمان أن الإسلام قد جري إفساده في لحظة غير محددة من تاريخه لكنها قريبة من بداياته . وتجب استعادة الإسلام الحقيقي الذي سوف يعيد القوة الى المسلمين . ويجب لهذا الإصلاح أن يترافق مع اتحاد جميع المسلمين ضد الاعتداءات الأوروبية .

ويشترك هذان المفكران الثوريان في الدسائس السياسية لزمانهما ، غير مترددين في الانخراط في منازعات الأسرة المالكة المصرية أو في الانتماء الى مختلف أشكال الماسونية الشرقية . وفي السياسة ، فإنهما قريبان من الليبراليين الذين يطالبون بدستور . وهما يريان أن الرجوع الى رأي المؤمنين كان موجوداً في أزمنة الإسلام الأولي ويمكن أن يوجد في الليبرالية الحديثة . والحال أن تعقد الأوضاع التاريخية قد جعلهما قريبين من الجيل الأخير من رجال **التنظيمات** والذي لم يعد يؤيد ، بعد موت فؤاد وعالي ، سلطة سلطانية لا تزال مطلقة لكن بالإمكان ، عندما توجد في أيد ضعيفة ومتقلبة ، أن تقود الإمبراطورية الى هلاكها .

والحال أن المصلحين الجدد ، تحت قيادة مدحت باشا ، يقومون في عام ١٨٧٦ بخلع السلطان عبد العزيز ، ثم بخلع خليفته مراد الخامس لكي يضعوا في مكانه عبد الحميد الثاني . وقد وقعت ثورات القصور هذه خلال أزمة بلقانية جديدة ورهيبة . ويتعلق الأمر باستباق مطالبة جديدة بالإصلاحات من جانب الدول الأوروبية وذلك عبر إعلان دستور ليبرالي في ٢٣ ديسمبر ١٨٧٦ يكرس جميع مكتسبات **التنظيمات** باضفاء معني أكثر ليبرالية عليها عبر إضافة جمعية نيابية ذات سلطات فعلية . ولا يتسنى لهذا الإجراء الحيلولة دون نشوب حرب مدمرة ودموية مع روسيا وعقد مؤتمر أوروبي في برلين في عام ١٨٧٨ ينتهي ، مع تذكيره بمبدأ وحدة أراضي الإمبراطورية العثمانية ، الى تجريدها من جزء كبير من أراضيها البلقانية لحساب دولة جديدة مستقلة ، ومن الأراضي القوقازية التي استولت عليها روسيا ومن جزيرة قبرص التي أعطيت لإنجلترا .

المملكة العربية عام ١٨٧٩

والشيء الأكثر إثارة للدهشة خلال النزاع البلقاني الجديد الذي يضع المسيحيين في مواجهة المسلمين هو غياب الفتن الطائفية في الولايات السورية . وهذا دليل على مدي التقدم الذي تم إحرازه منذ عام ١٨٦٠ . لكن الحرب ضد روسيا سوف تقابل باستياء فادح في الولايات السورية : فبالنسبة لفلسطين وحدها ، التي يسكنها نحو أربعمائة وسبعين ألف نسمة ، يقال إن الحرب قد أدت الى مصرع أكثر من عشرة آلاف جندي من أهل البلد [٣٧] . وفي القسطنطينية ، عطل عبد الحميد الدستور ويبدأ في تنظيم حكمه الشخصي . وللمرة الأولي منذ محمود الثاني ، يمسك سلطان نشيط وعنيد بزمام الأمور بين يديه . ويجري عزل مصلحي عام ١٨٧٦ من مناصبهم . على أن انجلترا ترغم السلطان الى هذا الحد أو ذاك على استدعاء مدحت باشا وتعيينه والياً على ولاية دمشق . ويتولي مدحت منصبه الجديد في أواخر نوفمبر ١٨٧٨ .

وهو يتعرض لريبة السلطان الذي يتجسس عليه والذي يرفض كل مطالبه الخاصة بتوسيع سلطات الوالي ؛ والحال أن المصلح ضحية لمنطق **التنظيمات** ، فالولاية ليست غير وظيفة مدنية متميزة عن الوظائف العسكرية والقضائية . وتخشي فرنسا والباب العالي من النفوذ البريطاني على مدحت : فمنذ تواجد الإنجليز في قبرص ، تبدو مزاحمتهم للفرنسيين في سوريا أكثر مدعاة للخوف . وزيارة لايارد ، السفير البريطاني لدي السلطان ، الى سوريا في عام ١٨٧٩ ، تؤدي الى زيادة حدة هذه المخاوف . ووفقاً لتقرير قنصل فرنسا في بيروت ، فإن لايارد «قد سأل أيضاً مدحت باشا ما إذا كان صحيحاً أن هناك مؤامرة عربية واسعة لها امتداداتها في حلب والموصل وبغداد والمدينة ومكة ، وقد رد عليه هذا الوالي بأنه قد سمع بالفعل بمثل هذه المؤامرة ، إلاّ أنه ليس بوسعه ، الآن ، أن يقدم اليه أية معلومات دقيقة حول هذا الموضوع ؛ (. . .) وبوسعه أن يضمن له ، ما ظل والياً على سوريا ، أن مؤامرة من هذا النوع لن تكون لها أية فرصة نجاح .

«(. . .) ووفقاً لما أمكن تسربه حتى الآن من معلومات حول المؤامرة المذكورة فإنها لا تهدف الى ما هو أكثر أو أقل من إنشاء مملكة عربية توحد ولايات حلب ودمشق وبغداد واليمن ، إلخ ، وسوف يجري وضع عربي على رأسها ؛ (. . .) بل إنه يقال أنه قد جري ذكر اسم الأمير عبد القادر ، كسلطان قادم لهذه المملكة ، إلاّ أن من الصعب ، الآن ، التمكن من طرح شيء مؤكد في هذا الصدد» [٣٨] .

مســألة البيانات

من المؤكد أنه منذ بداية عام ١٨٨٠ توجد جمعيات سرية في سوريا وأنها تضطلع بحملة دعائية تدعو الى انفصال سوريا والى تكوين كيان سياسي عربي . ومن المعروف أن مدحت قد شجع تكوين جمعية خيرية إسلامية مهمتها الدعوة إلي إنشاء مدارس خاصة للمسلمين ، سعياً الى مواجهة منافسة المؤسسات المسيحية . وقد تمكنت هذه الجمعية ، «**جمعية المقاصد الخيرية**» ، من حجب جزء من نشاطاتها السرية . وتظهر البيانات الأولي في ربيع عام ١٨٨٠ في بيروت وفي دمشق . وهي تدعو الى تيقظ الإباء العربي والى إنهاء الخضوع للحكم العثماني المنحط والى وحدة الوطن السوري [٣٩] .

وينزعج عبد الحميد من هذا التحرك ويستغله لعزل مدحت باشا عن ولايته في أغسطس ١٨٨٠ . وبعد فترة سكينة تظهر بيانات أخري في أواخر عام ١٨٨٠ في المدن السورية الرئيسية . والنبرة هذه المرة مختلفة :

«أيها الاخوة

«تعرفون وقاحة الأتراك واستبدادهم واستعلاءهم ؛ تعرفون أن حفنة من رجال هذا الجنس تتحكم فيكم وتخضعكم لنيرها وتسترخص أرواحكم وممتلكاتكم . لقد صادروا كل حقوقكم ودمروا شرفكم والاحترام الواجب لكتبكم (معتقداتكم) . وقد رتبوا ترتيبات تحكم على لغتكم المجيدة بالنسيان وهم يلتمسون كل السبل لتفريق شملكم ولإضعاف قواكم . وهم يغتصبون ثمرة جهدكم وكدكم ، ويحرمونكم من حرية الحركة في بلادكم ومن حرية التصرف في ممتلكاتكم . وأخيراً ، فقد سدوا أمامكم كل سبل التقدم ، وهم يوجهون اليكم الإهانات ويستعبدونكم ويعاملونكم معاملة العبيد كما لو أنكم لستم بشراً .

«إلاّ أنكم ، بدوركم ، يجب أن تتذكروا أنكم كنتم السادة ؛ أنكم أفرزتم رجالاً مشاهير في شتي فروع المعارف والنشاط البشري ؛ أنكم شيدتم المدارس ، وعمرتم البلاد وأحرزتم فتوحات ضخمة وأنه على أساس لغتكم بنيت الخلافة التي سلبها منكم الأتراك فيما بعد .

«أنظروا حولكم . تأملوا كيف يتعرض اخوتكم للموت وأية معاملة تنزل بهم ؛ أنظروا الى أي مآل آلت أوقافكم [٤٠] ؛ تأملوا هذه الأراضي الشاسعة التي أصابها البوار .

«يجب أن تفكروا في سبل انتشال بلادكم من الخراب . تحركوا قدماً الى الأمام لكسر النير ولانتزاع حريتنا ! اعلموا أن اللحظة قد حانت لاسترداد حقوقنا ! لننزع عنا خمولنا . لنتحد ولنتحرك صوب نور الحقيقة والعدل .

«تجرأوا على أن تكونوا كاخوتكم الذين اقسموا ألاّ يتراجعوا قبل بلوغ الهدف الذي يسعون

اليه وهو تحرير الوطن من أيدي الغاصبين أو التضحية بأرواحهم الغالية على مذبح الحرية ، قربان فداء مقدس إن تطلب الأمر ذلك .

«والآن ، بعد تداول الرأي ، قرت اللجنة التنفيذية ما يلي قبل الاحتكام الى السيف . فإذا ما أردتم أن يذعنوا لإرادتكم ، فسوف ننكب على تنظيمكم وإلاّ فسوف ندع جانباً الكلام والندم والشكوي التي لا طائل من ورائها ونعمل على بلوغ مأربنا بحد السيف .

«هذه هي المطالب الرئيسية التي دعت اللجنة التنفيذية الى المناداة بها :

« ١ - الاستقلال المشترك مع اخوتنا اللبنانيين ؛ والذي يكفل لنا مصالح الوطن وسعادة الشعب .

« ٢ - استعمال العربية كلغة رسمية . الحرية الكاملة للفكر وللنشر : للكتب وللصحف وللمطبوعات على اختلاف أنواعها . حرية الفعل أخيراً بما يتمشي مع متطلبات الترقي والتمدن .

« ٣ - استخدام جنودنا في خدمة الوطن وحدها ، وذلك لتخليصهم من استعباد الأتراك لهم .

«وحول هذه النقاط وغيرها سوف يتعين علينا أيضاً الاستفادة من المزايا والتعديلات التي نحتفظ لأنفسنا بحق مناقشتها في الوقت المناسب» [٤١] .

وفي مارس ١٨٨١ ، تظهر سلسلة أخيرة من البيانات في مجمل العالم العربي : فهي تظهر في الجزائر كما في العراق أو في السودان [٤٢] . والتيمات هي عين تيمات أواخر عام ١٨٨٠ ، لكنها أكثر دقة . ونحن نعني **بيان نامه الأمة العربية** التي تشمل المسلمين والمسيحيين على حد سواء . ويشار في هذا البيان الى الاستقلالات البلقانية والى سوء المعاملة التي يتعرض لها العرب في الجيش التركي ، والى خلو المناصب المهمة في الإمبراطورية من العرب ، والى اتحاد المسلمين والمسيحيين من أجل تحرير الأمة العربية . ويحمل التوقيع اسم **«جمعية حفظ حقوق الملة العربية»** .

أصحاب البيانات

يظل أصحاب البيانات مجهولين . وتتفق جميع الشهادات على ضعف الاهتمام الذي وجهه السكان السوريون الى هذه النصوص ، خاصة بالنسبة للبيانين الأولين . وفي المقابل ، فإن السفارات الأوروبية تهتم بهذا الموضوع اهتماماً فائقاً وتكثر من التخمينات (حول كتاب البيانات) . وقنصل فرنسا يعددهم في يناير ١٨٨١ :

١ - جمعية المقاصد الخيرية التي أسسها مدحت .

٢ - مجموعة من المسيحيين الذين «وقد تخرجوا من كليات سوريا واستمدوا أفكارهم من روسو ومن الموسوعيين ، أرادوا خوض تجربة ثورة اجتماعية وأصبحوا أقوياء بما يؤهلهم لرفع مواطنيهم في أقل من عامين الى المستوي الذي أصبحنا عنده الآن» .
٣ - عائلة عبد القادر [٤٣] .

وسوف يكون من غير المعقول الى حد بعيد أن ننسب الى عبد القادر ، وقد أصبح الآن متقدماً في العمر ، المشروع الذي كان قد رفضه في الستينيات . على أنه يبدو جد قريب من مواقف كتاب البيانات ، إذا ما صدقنا إفضاءاته لقنصل فرنسا العام في بيروت في أكتوبر ١٨٨١ : «قال لي الأمير عبد القادر في هذه الأيام الأخيرة إن سوريا لم تكن ، منذ زمن طويل ، على هذه الدرجة من سوء إدارتها ، وإن كان يعتقد أن بوسعها احتمال نير أكثر إرهاقاً بكثير ؛ وأنه لا يوجد هناك غير القليل من عناصر المقاومة وأن هذه العناصر منقسمة انقساماً عميقاً . وقد أضاف أن هذه العناصر ، بمفردها ، لن تفعل شيئاً ، إلاَّ أن أيام السيطرة التركية سوف تكون معدودة لو شعرت (هذه العناصر) بأنها مدعومة أو لو كانت بالأحري تتمتع بالتوجيه وبالمساندة من الناحية الأدبية من جانب دولة عظمي .

«وهذه التصريحات التي قيلت بالنبرة الواثقة المميزة للأمير والتي كانت مصحوبة بالاعرابات عن احتقار عميق للأتراك وللسلطان ، بدا لي أنها تستحق نقلها اليكم بحذافيرها .

«وأعتقد أنه ليس هناك من تحديد لوضع الولاية أفضل من هذا التحديد . إنه الرأي المدروس الصادر عن المراقب الذي يسمح له موقعه بأن يعرف سوريا معرفة أفضل من معرفة أي أحد آخر» [٤٤] .

والحال أن الأطروحة التي ترجح الجمعية السرية المسيحية قد أيدها چورج أنطونيوس في كتابه الشهير «**اليقظة العربية**» ، الصادر بالإنجليزية في عام ١٩٣٨ . وهو يستند الى شهادات شفاهية أدلي بها شهود معمرون كان قد أجري لقاءات معهم بعد عقود كثيرة من أحداث ذلك الزمن البعيد [٤٥] . ويستند هذا النسب الى عنصرين أساسيين :
١ - لقد أكده معاصرون للأحداث

٢ - كما أن نص البيانين الأولين يتمشي مع الأفكار التي كان قد جري تطويرها في حلقة آل البستاني . لكن تلك ليست حالة البيانين الأخيرين اللذين يدوران على مدار كلام إسلامي أساساً وبعيد عن مواقف المسيحيين التقليدية : رفض محتوي الإصلاحات العثمانية ، مسألة الخلافة . والحال أن البحوث التالية لم تقدم براهين على وجود هذه الجمعية السرية وليس بالإمكان تحديد أي تأثير مباشر بين فكر حلقة آل البستاني والجيل الأول من أنصار النزعة العربية في مستهل القرن العشرين [٤٦] . والإشارة الى مدحت باشا هي الإشارة التي يجري

الاحتفاظ بها عادة أكثر من سواها . فقد كان الوالي يطالب بسلطات متزايدة يرفض السلطان منحه إياها . ومن شأن وضع أزمة أن يجعلها ضرورية . وقد اتهمه كثيرون آنذاك بأنه يريد تأسيس ولاية سورية لحسابه بمساعدة إنجلترا المتمركزة في قبرص منذ عام ١٨٧٨ . وأرشيفات شرطة عبد الحميد السرية مليئة بالتقارير التي تجعل من المُصلح المسئول الخفي عن البيانات[٤٧] . إلاّ أن بعض هؤلاء المؤرخين يرون أنه من غير المرجح أن يصبح الرجل الذي كرس حياته لإصلاح ولتوطيد الإمبراطورية العثمانية انفصالياً بهذه السرعة [٤٨] .

والبيانات الأكثر عنفاً وذات النبرة الإسلامية الأعلى تالية لرحيل مدحت . ومن المحتمل أن المصلح قد شجع ، أو على أية حال ، تغاضي عن السلسلة الأولي من البيانات مستخدماً بعد ذلك أعضاء حلقة آل البستاني كمحررين للبيانات . ومن المفارقات أن موظفاً عثمانياً ، على علم بالفكر الأوروبي ، هو أعلم من عرب سوريا بالحجج التي يجب ا ستخدامها مع جمهور أوروبي ، هو الجمهور الحقيقي الذي تتوجه اليه البيانات الأولي . وبرهان ذلك هو الافضاءات التي قيلت للسفير البريطاني حول المؤامرة العربية .

أما السلسلة الثانية من البيانات فهي تخاطب السكان العرب المسلمين بأكثر مما تخاطب الأوساط الديبلوماسية . والإشارة الى ملمات الحرب مع روسيا موحية بالنسبة للسكان السوريين الذين دفعوا ثمناً باهظاً من الأرواح في هذه الحرب . والدفاع عن الإسلام في وجه الترتيبات السيئة التي رتبها الباب العالي هي عنصر ثابت ، منذ عام ١٨٣٩ ، من عناصر الاحتجاج الإسلامي في سوريا . وقد كانت مسألة المناصب في الإدارة العثمانية وفي الجيش العثماني مشكلة فعلية كما سوف تبين ذلك سياسة عبد الحميد اللاحقة . وإفضاءات عبد القادر كاشفة فيما يتعلق بتلك الشكايات ، حتى وإن كان يعترف بالضعف السياسي للمقاومة التي تواجه السلطة العثمانية .

وتبقي مسألة الخلافة العربية . لقد رأينا أن المسألة قد أثيرت لمدة طويلة في زمن حروب محمد على السورية . وقد اشتبه الباب العالي دائماً في احتفاظ الأسرة الحاكمة لمصر بعلاقات مع شريف مكة تهدف الى جعله يوماً ما خليفة عربياً مضاداً بل واشتبه في رغبتها في أن تستولي ، بحيلة ما ، على لقب الخليفة بدلاً من الخليفة العثماني [٤٩] . والحق أن ويلفريد سكاڤن بلنت ، وهو ارستقراطي إنجليزي ، ينشر في عام ١٨٨٢ كتابه **مستقبل الإسلام** الذي يؤكد فيه أن السلطان العثماني لا يحوز الخصال الضرورية لأن يكون خليفة وأن إصلاح الإسلام لا يمكن أن يتحقق إلاّ إذا عادت الخلافة الى العرب حيث يجب لمقرها أن يكون في المدينتين المقدستين في الحجاز . وقد تعرف بلنت على الفكر الإسلامي من خلال مناقشاته مع المصلح الإيراني مالكوم خان ، والأفغاني ، ومحمد عبده ، ولويس صابونجي ، وهو كاتب

اجتماعي من أصل مسيحي استخدمه الخديوي إسماعيل في المنفي من أجل الاضطلاع بدعاية لفكرة الجامعة الإسلامية ، وإن لم تكن بالضرورة دعاية موالية للعثمانيين . وكان (بلنت) على اتصال مع جميع من كانوا زعماء سياسيين للمصلحين وللثوار المسلمين [٥٠] . وكانت فكرة الخلافة العربية شائعة في الدسائس السياسية المعقدة للوسط الثوري المسلم في مستهل ثمانينيات القرن التاسع عشر . وكانت هناك متابعة متحمسة في سوريا للنشاطات السياسية المصرية .

وما لم تتم اكتشافات جديدة حول المسألة ، فإن بوسعنا استنتاج أن بيانات بيروت إنما ترجع الى أصلين جد متمايزين . الأولُ ، جماعةٌ صغيرة من المسيحيين ، يحركها مدحت باشا الى هذا الحد أو ذاك ؛ الثاني ، مسلمون عرب ساخطون على الباب العالي ومن المرجح أنهم مرتبطون بالجمعيات الثورية التي كان مركزها آنذاك في مصر أو أنهم ، على أية حال ، يستلهمون أفكارها ، عبر وسيط أو آخر .

موقف فرنسا

مما له دلالته أن فرنسا تتخذ موقفاً سلبياً تجاه عودة الظهور الجديدة هذه للنزعة العربية . فهي تخشي من استخدام الحركة من جانب انجلترا ، التي يصل الأمر بالبعض الى حد اتهامها بحفزها . ولم تعد فرنسا تطرح فكرة النزعة العربية خلافاً لما كان عليه الأمر في ثلاثينيات وستينيات القرن التاسع عشر . وتفسير هذا المسلك بسيط : ففي عام ١٨٧٨ ، كانت فرنسا تحت صدمة كارثة ١٨٧٠ - ١٨٧١ : ولم تكن قد عاودت بعد الظهور على المسرح كقوة عظمي دينامية . وكان لابد من انتظار التسوية النهائية للصراع على السلطة بين المحافظين والجمهويين وسياسة الانتهازيين الإمبراطورية ، أي مستهل الثمانينيات ، حتى تستعيد فرنسا ، ولكن بأية حيوية ، توسعها الاستعماري .

وفي سوريا وفي لبنان ، منذ عام ١٨٧١ ، فإن السياسة الفرنسية هي قبل كل شيء سياسة دفاع عن أشكال النفوذ المكتسبة . وسرعان ما سوف يتم تجديد حماية مسيحيي الشرق على يد أعداء الأكليروس الموجودين في السلطة . والمؤكد أنه تجري مواصلة دفع معاشات للرعايا الفرنسيين الجزائريين المقيمين في سوريا . وعند موت عبد القادر في عام ١٨٨٤ ، سوف يطلب جول فيري التصويت بالموافقة على مواصلة دفع هذه المخصصات كأداة مفيدة من أدوات السياسة الشرقية الفرنسية [٥١] .

ويندرج مسلك الجمهورية بشكل واضح ضمن مواصلة السياسة المسيحية التي اتبعها جيزو في أربعينيات القرن التاسع عشر . وضمنياً ، فإنها تبدأ في التسليم لانجلترا بالنفوذ على

المسلمين العرب . والحال أن انجلترا تشرع ، خلال أزمة عام ١٨٨٠ ، بالاهتمام بفكرة عروبية تتجاوز حدود حماية الطائفة الدرزية .

السياسة الحميدية

لكن النزعة العربية ليست في جدول الأعمال . لقد أدرك عبد الحميد أسباب السخط السوري . وكان مؤتمر برلين قد اختزل بدرجة ملحوظة نسبة السكان المسيحيين في الدولة العثمانية . وسوف يتعين على الدولة ، التي أصبحت أكثر تجانساً على المستوي الطائفي ، أن تواجه في مقدونيا ومع الأرمن المطالب المسيحية المزعجة ، والمتناقضة أحياناً . لكن تأكيد الإسلامية الإمبراطورية يصبح أقل عرضة بكثير للرفض ويصبح رفضه الفعلي أقل بكثير من ذي قبل . والحال أن السلطان ، مع مواصلته واستكماله للعمل الإداري والبيروقراطي الذي دشنته **التنظيمات** ، إنما يصل الى إضفاء أهمية سياسية من جديد على الإمبراطورية بفضل نزعة الجامعة الإسلامية . وفي الداخل ، يتكون لدي رجال الدين ، خاصة رجال الطرق الصوفية ، الانطباع بأن السلطة قد أصغت لهم من جديد . ومن الواضح أن المذهب الرسمي هو أن الإسلام يشكل لحمة تماسك الإمبراطورية . ولأول مرة ، يشترك عرب سوريا السنة اشتراكاً فعلياً في إدارة ولاياتهم - بما يتجاوز مجرد سياسة أعيان - ويصعدون الى مناصب مهمة في الإدارة العامة للإمبراطورية . ويجري تجنيد ضباط عديدين من صفوف عرب العراق السنة . ويؤدي تقدم السكك الحديدية الى تسهيل المواصلات الإمبراطورية ويتكون لدي النخبة الاجتماعية العربية السنية الانطباع بأنها تشكل جزءاً من الطبقة الحاكمة للإمبراطورية . وهي تبدأ في التفكير من منظور أعم من منظور مصالحها المحلية الخاصة .

ويصبح الإسلام من جديد هو لحمة الإمبراطورية . ويعتز العرب بذلك لأن لغتهم هي لغة القرآن ، ومن ثم لغة الله . وبشكل عفوي ، يعتبرون أنفسهم خير المسلمين . ومن ثم يمكن تصور أن الهوية الإسلامية قد حلت محل الهوية الإثنية كعامل تلاحم للطبقة الحاكمة . لكن الإدعاء خادع . فالاتصال يتزايد كثافة مع المقولات الذهنية للغرب . ويشرع الأتراك في اعتبار أنفسهم أتراكاً بصرف النظر عن تعلقهم الفعلي بالحفاظ على الإمبراطورية : وفي هذا يكمن مجمل التباس موقف مناضلي جماعة تركيا الفتاة الذين سوف يكونون المسئولين عن ثورة عام ١٩٠٨ . ويبدأ العرب في التمايز عن الأتراك : فبشكل ضمني يري كثيرون من بينهم أن الدفاع عن الإسلام في مواجهة الغرب إنما يبرر ابقاء الولايات العربية داخل الإمبراطورية ؛ وإذا ما تكشف عجز الأتراك عن مقاومة الغرب عسكرياً أو ثقافياً ، فسوف تدق عندئذ ساعة العرب .

والانفصال عن الإمبراطورية العثمانية إنما ينطوي على التوجه الى أوروبا أو ، في البداية على الأقل ، الحصول على مباركتها : وعلى أية حال ، ألم يبد أوروبيون في أعوام ١٧٩٩ و١٨٣٣ و١٨٦٠ و١٨٨٠ تعاطفهم مع نزعة عربية بلا عرب من الناحية العملية ؟ إلاّ أنه في ثمانينيات القرن التاسع عشر هذه حيث يتشكل وعي العروبية دون ضجيج ، يتوجب على المثقفين الشرقيين أن يواجهوا نوعاً من الرفض العام من جانب الغرب ، أكان ذلك على مستوي التمدن أم على مستوي السياسة وحدها .

حواشي الفصل الخامس

١ - إنني ألتزم هنا بالترجمة الفرنسية الرسمية التي جرى إبلاغ السفارات بها والتي تتميز بحجية قانونية .

٢ - حول هذا الموضوع انظر كتابي كارتر ڤون فندلي Carter Vaugn Findley, *Bureaucratic Reform in the Ottoman Empire : The Sublime Porte, 1789 - 1922*, Princeton, 1982 و *Ottoman Civil Officialdom, a social history*, Princeton, 1989

٣ - من مترنيخ الى البارون دو سترمر ، ٣ ديسمبر ١٨٣٩ ، *Mémoires, documents et écrits divers laissés par le prince de Metternich*, publiés par son fils le prince Richard de Metternich, Paris 1883, t. VI, pp. 381 - 382

٤ - Voir H. Laurens, "Le projet d'État juif attribué à Bonaparte", *Revue d'études plaestiniennes*, n°33, 1989, pp. 69 - 83

(مقال كاشف للسيرورة التي أدت الى تزوير بيان نسبه مزوروه الى بونابارت . وبرغم كشف هذا المقال لهذا التزوير منذ عام ١٩٨٩ ، إلاأن محمد حسنين هيكل قد أعاد نشر البيان بعد أن أدخل عليه تزويرات اضافية من عنده . أنظر : محمد حسنين هيكل :**المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل** ، الجزءا ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٦ ، ص ٢٧ - ٣٤ ، وأنظر كشفنا لهذه الفضيحة في مجلة « الكتابة الأخرى » غير الدورية ، عدد يناير ١٩٩٧ ، ص ٣٠٣ - ٣١٠ . المترجم) .

٥ - J. Hajjar, *LE'úrope et les destinées du Proche - Orient (1215 -1848* 1848), Paris, 1970, pp. 52 - 53 هذا العمل عمل أساسي حول جميع النشاطات التبشيرية .

٦ - J. Hajjar, *op. cit.*, pp. 326 - 352, Tibawi, *British Interests in Palestine (1800 -1901), A Study of Religious and Educational Entreprise*, Londres, 1961

٧ - عبر شكل شهادة تخويل صادرة الى بطريرك أرمني كاثوليكي في القسطنطينية مكلف بتمثيل جميع المسيحيين الشرقيين المعترفين بالمرجعية البابوية أمام السلطة المركزية : «بينت الاستقصاءات التي جرى الاضطلاع بها أن الكاثوليك رعايا دولتي بما أنهم ليس لهم أساقفة على حدة فقد كانوا دائماً تحت سلطة البطاركة اليونانيين والأرمن ونوابهم ، وبما أن مذهبهم يختلف عن مذهب الملتين اليونانية والأرمنية وأنهم لا يملكون ممارسته ممارسة كاملة ، فإنهم يجدون أنفسهم مختزلين الى الاضطرار الى التردد على الكنائس الإفرنجية والى نيل الأسرار من جانب آخرين ، الأمر الذي يعد بالنسبة لهم مصدر شعور بالمهانة والحزن . وبما أنهم يشكلون جزءاً من الرعايا الذين يستظلون بحمايتي السلطانية ، فمن الواضح أن من واجبي

كسلطان أن أكون أكثر حرصاً على راحتهم وعلى هنائهم وأن أخلصهم من هذا الشعور بالمهانة ومن هذا الحزن ، بتخصيص كنائس خاصة لهم يمكنهم أن يمارسوا فيها عبادتهم ، إذ يكفون عن التردد على الكنائس الإفرنجية . وليمتنع البطاركة اليونانيون والأرمن ونوابهم وأي أحد من الآخرين عن التدخل بأي شكل كان على الأطلاق في أي شأن ديني أو غير ديني من أي نوع من شئون الكاثوليك» Hajjar, op. cit., p. 216 .

٨ - Mémoires pour servir à l'histoire de mon temps, Paris, 1865, t. VII, p. 247 - 248 : «كلما تحدثت وتعاملت مع هؤلاء السياسيين المسلمين ، الأبرز والأكثر استنارة في بلدانهم على اختلافها ، كلما صدمني ما يكشفونه هم أنفسهم من خواء وعجز في هذا الإسلام الذي يمثلونه . لقد كانوا كلهم ، في أعماقهم ، حزينين ومنزعجين من الحالة التي وصلت اليها حكومتهم وأمتهم ؛ وقد بدوا كلهم مهمومين بحاجة معينة الى الإصلاحات ؛ إلاّ أنه لم تكن هناك ، في أفكارهم وفي مساعيهم في هذا الاتجاه ، لا تلقائية ولا خصوبة ؛ فهم لم يفكروا البتة ولم يتصرفوا البتة تحت دفع من الفكر الخاص والنشاط الداخلي للمجتمع الإسلامي ؛ ولم تكن رغباتهم وأعمالهم الإصلاحية غير استعارات مضنية من الحضارة الأوروبية والمسيحية ؛ وهي استعارات جري الاتفاق عليها من أجل هدف وحيد هو دعم حياة مزعزعة ، بالتشبه الى حد ما بأجانب مجاورين يصعب التخلص منهم . والحال أن المحاكاة والخوف هما من الميول العقيمة من حيث الجوهر ؛ فالمحاكاة لا تتغلغل البتة في الجماهير والخوف يظل خوفاً عديم الصدق . إن جميع هؤلاء المسلمين ، الأتراك والمصريين والعرب ، لو تُركوا لشأنهم ، لما فعلوا شيئاً مما جربناه معهم ؛ وبالنسبة لأي إنسان غير ميال الى أو ملزم بأن يصدق المظاهر الخادعة ، فإن كل ما جربناه لم يمس سوي السطح وذهب أدراج الرياح» .

٩ - Mémoires pour servir à l'histoire de mon temps, Paris, 1894, t. VI, pp. 257 - 258

١٠ - بالنسبة لمجمل هذه الفترة ، فإن المرجع الرئيسي هو Dominique Chevallier, La société du mont Liban à L'epoque de la révolution industrielle en Europe, Paris, 1971, pp. 156 - 179

١١ - Dominique Chevallier, op. cit., pp. 182 - 209

١٢ - Edmond Bapst, Les Origines de la guerre de Crimée, Paris, 1912, p. 364

١٣ - نص الخط الهمايوني لعام ١٨٥٦ منشور في Adel Ismaïl, Documents diplomatiques et consulaires..., Beyrouth, 1982, t. XXIX, pp. 214 - 223

١٤ - «المادة ٩ : إن صاحب الجلالة السلطان ، في حرصه المتواصل على رفاهية رعاياه ، حيث تكرم بإصدار فرمان ، إذ يحسن أحوالهم دون تمييز في الدين أو في الجنس (العرق) ، يختص بكريم مقاصده السكان المسيحيين في دولته ، ورغبة منه في تقديم دليل جديد على مشاعره في هذا الصدد ، قد قرر إبلاغ الدول المتعاقدة بالفرمان المذكور ، الصادر بإرادته السلطانية الحرة .

«وتسجل الدول المتعاقدة القيمة السامية لهذا الإبلاغ . ومن الواضح تماماً أنه لا يمكنه ، بحال من الأحوال ، أعطاء الحق للدول المذكورة في التدخل ، أكان ذلك بشكل جماعي أم بشكل منفرد ، في

علاقات صاحب الجلالة السلطان برعاياه ولا في الإدارة الداخلية لدولته» ، Adel Ismaïl, *Documents diplomatiques et consulaires...*, Beyrouth, 1982, t. XXIX, p. 200

١٥ – المادة ٧ في . Paul Dumont, "La période des tanzimat, 1839 - 1878" in Mantran éd *Histoire de l'Empire ottoman*, Paris, 1989, p. 509 (انظر ترجمتنا العربية لكتاب **تاريخ الدولة العثمانية** ، دار الفكر ، القاهرة ، ١٩٩٣ ، الجزء ٢ ، ص ١٣٨ – المترجم) ؛ وتوجد صيغة مختلفة اختلافاً طفيفاً في Adel Ismaïl, *Documents diplomatiques et consulaires...*, Beyrouth, 1982, t. XXIX, p. 200

١٦ – Dominique Chevallier, *La Société...*, p. 242

١٧ – حول سوريا في هذه الفترة ، أنظر ، Moshe Ma'oz, *Ottoman Reform in Syria and Palestine, 1840 - 1861*, Oxford, 1968

١٨ – إن الحماية القنصلية المقصورة من الناحية النظرية على موظفي القنصليات من الأهالي إنما تسمح للمستفيد بها بأن يصبح من «رعايا» دولة أوروبية ويتمتع بعدد كبير من الحصانات القانونية (المحاكمة أمام محاكم قنصلية وليس بعد المحاكم العثمانية) والضريبية ، وذلك كمرحلة انتقالية قبل الحصول على الجنسية (الأوروبية) والذي يتيح التمتع بحقوق المواطنة الكاملة . وفي خمسينيات القرن التاسع عشر ، يشكو الباب العالي بصورة منتظمة من إساءات استخدام الحماية ويهدد بمصادرة جميع ممتلكات من يتخلون عن جنسيتهم العثمانية .

١٩ – خاصة وأن المصلحين العثمانيين يميلون الى إبعاد كبار الموظفين المعروفين بعدائهم **للتنظيمات** الى سوريا ، بعيداً عن العاصمة .

٢٠ – حول هذه المسألة ، انظر N. Hatoum, *L'Opinion publique française et la question de Syrie (1860 - 1861)*, thèse dactylographiée, Université de Paris, 1945

٢١ – نص الاتفاق على إرسال قوات أوروبية الى لبنان والى سوريا بتاريخ ٣ أغسطس ١٨٦٠ منشور في Adel Ismaïl, *Documents diplomatiques...*, t. XXIX, pp. 49 - 51

٢٢ – حول هذه المسألة ، أنظر المقالين الأساسيين ، M. Émerit, "la crise syrienne et l'expansion économique française en 1960", *Revue historique*, 1952, pp. 211 - 232 الذي صححه شارل – روبير آجرون تصحيحاً كاملاً ، "Abd el - Kader, souverain d'un royaume arabe d'Orient", *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, 1970, pp. 15 - 30

٢٣ – الجزء الأوروبي من الدولة العثمانية ، حيث يشكل المسيحيون الغالبية .

٢٤ – من لاقاليت الى ثوفنيل ، وزير الشئون الخارجية ، ٢٤ يوليو ١٨٦٠ ؛ Adel Ismaïl, *Documents diplomatiques..*, t. 28 , p. 413

٢٥ – من لاقاليت الى ثوفنيل ، وزير الشئون الخارجية ، ٢٥ يوليو ١٨٦٠ ؛ Adel Ismaïl, *Documents*

diplomatiques..., t. 28, p. 426

٢٦ - Ma'oz, *op. cit.*, pp. 235 - 236 : «الواقع أنه مع تصاعد العنف كل يوم في دمشق ومع إساءة معاملة المسلمين للمسيحيين ، فإن تصرفات أحمد وتقصيراته قد أسهمت في زيادة تفاقم الوضع . فهو لم يحل دون دخول جماعات الدروز المسلحة الى المدينة كما لم يسمح للأمير عبد القادر ، الوجيه الجزائري المقيم ، باستخدام رجاله ، تحت إشراف الحكومة ، في كبح جماح أولئك الدروز وحماية الحي المسيحي» .

Poujoulat, *La Vérité sur la Syrie*, Beyrouth, 1986 (1 er édition 1861), p. 38 : «منذ وقت طويل تروج إشاعات مخيفة في مدينة دمشق . ويشيع في الجو ما يشبه رائحة مؤامرة مسلمة تُعَدُّ التخيلات المسيحية عنها مرعبة . وكان على المذابح التي خطط لها أحمد باشا أن تبدأ في ١٨ يونيو ، بعد الاستيلاء على زحلة ، بما يعد غدراً جديداً من جانب الحكومة التركية تجاه المسيحيين . وكان عبد القادر على علم بالمؤامرة . وقد اشتري ألفاً ومائتي بندقية وذخائر تحسباً للموقف . وقد أدي قراره وعزمه الى إرجاء تنفيذ المشاريع الشريرة التي خطط لها أحمد باشا» .

٢٧ - من وزير الحربية الى بوفور ، ٢٢ سبتمبر ١٨٦٠ ، Ageron, *op. cit.*, p. 22 : «هل تعتقد أن بوسع عبد القادر ممارسة حكم سوريا ؟ هل تعتقد أن الدول التي يوجد لها ممثلون في بيروت ترغب في تعيينه؟ إنني لا أفكر في ما يجب أن نتمناه بالنسبة للمستقبل من وراء هذا الاختيار الافتراضي فيما يتعلق بممتلكاتنا في أفريقيا : إنني أتوقف عند اللحظة الحاضرة وفيما يتعلق بالتهدئة الدائمة لسوريا وفي هذا السياق الفكري ، فإن عبد القادر يبدو لي مؤهلاً بحكم السمعة التي اكتسبها في الجزائر كما بحكم المسلك الشجاع الذي التزم به في هذه الملابسات الأخيرة» .

٢٨ - Poujoulat, *op. cit.*, p. 373 في النص نفسه ، ينحاز عبد القادر الى فكرة تنظيم أوروبي لسوريا . وإذا كان ذلك يتمشي مع مشاعره المعادية للعثمانيين ، فإنه يتعارض على أية حال مع موقفه كمؤمن . ولا يتوافر ملف نقدي لجميع رسائل وتصريحات عبد القادر خلال فترة وجوده في المنفي ، والانكباب على إعداد ملف كهذا هو عمل طويل الأجل سوف يتطلب ، بين أمور أخري ، الاضطلاع ببحوث في مراكز التوثيق اللبنانية . ولم يتسن لي ، على سبيل المثال ، الحصول على أصول الرسائل المتبادلة بين الأمير والزعيم الماروني يوسف كرم ، والمنشورة في كتابين :

١ - كتاب اسطفان البشعلاني ، **لبنان ويوسف كرم** ، بيروت ، ١٩٢٤ .

٢ - كتاب سمعان الخازن ، **يوسف بك كرم في المنفي** ، طرابلس ، ١٩٥٠ ، ص ص ٣٤٦ - ٣٥٦ .

٢٩ - حول جميع هذه الجوانب ، أنظر Philip S. Khoury, *Urban Notables and Arab Nationalism, The Politics of Damascus, 1860 - 1920*, Cambridge, 1983

٣٠ - Dominique Chevallier, *Ville et travail en Syrie*, Paris, 1982

٣١ - Adel Ismaïl, *Documents diplomatiques et consulaires...*, t. XIX, pp. 300 - 307

٣٢ - الكتاب الأساسي حول الموضوع ، هو كتاب John P. Spagnolo, *France and Ottoman Lebanon*, Londres, 1977

٣٣ – Victor Hugo, *Choses vues*, éditions Bouquins, Paris, 1987, p. 1316

٣٤ – Carter Vaughn Findley, *Ottoman Civil Officialdom*, Parinceton, 1989, p. 142

٣٥ – Albert Hourani, *Arabic thought in the Liberal Age*, nouvelle édition, Cambridge, 1983, pp. 99 - 102 et Youssef M. Choueri, *Arab History and the Nation - State*, Londres, 1989, pp. 25 - 54

٣٦ – Georges Douin, *Histoire du règne du khédive Ismaïl*, t. II, p. 587

٣٧ – Alexander Schölch, "The Demographic Development of Palestine 1850 - 1882", *International Journal of Middle - East Studies*, 17, 1985, pp. 485 - 505

٣٨ – من ديلابورت ، قنصل فرنسا العام في بيروت ، الى وادنجتون ، وزير الشئون الخارجية ، بيروت ، ٩ أكتوبر ١٨٧٩ - Adel Ismaïl, *Documents diplomatiques et* consulaires..., t. XIV, pp. 114 115 تؤكد الأرشيفات اللبنانية هذا التقرير: Tibawi, *A Modern History of Syria including: Lebanon and Palestine*, Londres, 1969, pp. 162 - 163

٣٩ – النصوص منشورة في Tibawi, *op. cit.*, pp. 164- 165 بالنسبة للبيانين الأولين .

٤٠ – جمع **وقف** ، وهو ملكية مرصودة مخصصة لرعاية المؤسسات الخيرية الإسلامية .

٤١ – بيان ٣١ ديسمبر ١٨٨٠ في طرابلس ؛ Adel Ismaïl, *Documents diplomatiques et consulaires...*, t. XIV, pp. 275 - 276

(أعدنا ترجمة البيان عن الفرنسية لتعذر الوصول الى الأصل العربي – المترجم) .

٤٢ – Jacob M. Landau, : An Arab Anti - Turk Handbill, 1881", *Turcica*, 9 / 1, 1977, pp. 215 - 227

٤٣ – Adel Ismaïl, *op. cit.*, t. XIV, pp. 250 - 254

٤٤ – Adel Ismaïl, *op. cit.*, t. XIV, pp. 368 - 369 إنه يواصل إطلاع الفرنسيين على آرائه في هذا الاتجاه ، على سبيل المثال بعد هزيمة الثورة المصرية لعام ١٨٨٢ : «أياً كان الأمر ، فإن الحقيقة المؤكدة هي أن عرابي مايزال يتمتع بشعبية في سوريا وهذا ليس واحدة من أقل علامات عمي العرب المسلمين في هذه الولاية . وأنا استثني منهم قليلين مثل عبد القادر الذي كان قد تنبأ ، منذ بداية الأزمة ، بأن مصر سوف تسقط في أيدي الإنجليز ، بسبب عرابي والسلطان ، كما أنه يعلن لأولئك الذين يثق فيهم أن الروس سوف يدخلون قريباً القسطنطينية وأن الأتراك سوف يطردون ، عما قريب ، من أوروبا» . نوفمبر ١٨٨٢ ، *Ibid.*, p . 440

٤٥ – *The Arab Awakening*, Beyrouth (reprint) 1969, pp. 79 - 91

٤٦ – Albert Hourani, "The Arab Awakening Forty Years After", dans son recueil d'articles, *The Emergence of the Modern Middle - East*, Londres, 1981, pp. 193 - 215

٤٧ – Shimon Shamir, "Midhat Pacha and the Anti - Turkish Agitation in Syria", *Middle* -

Eastern Studies, 10 (1974), pp. 115 - 141

٤٨ - Saliba (Najib E), "The Achievments of Midhat Pacha as Governor of the Province of Syria, 1877 - 1880" IJMES, 9 (1978), pp. 307 - 323

٤٩ - Douin, *Histoire du règne du khédive Ismaïl...*, pp. 733 - 734 ، انزعاج السفير البريطاني في القسطنطينية في عام ١٨٧٣ بشأن ما تردد عن اعتزام إسماعيل إعلان الخلافة في مصر .

٥٠ - Albert Hourani, "Wilfrid Scawen Blunt and the Revival of the East", dans son recueil d' articles *Europe and the Middle - East*, Londres, 1980, pp. 87 - 103

٥١ - خطاب حول ورثة عبد القادر ، Paul Robiquet, *Discours et opinions de Jules Ferry*, Paris, 1897, t. V, pp. 221 - 225

الفصل السادس

الاسلامية والسامية والعروبية

الشئون التونسية

بعد هزيمتها في ١٨٧٠ - ١٨٧١ ، تدخل فرنسا فترة انسحاب . وتبدو الحملات النائية ترفاً يُذكِّرُ الى حد بعيد بزمن الإمبراطورية الثانية . لكنها ، لرغبتها في أن تظل قوة عظمي ، تتمسك في الشرق ، على نحو دوجماتي أحياناً ، بجميع المزايا التي تتيحها لها الإمتيازات . والصراعات السياسية لسبعينيات القرن التاسع عشر لا تدفع الى استئناف التوسع الاستعماري ، فاليمين المحافظ معاد له واليسار الجمهوري منقسم الى تيارين ، تيار المعتدلين الانتهازيين وتيار الراديكاليين غير المنظمين في حزبين بعدُ .

ولا تبدأ «جمهورية الجمهوريين» إلاّ في عام ١٨٧٨ ، وهو عام مؤتمر برلين حيث تقترح انجلترا على فرنسا الاستيلاء على تونس تعويضاً عن استحواذها على قبرص وحيث تساند ألمانيا هذه الفكرة التي تبدو صرفاً عن روح الانتقام وعن الرغبة في استرداد الألزاس واللورين . والجمهوريون منقسمون حول هذه المسألة ولا يتخذون أي قرار قبل عام ١٨٨٠ . وتحالف زعيمي الانتهازيين ، جامبيتا وفيري ، يسمح بتنشيط السياسة الاستعمارية عبر احتلال تونس في عام ١٨٨١ . ويتشكل حزب استعماري يجمع سياسيين وديبلوماسيين وجامعيين وأعضاء غرف تجارية .

والدوافع سياسية أساساً ، إذ يجب إبراز أن فرنسا ما تزال قوة عظمي دينامية بالرغم من هزيمة ١٨٧٠ - ١٨٧١ . وفي عالم الإمبريالية الظافرة ، حيث يقوم الروس والإنجليز على نحو متواصل بتوسيع ملكوتهم الاستعماري ، فإن امتناع فرنسا سوف يكون علامة لا تنكر

على انحدارها . والحجة هي عين حجة ملكية يوليو ، فخسارة الألزاس واللورين تلعب ، بقدر أكبر من الألم ، دور ضفة الراين اليسري التي كانت محل اشتهاء شديد بعد عام ١٨١٥ .

وعلاوة على هذا الالهام الأساسي ، يجري طرح فكرتين : تأمين منفذ تصريف مأمون للسوق الفرنسية والتوصل الى تأمين السلم الاجتماعي عن طريق السماح لعناصر المجتمع المتمردة بالتعبير عن طاقاتها على نحو إيجابي في المستعمرات . وهاتان التيمتان ليستا جديدتين ، إذ يجري استخدامهما منذ عقود [١] .

ويجري طرح الحجة الأكثر كلاسيكية والتي تتحدث عن ضرورة تأمين الدفاع عن المواقع المكتسبة بالفعل ، وهي الجزائر آنذاك . ومن المعروف أنه عند البدء بهذه الفكرة الدفاعية من الناحية الظاهرية ، فإن المرء ينتهي بفتح العالم . وهنا ، يجب تفادي استيلاء إيطاليا على الإيالة . لكن فيري ، في خطابه أمام مجلس النواب في ٥ نوفمبر ١٨٨١ ، يبتكر تبريراً جديداً ، إذ يجب على فرنسا وقف صعود نزعة (الجامعة) الإسلامية التي تهدد استقرار الجزائر ؛ فمنذ عام ١٨٧٧ ، يستيقظ التعصب الإسلامي من جديد ومن هنا أهمية التحرك الفرنسي : «وهذا يجيز لي القول بأن فرنسا إذ تقوم ، دفاعاً عن نفسها ، بما قامت به في تونس ، وبما ما لا تزال تقوم به ، الآن ، قد وجهت الى هذا المولد الجديد للتعصب الإسلامي ضربة قاتلة ، وقدمت بذلك خدمة جديدة وجليلة لقضية التمدن ، التي تخدمها منذ زمن بعيد (صخب ومقاطعات في يمين القاعة . حركات مختلفة)» [٢] .

ومن الواضح أن هذا الفتح لتونس إنما يتم باسم الرسالة التمدينية . لكن التعاطف المعلن الذي كان موجوداً مع الأهالي الذين يجري تحريرهم قد اختفي ، فالتدخل الفرنسي هو «انتصار الحضارة على البربرية ، وهو الشكل الوحيد لروح الفتح الذي يمكن للأخلاق اباحته»[٣] . وفي هذا ، فإن مؤسس المدرسة العلمانية يعد مشرّباً بالفعل بالفكرة التي سوف يطورها في عام ١٨٨٥ بشأن مدغشقر «إن للأجناس الأرقي حقاً تجاه الأجناس الأدني . وأنا أقول إن هناك حقاً لأن هناك واجباً عليها . وواجبها هو تمدين الأجناس الأدني» [٤] .

المسألة المصرية

بعد نجاحاتهم في تونس ، يحول أنصار التوسع الاستعماري أبصارهم الى مصر . وفي سبعينيات القرن التاسع عشر ؛ تنتهي الفترة السعيدة التي عرفتها مصر في القرن التاسع عشر . إن انفاقات الخديوي إسماعيل الضخمة ، التي أسهمت الى حد بعيد في تمويل الأعمال الضخمة الخاصة بضبط الموارد المائية ، وقناة السويس وإنشاء بيروقراطية حديثة ، قد جرت الى

إفلاس الدولة المصرية . وإذ كان الخديوي مديناً بمبالغ ضخمة للممولين الأوروبيين ، فقد اضطر الى أن يبيع لانجلترا أسهمه في الشركة العالمية لقناة السويس .

وشيئاً فشيئاً فإن هذا المشروع الذي كان عليه أن يخدم استقلال مصر إنما يصبح رمز اغترابها . لكن ذلك لم يكن كافياً وكان على الحكومة المصرية أن تقبل سيطرة فرنسية - إنجليزية مشتركة على مواردها المالية وهي سيطرة تتحول الى سيطرة سياسية حقيقية .

والنزعة القومية المصرية ، جد المتطورة الآن ، لا تحتمل هذه التدخلات الأجنبية . وبعد عزل إسماعيل في عام ١٨٧٩ من جانب الباب العالي بناءً على طلب أوروبا ، تصبح الحياة السياسية ملتهبة . إن كوكبة بأكملها من القوي الجديدة تحارب الوجود الأجنبي باسم «مصر للمصريين» . ويصبح الوضع ثورياً مع تحدي شرعية الأسرة الحاكمة الخديوية التي يجري النظر اليها على أنها مفرطة المراعاة للمصالح الأجنبية . وفي عام ١٨٨٢ تنشب الثورة تحت قيادة عسكريين يتولون الإمساك بزمام السلطة . وزعيمهم هو أحمد عرابي Urabi الذي تسميه الصحف الأوروبية Arabi (عربي) . وهذا التشويه للاسم يسمح برؤية حضور عربي في الأحداث يزعج أوروبا .

والحركة جد مركبة ، إذ نجد فيها عناصر محافظة ترفض التجديدات المستوردة منذ بداية القرن التاسع عشر ، والمصلحين الإسلاميين ومن بينهم شخصيات كمحمد عبده الشاب ، وقوميين تقودهم معارضتهم للأسرة المالكة الى تأكيد هوية فلاحية في مواجهة رجال السراي ذوي الأصل العثماني ، وليبراليين يطالبون بصدور دستور مماثل لدستور عام ١٨٧٦ في الدولة العثمانية . والتشوش جد عظيم بحيث إن مختلف التوجهات تمتزج في خطابات الفاعلين الرئيسيين .

وإرادة الاستقلال هذه ، إسلامية كانت أم مصرية ، إنما تزعج أوروبا بما يكفي لأن تقرر إنجلترا الليبرالية وفرنسا الجمهورية التدخل بهدف استعادة السلطة الخديوية . وفي فرنسا ، يبرر جامبيتا هذا المشروع باسم الأنانية القومية . فهذا هو معني مداخلته ، في مجلس النواب ، ضد الحزب الوطني المصري ، في ١٨ يوليو ١٨٨٢ ، بمناسبة مطلب تخصيص اعتمادات لتدخل فرنسي - إنجليزي في مصر ، فهو يسخر أولاً من أولئك الذين ، في فرنسا ، «يدعون انقاذ مياه النيل لصالح القومية المصرية الفتية» في حين أنه «ليس لصالح القومية المصرية ، ولا لصالح الحزب الوطني ، يجب الذهاب الى مصر ، بل لصالح الأمة الفرنسية» .

كما أن الفرنسيين يجب أن يكونوا واضحين كالإنجليز الذين يرون أن هناك أجناساً تمثلت سمتها «دائماً في أن تكون محكومة وأن تحيا تحت العصا ، ولا تصلح لأن تصبح أمة إلاّ بشرط عدم تعريضها لكافة ضروب الإغراءات الواردة من الخارج» .

والأمة لا تُخترع وما يجب هو : «اتخاذ قرار بشأن السياسة وبشأن المستقبل ، يظل البحر المتوسط بموجبه مسرحاً للفعل الفرنسي وتُنتزع مصر بموجبه من التعصب الإسلامي ، من أوهام الثورات هذه» (٥) .

إلا أنه في وجه إمبريالية جامبيتا ، ينهض كليمنصو الذي سوف يدلي ، في ١٩ يوليو ١٨٨٢ ، بواحدة من أجمل المرافعات المعادية للاستعمار في تاريخ الأدب السياسي الفرنسي . «قال السيد المحترم جامبيتا في خطابه إنه «ليس لصالح القومية المصرية ولا لصالح الحزب الوطني ، يجب الذهاب الى مصر ، بل لصالح الأمة الفرنسية» . ومن المؤكد أن هذا الاقتراح ، تحت هذا الشكل ، لن يجد من يعارضه . ولكن لننظر الى ما يكمن في أساس هذه الفكرة . إن الفرنسيين يرون أن لهم مصالح قوية في مصر ؛ والإنجليز والإيطاليون وآخرون أيضاً يقولون الشيء نفسه . ومجازفاً بأن أظهر في مظهر من يؤيد مفارقةً ، لابد لي من أقول بأنه يبدو لي أن المصريين هم أيضاً لهم مصالح ما في مصر . ولابد لي من أن أحدد هذه المصالح ومن أن أثبت ، إن أمكنني ذلك ، أن هذه المصالح المفهومة جيداً إنما تتطابق تطابقاً مطلقاً مع المصالح الفرنسية ومع المصالح الأوروبية . ذلك هو الاثبات الذي أود طرحه» .

لكن الدفاع عن الأمة المصرية إنما يتم عبر نقد النظرية العنصرية : «أليس غريباً أن نعاود الحديث عن الأجناس في الوقت الذي يتزايد فيه اختلاطها وفي الوقت الذي تبدو فيه وحدة طابعها مشكوكاً فيها الى درجة غير عادية ؟ الحقيقة هي أن هناك شعوباً تحلم بالسيطرة على العالم ، أكان ذلك عبر ترويج أفكار أم عبر الفتح المادي . فهناك نزعة الجامعة الجيرمانية ونزعة الجامعة السلافية ونزعة الجامعة الإسلامية والنظرية الإنجليزية (. . .) . هل تظنون أن إنجلترا إذا ما دخلت في حرب مع دولة من دول البحر المتوسط سوف تتردد في الاستيلاء على قناة السويس؟»(٦) .

والحال أن مداخلة زعيم الراديكاليين وتحالف هؤلاء الأخيرين مع اليمين المحافظ إنما يؤديان الى رفض طلب الاعتمادات . وسوف تدع فرنسا انجلترا تتدخل بمفردها في مصر وتحتل البلد . وسوف يتم توجيه نقد قوي الى موقف كليمنصو المعادي للاستعمار لأنه دفع فرنسا الى أن تكف عن أن تكون طرفاً في الملف المصري . وفي الأعوام التالية ، سوف ترفض باريس بشكل متواصل الاحتلال البريطاني . وسوف يعود ذلك على فرنسا بشعبية مقيمة في مصر ، مبنية في جزء منها على التباس سوف تبدده اتفاقيات الوفاق الودي لعام ١٩٠٤ مع إبداء فرنسا عدم اهتمامها بما يجري في مصر في مقابل اعتراف (انجلترا) بمصالحها في مراكش . والحال أن المواقف التي اتخذها الراديكاليون عموماً وكليمنصو خصوصاً إنما تفسر العلاقات الحارة التي يحتفظون بها مع المصلحين الإسلاميين المقيمين في باريس في عام ١٨٨٣ .

وسوف يفتح كليمنصو وروشفو صحفهما للأفغاني الموجود آنذاك في المنفي . وفي العام نفسه ، يضع الأفغاني ، مع محمد عبده ، أسس نزعة الإسلام السياسي في مجلتهما **«العروة الوثقي»** .

مصطفي كامل

إن الحركة القومية المصرية التي تعاود الظهور تحت قيادة مصطفي كامل ، بعد بضع سنوات من الاحتلال البريطاني ، تحاول كسب دعم فرنسا وتستعيد الحجة التاريخية العزيزة على قلب الديبلوماسية الفرنسية وهي الحجة التي تمنح فرنسا مكانة خاصة في مصر بسبب دورها التمديني الذي بدأ مع الحملة الفرنسية . (فقد قال مصطفي كامل) : «كما أننا لا ننسي جهود العلماء الفرنسيين المتواصلة من أجل انهاضنا من سباتنا الطويل ، ولكي ينبهوا فينا إرادة السير قدماً الى الأمام ، ولكي يحركوا في دمنا نفسه ، إن جاز لي قول ذلك ، حضارة أسلافنا القديمة ، حضارة أولئك الفراعنة الذين أدهشوا العالم في الأزمنة الغابرة ومازالوا يواصلون الى اليوم ، بعد كل هذه القرون ، إثارة دهشته ! » . وهكذا فإن بوناپارت ثم فرنسا خلال الشطر الأول من القرن قد أسهما في أن تسترد «مصر بين الأمم المعاصرة مكانة تليق بتاريخها وبحضارتها التليدة» (٨) .

وفي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين هذه ، فإن تمدن مصر لا ينتمي بعدُ الى أيديولوچية الأسرة المالكة وحدها ، فهو يصبح أحد العناصر الأساسية للمذهب القومي الذي يدعو اليه مصطفي كامل . وضمن التقليد الذي دشنه الطهطاوي ، فإنه يدعو الى الاعتراف بالمكون الإسلامي لهذا التمدن (٩) .

أما المكون الثاني للتمدن فهو الوطنية : «لا تقوم مدنية مصر في مستقبل الأيام ولا يدوم لها شأن إلاّ إذا شيدت على الأمة وبالأمة وعرف الفلاح والصانع والتاجر والمعلم والمتعلم وكل فرد من أفرادها أن للإنسان حقوقاً مقدسة لا يصح المساس بها ، وأنه لم يخلق ليكون آلة بل ليعيش عيشة الأحياء ، وأن حب الوطن هو أسمي شعور تتحلي به نفس بشرية ، وأن أمة ضاع استقلالها لا مقام لها ولا شأن لأبنائها !

«الوطنية ، أيها السادة هي العماد لكل مملكة والأساس المتين لكل دولة في كل بلاد العالم المتمدن ، الوطنية هي أم المعجزات وأصل كل تقدم وارتقاء ، الوطنية هي التي تنقل الشعب الجبلي (البربري) الى الحضارة والعمران والاقتدار وسمو القدر في قليل من الأعوام ، الوطنية هي الدم في عروق الأمم والحياة لكل ذي حياة» (١٠) .

ويلقي البطل القومي المصري ترحيباً من جانب الرأي العام الفرنسي المعادي للإنجليز و ،

قبل الوفاق الودي لعام ١٩٠٤ ، من جانب الحزب الاستعماري . وهو على علاقة ممتازة بالحركة القومية الفرنسية التي تمثلها شخصيات كموريس باريه . والحال أن حب فرنسا الذي تعلنه الحركة القومية المصرية إنما يعود عليها بصورة جديرة بالتعاطف في الصحف الفرنسية . لكن مصطفي كامل لا يريد مصر فرنسية بل يسعي الى وضع الفرنسيين في مواجهة الإنجليز بينما يري مراسلوه الفرنسيون أن الحلف الإنجليزي أكثر حيوية بكثير بالنسبة لفرنسا من الاستقلال المصري ، خاصة بعد أن حصلت على التعويض المراكشي .

والحال أن كليمنصو نفسه ، في مؤتمر الصلح لعام ١٩١٩ ، سوف يرفض السماح بمشاركة الوفد المصري الذي سوف يعيد - بلا طائل - نشر خطاب عام ١٨٨٢ الرائع . فالآن ، تحتاج فرنسا الى الدعم البريطاني لتسوية مسألة الأمن الفرنسي إزاء ألمانيا . إلاّ أنه حتى أزمة السويس في عام ١٩٥٦ ، سوف تواصل فرنسا الحفاظ على علاقات ثقافية مميزة مع مصر . والحال أن الامتناع عن التدخل العسكري في عام ١٨٨٢ لم يكن سيئاً الى هذا الحد ، فتدخل عام ١٩٥٦ قد وجه ضربة رهيبة الى العلاقات بين البلدين .

الرفض الكبير

بعيداً عن موقف الراديكاليين في ثمانينيات القرن التاسع عشر ، المخلصين لروح الثورة الفرنسية ، فإن السياسيين الفرنسيين يبدون رفضاً واضحاً للأريحية الثقافية التي عرفتها العقود السابقة من القرن . والانتقال الى الإمبريالية لا يفسر كل شيء ، فالرغبة في تأسيس نفوذ فرنسي كان من الممكن أن تتواءم ، كما مع نابوليون الثالث ، مع تطبيق مبدأ القوميات . والحال أن الشكل الذي يعبر به جامبيتا وفيري عن نفسيهما ، وكذلك الحجج التي طورها كليمنصو لمحاربتهما ، إنما تشير ، عند مقارنتها بخطابات الشطر الأول من القرن ، الى تحول عميق للأسس الفكرية لرؤيتهم للعالم . وتستند المفارقة التاريخية على البينة التي تتمثل في أن فرنسا ، من زمن الثورة الفرنسية الى ملكية يوليو ، مع امتداد يرتبط بشخصية نابوليون الثالث الأصيلة ، قد رأت أن تمدن الشرق ممكن وسهل ومرغوب فيه وذلك في وقت كانت الهوة الثقافية والتقنية فيه (بين الشرق والغرب) في أقصي اتساع لها . وفي الشطر الثاني من القرن ، يمكن للمرء أن يرصد بشكل ملموس ، في مصر وفي الدولة العثمانية ، المحصلة ، الإيجابية ، على أية حال ، في عمومها ، والمترتبة على عقود من التحولات ومن التجديدات : التقدم الديموغرافي ، ارتفاع معدلات التعليم المدرسي ، طرق المواصلات ، انتشار الثقافة الحديثة والتقنية .

لكن النخب الشرقية لا تلقي اعترافاً بمساعيها . وعندما نتصفح نصوص الشطر الثاني من

القرن التاسع عشر ، يتكون لدينا الانطباع بأن مفهوم التمدن قد تغير معناه . فبينما كان يميل في الشطر الأول من القرن ، وفقاً لمنطق التنوير ، الى حفز المساواة بين البشر بوصفها اتجاه التاريخ ، فإنه يتخذ الآن منطق تبرير تاريخي للتفاوتات . وهكذا تحدث نحو عام ١٨٥٠ في الفكر الغربي عودة قوية للمكبوت ، عودة ظهور الايديولوجيا العنصرية .

عودة ظهور الايديولوجيات العنصرية

تتميز الظاهرة بتعقيد كبير وقد قادت كوارث القرن العشرين كثيرين من المؤرخين الى الرغبة في التهوين من شأن هذا التحول التاريخي . وترجع الظاهرة الى ثلاث وحدات كبري سوف نسميها هنا ، لغياب مصطلحات أدق ، «فكرية» : القرابة المتبادلة بين اللغات الهندو – أوروبية ، أسطورة أطلنطس وأسطورة الأصل الچيرماني للنبالة الفرنسية . وينجم كل ذلك عن اكتشاف قرابة اللغات الهندو – أوروبية . والحال أن هذه القرابة التي كانت محل تخمين منذ الشطر الثاني للقرن الثامن عشر ، إنما تصبح مكسباً علمياً حققه العقدان الأولان من القرن التاسع عشر . وكانت جمعيات الدراسات الآسيوية على اختلافها قد أنشئت من أجل فهم هذا الاكتشاف فهماً أفضل(١١) .

ومنذ ذلك الحين ، أصبح بالإمكان التأكيد بيقين علمي أن أصل الشعوب الأوروبية أصل آسيوي . والحال أن هذه الفرضية إنما تتطابق مع نظرية طرحها عالم الفلك بايي في أواخر القرن الثامن عشر : لقد وجدت حضارة كبري في شمال آسيا وقد انبثقت منها جميع الحضارات المعروفة في الأزمنة القديمة . وهذه الحضارة ليست غير حضارة أطلنطس (١٢) .

والحال أن قرابة اللغات الهندو – أوروبية واستئناف تيمة أطلنطس قد قادا الى الحديث عن مولد الحضارة في مكان ما في آسيا البعيدة . ثم إن الفكرة التقليدية ، الموروثة من العصر القديم الكلاسيكي ، والتي تتحدث عن أصل مصري للحضارة الإغريقية ، إنما تتعرض للشك مع فك شامپليون للرموز الهيروغليفية . وهكذا ظهرت الفكرة القائلة بأن الحضارة الأولي لم تظهر على ضفاف النيل بل في مكان ما بين ضفاف البحر الأسود والبامير وبأن الأوروبيين هم ورثتها المباشرون .

صراع الأجناس

يسمح المناخ الفكري لزمن عودة الملكية بفهم عودة ظهور أسطورة النبلاء عن الأصل الچيرماني للأرستقراطية الفرنسية . وبموجب هذه الأسطورة ، سوف تكون هذه الأرستقراطية منحدرة من الفاتحين الفرانك في حين أن الفئة الثالثة سوف تكون ممثلة للأحفاد المباشرين

للغاليين - الرومان . ولم يتسن لهذا الحدث التاريخي التأسيسي الدوام إلاّ بقدر إعادة إنتاجه من جيل لجيل خالقاً جنسين جد متمايزين . ويجري في آن واحد إلغاء أي تفاوت في داخل الجماعة الفاتحة وطرح تفاوت طبيعي بين الفاتحين والمفتوحين ، النبلاء والدهماء (١٣) . وضمن هذا المنظور ، الذي نجده عند مونتسكيو ، فإن الحرية ، أو بالأحري الحريات ، إنما ترجع الى وجود النبالة ، ومجتمعات الدهماء ، شأنها في ذلك شأن المجتمعات الشرقية ، محرومة من الأرستقراطية ؛ ومن ثم فإنها مجتمعات مساواتية وديمقراطية لكن هذه الديمقراطية مرادفة للاستبداد لأنه لا وجود بعد لعقبات في وجه ممارسة سلطة أصبحت واحدة وحيدة . ومن ثم فإن تطور الملكية الفرنسية نحو الحكم المطلق هو تحولّ تدريجي الى استبداد من النوع الشرقي (١٤) .

وموقف الثورة الفرنسية مزدوج : فهي إما أنها تتجاوز هذه الإشكالية طارحة فكرة الأمة المنبثقة من انصهار الفاتحين والمفتوحين (كما حدث ليلة ٤ أغسطس ١٧٨٩) ، أو أنها تستغلها (تستغل هذه الإشكالية) لتبرير التخلص من الأرستقراطية عبر الهنجرة بشكل خاص (١٥) .

وفي مستهل عهد عودة الملكية ، فإن المؤرخين الليبراليين كأوغسطين تيري وجيزو يلتقطون هذه الفكرة ويجعلون من صراع الأجناس محرك تاريخ فرنسا . أما صراع الطبقات الذي يرصده جيزو في نهاية تلك الفترة فهو ليس غير تحول لموقع هذا الصراع الأساسي بين الأجناس وتنويع على لحنه . والمشكلة بالنسبة لليبراليين آنذاك هي الحفاظ على الحرية في مجتمع يصبح بشكل متزايد ديمقراطياً ، أي يصبح بشكل متزايد مساواتياً . وبالنسبة لجيزو ، فإن الحل إنما يمر عبر دمج تَدريجي ، لكنه بطيء ، للجماهير الشعبية خاصة عن طريق التعليم ، ومن هنا القوانين التعليمية التي عرفتها بداية عهد ملكية يوليو . وفي تلك الأثناء وحتى يتم ذلك ، فإنه يجب الدفاع عن الحضارة ، بالقوة إذا لزم ذلك ، ضد ضغط الطبقات العاملة والخطرة . ويدافع توكفيل عن الأمل نفسه في نقل الحريات الأرستقراطية الى المجتمعات الديمقراطية . وهذا هو هدف عمله السياسي (١٦) .

وبعد عام ١٨٣٠ ، تنظر الطبقات الحاكمة الفرنسية الى نفسها كمدافعة عن حضارة في وجه عالم ريفي ضخم لايزال خشناً ومتوحشاً وخاصة في وجه الطبقات العاملة والخطرة ، المؤلفة من برابرة جدد قادرين على تدمير المكتسبات الثمينة للقرون السابقة . وتمردات ليون العمالية في عام ١٨٣١ توضح لها الخطر (١٧) . والحال أن ذلك إنما يصبح فكرة رائجة في الخطاب السياسي لملكية يوليو . وليس توكفيل استثناءً في عام ١٨٤٠ عندما يذكر مجلس النواب بهذا الخطر المقيم (١٨) . ولن يكون من شأن (ثورة) عام ١٨٤٨ سوي زيادة حدة هذا الشعور (١٩) . وبعد ذلك بوقت قصير ، سوف يرمز رينان الى هذا التعارض بين النخبة الحاملة

للحضارة والشعب غير المتحضر بشخصيتي پروسپيرو وكاليبان ، المستعارتين من شيكسبير . لكن مستشرقي عهد عودة الملكية كانوا قد وحدوا بالفعل بين خصال الشعوب الهندو - چيرمانية وخصال الشعوب الچيرمانية . ويصبح الإقطاع واقعاً عنصرياً وجد في أزمنة أخري وفي أماكن أخري غير أوروبا العصر الوسيط ، في العصر القديم الإيراني مثلاً . وبشكل أعم ، فإن الآريين ، مثلما أصبحوا يسمون في أربعينيات القرن التاسع عشر ، يراكمون فضائل الحرية عند الچيرمان والخصال التمدينية التي ميزت أهل أطلنطس القدماء . والحال أن هذا التأكيد مايزال ينتمي الى عالم الحدس ، ولابد من النجاح في البرهنة عليه علمياً . وسوف تكون تلك هي مهمة جوبينو ورينان المنهمكين في نوع من سباق سرعة في أربعينيات القرن التاسع عشر .

مولد السامية

تحتم أولوية الحضارة الآرية تحديد مصطلح يمكن وضعه في مقابلها . والحال أن مفهوم «السامي» سوف يكون هو ذلك المصطلح . وهناك استشعار للفكرة منذ مستهل القرن الثامن عشر مع اكتشاف القرابة اللغوية بين العربية والعبرية والسوريانية والأثيوبية . وتسمح الأنساب التوراتية بتفسير الظاهرة تفسيراً سهلاً . وسرعان ما يُعزي اليها اختراع الأبجدية [٢٠] . وفي ذلك العصر ، فإن مصطلح «سامي» ، بالرغم من أنه كان معروفاً ، فإنه لم يكن شائع الاستعمال .

والحال أن رينان يفرضه كمفتاح أساسي لفهم تاريخ الشرق عبر كتابه الضخم ، **التاريخ العام للغات السامية** ، والمنشور في بداية خمسينيات القرن التاسع عشر . وينصب اهتمامه الرئيسي على أصول الأديان ، على ضرورة تقديم تفسير علمي ، ليس فقط لمبرر وجودها ، وإنما أيضاً لأسلوب عملها ولدورها الفعلي في تاريخ البشرية . وهكذا فإن رينان هو المتحدث بلسان العقلانية في النزاع الكبير بين العلم والدين في الشطر الثاني من القرن التاسع عشر . وإذ ينطلق من الفكرة القائلة بأن اللغات هي تحليلات للواقع ، فإنه يزعم بذلك أنه يحدد أطر التفكير الأصلية للبشر من حيث كونهم بشراً - من الغريب أن رينان يستخدم تسلسلاً تاريخياً شبه توراتي للإنسان من حيث هو إنسان بوضعه ظهوره قبل وقت قليل من بداية التاريخ التي تتحدد بوجود آثار مكتوبة . والحال أن الساميين لا يمكنهم إدعاء فهم العالم إلاّ على أساس الوحدة [٢١] .

والشيء الوحيد الذي خَلّفَهُ الساميون هو فكرة الوحدة هذه والتي يجري التأكيد عليها في الأديان التوحيدية . وكل ما يبقي من الحضارة ، كالسياسة والعلم والثقافة ، إنما يخص بشكل

أصيل الشعوب الآرية عموماً والأوروبية خصوصاً والحال أن كتاب **حياة يسوع** (لرينان) ، وهو واحد من أوسع الكتب رواجاً في القرن التاسع عشر ، سوف يعمم هذه الفكرة . ومنذ عام ١٨٦٢ ، في محاضرته الافتتاحية بالكوليج دو فرانس والتي لم تحتفظ منها الأجيال التالية إلاّ بالعبارة الشهيرة «يسوع إنسان لا مثيل له» ، يدعو رينان علناً الى حرب ثقافية ضد السامية التي يعتبر الإسلام أقوي تجلياتها [٢٢] : «أما فيما يتعلق بالمستقبل ، أيها السادة ، فإنني أري فيه بشكل مطرد انتصار النبوغ الهندو - أوروبي . فمنذ القرن السادس عشر ، يظهر بقوة مثيرة واقع هائل ، كان حتى ذلك الحين غير ثابت ، هو انتصار أوروبا الحاسم . (. . .) وحتى ذلك الحين ، كانت السامية ما تزال سيدة على أرضها . وكان الشرق المسلم يضرب الغرب ، وكانت جيوشه أفضل وسياسته أفضل ، وكان يصدر اليه الخيرات والمعارف والحضارة . لكن الأدوار انقلبت منذ ذلك الحين . فالعبقرية الأوروبية تتطور بعظمة لا مثيل لها ؛ أما الإسلامية[٢٣] ، على العكس من ذلك ، فإنها تتحلل ببطء . وهي ، في أيامنا ، تنهار انهياراً مدوياً . وفي اللحظة التي توجد فيها الحضارة الأوروبية الآن ، فإن الشرط الأساسي لانتشارها هو تدمير المنتج السامي بامتياز ، تدمير السلطة الثيوقراطية الإسلامية ، ومن ثم تدمير الإسلامية ؛ فالإسلامية لا يمكنها أن توجد إلاّ كدين رسمي (. . .) وهنا تكمن الحرب الأبدية ، الحرب التي لن تتوقف إلاّ عندما يموت آخر أبناء إسماعيل من البؤس أو عندما يجبره الرعب على الانسحاب الى أعماق الصحراء . إن الإسلام هو النفي الأكمل لأوروبا ؛ الإسلام هو التعصب ؛ (. . .) الإسلام هو احتقار العلم ، وإلغاء المجتمع المدني ؛ إنه بساطةُ الروح السامية المرعبةُ ، التي تضيق الدماغ البشري ، وتغلقه أمام كل فكرة مرهفة ، أمام كل عاطفةَ نقية ، أمام كل بحث عقلاني لكي تضعه أمام تحصيل حاصل أبدي : الله هو الله (الإله هو الله) .

«المستقبل من ثم ، أيها السادة ، هو لأوروبا ، ولأوروبا وحدها . إن أوروبا سوف تفتح العالم وسوف تنشر فيه دينها ، وهو دين الحق والحرية واحترام البشر ، هو الإيمان بوجود شيء مقدس في الإنسانية» [٢٤] .

والى حد معين ، فإن نسق رينان الفكري إنما يقود الى «إضفاء طابع عنصري» على فكر جيزو ، حيث أن «تخصص» الحضارات غير الأوروبية إنما يكمن في توحيدية الإسلام الشمولية هذه . إن نخبة وزير لوي - فيليب الإجتماعية تعاود الظهور في ارستقراطية الفيلسوف العقلاني الآرية . . . وعلى أثر الهزيمة الفرنسية في عام ١٨٧١ ، فإن فكر رينان يصبح بشكل مؤقت جد متطرف . بل إنه سوف يمضي الى حد تبرير سيطرة الأجناس الأرقي على الأجناس الأدني .

«إن فتح بلد جنس أدني من جانب جنس أرقي ، يستقر فيه لكي يحكمه ، هو أمر ليس فيه ما يصدم . (. . .) وبقدر ما أنه يجب شجب الفتوحات فيما بين الأجناس المتكافئة ، فإن إحياء الأجناس الأدني أو المنحطة على أيدي الأجناس الأرقي إنما يتمشي مع نظام الإنسانية اللائق . (. . .) والجنس الأوروبي هو جنس سادة وجنود»(٢٥) . إن كل الكلام يدور كما لو أن الشعوب الأوروبية قد أصبحت مرادفة للأرستقرطيات القديمة وكما لو أن الشعوب الشرقية قد أصبحت مرادفة للدهماء القدماء . ويجري تبرير السيطرة الأوروبية تبريراً تاماً ويمكن لقراءة متسرعة الى حد ما لرينان أن تسمح بتصور أن الشرقيين لن يصلوا أبداً الى التمدن أو لن يصلوا اليه إلاَّ في زمن بعيد الى أقصي حد وعبر فقدان تمام ثقافتهم . وعندما يعرض چول فيري وجامبيتا مذاهبهما الاستعمارية فإنهما يتمشيان تماماً مع عقلانية رينان العنصرية .

أما نسق جوبينو الفكري المعاصر تماماً لنسق رينان فإنه لا يلقي أي نجاح . إذ لا يمكن للرأي العام الأوروبي أن يرتاح الى تشاؤمه المطلق الذي لا يري في التاريخ غير انحدار متواصل لحضارة الآريين الأصلية من جراء اختلاطات الأجناس وحيث توجد استحالة مطلقة لأية عودة الى ماقبل ذلك . ومن المفارقات أن ذلك المفكر الذي نُسب اليه تأسيس العنصرية الحديثة هو عدو سافر للاستعمار لا يري في الفتح الأوروبي غير تعبير إضافي عن انحدار البشرية المحتم (٢٦) .

لكن التحدي الذي تلهمه أفكار جوبينو ينبع أيضاً من الأولوية ، المطلقة بدرجة أكبر بكثير مما عند رينان ، والتي يوليها للجنس النقي المعرَّف انطلاقاً من أساس لغوي . وهذه الرؤية تفترض تفوق كل جماعة بشرية تعتمد على لغة أصيلة كالألمانية قياساً الى الجماعات التي تستخدم لغة ثانوية ومشتقة كالفرنسية . وقد أدرك رينان على الفور الخطر وهو يتصدي لهذا الزيغ الذي يشكل اساءة الى فرنسا (٢٧) . ويبدأ تأملاً فكرياً سوف يقوده الى تعريف فكرة الأمة بوصفها متناحرة مع فكرة الجنس .

رينان ومصر

بالرغم من مكانة رينان الفكرية الضخمة ، فإنه لا ينجح في زعزعة الفكرة التي يعترف بها الجميع والتي تتمثل في أن مصر هي مهد الحضارة . وهو يزعم دون طائل أن «مصر هي صين ، ولدت بالغة وشبه شائخة معقدة ، حيث تميزت دائماً بهذا الملمح الصبياني أو الشائخ في آن واحد» أو أن «مصر كانت من بين جميع البلدان البلد الأكثر تميزاً بالروح المحافظة . إننا لا نصادف في تاريخها ثورياً واحداً ولا مصلحاً واحداً ولا شاعراً عظيماً ولا فناناً عظيماً ولا عالماً

ولا حتى وزيراً عظيماً» . وهو يرى أن عشق الإغريق القدماء لمصر (ايچيپتومانيا) ليس غير إدعائية عديمة المبرر يمكن مقارنتها بعشق الفرنسيين لإنجلترا (آنجلومانيا) [٢٨] .

وهو ينكب على شجب وفضح تمدن مصر المعاصرة المزعوم . وخطابه عند استقبال فردينان دليسبس في الأكاديمية الفرنسية في ٢٣ أبريل ١٨٨٥ هو ذروة الانقلاب التام للقيم قياساً الى مستهل القرن التاسع عشر .

إن أهمية مصر الاستراتيچية ، الضرورية بالنسبة لملكوت البحار كما بالنسبة للاستيلاء على أعماق أفريقيا ، إنما تشير الى أنه «حين يلعب بلد ما دوراً يمس المصالح العامة للبشرية ، فإنه يجري دائماً التضحية به في سبيل هذه المصالح . والبلد الذي تكون له مثل هذه الأهمية بالنسبة لبقية العالم لن يسعه الانتماء الى نفسه ؛ إذ يجري تحييده لحساب البشرية ؛ إن المبدأ القومي يُبَاد هناك» .

ومصلحة الحضارة الأوروبية هي التي تتطلب هذه التضحية : «إن مصر سوف يتم حكمها دائماً من جانب مجموع الأمم المتحضرة . والاستغلال العقلاني والعلمي للعالم سوف يوجه دون توقف الى هذا الوادي الغريب أنظاره الفضولية أو الشرهة أو المتنبهة» .

وسلالة محمد على المالكة ليست غير دمية بيد أوروبا : «إن فرنسا ، على مدار ثلاثة أرباع قرن ، قد وجدت لهذه المشكلة الصعبة حلاً سوف يكون مثار الإعجاب عندما تبين التجربة أية دموع ودماء سوف يدفعها العالم ثمناً للحلول الأخرى . لقد ارتأت أن تحقق – عبر أسرة مالكة مسلمة من الناحية الظاهرية ، لكنها في أعماقها عديمةُ التعصب ومبادرةٌ بالاعتراف بتفوق الغرب – هيمنة الروح الحديثة على هذا البلد غير العادي الذي لا يمكن تركه منتمياً الى البربرية ، دون أن يترتب على ذلك الحاق أذى فادح بالصالح العام» [٢٩] .

ويَردُ محمد على وأسرته المالكة على خاطره فوراً وهو يصف الملوك اليهود المتأثرين بالروحَ الهيلينية والذين يخدمون روما خروجاً على روح إسرائيل الدينية[٣٠] .

وفي ذلك أيضاً ، فإن العلاقة الفكرية بين رينان وچول فيري علاقة مثيرة . فقد حاول هذا الأخير في عام ١٨٨٣ التوصل الى جلاء القوات البريطانية عن مصر مقترحاً تدويلاً لمصر ، أي تحويلها الى ملكية مشتركة لمجمل أوروبا [٣١] .

المناظرة بين رينان والأفغاني

من المرجح أن المناظرة بين رينان والأفغاني [٣٢] هي واحدة من أشهر المواجهات بين الاستشراق والفكر الإسلامي . وبرغم أنها قد أشير اليها استناداً الى ملخصات جد موجزة ، فإنها لم تُدرس لذاتها إلاّ نادراً . وبالرغم من الوضوح الظاهري للتعبيرات المستخدمة ، فإن

فهمها لا يزال صعباً . ويجب الانطلاق من صوغ المتناظرين لموضوع المناظرة الرئيسي . إن رينان ، في عامي ١٨٨٢ و١٨٨٣ ، يشهد تجسد ما لم يكن قد عاد يحسب له حساباً ، فكاليبان ، الذي يمثل في مسرح رينان الشعب في مقابل سيده الطبيعي والأرستقراطي ، پروسپيرو ، الذي يمثل الحضارة والفكر الحر ، إنما يصبح مقبولاً . وهو يستولي على السلطة بما يثير حزن پروسپيرو الذي لا حد له(٣٣) .

وتطلب محكمة التفتيش أن يُسَلَّمَ اليها هذا الأخير لكي تحاكمه بسبب خروجه على الدين . ويرفض كاليبان تسليم سيده السابق ، فأولي صفاته هي أنه عدو للاكليروس (٣٤) . وتبدأ الجمهورية الثالثة بالتحالف الذي أقامته بين الديمقراطية المساواتية والفكر الحر . ويشكل رمزي ، فإن رينان الذي كان قد رفض النظام في عام ١٨٧١ في كتاب **الإصلاح الفكري والأخلاقي** ، إنما يجعل منه مفخرة قومية . ومحاضراته الكبري في عامي ١٨٨٢ و١٨٨٣ هي الشاهد على ذلك (٣٥) . ومحاضرة **الديانة الإسلامية والعلم** هي الأخيرة في سلسلة المحاصرات هذه . وكان الحافز اليها هو اللقاء الذي جمعه بالأفغاني ، قبل ذلك بشهرين . وهذا النص هو إدانة تامة للإسلام . وهو يبدأ بالتأكيد على «العجز الفكري للأجناس التي تستمد من هذا الدين وحده ثقافتها وتربيتها» (٣٦) . وتشكل فارس استثناءً : «لقد تمكنت من صون عبقريتها الخاصة ؛ لأن فارس قد تمكنت من أن تأخذ لنفسها مكانة خاصة بها في العالم الإسلامي ، وهي في عمقها شيعية بأكثر مما هي مسلمة» (٣٧) .

وينقسم تاريخ الإسلام الى فترتين ، الفترة التي تلي الفتوحات العربية والتي تستمر حتى القرن الثالث عشر ، والفترة الحالية التي تبدأ في الشطر الثاني من القرن الثالث عشر . وفي الفترة الأولي ، نري انتصار فارس ؛ والدين لا يُراعي إلاّ ظاهرياً من جانب السلطات ، «زعماءٌ هراطقةٌ لديانة متزمتة الى حدما» يحمون **الفيلسوف** من الجماهير . أما في الفترة الثانية ، «فإن هذه الكلمة الدخيلة تُحمل على محمل سيء بوصفها تشير الى شيء غريب عن الإسلام . ويصبح **الفيلسوف** عند المسلمين اسماً مخيفاً ، إذ يجر غالباً الى إعدام أو اضطهاد حامله **كزنديق** أو فيما بعد **كفرماسون** (فرانك – ماسون) » (٣٩) . وحتى القرن الثالث عشر ، فإن «الإسلام الذي نالت منه الشيع وخفف تشدده نوعٌ من الپروتستانتية (ما يسمي بالمعتزلية) ، هو أقل إحكاماً وأقل تعصباً مما صار اليه في الفترة الثانية ، عندما سقط في أيدي أجناس التتر والبربر ، وهي أجناس فظة وشرسة وعديمة الفكر» (٤٠) .

ومع انتصار التعصب ، يختفي العلم . لكن حسن الطالع شاء أن ينتقل مشعل الفكر الإنساني الى أوروبا (٤١) . ومنذ ذلك الحين فإن العلم المسمي بالعربي يصبح بلا فائدة : «الويل لمن يصبح بلا فائدة لتقدم البشرية ! إنه يزول فوراً تقريباً ! وعندما نقل العلم المسمي

بالعربي أسلوب حياته الى الغرب ، تلاشي هو من الوجود»[٤٢] . وأخيراً يتساءل رينان عن عروبة المفكرين والعلماء المسلمين في العصر الوسيط . وهو يري أنهم من حيث الأساس ليسوا عرباً ، فهم أسبان أو فرس ، ليست العربية بالنسبة لهم غير لغة اتصال .

وفي عام ١٨٨٣ ، كان الأفغاني في المنفي في باريس بعد إقامته في الهند ، بينما كان محمد عبده مايزال في بيروت . وفي شهر مارس ، حدث لقاء الأفغاني ورينان الذي ألهم الأخير موضوع محاضرته . ويرد الأفغاني على رينان في ١٨ مايو ١٨٨٣ في صحيفة Journal des débats . ونحن لا نعرف غير النص الفرنسي لهذا الرد ، لكن رسالة من محمد عبده الى الأفغاني بتاريخ ١٤ يونيو ١٨٨٣ تضمن صحة نسب الرد[٤٣] .

وفي رده ، ينكب على مشكلة العلاقات بين الفلسفة والدين ، وهو ما يتمشي مع صوغه الشخصي لموضوع اهتمامه الرئيسي [٤٤] . وهو يقرر أنه «ليس بوسع أية أمة أن تسترشد عند نشأتها بالعقل الخالص» [٤٥] وأنه بناء على ذلك فإن الدين ضروري للارتقاء الى طور التمدن الأول . إلاّ أنه مع انقضاء هذا الطور ، فإن جميع الأديان تصبح عقبات في وجه تقدم العقل : «إن جميع الأديان لا تعرف التسامح ، كل بأسلوبه . والدين المسيحي ، أعني المجتمع الذي يستلهم وحيه وتعاليمه والذي تشكل على صورته ، قد خرج من الفترة الأولي التي أشرت اليها ؛ وبعد أن أصبح حراً ومستقلاً ، فإنه يبدو أنه يتقدم بسرعة في مضمار الرقي والعلوم ، في حين أن المجتمع الإسلامي لم يتخلص بعد من وصاية الدين . على أنني إذ أفكر في أن الدين المسيحي قد سبق الدين الإسلامي في العالم بعدة قرون ، فإنني لا يسعني أن أمتنع عن الأمل في أن يتوصل المجتمع المحمدي يوماً ما الى تحطيم أغلاله والى السير بحزم في الطريق الذي يسير فيه المجتمع الغربي والذي لم يكن الدين المسيحي ، بالرغم من صراماته وانعدام تسامحه ، عقبة لا تقهر في وجهه» [٤٦] .

إن الاتفاق تام حول سلبية الدين . ونقطة الخلاف تنصب على فكرة الجنس التي استخدمها رينان . فمناظره يرفض الآرية . وهو يبين أن العرب كانوا الأسرع بين جميع الشعوب في الوصول الى التمدن بدءاً من البربرية . والأوروبيون الذين كان التراث الإغريقي تحت تصرفهم لم يستفيدوا به : «لقد رحب الأوروبيون بأرسطو ، بعد أن نزح وصار عربياً ؛ لكنهم لم يفكروا فيه البتة عندما كان إغريقياً وجاراً لهم» [٤٧] . وبشكل أعم ، فإن الإسلام إنما يتطور في مجال ذي طابع سامي بشكل عميق بالفعل . وانحدار الحضارة العربية إنما يرجع الى انتصار الدين . وهو يختتم كلامه مستعيداً التمييز الكلاسيكي في الثقافة الإسلامية بين النخبة والجماهير (الخاصة والعامة) [٤٨] .

رد رينـــان

ويرد عليه رينان في الغداة . وهو يستخدم مثال الأفغاني لكي يذكر بوحدة الروح البشرية والعقل ، المتعارضين مع ما هو فوق الطبيعة . لكنه يختتم كلامه بالتأكيد على أن الأفغاني هو أيضاً نموذج رد الفعل العنصري الآري ضد الإسلام . فهو ينتمي الى أولئك الكفار العظماء من أمثال ابن سينا وابن رشد ، الذين مثلوا على مدار خمسة قرون تراث الفكر الحر المميز للروح البشرية . وفكرة الكافر تحيل الى فكرة « **الزنديق** » الواردة في نص رينان الأول . ويرصد رينان اتفاق مواقفهما الأساسية : «إن الأمر يتعلق ، بالنسبة للأطراف المستنيرة في المسيحية وفي الإسلام ، بالتوصل الى تلك الحالة من اللامبالاة الخيرة حيث تصبح المعتقدات الدينية غير مؤذية . وقد حدث هذا في نحو نصف البلدان المسيحية ؛ ونأمل أن يحدث ذلك بالنسبة للإسلام . وطبيعي أنه في ذلك اليوم فإن الشيخ وأنا سوف نكون متفقين الى درجة تدفعنا الى التصفيق مهللين» (٤٩) .

ووصولاً الى هذا الهدف ، يجب نشر التعليم بمساعدة زعماء الإسلام الدينيين ، إن أمكن ذلك ، وإن كان رينان يشك في إمكان ذلك : فالكاثوليكية «ماتزال تناضل للحيلولة دون الإنجاز الكامل لما يلخص قانون البشرية العقلاني ، الدولة المحايدة ، البعيدة عن العقائد الجامدة التي يتوهم الناس أنها من وحي السماء» (٥٠) .

الاتفاق والاختلاف

بعيداً عن اتفاق الرجلين حول عدد معين من النقاط المهمة ، فإننا لا نعرف جيداً الى أي موقع يريدان الوصول اليه عبره . إن تعريفهما للحضارة وللدين واحد . والعقل قيمة مشتركة فيما بينهما . وينصب الاختلاف على فكرة الجنس . فالأفغاني يعترف بوجوده من الزاوية اللغوية . إلاّ أنه إذا ماتت اللغة ، فإن الجنس يختفي معها . وليس لدي رينان ما يعيد قوله حول هذا الموقف الذي هو موقفه في كتاب **اليهودية من حيث هي جنس وديانة** .

ويستخدم الأفغاني مصطلحي العربي والسامي دون تمييز . وهو يرفض المحتوي الثقافي الذي يقدمه رينان لهما ، حيث يري هذا الأخير أن الآرية هي مرادف العقل والفكر الحر ، بينما السامية هي مرادف الوحدانية والتعصب . وما يهم المصلح (الإسلامي) : «ليس قضية الدين الإسلامي ، بل قضية عدة مئات من ملايين البشر الذين سوف يُحكم عليهم هكذا بأن يحيوا في البربرية والانحطاط» (٥١) . وبما أنه يميز بين الدين والتمدن ، فإنه يتمسك بتولي الدفاع عن هوية ثقافية وليس عن قيم دينية . وهو يري أنه ينتمي الى النخبة في وجه نخبوي آخر هو رينان . وهذا وذاك في وضع پروسپيرو في مواجهة كاليبان يمكن ويجب إصلاحه . إن تواطؤهما لا حد له .

البروتستانتية

إذا كانت المسيحية تدان على مستوي واحد مع الإسلام ، فإن البروتستانتية تحظي بتعاطفهما . فالمسيحية غير المتسامحة والمتعصبة ليست غير الكاثوليكية . ويري رينان أن فترة الإسلام العظمية هي الفترة التي ساد فيها نوع من البروتستانتية . أما الأفغاني ، فهو يري أن الإسلام لم يعرف بعد ، في تاريخه ، مرحلة البروتستانتية . وهذه الأخيرة هي بروتستانتية القرن التاسع عشر بمطالبتها بالحرية الفردية تجاه الدولة وتجاه الدين . والرجلان على حد سواء يتقاسمان رؤية جيزو التاريخية حول دور البروتستانتية في تاريخ الحضارة . فالقطيعة الأساسية تخترق المجتمع الديني قبل أن تبلغ المجتمع المدني .

والحال أن الأفغاني إنما يستشهد على نحو مباشر بنص جيزو هذا في كتاب «**الرد على الدهريين**» مشدداً على حجة السلطة دون الإلحاح على النتائج السياسية(٥٢) . على أن من الواضح أن الفعل الديني يجب ، في نظر المصلح (الأفغاني) ، أن يسبق الفعل المدني ؛ فالاستبداد سوف يسقط بعد سقوط التعصب . أما الآن ، فإنه يجب التحرك على المستوي الديني للقضاء على القهر الديني . وكانت المطابقة بين لوثر والأفغاني قد جرت بالفعل في حياة الأخير . ويجد هذا البرنامج عرضاً له في مقال لرفيق الأفغاني ، مالكوم خان ، الفارسي ذي الأصل الأرمني ، وهو مقال نشر في الصحف الإنجليزية خلال حملة المقاطعة ضد احتكار التبغ الممنوح للإنجليز في فارس في ديسمبر ١٨٩١ : «إن الناس المتعلمين عندنا في الشرق لديهم رغبة عظيمة في معرفة السبب في أن الأجناس الشرقية لن تقدر على تمثل الحضارة الأوروبية . وهم يعتقدون أنهم قد وجدوا السبب في ذلك وعلاجه . فالسبب يجد مصدره في شكل معين للدين يعد متحيزاً ومن ثم فإن العلاج إنما يجب العثور عليه في تحوير لهذا الدين . وبعد كثير من البحوث وإعمال الفكر ، مع تبادلات صريحة للآراء ، فقد نجحوا في صوغ مذهب جديد يتمشي على أية حال تمشياً تاماً مع الحضارة الأوروبية ، مع تمشيه التام مع جوهر الدين الإسلامي النقي . (. . .) .

«ودون عون الدين ، لا يمكن في الشرق إحراز أي تقدم أو إنجاز أي مشروع ، أكان تجارياً أم سياسياً ، فالدين يهيمن علينا بالكامل . . . وإدراكاً منهم أنه حَتْمُ مسألة الشرق ، فإن الناس المتعلمين عندنا يحاولون أن يكتشفوا في الدين المبدأ الذي كان مصدر التقدم الأوروبي (. . .) .

«ولأول مرة في التاريخ ، تعقد الشعوب الإسلامية العزم على أن تكون في انسجام مع الحضارة الأوروبية . (. . .) والأفغاني هو لوثر الإصلاح الجديد» (٥٣) .

وسوف يشدد الأفغاني على هذه التيمة في أعوام حياته الأخيرة في القسطنطينية . فلوثر

هو الذي نقل الغرب من البربرية الى الحضارة بتأسيسه سيادة العقل . والحال أن الإصلاح البروتستانتي قد مهدت له الطباعة ، ونزوح المثقفين البيزنطيين الى أوروبا بعد سقوط القسطنطينية ، واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وأمريكا . وقد حدث هذا كله بعد الحروب الصليبية ، بعد اللقاء مع الإسلام المتحضر قبل القرن الثالث عشر (٥٤) .

كما استعيدت هذه التيمة من جانب محمد عبده . وهو يمضي الى ما هو أبعد لأنه ينظر الى البروتستانتية بوصفها طبعة مسيحية من الإسلام جرى صوغها تحت تأثير الحروب الصليبية . وهذا هو ما يؤكد عليه في كتابه المهم **رسالة التوحيد** (٥٥) . ومنذ مولد الإصلاح البروتستانتي ، اتهم الكاثوليك البروتستانتية بأنها انحراف إسلامي عن المسيحية .

وقد رد المستشرقون البروتستانت في القرن الثامن عشر برد الاعتبار للإسلام عموماً وللنبي المسلم خصوصاً . وصاغ رجال التنوير ، استناداً الى مؤلفات الجهابذة البروتستانت ، صورة جديدة لمؤسس الإسلام . وبالرغم من أنه قد ظل في نظرهم دجالاً ، فإنه قد أصبح عين النموذج الأصلي للمشرع ، الخالق لمجتمع جديد . وقد اتخذه روسو مثالاً في **العقد الاجتماعي** . وفيما بعد ، حاول بونابارت تفسير هذا الدور في شرق جرى تحليله بوصفه دينياً بالكامل . وهكذا فإن الرغبة في إعادة بناء أوروبا القديمة على أسس جديدة قد استخدمت هذا التفسير لمولد الإسلام .

وكان المصلحون الإسلاميون ملزمين بقبول تحويل عميق لمجتمعهم . وبشكل مماثل لرؤية التنوير للنبي ، وبالاعتماد على الليبرالية الغربية وعلى تحليل مجتمعهم هم ، فإنهم يصوغون مثالاً وظيفياً آخر ، هو مثال لوثر . لكن هذه الرؤية - البرنامج تظل حكراً على النخبة التي تحدد لنفسها مهمة بناء مجتمع جديد . وقد سمع محمد عبده في بيروت بالمناظرة بين رينان والأفغاني . وهو يفكر على الفور في العمل على ترجمة نصوصها الى العربية . وعندما تصل اليه الوثائق ، فإنه يتراجع ؛ فهذا الكلام لا يمكن إطلاع الجماهير عليه . وعند إبلاغه الأفغاني بقراره ، يكتب اليه : «لا نقطع رأس الدين إلاّ بسيف الدين» (٥٦) . وهذه التقية ما تزال لها حاليتها إذ يبدو أن نص الأفغاني لم يترجم قط الى العربية (٥٧) .

أمّا فيما يتعلق برينان ، فإن موقفه يسمح للظنون بأن تذهب كل مذهب : فاستخدام مصطلحات مثل **زنديق** وماسوني والمعتزلية والبروتستانتية وإدانة الكاثوليكية إنما يبدو أنهما أشبه ما يكونان بيدي عون ممدودتين الى الأفغاني . والمسألة كلها تدور وكأن المحاضرة لم تكتب إلاّ بقصد السماح للأفغاني بالرد . ومن المؤكد أن البروتستانتية عند رينان هي عودة ظهور للجيرمانية (٥٨) ، لكن الشأن العنصري ليس في فكره غالباً غير مدخل مجازي للإشارة الى قيم بشرية كالفكر الحر أو الوحدانية . وكاليبان ، القابل لأن يحرز التقدم ، ليس آرياً من

حيث الأصل . وهو لن يكون أبداً نداً لسيده ، لكن زمن الأرستقراطيات القديمة قد ولي . ومنذ تلك اللحظة فإن «بروسبيرو يمكنه العيش لبعض الوقت في ظل نظام كهذا بل إن أمامه فرصة استعادة قيادته . وهذا يقتضي الحكمة ، لأن الديمقراطية غيورة وحذرة . إلاّ أن بالإمكان عمل الكثير من الأشياء بالتزام التواضع وبالتستر على اللعبة» (٥٩) . أليس هذا امتداحاً للتقية؟

محمد عبده وهانوتو

سوف يجري استئناف المناظرة نفسها بعد ذلك ببضع سنوات وإن كان بنبرة أكثر ضحالة بكثير . فجابرييل هانوتو ، الكاتب والسياسي الفرنسي ذو النفوذ ، والوزير السابق للشئون الخارجية (من عام ١٨٩٤ الى عام ١٨٩٨ - المترجم) ، ينشر في صحيفة **Le Journal** في مارس ١٩٠٠ سلسلة بأكملها من المقالات حول الإسلام ، وذلك بشكل أخص في المناطق التي تسيطر عليها فرنسا في أفريقيا . «إن شعباً جمهورياً ، يتألف من أربعين مليون نسمة ، لا مرشد له إلاّ نفسه ، بلا أسرة مالكة وبلا زعماء يتوارثون الزعامة ، هو الذي تقلد زمام توجيه شعب آخر ، من المحتمل أن يساويه عدداً بسرعة ، وينتشر على مساحات شاسعة ، ويحيا تحت سماوات مجهولة ، ويواصل هناك حياة قديمة بالفعل ، طوع غرائزه وتقاليده وقواعد مختلفة تماماً عن القواعدّ التي نخضع لها نحن أنفسنا ؛ والى هذا الشعب الإسلامي والسامي ، يجب الآن على هذا الشعب الآري والمسيحي والجمهوري أن يحمل خبز وملح الحياة والحضارة ! ومن المؤكد أن ظروف المشكلة نادرة ، وليس بوسع الشعب المسيطر بذل جهد زائد عن الحد لمعرفتها ولاستيضاحها» (٦٠) .

والحال أن الإسلام بعيد عن أن يكون ميتاً . على العكس ، إن الطرق الصوفية جد نشيطة وبعضها من أخطر الطرق وأكثرها إثارة للخوف ، و«أصلها ومبرر وجودها هو النضال ضد الكافر ، و(. . .) هي تكن كراهية مطلقة للحضارة» (٦١) . ونزعة الجامعة الإسلامية ، التي تعد لتمرد المسلمين ضد مستعمريهم ، إنما تمثل خطراً ملحوظاً . والإسلام ، بسبب الإيمان بالقدر المكتوب في اللوح المحفوظ ، إنما يشكل خطراً جسيماً على الحرية الإنسانية . ومن الضروري أن تتزود فرنسا بسياسة إسلامية متماسكة مبنية على استقصاء واسع يسمح بتحرير «نوع من كتيب توجيهي ومن كتيب إرشادي سياسي يوجز المباديء التي تحكم علاقاتنا بالعالم الإسلامي» (٦٢) . ويقترح هانوتو استلهام السياسة المتبعة في تونس ، والقريبة من سياسة كرومر في مصر : احترام صوري لمؤسسات الأهالي ، مصحوب بعمل متماسك عازم على أن يفصم برقة الأواصر التي تربط البلد ببقية العالم الإسلامي (٦٣) .

وهذه المقالاتً ، التي تترجم الى العربية وتنشر في الصحف المصرية ، تلهم محمد عبده

على الفور رداً لاذعاً . فالمصلح الإسلامي الكبير ، الذي عاد من المنفي ، قد هجر كفاحية أستاذه الأفغاني الثورية . وبوصفه مفتياً للديار المصرية ، فإنه يحاول تعديل وضع بلاده بشكل تدريجي تماماً . وهنا ، فإنه يلخص في البداية المناقشة طارحاً مسألة حق الإسلام في البقاء ضمن إطار السلطة الفرنسية . ثم ينكب على نقد منهجي للنظرية الآرية . «إن مهد التمدن الآري ومنبت غراسه (الهند) لا يزال الى اليوم على الوثنية التي يحبها مسيو هانوتو في أغلب أنحائه ، ولكن أهله هم الذين قضوا على الآخذين بعقائدهم أن ينقسموا الى أقسام لا يمكن الخلط بينها بل يدوم تباينها مادامت الأرض أرضاً . ومن طبقاتهم من قضي عليه بالانحطاط في العقل والخلق والصناعة لا يباح له أن يرتقي الى طبقة ما فوقه الى انقضاء العالم ، وهو الجمهور الأغلب منهم ، وفيهم من حكم عليه بالنجاسة حتى لا يباح لأهل طبقة أخري أن تمسه . والاعتقاد بفناء العالم ، وأنه لا يليق بالإنسان أن يهتم بشئون العيش هو مبني عقائدهم»(٦٤) .

ومن بلدان سامية تلقت أوروبا الحضارة عبر الأغريق الذين تسني لهم استلهام حضارة المصريين والفينيقيين . ثم إن المسيحية التي تحث على هجر الدنيا لا يمكن أن تكون هي التي أسست الحضارة المسيحية الدنيوية الى هذا الحد (٦٥) . والواقع أن أية حضارة قد استعارت من الآخرين ما كان يمكن تكييفه مع ثقافتها الخاصة .

وإذ يخاصم محمد عبده ، بحسب كلماته هو ، زيف معرفة وانعدام ثقافة مخاطبه الفرنسي ، فإنه يذكره بأن العبرانيين ، من بين الشَعوب السامية وحدهم ، هم الذين آمنوا بدين التوحيد . على أن الساميين الآخرين لم يكونوا أكثر ولا أقل شركاً من الآريين . ولم يكن الإسلام يؤمن في الأصل بالمكتوب . وليست الجبرية غير انحطاط متأخر أدخله الفرس والروم (البيزنطيون) ، وهما شعبان آريان ؛ أما عندما كان الإسلام عربياً خالصاً ، فقد كان حيوياً وتمدينياً . وهكذا فإننا هنا في عين اللحظة التاريخية التي تبدأ فيها **السلفية** بشكل غير محسوس في أن تصبح نزعة إسلامية – عروبية (٦٦) .

ويواصل المصلح حديثه بتقديم درس لاهوتي حقيقي حول تفوق **التوحيد** على جميع أشكال الشرك أو التجسد الإلهي . والحال أن انحدار العالم الإسلامي في الوقت الحاضر إنما يرجع تحديداً الى الخرافات ، التي تعد وثنية حقيقية ، والتي غزته . وهو يدعو الى عودة الى أشكال الإسلام الأول والتي سمحت بنهضة ثقافية حقيقية .

وسوف يرد هانوتو بدوره على مقالات محمد عبده مُحَمِّلاً الترجمة العربية لنصه المسئولية عن حدوث سوء تفاهم بينه وبين المسلمين . أما مخاطبوه الآخرون فقد دخلوا المناظرة معه بقدر أكبر من حسن النية ، وينطبق ذلك بشكل خاص على التركيين أحمد رضا

وأحمد مدحت اللذين كانا يدوران في فلك حركة تركيا الفتاة . أما طلعت حرب الذي ينشر في عام ١٩٠٥ عناصر هذا الملف فسوف يصبح ملهم النزعة القومية الاقتصادية المصرية في مواجهة المصالح الأجنبية . وفي التمهيد الذي كتبه للملف ، فإنه يذكر بأن المجريات الحالية ، الحرب الروسية - اليابانية ، تبطل تماماً النظرية الآرية (٦٧) . وضد «الحضارة الأوروبية المزعومة» ، فإنه يعلن استيقاظ آسيا التي سوف تناضل ضد «التعاسات المهينة المترتبة على حضارة تترجم الى واقع الصورة الأسطورية لصندوق پاندورا المليء بالشرور» (٦٨) . وهو لا يسعه أن يعرف الى أي مَدي سوف يتكشف صدق صورته خلال السنوات الأربعين التي سوف تتلو اشارته اليها . . .

كـرومر

تعد روح الإدارة البريطانية لمصر قريبة تماماً من أفكار رينان . وليس هناك ما يدعو الى الدهشة من واقع أن اللورد كرومر ، الذي يدير مصر إدارة حاكم مستبد على مدار أكثر من عشرين سنة ، يستشهد عدة مرات بالمستشرق الفرنسي لكي يبرر آراءه التي تحط بشكل واضح من قدر المسلمين والمصريين (٦٩) . وفي هذه الظروف ، يصبح من المفهوم أن الإنجليز ، الواثقين من خصّال الجنس الأنجلو - ساكسوني ، خاصة الحس العملي واحتقار النظريات ، يواجهون الكثير من المصاعب في تحقيق مهمة إسعاف المجتمع المصري (٧٠) .

ويذهب كرومر الى أنه مهما كفل الإنجليز للمصريين أحوالاً مالية أفضل وقضاءً أرقي وتعليماً يتيح لهم الوقوف على علم حقيقي ، فإن روح عدم التسامح المميزة للإسلام تحول دون أي اعتراف بحسنات الإدارة البريطانية (٧١) . والمصري ، من جراء جنسه وديانته ، لا يمكنه إلاّ أن يكون عديم المنطق وعديم الكفاءة وبليداً وكاذباً ومراوغاً . وهكذا يصبح التشخيص نهائياً : إن هذا البلد لم يعرف غير البربرية قبل عام ١٨٨٢ ؛ والدفعة التي قام بها محمد على أفسدها استيراد أسوأ ما في الحضارة الفرنسية (٧٢) .

إن إدخال التمدن الى مصر بالغ الصعوبة لأنه يتطلب أولاً إصلاح الإسلام ، والحال أن الإسلام ، بعد إصلاحه ، لن يعود إسلاماً بل سوف يكون شيئاً آخر (٧٣) . وتمدين مصر لم ينتج غير فئة صغيرة من المسلمين المتحللين من الإسلام الذين فقدوا ذلك القدر اليسير من الأخلاق الذي كانوا يدينون به لديانتهم . والواقع أنهم قد أصبحوا أسوأ مما كانوا عليه ، فقد جرت «**فرنستهم**» (٧٤) .

وتنبع نكبة مصر الكبري من واقع أن محمد على قد اتجه الى فرنسا لتمدين البلد . فجميع عيوب الثقافة الفرنسية ، روح النظرية ، الخفة ، موجودة في مصر دون أي من مزاياها . وتحت

تأثير التعليم الفرنسي ، تضخمت عيوب الشخصية المصرية أكثر فأكثر (٧٥) .

والخلاصة أن الجهد اللازم للاضطلاع بإصلاح مصر سوف يستغرق أجيالاً . والحال أن المثابرة والنزعة العملية المميزتين للجنس الأنجلو - ساكسوني هما وحدهما القادرتان على الوفاء بأعباء مثل هذا المشروع . والأنجلو - ساكسون هم وحدهم القادرون على بذر بذور التمدن الحقيقي وإتاحة الأمل في مستقبل مصر (٧٦) .

ويصبح الوضع في زمن الاحتلال البريطاني مفارقاً . فالقوميون المصريون يتمسكون بالامتيازات بوصفها الوسيلة الوحيدة أمامهم لتقييد الوجود الإنجليزي تذرعاً بالضمانات الدولية ، خاصة فيما يتعلق بحرية التعبير . ومن الجهة الأخري ، فإن كرومر يجد نفسه مدفوعاً الى قول إن مصر قد أصبحت الآن متمدنة بما يكفي للسماح بإلغاء جزء من الامتيازات . وعندئذ يسجل القوميون عليه كلامه ويطالبون بالحرية لبلدهم (٧٧) .

ويعرف الفرنسيون في فرنسا تجربة الحكم غير المباشر هذه نفسها ويجرون تحليلات مماثلة لتحليلات كرومر . إن التحرر سوف يمر عبر استيعاب الحضارة الأوروبية . وتلك مهمة الأجناس الأرقي ، العبء الحقيقي للإنسان الأبيض . وكل ما هنالك هو أن الصعوبة فادحة بحيث إن هذه الرسالة التمدينية سوف تتطلب زمناً ملحوظاً . أما الآن فإنه يجب التحرك بحكمة ومداراة الإسلام من الناحية الشكلية على الأقل . والمسألة برمتها مسألة تطور بطيء (٧٨) .

معاداة السامية

في اللحظة التي تكثر فيها أوروبا من تسجيل المآخذ على المسلمين ، غير القادرين ، في رأيها ، على قبول التعايش مع المسيحيين ، تطور هي نفسها هذا الداء الرهيب المتمثل في معاداة السامية . وأصول هذه المعاداة للسامية مركبة . فمن جهة ، هناك بقاء المعاداة المسيحية لليهود والمؤسسة على اللعنة المكتوبة على الشعب الذي قتل الرب . وهذا التراث يجري تضخيمه بشكل ملحوظ في أواخر القرن التاسع عشر عبر ظهور صحف دينية تخاطب الجماهير . ويضاف الى ذلك الربط الشعبي بين اليهودية والمال وهو الربط الناجم عن الربا في العصر الوسيط والذي أحياه دور بعض الإسرائيليين في تطور الرأسمالية المالية في القرن التاسع عشر . ومن جهة أخري ، هناك الانتقال الى النظريات العنصرية المرتبط ارتباطاً حميماً بظهور النزعة القومية .

والحال أن النزعة القومية ، إذ تصبح مذهباً جماهيرياً ، إنما تتأسس على رهاب الأجانب . فهي تحارب «الأجنبي» في الخارج وفي الداخل على حد سواء . ولابد من أن يوجد لها أعداء

يشار اليهم ، وإلاّ فإنها لن تتمكن من الوجود . ووراء الراين ، فإن تماهي الشعب مع الجنس يسهل تحقيقه لأن الألمانية لغة أصيلة حافظت على نسق الجذور الهندو - أوروبية . ومن «الجيرماني» ، يتم الانتقال بسهولة الى «الآري» وعبر هذا الطريق نفسه الى التضاد مع «السامي» . والأصل نفسه ، والذي يرجع الى نحو ألفي عام ، إنما يحيل الى الشرق المطل على البحر المتوسط جد المختلف عن شرق الهندو - أوروبيين .

وفي فرنسا ، تعد العملية أكثر تركيباً . فواقع أن اللغة الفرنسية مشتقة من اللاتينية وواقع أن الأمة الفرنسية لا شك في أنها تتألف من ركام من الشعوب إنما يزيدان من صعوبة الإدعاء بنقاء عنصري . وعندئذ تجري الاستعاضة عن الدم بالأرض وبالتاريخ أو ، بحسب صيغة باريّه ، بالتراب وبالموتى . وكانت الايديولوچية الجمهورية قد اعتبرت الثورة الفرنسية نقطة انطلاق قائمة بذاتها بوصفها بداية حكم العقل ولم تقبل التاريخ إلاّ بشرط الاحتفاظ بحق إعادة النظر فيه . ووفقاً لصيغة رابو سان - ايتيان (الچيروندي - المترجم) ، فإن «تاريخنا ليس شريعتنا»[٧٩] . والواقع أن النزعة القومية إنما ترفض نزعة التنوير الكونية وتطرح التاريخ بوصفه حتمية مطلقة بما يجعل من أي خروج على التراث التاريخي خيانة وانحطاطاً . إنها تضع الطبيعة في مواجهة العقل الذي لا يمكنه أن يكون إلاّ مضاداً للطبيعة .

وعندئذ يصْبح اليهودي هو العدو المكتوب الذي توجد اليه حاجة بشكل مطلق . وقد بينت النظريات العنصرية خارجيته الجذرية ، ليس فقط الجغرافية وإنما أيضاً الثقافية . وتقف ضده العداوة المسيحية القديمة والسخط الشعبي على المال وسوف يكون بالإمكان أن يضاف الى ذلك الرعبُ من المؤامرة ، العلة الغائية الشيطانية التي كان حتى ذلك الحين قد جرى تحميل اليسوعيين وزرها . وعقل التنوير ، الذي يقضي على نتاج التاريخ هو أيضاً خاصية خطرة تقرِّبُ اليهودي من أعداء الأمة الآخرين ، البروتستانت والماسون . وجميع هذه المكونات تنجب معاداة السامية ، جد المتميزة عن معاداة اليهودية لأن التحول (الى اعتناق المسيحية) من شأنه أن يؤدي ، من منظور مسيحي ، الى اختفاء مجمل اللعنة المكتوبة على إسرائيل .

والداروينية الاجتماعية في أواخر القرن التاسع عشر تسمح باستعادة الفكرة القديمة لزمن عودة الملكية ، صراع الأجناس . واعتماداً على جميع هذه المكونات ، فإن القوميين ، وهم أنصار مبدأ «السياسة أولاً» ، إنما يتمتعون بوسيلة تحريض شعبي . إلاّ أنه خلافاً للشعوب المستعمرة التي تعتبر دونيتها واختلافها واضحين ، فإن الجنس اليهودي يشكل خطراً بسبب ذكائه وتشابهه . واليهودي ، بعيداً عن أن يكون رافضاً للتمدن ، أي رافضاً للذوبان ، إنما هو ذلك الذي يخترق جميع الأماكن ويستولي على وظائف المسئولية والسلطة . ولولا وجود

علامة الاسم اللغوية التي تدل عليه ، لأصبح من المستحيل تقريباً تمييزه . ولهذا أيضاً فإن تيمة المؤامرة تعد فعالة هي الأخري .

ومعاداة السامية في أواخر القرن التاسع عشر هي عرض آخر من أعراض هذا الرفض الكبير الذي يتعارض مع التفاؤل الذي عرفه الشطر الأول من القرن . ومما له دلالته أن المستشرقين هم أيضاً الذين يقدمون في هذا الصدد المعجم الذي يسمح بطرح مقولات جديدة . ورينان هو الذي يعمم في فرنسا مصطلح «السامي» الذي كان حتى ذلك الحين مجهولاً . وسوف يحاول في أواخر حياته إثبات أن اليهودية الأوروبية لم تعد جنساً بل هي مجرد ديانة ، إلاّ أن الأوان سيكون قد فات بالنسبة لذلك .

وسوف يتجاوب مسيحيو الشرق مع معاداة السامية بقدر ما أن معاداة اليهودية قد هيأتهم لذلك . لكن الصهيونية بشكل خاص هي التي سوف تُدخل معاداة السامية الى العالم العربي والإسلامي . وهي النتيجة المنطقية لمعاداة السامية بقدر ما أنها تقبل مسلمتها التي تذهب الى استحالة ذوبان اليهود في الشعوب الأوروبية والى أن الإمكانية الوحيدة لإحيائهم إنما تكمن في تحولهم الى أمة على غرار الأمم الأخري . والحال أن فعالية التحركات الصهيونية لدي الحكومات الغربية سوف تظهر في صورة دليل لا سبيل الى تفنيده على فكرة المؤامرة . ونجاح كتاب ككتاب **بروتوكولات حكماء صهيون** في العالم العربي في القرن العشرين إنما ينتمي الى مجال العلة الغائية الشيطانية .

الوضــعية

تتصدي تيارات فكرية أخري لهذه الآراء المتطرفة . فالوضعيون يرفضون كل أفكار الاستعمار والعنصرية . وهم يتنبأون باختفاء الدول الأوروبية العظمي لحساب مناطق لا يزيد حجم سكان الواحدة منها عن مليونين الى ثلاثة ملايين نسمة ، وهو حجم مناسب لدول حرة حقاً [٨٠] . وواقع أن العالم الإسلامي ما يزال في الحالة اللاهوتية هو بالنسبة لهم ميزة ثمينة : فهو لن يضطر الى مكابدة الاضطرابات التي عرفتها أوروبا حتى تنتقل الى الحالة الوضعية . «في رفضه لانقسام السلطتين ، سعياً منه الى بناء حكمه الثيوقراطي العسكري على أسس أقوي ، استشعر محمد الذي لا مثيل له أن هذا التحسين الهائل للنظام الاجتماعي مايزال سابقاً للأوان ، لكونه يتعارض مع المبدأ اللاهوتي . ولذا يجب اعتبار مثل هذه المحاولة من خصائص الغرب ، حيث سوف يؤدي اجهاضها النهائي الى أخطار جسيمة على مدار زمن طويل . وإذا كان الإسلام قد حرم الشرقيين من أشكال تقدم تدعو الى الإعجاب ، في العصر الوسيط ، تحققت بحفز من الكاثوليك ، فإنه قد صانهم ، منذ ذلك الحين ، من الانتقال

الفوضوي الذي عذبنا على مدار القرون الخمسة الأخيرة والذي يترتب عليه اليوم كل ما نراه من عقبات . والحال أن المسلمين ، بفضل نظامهم ، إنما يعدون من حيث الجوهر أحراراً من الميتافيزيقيين بل ومن المشرعين . إن الوضعية ، بتحويلها لهم عن محاكاة كارثية ، سوف تجعلهم يقدرون بحكمة هذه المسيرة الرئيسية التي من شأنها أن تدعم كثيراً إحياءهم النهائي»[٨١] .

وهذا التصور يرفض كل التأويل العنصري الذي طرحه رينان . وقد بدا الوضعيون أكثر عداوة لأطروحات رينان المعروضة في مناظرته الشهيرة مع الأفغاني حول **الديانة الإسلامية والعلم** (١٨٨٣)[٨٢] . ويمكن فهم جاذبية الوضعية بالنسبة لحركة تركيا الفتاة التي سوف تتبني شعارها «النظام والترقي» (بعد تحويره الى «الاتحاد والترقي» . – المترجم) بل وموقفها الملتبس تجاه الإسلام . وخلافاً لاعتقاد شائع ، فإن جامبيتا وفيري لا يمكن الجمع بينهما وبين الوضعيين الخالصين . فقد كانا في صف المفكرين الأحرار العقلانيين من مدرسة رينان ، والذين لم يكونوا يكنون احتراماً كبيراً للوضعية .

سـيديّو ولوبـون

ينفي رينان، نصير العرق الآري ، دور المصريين والعرب المتعاقب في تاريخ الحضارة . وقد استخدم الأفغاني مصطلحي «العرب» و«الساميين» دون تفرقة وذكر بمكانتهم العظمي في نقل المعارف وتحسينها . وهذه الفكرة ، القادمة من عصر التنوير ، يجري استثمارها بعد عام ١٨٧٠ عبر كتابين مهمين سوف يحظيان بتأثير كبير على مفكري النهضة العربية : **تاريخ العرب العام** ، لسيديّو ، المنشور في عام ١٨٧٧ (صدرت الطبعة الأولي في عام ١٨٥٤) **وحضارة العرب** ، لجوستاف لوبون ، الذي يرجع الى عام ١٨٨٤ .

وكتاب سيديّو هو عمل مستشرق محترف لديه معرفة مباشرة بالنصوص الأصلية . وبالرغم من أن الكاتب يجري استحضاراً للأحداث السياسية الرئيسية منذ زمن النبي ، إلاّ أنه يهتم اهتماماً خاصاً بتاريخ العلوم ويشدد على دور العرب المهم في تحسين علم الفلك . وهو يشير الى أهمية الاستعارات التي نقلتها أوروبا من الثقافة العربية في جميع المجالات . وهدفه هو فضح «التحيز الذي يهدف الى اسدال ستار النسيان على العرب وعلى التأثير الذي مارسوه على مجمل مدار العصر الوسيط وترك بصماته على الحضارة الحديثة»[٨٣] . وهو ينازع في تاريخ العلوم «وجود هذا الشعب البدائي الخارج من مخيلة بايى ، والذي تم دفنه ثم أعيد الى الحياة في هذه الأزمنة الأخيرة تحت اسم الآريين»[٨٤] . ويعاني العرب الحاليون من سيطرة العثمانيين . لكنهم لا يحلمون إلاّ باستعادة استقلالهم كما شهدت على ذلك

المحاولات المتعاقبة من جانب آل سعود في بلاد العرب ، مهد الجنس العربي . وربما يرفع الوهابيون يوماً ما علم الجماعة القومية العربية (٨٥) . والكتاب الأهم هو كتاب جوستاف لوبون ، الكاتب الشهير ذي المؤلفات متعددة الموضوعات . وهذا الكتاب ، المحلي بالصور ، هو تقريظ للدور الكبير الذي لعبه العرب في التاريخ . كما أنه كتاب أساسي في التنظير للأفكار العنصرية ، بالرغم من أن لوبون كان ، على ما يبدو ، أقرب الى تين مما الى رينان . فهو يشدد على دور الوسط وتزاوج الأجناس في تكوين جنس يتم نقل خصائصه بعد ذلك وراثياً .

والحال أن الجنس ، المعرف بأنه عدد معين من المشاعر والاستعدادات المتماثلة الموجودة لدى أفراد جماعة من الجماعات وتوجه جهودهم في اتجاه واحد ، إنما يخلق شخصية قومية يتم نقلها بشكل وراثي . وعناصر الشخصية القومية ثابتة ثبات الفقرات في الفقاريات . ومساهمة العرب الملحوظة في تاريخ الحضارة لا يمكن فهمها إلاّ من خلال الشخصية القومية العربية التي تمكنت ، عبر ديانة محمد وروح التسامح ، من تمثل حضارة جيرانهم المتقدمة بحرية فكرية عظمي . وهكذا تسني لهم تحسين الفنون والعلوم والآداب التي جاءت من العصر القديم . والحال أن دور العرب الأساسي هذا قد عتمت عليه التحيزات المتوارثة المتراكمة منذ قرون ضد المسلمين . ومحاضرة رينان هي مثال جديد لهذا التحيز (٨٦) . وعلى مدار ستمائة عام كان العرب سادة أوروبا وممدنيها . أما الانحطاط الحالي فيمكن تفسيره بروح الفُرقة بين العرب وخاصة بالتزايد التدريجي لعدم تناسب الدين الإسلامي مع الحضارة التي أسهم في خلقها وكذلك بخليط الأجناس الموجود في الإمبراطوريات الإسلامية الكبري ؛ فالانفصال الضروري بين الفاتحين والمفتوحين لم يكن ممكناً وذلك بسبب الدين نفسه لأنه دين يدعو البشر كلهم الى أن يكونوا أمة واحدة .

والآن يهيمن على العام العربي الأتراك ، وهم شعب يدين بمجمل حضارته للعرب ولا يملك إلاّ جعلها تنحدر ، بسبب عجزه عن تحسينها . والشرق المنحط في القرن التاسع عشر خاضع للفعل المدمر الذي تمارسه شعوب الغرب والتي لا يحركها غير الجشع وحق الأقوي : «من بين جميع أديان الأزمنة القديمة ، فإن هذا الدين هو الوحيد الذي مايزال واقفاً على قدميه في تأكيده لهذا الحق الذي لا يعلو عليه حق . والأمم الحديثة لها شواغلها الأخطر من تمدين الشعوب الأخري ؛ إذ يتعين عليها أولاً أن تفكر في العيش . ومع تنافس الأجناس المتنامي ، فإن الحقوق التي يملكها شعب من الشعوب إنما تتناسب تناسباً صارماً مع عدد المقاتلين والمدافع المتوافر لديه . ولا يمكن لأحد أن يحلم اليوم بالاحتفاظ بشيء إلاّ بما هو قادر بما يكفي على الدفاع عنه . فالمرء إما أن يكون غالباً أو مغلوباً ، طريدة أو صياداً . هذا هو القانون في

الأزمنة الحديثة . وعندما يتعلق الأمر بالعلاقات بين الشعوب ، فإن كلمات العدل والمساواة تفقد كل حرمتها ، ومن ثم كل قيمتها . إنها صيغ غامضة مماثلة للاحتجاجات التافهة التي تنتهي بها بياناتنا . والجميع يستخدمونها ؛ وهي لا تخدع أحداً . (. . .) .

«لقد دخلت البشرية عصراً حديدياً لا مفر من أن يهلك فيه كل ضعيف» (٨٧) . والحال أن لوبون ، شأنه في ذلك شأن جوبينو ، إنما ينفي صحة رسالة أوروبا التمدينية والتي لا تعدو في الواقع أن تكون اغتصاباً واستغلالاً . وشأنه شأن جوبينو ، فإنه يخشي من أن ينتصر يوماً ما الإنسانُ المتوسط ، الذي يمثله الشرقي (٨٨) . أما فيما يتعلق بالإسلام ، فإن لوبون يختتم حديثه بأنه مايزال بعيداً عن أن يكون في مرحلة انحدار : فهو في جميع أرجاء أفريقيا وآسيا والصين وفي أرخبيلات المحيط الهندي يحرز تقدماً ويجعل محاولات المبشرين الغربيين في هذه المناطق من العالم مثاراً للسخرية .

نهـــاية القـــرن

ومجموع هذه الكتابات ذات الهوي العربي إنما يشكل مادة ممتازة لتأسيس نزعة قومية عربية . والحال أن لوبون وسيديّو على حد سواء قد ردًّا على تيار يحط من قدر العرب ومن قدر الإسلام كان قد أصبح مهيمناً ، خاصة مع رينان . ونفوذهما الفوري في العالم العربي إنما ينبع من دفاعهما عن الحضارة العربية - الإسلامية ، من التذكير بدورها في تاريخ البشرية وفي تشكل الحضارة الغربية . وفي اللحظة التي يبلغ فيها الذروة رصدُ الهوة المادية بين أوروبا والعالم العربي ، فإن مثل هذه الأفكار تقدم ما هو ضروري لتأكيد شعور تعويضي . والآلية نفسها تظهر عند الأتراك الذين ، بدءا من بعض الكتابات الاستشراقية ، سوف ينغمسون في الأسطورة الطورانية التي صيغت وفق نموذج الأسطورة الآرية .

وقد أدرك عبد الحميد تماماً أن الإسلام ما يزال هو اللحمة الوحيدة لإمبراطوريته في وجه قوي التفكك والتصدع التي تشجعها أوروبا . كما أن نزعة الجامعة الإسلامية عنده قد تضمنت أيضاً اشتراكاً مهماً من جانب النخب المسلمة السنية السورية في الإدارة العثمانية . ويتجلي نجاح هذه السياسة في الهدوء النسبي للولايات العربية بعد توترات مستهل ثمانينيات القرن التاسع عشر . وتتواجد عملية تأكيد الاستقرار الحميدية في الاستخدام المستتر لخطر التحريض الإسلامي في ممتلكات فرنسا وانجلترا الاستعمارية . وهاتان الدولتان العظيمتان «الإسلاميتان» ، بحكم عدد المسلمين في إمبراطورية كل منهما ، تنزعجان وتمارسان سياسة مراعاة تجاه المراجع الإسلامية في ممتلكاتهما وتراعيان الى هذا الحد أو ذاك على مدار أكثر من ربع قرن مبدأ وحدة أراضي الدولة العثمانية .

كما تستند نزعة الجامعة الإسلامية على تدجين للتيار الثوري **للسلفية** . إذ يقضي الأفغاني الأعوام الأخيرة من حياته في عاصمة الدولة العثمانية ، مستخدماً من جانب السلطة وتحت رقابتها ، بينما يتم تعيين محمد عبده مفتياً للديار المصرية و ، إذ يستعيد اعتدالاً طبيعياً ، فإنه يعمل بشكل براجماتي على تطبيق بعض أفكاره . وتصبح نزعة الإصلاح الإسلامي من الناحية الظاهرية مذهباً مقبولاً ومحترماً من جانب السلطات القائمة وذلك ضمن إطار التأكيد العام على التضامن الإسلامي . لكن لا شيء يحول دون تطور مسلمات تترتب على هذا الفكر : فالتأكيد على أن الإسلام الحق هو إسلام الأزمنة الأولى وأن الانحطاط الديني قد بدأ في وقت مبكر نسبياً ، إنما يستتبع بالضرورة التأكيد أيضاً على أن الإسلام لم يكن إسلاماً حقيقياً بالكامل إلا خلال الفترة التي كان العرب وحدهم هم الذين يطبقونه فيها . ويبدأ الانحطاط مع تحول غير العرب بأعداد كبيرة الى اعتناق هذا الدين .

وهذا المخطط التصوري إنما ينطوي على تماثل بنيوي مع المخطط التصوري الذي كان المستشرقون قد طوروه منذ زمن طويل : لقد كانت الحضارة الاسلامية رائعة طالما كانت من عمل العرب وفيما بعد من عمل الفرس ، لكنها انحدرت عندما أصبح الأتراك العنصر السائد .

الكواكبي

والحال أن فكرة تفوق العرب الديني سوف يجري تطويرها من جانب مصلحي الجيل الثاني الذين يعد أفضلَ ممثل لهم هو عبد الرحمن الكواكبي ، وهو سوري من حلب ، قريب من محمد عبده ومن تلميذه رشيد رضا . وفي مجلة هذا الأخير من جهة أخري سوف ينشر في عام ١٩٠٢ أعماله الأساسية قبل موته بعد ذلك بزمن قصير .

وهو يستحسن العودة الى المباديء الأساسية للمسلمين الأوائل ويرفض كل مدارس التفسير اللاحقة . وسوف يكون ذلك هو الأساس لإيجاد وحدة حقيقية بين جميع المسلمين استناداً الى نهضة دينية . وتستند النهضة الى التفوق الديني لعرب شبه الجزيرة العربية الذين يتحلون ، حتى في أيامنا ، بخصال مؤسسي الإسلام . ويجب للوحدة أن تتم بالالتفاف حول خليفة عربي ، ينحدر من قبيلة النبي (قريش) ويتخذ من مكة مقراً له . وهذه الخلافة الجديدة هي التي سوف تتولي تعيين جميع السلطات الإسلامية (إمارة ، سلطنة) لكنها لن تمارس مسئوليات سياسية .

ومن الغريب أن الكواكبي ، في وصفه للمجتمع الإسلامي المثالي ، إنما يرجع الى الحجاجات الوظيفية لمستهل القرن التاسع عشر ، ولكن بعد نقلها الى مجمل العالم

الإسلامي . «إن لجزيرة العرب ولأهلها بالنظر الى السياسة الدينية مجموعة خصائص وخصال لم تتوفر في غيرهم . (. . .) إن حفظ الحياة الدينية متعين عليهم لا يقوم فيه مقامهم غيرهم مطلقاً ، وإن انتظار ذلك من غيرهم عبث محض .

«على أن لبقية الأقوام أيضاً خصائص ومزايا تجعل لكل منهم مقاماً مهماً في بعض وظائف الجامعة الإسلامية ، مثل : أن معاناة حفظ الحياة السياسية ولاسيما الخارجية متعينة على الترك العثمانيين . ومراقبة حفظ الحياة المدنية التنظيمية يليق أن تناط بالمصريين . والقيام بمهام الحياة الجندية يناسب أن يتكفل به الأفغان وتركستان والخزر والقوقاس يميناً ومراكش وإمارات أفريقيا شمالاً . وتدبير حفظ الحياة العلمية والاقتصادية خير من يتولاه أهل إيران وأواسط آسيا وما يليها» (٨٩) .

وقد قيل إن كتاب الكواكبي قد كتب بايعاز وبتمويل من جانب خديو مصر ، الراغب في استئناف طموحات الأسرة المالكة (المصرية) في الاستئثار بسوريا والساعي الى تبديد شرعية الخلافة العثمانية وارتباط السكان السوريين بالدولة العثمانية . والحق أن الكواكبي يهاجم بشكل خاص الأتراك العثمانيين الذين يجدون من الفخر لهم أن ينفصلوا عن العرب لكي يتفرنسوا أو يتجرمنوا بدلاً من ذلك . لكن مسألة الايعاز والتمويل المحتملة قليلة الأهمية قياساً الى واقع أن السلفية إنما تصب منطقياً ، ضمن إطار تأملاتها حول الإسلام ، في نزعة عربية - إسلامية . وهذه النزعة العربية - الإسلامية إنما تتطور وفق نموذج متماثل مع نموذج النزعة العربية - التاريخانية القادم من التنوير الأوروبي ، وكل ما هنالك هو أن الحد الديني يحل محل حد الحضارة .

وعندما يرجع الكواكبي الى النموذج الإثني - الوظيفي للمجتمع الإسلامي المثالي ، فإنه يكمل الدائرة التي كان قد جري البدء بها في مستهل القرن : ففي البداية ، كان المجتمع العثماني يدار من خلال نظام تقسيمات وظيفية يمنع أو يقلل من شأن الانتماء الإثني ، ومن المفارقات أن إلغاء التقسيمات الوظيفية والبحث عن مساواة مستحيلة بين جميع سكان الإمبراطورية (العثمانية) قد أدي الى ظهور ما كان حتى ذلك الحين مستترا ، الانتماء الإثني . وهذا الأخير يتجلي في مستهل القرن عبر التأكيد على انقسام وظيفي جديد ، فالترك لهم الوظيفة العسكرية والعرب لهم الوظيفة الدينية .

عـــازوري

إذا كان ظهور النزعة العربية - الإسلامية نتاج تأمل حول الإسلام ، فإن النزعة العربية - التاريخانية تواصل التطور بشكل موازٍ لها . وعلاوة على أعمال المستشرقين ، فإن فكرة وحدة

تجمع كل العرب ، بالرغم من اختلافات الدين ، إنما تصبح أكثر شيوعاً بين مسيحيي الشرق الذين يلعبون دوراً أساسياً في النهضة الثقافية للعالم العربي . لكن النزعة العربية - التاريخانية هي أيضاً ذريعة للعمل السياسي كما أثبتت ذلك الأمثلة السابقة المتمثلة في بوناپارت وإبراهيم باشا وعبد القادر ومدحت باشا .

وهذا البعد السياسي يتواجد من جديد في الكتاب الذي نشره بالفرنسية في عام ١٩٠٦ نجيب عازوري ، وهو مسيحي لبناني الأصل [٩٠] . وعنوان الكتاب هو استحضار لبرنامج : **استيقاظ الأمة العربية في آسيا التركية في وجود مصالح وتنافسات الدول الأجنبية وإدارة روما البابوية والبطريركية المسكونية ، الشق الآسيوي من المسألة الشرقية وبرنامج عصبة الوطن العربي** . وبدءً من المقدمة ، يجري طرح الأفكار الأساسية : «إن تغيراً سلمياً هائلاً بسبيله الى أن يحدث في تركيا . والعرب الذين لا يستبد بهم الأتراك إلاّ بتأكيد الفرقة بين صفوفهم من خلال أمور لا وزن لها ، كأمور الملل والديانات ، قد أدركوا تجانسهم القومي التاريخي والاثنوغرافي ويريدون الانفصال عن شجرة عثمان التي نخرها السوس سعياً الى أن يكونوا دولة مستقلة .

«إن هذه الإمبراطورية العربية سوف تمتد ضمن نطاقات حدودها الطبيعية ، من وادي دجلة والفرات الى برزخ السويس ، ومن البحر المتوسط الى بحر عُمان . وسوف يتم حكمها عن طريق ملكية دستورية وليبرالية على رأسها سلطان عربي .

«أما ولاية الحجاز الحالية ، فسوف تشكل ، مع أرض المدينة ، إمبراطورية مستقلة سيكون ملكها في الوقت نفسه خليفة دينياً لجميع المسلمين . وهكذا ، فإن معضلة كبري ، هي معضلة الفصل بين السلطة المدنية والسلطة الدينية في الإسلام ، سوف تجد حلاً لها بما يعود بالخير الكبير على الجميع» .

وعلاوة على الأصداء الخافتة لفكر الكواكبي ، فإننا نجد خليطاً من التيمات الشرقية والغربية : فنقد الاستبداد الحميدي قريب من نقد رجال من جماعة تركيا الفتاة يُشار اليهم إشارة محددة ، والخوف من تطور الصهيونية هو بالفعل واقع متأصل في المجتمع السوري - الفلسطيني ؛ لكن برنامج عصبة الوطن العربي هو استعارة من النزعة القومية الفرنسية بشجبها للخطر اليهودي العالمي . وكما بينت التحريات البحثية في الأرشيفات الديبلوماسية ، فإن عازوري كان قد عرض وضع نفسه في خدمة فرنسا من أجل إثارة العرب ضد السلطة العثمانية في حالة ما إذا رغبت فرنسا في فرض نوع من الحماية على سوريا . وشأنه في ذلك شأن مسيحيين شرقيين آخرين ، فإنه مستعد للتعاون مع فرنسا من أجل تحقيق آرائه السياسية الخاصة . وتستند أصالته الى توجهه العروبي ، في حين أن الآخرين يقترحون

إما إقامة دولة لبنانية (برنامج الكنيسة المارونية) ، أو تكوين سوريا كبري تحت الحماية الفرنسية (ذلك هو توجه اللجنة المركزية السورية المرتبطة بالحزب الاستعماري الفرنسي) .

انبثاق النزعة العربية

بالنسبة للسياسة الفرنسية ، ليست المسألة مجرد مسألة أكاديمية . فالتدهور المتواصل للوضع في البلقان من جراء الأحوال المقدونية يبدو أنه يشير ، مرة أخري ، الى أن نهاية الدولة العثمانية قد باتت وشيكة . وبالرغم من الوفاق الودي ، فإن المسئولين الفرنسيين ينزعجون ، محقين ، من الأطماع البريطانية المحتملة في سوريا . لكن التوسع الاستعماري الفرنسي يوجه آنذاك الى مراكش . وما دامت الحماية الفرنسية على المملكة الشريفية لم تتشكل ولم تعترف بها الدول الأوروبية الأخري ، فمن المستبعد الاضطلاع بمد للسيطرة الفرنسية الى سوريا . ويجب على فرنسا أن تكتفي بانتهاج سياسة حفاظ على مصالحها تتمشي مع صون الحماية التقليدية للكاثوليك الشرقيين .

ذلك هو السياق الذي تنشب فيه ثورة تركيا الفتاة في عام ١٩٠٨ . إن سقوط النظام الحميدي جد الموافق للعرب وتدابير المركزة التي يتبعها السادة الجدد الممسكون بزمام السلطة والتي تجد ترجمة لها في فرض استخدام اللغة التركية في الإدارة والتعليم ، والتوجه نحو علمنة المجتمع ، إنما تستثير طلاقاً حقيقياً بين العرب والأتراك . فالعرب يرون أن سياسة جماعة تركيا الفتاة هي أولاً عدوان على الإسلام : أليست العربية هي لغة القرآن ؟ وأليست العلمنة استئنافاً لمسيرة الشطط التي بدأت في زمن **التنظيمات** والتي تمكن عبد الحميد من القضاء عليها ؟ .

إلاّ أنه علاوة على العدوان على الإسلام والذي ينشط الوعي العربي - الإسلامي ، فإن السلطة الجديدة تدرج في تصفية النظام الحميدي تصفية أرستقراطية الوظائف العربية - السورية التي كانت قد تشكلت منذ ستينيات القرن التاسع عشر . إن جيلاً بأكمله من الأعيان الشبان يجد نفسه محروماً من المناصب الرسمية التي كان قد أُعد لاحتلالها . وسخط هذا الجيل يقوده الى تبني مطالب تنادي باستقلالية أكبر للولايات العربية .

والحركة الاستقلالية مركبة العناصر لأنها تترجم شكايات المسلمين العرب وأرستقراطية الوظائف . والتوجه بشكل عام توجه عربي - إسلامي ، حتى وإن شارك في الحركة ، في مدن كبيروت ، عدد معين من المسيحيين بمنظور نزعة عربية تاريخاني أكثر . ويظل التشوش عميقاً بحيث أن مصطلحات «مسلم» و«عربي» و«سوري» إنما يحل أحدها محل الآخرين عملياً في الخطابات السياسية . والعلاقات مع الدول الأوروبية ملتبسة : إذ يجري شجب عجز الأتراك

عن تأمين الدفاع عن الإسلام وعن العالم العربي ضد العدوان الإيطالي على ليبيا في ١٩١١ - ١٩١٢ وانهيار القوة العثمانية خلال الحروب البلقانية ؛ وفي الوقت نفسه ، يجري تكثيف الاتصالات من أجل تأمين الحصول على دعم فرنسا أو بريطانيا العظمي عند توجيه مطالب الى الحكومة العثمانية .

دور فرنسا

لا ترد فرنسا إلاّ بفتور على هذه الانفتاحات . وهي تخشي من أن تمد مصر الخديوية ، الواقعة تحت السيطرة البريطانية ، سيادتها على مجمل الشام . وهي ترتاب في أن تكون بريطانيا قد أغرت عملاءها المسيحيين التقليديين بالانفضاض عنها (عن فرنسا) والانحياز اليها (الى بريطانيا) . ويطرأ تغير على الوضع بعد عام ١٩١١ . فالأزمة العربية للإمبراطورية العثمانية تتفاقم مع صدمة الحرب الإيطالية - العثمانية في ذات الوقت الذي تحصل فيه فرنسا ، بديلاً عن مواجهة أوروبية كبري ، على مراكش . وبالرغم من أن «تهدئة» هذا البلد الأخير ما يزال يتعين الإضطلاع بها ، فإن الحزب الاستعماري الفرنسي يمكنه الآن توجيه جهوده شطر شرقي البحر المتوسط .

وتجربة السيطرة المباشرة على الجزائر تجربة جد مكلفة بحيث أنه لا يدور حديث عن تكرارها . أما صيغة الحماية ، التي جرت تجربتها في تونس ، فهي تبدو أكثر مرونة بكثير ولا تطرح افتراضات كثيرة بالنسبة للمستقبل . وتطبيقها في مراكش ، عبر المراعاة الشكلية للسلطات التقليدية ، إنما يبدو بالفعل أنه قد نجح بفضل شخصية ليوتي غير العادية . ومن ثم فإنه سوف يتعين على السيطرة الفرنسية القادمة في سوريا أن تستعير شكلاً مماثلاً . وعدم وجود سلطة ملكية يجعل من المستحيل تأسيس ملكية تابعة للجمهورية الفرنسية . وتطور سوريا الثقافي والاجتماعي يجعل من غير الممكن فرض سيطرة مباشرة بل إن هذا النوع من السيطرة لا يجري مجرد التفكير فيه .

ولا يمكن للسيطرة الفرنسية القادمة أن تستند إلاّ على النخب السياسية الموجودة بالفعل والتي ترفض السلطة العثمانية باسم العروبية . وهكذا يبدأ الديبلوماسيون الفرنسيون الحوار مع أعيان البلد . لكن الموقف الفرنسي محفوف بالمشاكل : فالموارنة يعادون تماماً تكوين سوريا كبري ليس من شأنهم أن يشكلوا فيها غير أقلية ضئيلة . والنخب المسلمة السُنية تخشي كثيراً العلاقات المميزة بين فرنسا والمسيحيين بحيث يصعب على هذه النخب الاتجاه الى فرنسا من تلقاء نفسها . وبقدر استمرار شيء من التشوش الفكري ، فإن حدثاً كالمؤتمر العربي في باريس في عام ١٩١٣ ، والذي نظمه سراً الحزب الاستعماري الفرنسي ، إنما يسمح

بتعايش أنصار النزعة السورية المسيحيين عموماً والذين يريدون سوريا كبري تحت الحماية الفرنسية والمسلمين السنة الذين يسعون ، باسم العروبية ، الى أوسع استقلالية ممكنة للولايات العربية للإمبراطورية العثمانية .

الحرب العالمية الأولي

سوف تقدم الحرب العظمي التوضيح الضروري . فالقمع العثماني يصيب بالدرجة الأولي الأعيان ، المسلمين والمسيحيين ، الذين كانوا على علاقة بفرنسا . والتمرد العربي لعام ١٩١٦ يبدأ من مكة . وهو من عمل المنافسين البريطانيين بشكل مباشر . أما فرنسا ، التي لا يوجد لها تمثيل كبير على مسرح عمليات شرقي البحر المتوسط ، فهي مرغمة على أن تدع الإنجليز يتصرفون كما يحلو لهم . لكن مطالبها الإقليمية كانت قد قُلبت من جانب حليفتها (انجلترا) عند ترتيب اتفاقات سايكس - پيكو . وخلافاً لأسطورة راسخة ، فإن نصوص عام ١٩١٦ إنما تشكل اعترافاً واضحاً من جانب السلطات الفرنسية بالواقع السياسي العربي ، كما تبين ذلك الديباجة : «إن حكومة الجمهورية ، رغبة منها في الإطلاع على وجهات نظر حكومة الملك وفي السعي الى فصل العرب عن الأتراك عبر تسهيل خلق دولة أو اتحاد دول عربية ، قد قبلت الدعوة التي وجهتها اليها الوزارة البريطانية بهدف رسم حدود هذه الدولة والمناطق السورية التي تعتبر المصالح الفرنسية سائدة فيها» (٩١) .

والحال أن الاقتحام الذي قامت به الولسونية في عام ١٩١٧ والذي يفرض هجر لغة الإمبريالية التقليدية (المحميات ، مناطق النفوذ ، إلخ) ، وسياسة عدد معين من المسئولين البريطانيين في الساحة (ومن بينهم ت . ا . لورانس الشهير) ، والذين يفعلون كل ما من شأنه إبطال الدعاوي الفرنسية باسم حق العرب ، إنما يقودان الى تصلب فرنسي . والأعوام الأولي لفترة ما بعد الحرب ترغم الفرنسيين على تمكين الموارنة ، الدعامة الحقيقية الوحيدة لفرنسا في المنطقة ، من تأسيس لبنان كبير .

على أن المفاوضات التي يجريها كليمنصو وماسينيون في أواخر عام ١٩١٩ وأوائل عام ١٩٢٠ تسمح بأن يظل من الممكن إنشاء مملكة عربية سورية تحت الحماية الفرنسية . والحال أن عجز فيصل الهاشمي عن أن يفرض على أنصاره الاتفاق مع فرنسا ، ورغبة حكومة ميلران ، عضو الحزب الاستعماري ، في نكث العهود ، إنما يقودان خلال صيف عام ١٩٢٠ الى فرض انتداب فرنسي في سوريا بالقوة . ومن الواضح أن روح الانتداب هي رفض النزعة العربية . ومنذ عام ١٩١٩ ، فإن واحداً من أبرز ممثلي الحزب الاستعماري ، وهو روبير دو كيه ، قد قدم تفسيراً للنزعة العربية سوف يكون تفسير الفرنسيين حتى أواخر الثلاثينيات : «إن المسألة في

واقع الأمر هي مسألة نزعة جامعة عربية ، تقدم زاداً للتأمل ، حتى بالنسبة للشمال الأفريقي . وهي جديرة بالاهتمام خاصة وأنه قد تكون لدي الانطباع بأنها سوف تمضي الى ما هو أبعد من ذلك بكثير وبأنها تحمل أفكاراً من أفكار نزعة الجامعة الإسلامية» (٩٢) .

ويستند تحليل روبير دو كيه الى إدراك الطابع العربي - الإسلامي للحركة السياسية العروبية وهو يبين أن مثل هذا الوضع يمكن أن يلحق أضراراً بوضع المسيحيين الشرقيين ، الذين تحميهم فرنسا . لكن هذا التحليل يشير أيضاً الى ما سوف يكون عامل الشلل الأكبر لانتهاج سياسة فرنسية في شرقي البحر المتوسط حتى الستينيات : إن الاعتراف بالعروبية ، قبول استقلال عربي حقيقي ، هو خطر قاتل بالنسبة للممتلكات الفرنسية في الشمال الأفريقي . وببرود تام ، سوف يكرر الاستعماريون أن العروبية ليست غير غطاء سطحي لإسلامٍ فاتحٍ معادٍ لفرنسا ، وأن المسألة ، في كل هذا ، ليست غير خدعة حاكتها إنجلترا الغادرة .

والحال أن المستشرق الفرنسي الكبير ، لوي ماسينيون ، الذي كان في وقت من الأوقات مستشاراً للشئون العربية لدي كليمنصو ، إنما يتقاسم تحليل روبير دو كيه ، إلاّ أنه يستخلص منه نتائج متعارضة تعارضاً صارماً : «بوسع مسيحيي فرنسا - دون أن يقللوا من حماستهم الرسولية ودعايتهم اللغوية في الشرق - أن يحذروا من الآن فصاعداً من خلطهما بالرسالة السامية الخاصة بكسب تعاطف العرب وصداقة المسلمين والتي تشكل المهمة الجديدة والملحة أمام بلدهم . وبوسع الاشتراكيين الفرنسيين أن يهجروا الامتناعية السلبية التي يمارسونها في مجال السياسة الخارجية ، إذ يقولون إنهم يؤمنون بتطوير اجتماعي للشرق متخلص من كل نفوذ غربي : فهذا سوف يكون نكبة له ولنا .

«إذ يجب على فرنسا أن تظل موجودة على جميع الجبهات التي ألزمها تاريخها بالوجود عليها ؛ وهي لا يمكنها أن تنطوي على نفسها بين جبال البيرينيز ونهر الراين دون أن يلحق بها عقاب من جراء اتخاذ موقف كهذا . وفي سوريا سوف تجد (فرنسا) تلك السياسة الإسلامية التي تلزمها لكي تصبح أفريقيا الشمالية فرنسية حقاً ؛ وهي مسألة حياة أو موت بالنسبة للجيل القادم» (٩٣) .

والحال أن خيار عام ١٩٢٠ إنما يحكم السياسة الفرنسية على مدار نحو نصف قرن . وإذ تتخلي الجمهورية الثالثة ثم الرابعة عن سياسة بونابارت التي يستحضرها لوي ماسينيون بأريحية شديدة ، ولا تقدران بعد على إيجاد تعايش بين الدفاع عن الأقليات ومشروع كبير قائم على العروبية وتعجزان عن انتهاج سياسة تحرير واقعية في الجزائر ، فإنهما سوف تغتربان تدريجياً عن العالم العربي لينتهي بهما الأمر الى السقوط في كارثة حملة السويس (١٩٥٦) وكارثة حرب الجزائر (١٩٥٤ - ١٩٦٢) .

حواشي الفصل السادس

١ - Voir Charles - Robert Ageron, *Gambetta et la reprise de l'expansion coloniale*, Paris, Geuthner, 1972

٢ - *Les Affaires de Tunisie*, discours de M. Jules Ferry publiés par M. Alfred Rambaud, Paris, 1882, PP. 51 - 52 - voir en general, Jean - Michel Gaillard, *Jules Ferry*, Paris, 1989

٣ - خطاب بتاريخ ٢٨ أكتوبر ١٨٨١، أورده Jean - Michel Gaillard, *op. cit.*, p. 555

٤ - خطاب بتاريخ ٢٨ يوليو ١٨٨٥، أورده Jean - Michel Gaillard, *op. cit.*, p. 540

٥ - خطاب بتاريخ ١٨ يوليو ١٨٨٢، *Discours et plaidoyers politiques de M. Gambetta*, Paris, 1885, t. XI, pp. 101 - 105

٦ - نقلاً عن Jean - Baptiste Duroselle, *Clemenceau*, Paris, 1988, pp. 207 - 208 وهو يورد (p. 209) مقتطفاً من يوميات Scheurer - Kestner يسمح بتصور أن نوبار باشا هو الذي ألهم خطاب كليمنصو حول مصر : «امتد السهر بكليمنصو . وقد خامرته لسوء الحظ ، حظه وحظنا ، أوهام وسوس بها له مصري . فنوبار باشا ، إيماناً منه بإمكانية تخليص مصر من نفوذ الأجنبي ، قد خاطب رجل البرلمان القادر ، أكثر من الآخرين ، على التعبير عن فكرته الخاصة بتأمين الاستقلال لمصر» .

٧ - Homa Pakdaman, *Djamal ed - Din Assad Abadi dit Afghani*, Paris, 1969, pp. 78 - 79

٨ - Mustafa Kamel, "conférence faite le 18 juin 1899 dans le salon de madame Adam à Paris", *Égyptiens et Anglais*, Paris, 1906, pp. 209 - 211

(المقتطف من خطاب ألقاه مصطفي كامل بالفرنسية ، ولذا فقد ترجمناه عن الفرنسية رأساً ، خاصة وأن الترجمة العربية للخطاب ، والمنشورة ضمن «**أوراق مصطفي كامل - الخطب**» الصادرة عن مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٤ ، ص ١٩٦ - ٢٠٥) لا تتطابق مع الأصل الفرنسي الذي رجع اليه هنري لورنس والذي توجد لدينا نسخة منه - المترجم) .

٩ - خطاب ألقي في القاهرة بتاريخ ١٨ ديسمبر ١٨٩٩ : «إن أساس التربية التي بدونها تكون ضعيفة ركيكة غير نافعة هو تعليم الدين . نعم كل له دينه وكل يجب أن يتبع دينه . فنحن معاشر المسلمين يجب علينا قبل كل شيء أن نعرف ماهية الإسلام ونسأل أنفسنا هل نحن عاملون بمبادئه ومتبعون لأوامره .

«وإذا كنا قد وصلنا الآن الى حضيض الذل والهوان فكيف ذلك والإسلام كفيل بالتقدم والتمدن

والعمران . لعمري إن الإسلام بريء مما ينسبه أعداؤه اليه حيث يدعون أنه دين التأخر والانحطاط والكسل والخمول . على أنه دين النشاط والعمل والجهاد . وإني لازلت أقول إن سبب تأخر المسلمين في جميع البلاد الإسلامية هو ابتعادهم عن الإسلام كل الابتعاد ومخالفتهم لأوامره كل المخالفة» . **أوراق مصطفى كامل – الخطب** ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٤ ، ص ٢١٢ .

١٠ – خطاب ألقي في الاسكندرية بتاريخ ٢٤ مايو ١٩٠٢ بمناسبة مرور مائة عام هجري على اختيار الشعب المصري محمد على الكبير والياً على مصر ، *Égyptiens et Anglais*, p. 281 ؛ **أوراق** . . . ، ص ٢٥٣ .

١١ – حول دور هذه الجمعيات ، أنظر مقالي "Le concept de race dans le Journal asiatique du XIXe siècle", *Journal asiatique*, CCLXXVI (1988), pp. 371 - 381 . وحول تطور النظريات اللغوية ، أنظر Maurice Olender, *Les Langues du paradis* : *Aryens et Sémites : un couple providentiel*, Paris, 1989

١٢ – عالجت هذه المسألة في دراستي "Orient et origine", in *Primitivisme et mythes des origines, 1680 - 1820*, Presses de l'université de Paris - Sorbonne, Paris, 1989

١٣ – François Furet, "Deux légitimations historiques de la société française au XVIIe siècle, Mably et Boulainvilliers", in *L'Atelier de l'histoire*, Paris, 1989, pp. 166 - 183

١٤ – عالجت هذه المسألة تفصيلاً في كتابي *Les Origines intellectuelles de l'expédition d'Égypte*, Istanbul - Paris, 1987

١٥ – هذا هو نص سييس الشهيرُ في كتاب **ما هي الفئة الثالثة ؟** : «إن الثالث لا يجب له أن يخشي من الإياب الى الأزمنة الماضية . فهو سيرجع الى العام الذي سبق الفتح ؛ وبما أنه اليوم من القوة بما يكفي بحيث لا يسمح لنفسه بأن يكون ضحية فتح ، فمما لا مراء فيه أن مقاومته سوف تكون فعالة أكثر . فلماذا لا يعيد الى غابات فرانكونيا كل هذه العائلات التي تحافظ على الإدعاء الأخرق بأنها منحدرة من جنس الفاتحين وبأنها ورثة حقوقهم ؟» .

١٦ – حتى في ظل الاستبداد المستعاد خلال الأعوام الأولي للإمبراطورية الثانية ، فإنه يواصل تأكيد اعتقاده في وجه رفض جوبينو : «إنني أعتقد أن المجتمعات البشرية شأنها في ذلك شأن الأفراد لا تساوي شيئاً إلاّ إذا مارست الحرية . أمّا أن الحرية أصعب على الايجاد وعلى الحفظ في المجتمعات الديمقراطية كمجتمعاتنا مما في بعض المجتمعات الأرستقراطية ، فإنني قد قلت ذلك باستمرار . وأما أن إيجادها والحفاظ عليها مستحيل ، فذلك ما لن أكون أبداً من الحماقة بحيث أتصوره . وإنني لأدعو الله ألاّ يلهمني أبداً فكرة احتمال اليأس من النجاح في ذلك .» (رسالة بتاريخ ٢٤ يناير ١٨٥٧ ، *Œuvres complètes*, Paris, 1959, t. IX, p. 280) .

١٧ – إننا نشير الى نص سان – مارك جيراردان الشهير في *Le Journal des débats* لعام ١٨٣١ : «ابحثوا في كل مدينة صناعية ما هو العدد النسبي للطبقة الصناعية والتجارية من جهة والطبقة العاملة من الجهة

الأخري ، وسوف يرعبكم انعدام التناسب . إن كل صناعي يحيا في مصنعه مثلما يحيا أصحاب المزارع في المستعمرات وسط عبيدهم . واحد في مقابل مائة ؛ وتمرد ليون هو عينة من انتفاضة سان - دومينج . (. . .) إن البرابرة الذين يهددون المجتمع ما عادوا في القوقاز ولا في سهوب بلاد التتر ؛ إنهم في ضواحي مدننا الصناعية» ، نقلاً عن Jean - Michel Gaillard, *Jules Ferry*, Paris,. 1989, pp. 135 - 136

١٨ - خطاب بتاريخ ٣٠ نوفمبر ١٨٤٠ حول المسألة الشرقية : «هل تظنون أنني لا أعرف سوي القليل عن زماني وبلادي بحيث لا أفهم ما يجري ؟ هل تظنون أنني أملك في أعماق قلبي تلك الثقة الأكيدة التي كانت لدي آبائنا الذين كانوا يؤمنون ، إذ يسيرون نحو المستقبل ، أنهم يتجهون الى عظمة وهناء لا نهاية لهما ؟ هل تتصورون أنني لا أعرف أنه في أعماق هذا المجتمع العظيم المتحضر ، الذي نحيا بين ظهرانيه ، يوجد مجتمع صغير من البرابرة مستعد دائماً لانتهاز اللحظة التي يتيحها له نومُ المجتمع العظيم المخدَّرُ لكي يستولي على مقاليد الحكم ولكي يدفن في كارثة واحدة ليس أنتم وحدكم وليس أنا وحدي ، بل كل الناس ، بل المجتمع برمته ، بل الحضارة ربما؟» في *Œuvres complètes*, III, *Écrits et discours politiques*, Paris, 1985, **, p. 299

١٩ - إن فيكتور هيجو زمن كتاب **مشاهدات** هو واحد من كتاب لا حصر لهم وحدوا في ذلك الزمن بين قمع تمردات يونيو ١٨٤٨ العمالية والدفاع عن الحضارة : «ليس هناك ما هو أكثر إثارة للرعب وما هو أكثر كآبة . إنه لشيء كريه شأن استبسال الخسة حيث ينبثق كل ما يحتويه الضعف من قوة ؛ شأن هذه الحضارة التي يتم الهجوم عليها بالتحلل من الأعراف ويتم الدفاع عنها بأساليب البربرية . فمن ناحية ، يأس الشعب ، ومن الناحية الأخري ، يأس المجتمع» و«إن بوسعنا القول إن صون الحضارة مثلما فعلت باريس في يونيو يكاد يعني صون الحياة للجنس البشري» .

٢٠ - فولني ، «رسالة ثانية الى السيد الكونت لانجينيه حول قدم الأبجدية الفينيقية ، في *Œuvres*,VII, p. 352 : «مادام من المسلَّم به أن اختراع الكتابة الأبجدية إنما يرجع الى الفينيقيين في حين أن لغة هؤلاء الفينيقيين مشتقة من الأصل العربي - الكلداني - السورياني الأكبر ، ألا يصبح تبني وانتشار الأبجدية عند جميع الشعوب ذات النسب المشترك نتيجة طبيعية لاختراعها ؟ ومع ذلك فإن هذا الجنس من البشر ، هذا الحشد من الشعوب ، لم يكتسب وسيلة لاحراز تقدم في مجال العلوم والتمدن» .

٢١ - «إن الساميين ، الذين صدمتهم على نحو فريد وحدة الحكم التي تتفجر في العالم ، لم يروا في تطور الأشياء غير التحقق الصارم لإرادة كائن أعلى ؛ إنهم لم يفهموا قط التعدد في الكون . والحال أن مفهوم التعددية في الكون هو الشرك عند الشعوب التي ما تزال في مرحلة الطفولة ؛ وهو العلم عند الشعوب التي وصلت الى مرحلة النضج» *Œuvres complètes*, Paris, 1960, t. VIII, pp. 149 - 150

٢٢ - صحيح أن رينان يحدد في عدة مناسبات أن مفهومه ثقافي بأكثر مما هو بيولوجي ، لكنه لا يفعل ذلك عموماً إلاّ أمام جمهور محدود من العلماء (أنظر "Le concept de race dans le Journal asiatique", *op. cit.*) . وكلما كان جمهوره أوسع ، كلما كانت صيغته متنافرة وعرضة للتشوش .

٢٣ - يستخدم رينان دون تفرقة مصطلح الإسلام ومصطلح الإسلامية ، وهذا الأخير مرادف للأول صيغ على غرار مصطلح المسيحية . والحال أن هذا المصطلح (الإسلامية) لا يتميز بالمعني الحالي ، معني الاستخدام السياسي للإسلام .

٢٤ - "De la part des peuples sémitiques dans l'histoire de la civilisation", *Œuvres complètes*, II, pp. 332 - 333

٢٥ - "La réforme intellectuelle et morale de la France" (1871), *Œuvres complètes*, I, pp. 390 - 391

٢٦ - أنظر رسالة جوبينو الى توكفيل بتاريخ ١٥ يناير ١٨٥٦ (IX, pp. 246 - 257)

٢٧ - رسالة رينان الى جوبينو ، ١٦ يونيو ١٨٥٦ : «إن دور الجنس ضخم في البداية ، إلاّ أنه يواصل دائماً فقدان أهميته ، و ، أحياناً ، كما في فرنسا ، ينتهي الى الإمحاء تماماً . فهل يعتبر ذلك ، إن تكلمنا على وحه الإطلاق ، إنحطاطاً ؟ نعم ، بالتأكيد ، من زاوية استقرار المؤسسات ، وأصالة الطباع ، ونبالة معينة أوليها من ناحيتي الاعتبار الأكبر في مجمل الأمور الإنسانية . ولكن ما أكثر التعويضات عن ذلك أيضاً ! إن مما لا مراء فيه أنه إذا ما وصلت العناصر النبيلة الممتزجة بدماء شعب من الشعوب الى الإمحاء تماماً ، فعندئذ سوف يكون ذلك مساواة مخزية ، مماثلة للتساوي المميز لدول شرقية معينة و ، من زوايا معينة ، للتساوي المميز للصين . لكن ما يحدث في الواقع هو أن كمية جد صغيرة من الدم النبيل ، عندما توضع في شرايين شعب من الشعوب ، إنما تكفي لجعله نبيلاً ، على الأقل فيما يتعلق بالنتائج التاريخية ؛ ولهذا فإن فرنسا ، وهي أمة جد منحدرة تماماً من حيث عامية أصولها ، تلعب في الواقع في العالم دور سيد نبيل . وإذا تركنا جانباً الأجناس الدنيا تماماً ، والتي ليس من شأن امتزاجها بالأجناس العظمي إلاّ تسميم الجنس البشري ، فإنني أتصور بالنسبة للمستقبل بشرية متجانسة ، حيث تذوب كل الدماء الأصلية في نهر واحد عظيم وحيث تتلاشي كل ذكريات الأصول المتباينة . ومما لا مراء فيه أن الحضارة التي سوف تتمشي مع حالة كهذه للبشرية سوف تكون أدني من حيث النبالة والامتياز من حضارة العصور الأرستقراطية . ولكن هل سوف تكون أدني بصورة مطلقة ؟ هذا هو ما أتردد في الإجابة عنه» (Renan, *Correspondance*, pp. 121 - 122)

٢٨ - النص الأساسي هو «مصر القديمة» الذي ظهر في عام ١٨٦٥ في مجلة *la Revue des Deux Mondes* وأعيد نشره في *Œuvres complètes*, II, pp. 356 - 373

٢٩ - *Œuvres complètes*, I, pp. 804 - 805

٣٠ - "Histoire du peuple d'Israël", *Œuvres complètes*, VI, p. 1409 : «لقد كان هيرود عربياً رائعاً ، ذكياً ، بارعاً ، شجاعاً ، قوياً ، ذا جسد عصي على التعب ، جَدّ مغرم بالنساء . ومحمد على ، في زماننا ، يصور تماماً حجمه وحدوده . وإذ كان قادراً على كل شيء ، حتى على الدناءة ، عندما يتصل الأمر ببلوغ الهدف الذي يطمح اليه ، فقد كان يملك إحساساً حقيقياً بأنه عظيم ؛ لكنه كان على تنافر تام مع البلد الذي أراد أن يحكمه . لقد كان يحلم بمستقبل دنيوي ، بينما كان مستقبل إسرائيل

دينياً بشكل خالص» . وهو يذكر في ص ٤٢٠ : «وهكذا فإن هيرود إنما يظهر لنا أشبه ما يكون بخديو مستنير ، يسمح بأداء أوبرا في القاهرة ويرعي فنوناً لا يفهمها رعاياه ويندد بها الدينُ الرسمي ، ويُخرس تململات المتمسكين بالتقاليد لأنه يعتمد على أوروبا ولأنه يكاد يكون الحائز الوحيد لثروة البلد» .

٣١ - Jean - Michel Gaillard, *op. cit.*, p. 565 : «إنني أقول إن أطروحة مصر الدولية هي الأطروحة الحقيقية الوحيدة ، والأطروحة العملية الوحيدة ، والأطروحة الممكنة الوحيدة اليوم ؛ وأنا أقول إنها أطروحة خلاقة ، وإنه يجب انتهاز الفرصة ، عندما تسنح ، لكي يتحقق في مؤتمر هذا المفهوم عن مصر الدولية ، التي تنتمي لكل أوروبا ، وعن الحقوق الجماعية لأوروبا في مصر المحيدة» .

٣٢ - قُدمت صورة أولية من هذه الدراسة ضمن إطار ندوة «**من شرق لآخر**» ، التي نظمها مركز البحوث والوثائق الاقتصادية والقانونية والاجتماعية بالقاهرة في عام ١٩٨٥ .

٣٣ - Caliban, *Œuvres complètes*, t. III, p. 245 : «بروسبيرو : إيه ! عفوا ، عندي كاليبان . إن هذا الشقي يدين لي بكل شيء . وعندما اتخذته خادماً لي ، علمته الكلام ، الذي خلقه الله ؛ وهو لم يستخدمه البتة إلاّ لإثارة حنقي . فالكلام الآري ليس عنده غير أداة للاحتيال وللمباديء الزائفة . وقد كره كتبي ، حيث أدرك سر تفوقي . بل لقد وصل به الأمر الى حد إرشاد أعدائي الى الأسلوب المناسب لقتلي . وإذ حاز تربية شيئاً فشيئاً في بيتي ، فقد توصل الى التفكير . إلاّ أنه استخدم كل فكره في الحلم بدماري . (. . .) . وهو لا يعرف أي إرضاء لخاطري لقاء المتاعب التي تكبدتها حتى أصنع شيئاً من الوحل ، حتى أضع العقل في وحل شديد الإيحال . أوه ! لكم كنت مخطئاً إذ علمت البهيمة التي انتهي بها الأمر الى أن تستخدم ضدي ما علمته لها !

«جونزالو : إن كاليبان هو الشعب . وكل حضارة إنما ترجع الى أصل أرستقراطي . والشعب ، إذ يمدينه النبلاء ، إنما ينقلب عادة ضدهم . وعندما ننظر عن قرب شديد الى تفاصيل تقدم من هذا النوع ، فإننا نغامر برؤية أشياء شنيعة» .

٣٤ - *Ibid.*, p. 428

٣٥ - *Qu'est - ce qu' une nation ?*, 11 mars 1882; *L'dentité originelle et séparation graduelle du judaïsme et du christianisme,* 26 mai 1882; *Le judaïsme comme race et comme religion*, 27 janvier 1883, *L'islamisme et la Science,* 29 mars 1883

٣٦ - *Œuvres complètes*, t. I, p. 946

٣٧ - *Ibid.*, p. 946

٣٨ - *Ibid.*, p. 950

٣٩ - *Ibid.*, p. 951

٤٠ - *Ibid.*, p. 955

٤١ - *Ibid.*, p. 952

٤٢ – *Ibid.*, p. 953

٤٣ – N. R. Keddie, *Sayyid Jamal ad - Din "al - Afghani". A Political Biography*, University of California Press, 1972, p. 198

٤٤ – خاصة في أسطنبول في عامي ١٨٧٠ و١٨٧١، Keddie, *Sayyid...*, pp. 55 - 80

٤٥ – الرد في A. M. Goischon, *Jamâl al - Din al - Afghani : Réfutation des matérialistes*, Paris, 1942, p. 176

٤٦ – *Ibid.*, pp. 179 - 180

٤٧ – *Ibid.*, pp. 181

٤٨ – *Ibid.*, p. 183 : «ما دامت البشرية موجودة ، فلن يتوقف الصراع بين العقيدة الجامدة والإعمال الحر للفكر ، بين الدين والفلسفة ، وهو صراع شرس وأخشي ألاّ يكون الفوز فيه للفكر الحر ، لأن العقل مزعج للعوام ولا يستوعب تعاليمه سوي أذهان قليلة من النخبة ولأن العلم ، أيضاً ، بالرغم من جماله ، لا يشبع تماماً البشرية المتعطشة الى مثل أعلى والتي تحب الحرث في مناطق مبهمة ونائية لا يسع الفلاسفة لا إدراكها ولا استكشافها» .

٤٩ – *Op. cit.*, t. I, p. 963

٥٠ – *Ibid.*, p. 964

٥١ – P. 178

٥٢ – Traduction du texte arabe dans Goischon et du texte persan dans Keddie, *An Islamic Response to imperialism*, Berkeley - Los Angeles, 1968 et 1983

٥٣ – Keddie, *Sayyid...*, pp. 357 - 359

٥٤ – عبد القادر المغربي ، **جمال الدين الأفغاني** ، القاهرة ، ١٩٤٨ .

٥٥ – B. Michel et cheik Moustafa Abedl Razik, *Risalat al - Tawhid exposé de la religion musulmane*, traduction française, Paris, 1965, p. 132 ؛ يوجد النص العربي في طبعة **الأعمال الكاملة** لمحمد عبده ، من إعداد : محمد عماره ، بيروت ، ١٩٨٠ ، الجزء ٣ ، ص ٤٦٤ – ٤٦٥ : «ثم أخذت أمم أوروبا تفتك من أسرها ، وتصلح من شؤونها ، حتى استقامت أمور الدنيا على مثل ما دعا اليه الإسلام ، غافلة عن قائدها ، لاهية عن مرشدها ، وتقررت أصول المدنية الحاضرة التي تفاخر بها الأجيال المتأخرة من سبقها من أهل الأزمان الغابرة . هذا طل من وابله أصاب أرضاً قابلة فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج .

«جاء القوم ليبيدوا فاستفادوا وعادوا ليفيدوا» (أنظر أيضاً ، محمد عبده : **رسالة التوحيد** ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٤ ، ص ١٧٠ – المترجم) .

٥٦ – E. Keddourie, *Afghani and Abduh*, Londres, 1966, p. 45

(أنظر النص الكامل لرسالة محمد عبده الى الأفغاني بتاريخ ٨ شعبان ١٣٠٠ في سلسلة الأعمال المجهولة ، **محمد عبده** ، من إعداد علي شلش ، دار ر . الريس ، لندن ، ١٩٨٧ ، ص ص ٥٣ - ٥٥ - المترجم) .

٥٧ - *Ibid.*, pp. 44 - 45

٥٨ - *L' Avenir religieux des sociétés modernes*, 1860, *Œuvres...*, t. I, p. 223

٥٩ - *Ibid.*, III, p. 453

٦٠ - جميع نصوص المناظرة أعاد نشرها محمد طلعت حرب بك في كتيبه *L'Europe et l'Islam*, Le Caire, 1905 والمقتطف الذي نستشهد به هنا مأخوذ من ص ٢١ .

٦١ - *Ibid.*, p. 26

٦٢ - *Ibid.*, p. 34

٦٣ - *Ibid.*, p. 37 : «ومن ثم ، توجد الآن أرض من أراضي الإسلام ارتخي فيها الحبل الذي يربط جميع أجزاء العالم الإسلامي الأخري بعضها بالبعض الآخر ، إن لم يكن قد انحل وانقطع ! توجد أرض بسبيلها الى أن تنفلت بشكل غير محسوس من مكة ومن الماضي الآسيوي ، أرض تولد فيها روح جديدة في مجال القضاء وفي مجال الإدارة وفي مجال الأعراف ، أرض يمكن ، باختصار ، أن تكون مثلاً ، وهذه الأرض هي تونس» .

٦٤ - p. 41 ، النص العربي في **الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده** ، بيروت ، ١٩٨٠ ، الجزء ٣ ، ص ٢٠٢ (أنظر أيضاً ، محمد عبده : **الإسلام بين العلم والمدنية** ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٣ ، ص ٥٣ - المترجم) .

٦٥ - *Ibid.*, p. 43 / 205 : «هذه المدنية إنما هي مدنية الملك والسلطان ، مدنية الذهب والفضة ، مدنية الفخفخة والبهرج ، مدنية الختل والنفاق ، وحاكمها الأعلى هو الجنيه عند قوم والليرة عند قوم آخرين ، ولا دخل للإنجيل في شيء من ذلك» (أنظر أيضاً ، محمد عبده : **الإسلام بين العلم والمدنية** . . . ص ٥٥ - المترجم) .

٦٦ - *Ibid.*, pp. 50 - 51 / 210 : «هذه هي العقيدة السامية أو الدعوة المحمدية أو المدنية الإسلامية ارتقت بأربابها وهم من أهل البداوة في قاصية من الأرض لم يتلمظوا بشيء من نعيم الحضر ، ولم يتذوقوا طعم العلم والصنعة ، حتى بلغت بهم ما بلغت واستوت بهم على عروش العزة والسلطان ، ثم بلغوا بها من رقة الوجدان وصفاء العقل مبلغاً مكنهم من التلطف بالأمم حتى وقفوا على ما كان خفياً لديها ، وكشفوا ما كان مستوراً عندها . واستخرجوا من كنوز معارفها ما ظهر فضله على الأوروبيين» (أنظر أيضاً ، محمد عبده : **الإسلام بين العلم والمدنية** ، . . . ص ٦٠ - المترجم) .

٦٧ - في العصر نفسه ، يدعو مصطفي كامل المصريين بشكل محدد الى الاقتداء بالنموذج الياباني .

٦٨ - *Op . cit.*, note 64, p. 18

٦٩ – ومثال ذلك أن كرومر ، لكي يشرح أسباب ضحالة العلوم في مصر ، يحيل الى هذه الفقرة من كتاب **«ابن رشد والرشدية»** : «إن الديانة الإسلامية ، العاجزة عن التحول وعن قبول أي عنصر من عناصر الحياة المدنية والدنيوية ، قد انتزعت من الوسط المحيط بها كل نوع من الثقافة العقلية . وقد حورب هذا الاتجاه عندما كانت مقاليد الإسلام بين أيدي العرب ، وهم جنس جد نبيه وجد روحي ، أو بين أيدي الفرس ، وهم جنس جد ميال الى التأمل ؛ لكنه ساد بلا منازع منذ أن تولي البرابرة (الأتراك ، البربر ، إلخ) زمام الإسلام . فمنذ ذلك الحين دخل العالم الإسلامي فترة الوحشية الجاهلة هذه ، التي لم يخرج منها إلا لكي يسقط في سكرات الموت الكثيبة حيث يتخبط تحت أنظارنا» . تركتُ على حاله النص الوارد في كتاب اللورد كرومر *Modern Egypt*, New York, 1908, II, p. 147 .

٧٠ – *Ibid.*, II, pp. 124 - 125

٧١ – *Ibid.*, II, pp. 143 - 144

٧٢ – *Ibid.*, II, pp. 165 - 166 : «لقد كان البلد ، لمدة قرن على الأقل قبل عام ١٨٨٢ ، محكوماً بموجب نظام أظهر تطرفات القسوة والبربرية الوحشيتين ؛ وذلك بحيث إن الدفعة التي اتُخذت في اتجاه التمدن والتي قدمت في البداية ، والتي لم تقدم بشكل عديم الذكاء ، من جانب العباقرة القساة الذين أسسوا الأسرة الخديوية ، قد جرت مواصلتها ، وفق مبادىء يمكن وصفها تقريباً بأنها مجنونة ، من جانب العاجز سعيد والمسرف إسماعيل ؛ وبحيث إن كل ما يعد أقل استحقاقاً لشرف الانتساب الى الحضارة الأوروبية قد جرّي اجتذابه تحت إشرافهم الى مصر ، التي نهشت جثتها دون رادع حشودٌ من المغامرين الجائعين ؛ وبحيث إن اسم الأوروبي نفسه ، كنتيجة لهذه الممارسات ، قد زكم أنوف السكان المصريين ؛ وبحيث إن أية أفكار أوروبية تأصلت في البلد كانت مستوردة من فرنسا ؛ وبحيث إن الحكومة الفرنسية والرأي العام الفرنسي كانا منذ البداية معارضين معارضة لدودة لعمل إنجلترا في مصر» .

٧٣ – *Ibid.*, II, p. 228 - 229 : «في التعامل مع مسألة إدخال الحضارة الأوروبية الى مصر ، لا يجب أن ننسي البتة أن الإسلام غير قابل للإصلاح ، أي أن الإسلام بعد إصلاحه لا يعود إسلاماً ، بل يصبح شيئاً آخر» .

٧٤ – *Ibid.*, II, p. 236

٧٥ – *Ibid.*, II, p. 241 : «لا يمكن أن يثور شك في أن (. . .) التعليم الفرنسي لم يفلح كثيراً في إصلاح عيوب الشخصية القومية المصرية . ففي كل شيء ، مال الى إضفاء قالب على الاستعداد المصري الى البحث عن الحرف الذي يقتل واهمال الروح التي تهب الحياة» .

٧٦ – *Ibid.*, II, pp. 558 - 559 : «متي تأصلت بذور الحضارة الغربية الحقيقية تأصلاً عميقاً ، كما هي الحالة في مصر الآن ، فإن أية قوي رجعية ، مهما كان وزن خبثها المحتمل ، لن تتمكن في النهاية من وقف الإنبات والنمو التالي . إن البذور التي غرسها إسماعيل باشا وخلفاؤه لم تنتج سوي الأعشاب المؤذية . أما البذور التي غرست الآن فهي بذور الحضارة الحقيقية . ومن المؤكد أنها سوف تؤتي ثمارها في الموعد المناسب . والحال أن التناحر المغرض والجهل والتحيز الديني وكل القوي التي تتلاحم حول

نظام اجتماعي بائد وفاسد قد تفعل أسوأ فعالها . لكنها لن تنجح . لقد وجهنا ضربة الى قوي الرجعية في مصر لن تتاح لها أبداً فرصة للشفاء منها ، إذا ما أدت إنجلترا واجبها نحو نفسها ونحو الشعب المصري ونحو العالم المتحضر» .

٧٧ - حول هذه المسألة ، أنظر Moustafa al - Shourbaghi, "Les capitulations en Éhypte", in *Œuvres du Congrès national égyptien tenu à Bruxelles le 22, 23, 24 septembre 1910,* Bruxelles, 1911, en particulier p. 137 : «إن الشيء الذي يدعو الى العجب هو أن اللورد كرومر ، في تقريريه عن عامي ١٩٠٤ و١٩٠٥ ، قد أعلن أنه ، بالنظر الى درجة تمدننا شبه الأوروبي ، فإن الامتيازات لم يعد لها مبرر للوجود . إذ أين نحن من هذا التمدن في بلد محروم من نظام حكم دستوري وتحكمه قوانين كتلك المفروضة على المطبوعات : النفي الإداري وغير ذلك والقانون الخاص بالاتفاق الجنائي ؛ وإحالة الصحافيين الى محكمة الجنايات دون محلفين» .

٧٨ - حول هذه الأفكار ، أنظر Charles - Robert Ageron, "Jules Ferry et la colonisation", in *Jules Ferry, fondateur de la République*, François Furet édit., Paris, 1985, pp. 191 - 207

٧٩ - Claude Nicolet, *L'Idée républicaine en France*, Paris, 1982, pp. 290 - 291

٨٠ - Auguste Comte, *Catéchisme positiviste*, onzième entretien : «لا يجب أن نسمي بهذا الاسم غير تلك (الدول) التي تتوحد كل أجزائها ، دون أي عنف ، عبر الإحساس العفوي بتضامن إيجابي» .

٨١ - *Ibid.*

أنظر مقالي ديولافوا Dieulafoy (المعادي للإسلام) وميسمر Mismer (المؤازر للإسلام) في مجلة *La Philosophie positive* de 1883, t. XXXet XXXI والاختلاف يتوافق تماماً مع الاختلاف بين أنصار وخصوم الاستعمار .

٨٣ - Reprint des Éditions d'aujourd' hui, 1984, t. I, p. 9

٨٤ - *Ibid.*, t. II, p. 450

٨٥ - *Ibid.*, t. II, p. 162

٨٦ - Reprint, Paris, 1984, p. 641 : «عندما تتلاقى الأوهام المتوارثة والأوهام المتأتية من التربية عند عالم جد مثقف بحيث يتعذر عليه ألاّ يدرك بأي شيء يتمسك فيما يتصل بجوهر الأشياء ، فإن التناحر الداخلي بين الإنسان القديم الذي خلقه الماضي والإنسان الحديث الذي ربته الملاحظة الشخصية إنما يفرز في التعبير عن الآراء التناقضات الأكثر غرابة وإثارة للفضول» . وتلك هي حالة رينان لأنه في محاضرته ينفي دور العرب الحضاري في الوقت الذي يُبرز فيه أهميتهم في تاريخ الحضارة .

٨٧ - *Ibid.*, p. 479

p. 49? : «إن ما نقوله ، من جهة أخرى ، عن الفئات المتوسطة من السكان العرب القدماء ، سوف

نطبقه عن طيب خاطر على غالبية الشرقيين المعاصرين . وسواء أكان الحديث يدور عن عرب أم عن صينيين أم عن هندوس ، فإن الجماهير المتوسطة بينهم ليست بالتأكيد أدني من الجماهير المتوسطة الأوروبية . فهناك نجد مزارعين وعمالاً بارعين براعة مزارعينا وعمالنا على الأقل . والمنافسة الساحقة التي يقوم بها الصينيون في أمريكا وفي استراليا في وجه العمال الأنجلو - ساكسون ، وهي منافسة استوجبت تقريباً طردهم ، إنما تقدم البرهان الذي يتعذر تفنيده على ذلك . والحال أن الشرقيين ، الذين يعتبرون أنداداً لنا على الأقل من حيث البراعة ، ولا سيما أن التخصص لم يؤد الى الحط من مستوي ذكائهم ، إنما يعدون أرقي منا من حيث اعتدالهم وعدم الحاح الحاجات عليهم وأخلاقهم الأبوية . وهم لا يفتقرون إلاّ الى شيء واحد ، لكي يكونوا أنداداً للشعوب المتحضرة الأوروبية ، وهو أن تكون بينهم فئة كافية من البشر المتفوقين وحفنة من الرجال العظماء . ومن حسن حظنا ، من جهة أخري ، أنهم لا يحوزونهم ، فلو حدث ذلك ، فإن خصال جمهرة سكانهم سوف تمكنهم بسهولة من إزاحتنا ومن أن يتصدروا بدورهم مسيرة التمدن . ،وإذا ما تحقق على الإطلاق حلم اشتراكيينا المحدثين ، عن مجتمع من البشر متوسطي الذكاء ، يتلاشي منه تدريجياً كل تفوق ، فسرعان ما سوف يعود مُلك العالم الى شعوب الشرق الأقصي» .

٨٩ - Traduction de Norbert Tapiero dans son livre, *Les Idées réformistes d' Al-Kawakibi*, Paris, 1956, p. 98

(أنظر أيضاً ، عبد الرحمن الكواكبي : **أم القرى** ، دار الرائد العربي ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ص ٢١٧ - ٢١٨ - المترجم) .

٩٠ - جوانب المسألة معروضة في مقال Stefan Wild, "Nagib Azoury and his book, *Le Réveil de la nation arabe*", in Marwa Buheiry ed., *Intellectual Life in the Arab East, 1890 - 1939*, Beyrouth, 1981, pp. 92 - 104

٩١ - من پول كامبون ، سفير فرنسا في لندن ، الى السير أ . جراي ، وزير الشئون الخارجية البريطاني ، ٩ مايو ١٩١٦ ، في Antoine Hokayem et Marie - Chlaude Bittar, *L'Empire ottoman, les Arabes et les grandes puissances*, Beyrouth, 1981, pp. 51 - 52

٩٢ - من روبير دو كيه الى س . پيشو ، وزير الشئون الخارجية ، ٢٢ أبريل ١٩١٩ ، *Ibid.*, p. 141

٩٣ - "Le sort du Proche - Orient et le rôle de la France en Syrie", Europe nouvelle, 1922, repris dans *Opera minora*, Paris, 1969, t. III, pp. 460

الخاتمة

كانت إعادة البناء الشاملة للمجتمع البشري على أسس عقلانية هي مشروع التنوير . وقد استند هذا المطمح على مفهوم بشأن ما يجب أن يكون عليه الإنسان وعلى رفض لما كان عليه . وكان البرنامج عالمياً إلاّ أنه كان عليه مراعاة الخصائص القومية . وقد جعلت الثورة الفرنسية من نفسها منفذته مع إدخالها للتعديلات عليه . والحال أن فرنسا ، الغارقة في مرحلة توسع مسلح ، قد أصبحت «الأمة العظمي» المتفوقة على الأمم الأخري والمكلفة برسالة خاصة عهدت بها اليها العناية الإلهية أو التاريخ . ولما كانت على رأس البشرية ، فقد كان لابد لها من أن تكون ذات مكانة خاصة بين الأمم ألتي تولت تحريرها . واقتفاءً لحركة ارتداد التوسع الأوروبي في القارة الأمريكية باتجاه العالم القديم ، فقد ابتدعت الرسالة التمدينية التي صيغت في آن واحد من أجل تبرير المطمح الاستعماري وتجاوز حدوده . وقد استند رفض النظم القديمة على نظرية عن الغزوات جعلت من الأرستقراطيات الأوروبية وريثة الفاتحين الجيرمان وجعلت من الفئات الثالثة وريثة المغلوبين . والحال أن هذه الفكرة ، عند تطبيقها على شرقي البحر المتوسط ، قد رأت تعارضاً بين فئة من الفاتحين الأتراك الذين يواجهون كتلة العرب المغلوبين الضخمة . وهكذا أصبح التمرد العربي هو النظير الشرقي للثورة الفرنسية . وفي مصر وفي سوريا ، جري من ثم طرح فكرة إحياء الأمة العربية من جانب بوناپارت لا يفهمه أي شرقي .

والهزائم الناپوليونية ومعاهدات عام ١٨١٥ تشكل إذلالاً لا يقدر الرأي العام الفرنسي على احتماله . وهكذا يولد مطلب جديد : المطالبة بضفة الراين اليسري . ويتعين على جميع الحكومات الفرنسية التي تتعاقب أن تسعي الى إشباع هذه الكبرياء القومية الجريحة التي تميل الى التحول بسرعة الى مشاعر حربية .

وفي مصر ، فإن التوجه الذي اتخذه حكم محمد على الذي عرف ، بمهارة ، كيف يغازل ميول الرأي العام الفرنسي ، إنما يسمح لنظم ما بعد عام ١٨١٥ بأن تظهر في صورة نظم تواصل سلمياً عمل بوناپارت . وباسم الرسالة التمدينية ، تتعرف فرنسا على نفسها في تحولات مصر وتعرف كيف تشجعها . والحال أن ما كان في البداية ذريعة دعائية يستخدمها عزيز مصر إنما يصبح تدريجياً برنامجاً حقيقياً يتولي الحكم تنفيذه . وهكذا فإن «التمدن» و«الأمة» يصبحان شعاري خلفائه . وتصبح الثقافة الفرنسية رمز حضارة مستعادة في حوار مع أوروبا .

أما حملة الجزائر فيبدو أنها صدفة تاريخية . وترددات الأعوام الأولي لملكية يوليو تشير بشكل واضح الى أن السلطة لا تعرف ما الذي يجب عليها عمله بالمستعمرات الأفريقية . فالاحتلال المحدود سوف يكون عقيماً والفتح الكامل سوف يفرض حرباً قاسية وباهظة التكاليف . وانطلاقاً من الأفكار النابوليونية ، يحاول رجال يوليو إنشاء مملكة عربية تابعة يعهد بها الى الأمير عبد القادر الذي يجري الاعتراف بأن لديه رغبة في إحياء شعبه . والحال أن الالتباسات المقصودة في مواقف أطراف وأخري إنما تجر الى فشل هذه المحاولة وتجر ، بعد حرب منهكة ، الى فرض سيطرة مباشرة تامة تترك دون حلول مسألة مستقبل السكان المسلمين ، لاسيما وأن تدمير السلطات المحلية يفتح السبيل أمام استعمار استيطاني .

وبعيداً عن أن يتمشي المجتمع العثماني مع المخطط التصوري التبسيطي الذي طرحه منظرو التنوير والذي يتحدث عن استبداد عسكري ، فقد كان ذلك المجتمع أكثر تعقيداً بكثير . فهذا المجتمع ، الذي ينتمي الى عالم النظم القديمة ، قد عرف تخصصات وظيفية مختلفة عن تلك التي عرفتها مجتمعات أوروبا ١٧٨٩ ، لكنها حاضرة أيضاً كما في هذه الأخيرة . وقد جعل المفهوم الديني من جميع المسلمين أعضاء متساوين في جماعة (أمة) المؤمنين ، ومن جميع غير المسلمين ، وفقاً للتراث الإبراهيمي ، محميين لهذه الجماعة . لكن الدولة كانت مبنية وفق رؤية إرثية : فمن المفارقات أن جميع الموظفين المخولين سلطة كانوا مجرد عبيد لبيت آل عثمان وكانوا خاضعين تماماً لمشيئته . والحال أن تبعية ممثل السلطة هذه كانت من الناحية النظرية وسيلة لضمان أمن الرعايا ، المسلمين وغير المسلمين . وفي نهاية الأمر تسمح آلية لأضفاء الشرعية الإسلامية على التمردات بتصحيح انحرافات النظام . وكان يجري تجنيد الجماعة التي تمسك بزمام السلطة وفقاً لتأويل للخصال يجعل من هذه الجماعة الإثنية أو تلك ذات استعداد طبيعي لهذه الوظيفة الاجتماعية أو تلك . وقد رأي المراقب الأوروبي في هذه الحقائق برهان تفسيره الإثني لبنية السلطة ، في حين أن المسألة هي قبل كل شيء مسألة تقسيمات وظيفية . وفي أواخر القرن الثامن عشر ، إذا كان المفهوم الإرثي للسلطة قد ظل هو

الإيديولوجية الرسمية ، فإن التفرقة بين أهل السلطة والناس المسودين كانت قد كفت عن أن تكون واقعاً . وعلى جميع مستويات الاتصالات ، من العشرة والاختلاط الاجتماعي الى الأواصر الزواجية مروراً باستغلال الالتزامات الضريبية ، كان عبيد السلطان يوسعون حجم العلاقات مع المجتمع المدني الإسلامي الذي كان من ثم ناضجاً للتغيرات .

والحال أن إدراك الاختلال المتزايد لتوازن القوي بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية إنما يدفع المسئولين العثمانيين الى التساؤل حول مستقبل الدولة . ولم يعد بالإمكان أن تكفي ديبلوماسية أريبة تلعب على التنافسات الأوروبية . إذ يجب تجهيز الدولة بإمكانات تبني التجديدات القادمة من أوروبا سعياً الى احتواء ضغوط أعدائها التي تتزايد حدة باستمرار . وتترسخ فكرة أن سر الغرب إنما يكمن في مفهوم للدولة وللمجتمع يستند على نموذج المساواة : فرفاهية الرعايا هي ضمانة قوة الدولة . وخدم السلطان أكثر تحمساً للسير في هذا الاتجاه بقدر ما أن بناء دولة قانون سوف يوفر لهم أمن ممتلكاتهم وأرواحهم . وفي مصر وفي القسطنطينية على حد سواء ، يؤدي التأمل السياسي الى هجر التخصصات الوظيفية التقليدية . **والتنظيمات** هي في آن واحد نتاج الضغط الغربي ، والمواجهة مع الأفكار الأوروبية الليبرالية والقومية ، وتطورات المجتمع العثماني الخاصة به . وفي حين أن السياسات الأوروبية ، التي تستلهم أفكار الثورة الفرنسية ، تحارب إقطاعاً شرقياً متخيَّلاً وتصوغ مشروع إحياء قومي عربي في ثلاثينيات القرن التاسع عشر ، فإن المسئولين المصريين والعثمانيين يسعون الى إنشاء مجتمع جديد قائم على المساواة بين الجميع ووطن عثماني مشترك . وفكرة التمدن ، التي تبناها آنذاك الغرب والشرق ، إنما تترجم تزامنية تطور ، انتقال واحد لمجتمعات النظام القديم الى نموذج اجتماعي مساواتي حتى وإن كانت الإشكاليات مختلفة : دمج الجماهير العمالية والفلاحية في أوروبا ، إلغاء الفوارق الطائفية في العالم العثماني .

ويصطدم المشروع العثماني بالمسألة الدينية . والدول الأوروبية لا يمكنها الامتناع عن التدخل لحساب الطوائف غير المسلمة سعياً الى تأكيد نفوذها داخل الإمبراطورية . والحال أن المسافة الفاصلة بين المسيحيين الشرقيين والمسلمين بدلاً من أن تختزل تتزايد : **فالملل** تتزايد وتحصل على تكريس حقوقي لم تسع اليه قط من قبل . وجمهرة المسلمين الكبري ، خاصة في المجال السوري ، يخامرها الشعور بأنها تنزل الى الحضيض يوماً بعد يوم من جراء سلطة تبدو لها خائنة للإسلام كما من جراء الأقليات التي تصبح يوماً بعد يوم أكثر غطرسة . وتنفتح الأزمة على أعمال عنف طائفية سوف تخيم بشكل كئيب على مستقبل المنطقة . وتحرير المسيحيين الشرقيين مصاحب لصوغ وضعية الرعية المسلمة في الجزائر : إن الجمهورية الثالثة ، بأكثر من الإمبراطورية الثانية ، تُدخل من جديد ، باسم احترام الخصوصيات

الثقافية ، فكرة الرعايا الخاضعين لشعب من المواطنين ، الذين يشكلون ما يشبه أرستقراطيين جدداً . وفرض الحمايات يخلع طابعاً منهجياً على المذهب الجديد بينما تظهر حدود الدمج الاجتماعي الأوروبي مع النزعة القومية التي تتميز برهاب الأجانب ومع معاداة السامية .

وأعمال العنف الشرقية تدفع آخرين الى البحث عن سبل لتجاوز الحدود الطائفية . ويتخيل ناپوليون الثالث صيغة مملكة عربية في حين أن النهضة الثقافية ، الواضحة عند المسيحيين ، تقود الى التساؤل حول التراث المشترك لجميع السكان السوريين . لكن مفهوم الإسلام ذاته هو الذي يتغير : إن حركة الإصلاح الإسلامي ، إذ تستعير مثال الپروتستانتية الأوروبية ، إنما تحبذ تحولاً للمجتمع يكون إسلامياً إسلاماً صادقاً بفضل اللجوء الى نموذج حياة المسلمين الأوائل . وتعرف السياسة الحميدية بدهاء كيف توظف الحركة لحسابها بتدشين مشاعر وحدة إسلامية تتجاوز حدود الإمبراطورية وتمنحها قوة جديدة . والحال أن المصلحين ، المدنيين والدينيين ، إنما يصطدمون بنوع من الرفض التام لهم من جانب أوروبا . فالأنثروپولوچيا الجديدة ، ذات الأساس العنصري ، والناشئة عن تأمل حول أصول النجاح الأوروبي وعن التساؤل حول دور الأديان ، إنما تميل الى أن تجعل من المجتمع الغربي أرستقراطية جديدة قياساً الى فئة ثالثة عالمية . ولم يحدث قط أن كان شعور التفوق على مثل هذه الدرجة من القوة التي كان عليها عندما انكب الشرق بالفعل على الرغبة في اللحاق بالغرب . إن التعاطف ، الذي كان جد واضح في العقود الأولي من القرن (التاسع عشر) ، مع إحياء الإمبراطورية العثمانية ، إنما يتلاشي . وتنشيط التوسع الأوروبي في أرض الإسلام ، في مستهل القرن العشرين ، إنما يتمشي مع انتهاء التحولات العثمانية : فالانتماء الوظيفي قد أخلي المكان للانتماء الإثني . والعروبية ، التي كانت غائبة حتى ذلك الحين ، تصبح واقعاً ، عبر تأمل حول معني الإسلام بأكثر مما عبر التأثير المباشر للأفكار الأوروبية . والحال أن التعارض بين الأتراك والعرب ، وهو التيمة المتكررة في التحليلات الأوروبية منذ التنوير ، إنما ينشأ مع انبثاق وعيين قوميين .

لكن فرنسا ليست على موعد مع هذه القصة التي طالما حرضت عليها . لقد حاولت إيقاظ عروبية في عام ١٧٩٨ وفي ثلاثينيات وستينيات القرن التاسع عشر ثم ارتابت فيها في ثمانينيات القرن التاسع عشر . وهي تتردد من عام ١٩٠٨ الى عام ١٩٢٠ ثم تقرر معارضتها ، تاركة الحبل على الغارب بذلك لسياسة إنجليزية . وهذه الأخيرة تتحرك بسهولة لاسيما وأنها لا تواجه عقبات كعقبة الشمال الإفريقي وحماية الأقليات . والحال أن رفض عام ١٩٢٠ ، بالرغم من تحذيرات لوي ماسينيون الرائعة ، سوف يدفع السياسة الفرنسية الى مآزق رهيبة أكان ذلك في مسألة المسيحيين الشرقيين أم في الشئون الجزائرية . وسوف تدفع

الجمهورية الرابعة ثمناً فادحاً لذلك . وسوف يكون من نصيب شارل ديجول ، أحد شهود وفاعلى زمن الرفض هذا ، أن يستخلص النتائج المترتبة على ذلك . وسياسة فرنسا العُربية التي يدشنها والتي سوف يوسعها خلفاؤه في منظور أوروبي ، بعيداً عن أن تكون قطيعة ، إنما تَرْبِطُ من جديدٍ بسلسلة الزمنِ لحظةً كانت قد قُطعت لسوء الحظ وتستعيد تواصلها .

المسهمان في هذا الكتاب

هنري لورنس : مؤرخ فرنسي بارز ، ولد عام ١٩٥٤ . أستاذ بالمعهد القومي للغات وللحضارات الشرقية (باريس) . حائز على دكتوراه الدولة عن رسالته عن الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر . صاحب مؤلفات وأبحاث عديدة عن التاريخ الحديث والمعاصر للعالم العربي .

بشير السباعي : كاتب ومترجم مصري ، ولد عام ١٩٤٤ . نقل الى العربية نحو أربعين كتاباً عن الروسية والفرنسية والإنجليزية . فائز بجائزة أفضل ترجمة فى مجال العلوم الإنسانية (١٩٩٥) .

للمؤلـــف

١- **مصادر الاستشراق** ، باريس ، ١٩٧٨ .

٢- **الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر** ، باريس ، ١٩٧٨ .

٣- **كليبر في مصر** ، القاهرة ، ١٩٨٨ .

٤- **الحملة الفرنسية في مصر** ، باريس ١٩٨٩ .

٥- **المملكة المستحيلة** ، باريس ، ١٩٩٠ .

٦- **اللعبة الكبري** ، باريس ، ١٩٩١ .

٧- **الشرق العربي : العروبة والإسلام في عام ١٧٩٨ الى عام ١٩٤٥** ، باريس ، ١٩٩٣

للمـــــترجم

تأليف :

١- **تروبادور الصمت** ، دار النيل الاسكندرية، ١٩٩٤.

٢- **مرايا الانتلجنتسيا** ، دار النيل ، الاسكندرية، ١٩٩٥ .

٣-**مبدأ الأمل**، دار حور ، القاهرة ، ١٩٩٦ .

ترجمة :

١- ز . ا . ليفين : **الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في لبنان وسوريا ومصر** . دار ابن خلدون ، بيروت ، ١٩٧٨ .

٢- باجرات سيرانيان : **الوفد والإخوان المسلمون** ، مكتبة مدبولي - القاهرة/ دار آزال - بيروت ، ١٩٨٦ .

٣- ز . ا . ليفين : **التنوير والقومية ، تطور الفكر الاجتماعي العربي الحديث** ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٩٨٧ .

٤- چورچ حنين : **لا مبررات الوجود** ، أصوات ، القاهرة ، ١٩٨٧ (بالاشتراك مع أنور كامل) .

٥- تيموثي ميتشل : **استعمار مصر** ، سينا للنشر ، ١٩٩٠ (بالاشتراك مع أحمد حسان) .

٦- ك . ب . كافافي : **قصائد** ، دار الياس ، القاهرة ، ١٩٩١ .

٧- تيموثي ميتشل : **مصر في الخطاب الأمريكي** ، مؤسسة عيبال، نيقوسيا، ١٩٩١ .

٨- تزفيتان تودوروف : **فتح أمريكا – مسألة الآخر** ، سينا للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٢ .

٩- روبير مانتران (إشراف) : **تاريخ الدولة العثمانية** ، جزآن ، دار الفكر ، القاهرة ، ١٩٩٣.

١٠- فيليب فارج ويوسف كرباج : **المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي** ، سينا للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٤ .

١١- ادوارد جاليانو : **الشرايين المفتوحة لأمريكا اللاتينية ٠ – تاريخ مضاد** ، دار النيل ، الاسكندرية ، ١٩٩٤ (بالاشتراك مع أحمد حسان) .

١٢- توماش ماستناك : **الإسلام وخلق الهوية الأوروبية** ، دار النيل ، الاسكندرية ، ١٩٩٥.

١٣- هنري لورنس وآخرون : **الحملة الفرنسية في مصر – بونابرت والإسلام**، سينا للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٥ .

١٤- توماش ماستناك : **أوروبا وتدمير الآخر – الهنود الحمر والأتراك والبوسنويون**، دار مصر العربية ، القاهرة ، ١٩٩٥ .

١٥- چورج حنين : **أعمال مختارة** ، منشورات الجمل ، كولونيا ، ١٩٩٦ .

١٦- تيموثي ميتشل : **الديموقراطية والدولة في العالم العربي** ، دار مصر العربية ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

١٧- ز . لوكان : **خطاب الأفندية الاجتماعي (١٨٩٩– ١٩١٤)** ، دار مصر العربية ، القاهرة ١٩٩٧ .

١٨- چان – كلود جارسان : **قوص – ازدهار وانهيار حاضرة مصرية** ، سينا للنشر ، القاهرة ١٩٩٧ .

١٩- چويس منصور : **ثلاث مجموعات شعرية** ، منشورات الجمل ، كولونيا، (تحت الطبع) .

٢٠- هنري لورنس : **الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر** ، (تحت الطبع) .

تصويبات مهمة

ص	س	خطأ	صواب
١٢	٩	تركفيل	توكفيل
٢٠	٢	mont	mot
٢٤	٦	الشر	البشر
٢٤	١١	الفليسوف	الفيلسوف
٢٦	٢٠	استخدام	استخدم
٢٨	٢٥	قومية	قوية
٣٣	٢٨	سلطات	سلطات اخلاقية ومتحركة ،
٣٤	١٥	(٤٤)	(٤٤) "
٣٥	١٨	دوسكارياك	دوسكايراك
٣٨	١٥	خمسائة	خمسمائة
٤١	٢١	Furet	Furet et
٤٣	٥	الجمهورية	للجمهورية
٥٤	٢١	الجيش	للجيش
٦٧	٨	بناءء	بناء
٧١	١٠	آثر	أثر
٧٥	٨	طوال	طول
٨٠	١٥	ectivains	ecrivains
٨١	٣	181	1281
٨٣	١٣	كماظرة	كمناظرة
٨٤	٢٩	195	1951
٨٥	٢	Sueez	Suez
٩٢	٢٦	الثآر	الثأر
٩٤	٢٧	آفريقيا	أفريقيا
١٠٥	١٩	الحاكم الحاكم	الحاكم
١٠٦	٢٥	الأرضي	الأراضي
١١٤	٧	وزاعة	وزراعة
١١٦	٢١	تخوليهم	تخويلهم
١١٧	٢٨	ثمارآ	ثماراً
١١٨	٢٣	البرر	البربر
١٣٤	٢٥	الغالي	العالي
١٣٩	٢٣	هو	هي
١٤١	١٢	فإبرا ـهيم	فإبراهيم
١٤٩	٢٦	تولدان	يولدان
١٦٨	٢٦	) .	) ،
١٨٣	١٨	جيراردن	جيرادان
١٨٩	١٩	الإمبرطورية	الإمبراطورية
٢٠٠	٤	الأطلاق	الإطلاق
٢٠٣	١٧	المتجم	المترجم
٢١٧	١٢	المحاصرات	المحاضرات
٢٢٠	٤	العظمية	العظيمة
٢٢٠	٥	البروتستاتنية	البروتستانتية
٢٢٩	٢١	العَام	العالم
٢٢٩	٢٤، ٢٥	فإن هذا الدين هو الوحيد الذي مايزال واقفا على قدميه في تأكيده لهذا الحق الذي لايعلو عليه حق.	فإن الدين المستمر في تأكيده لهذا الحق الذي لايعلو عليه حق هو الدين الوحيد الذي مايزال واقفاً على قدميه.
٢٤١	٢٣	جمبع	جميع
٢٤٧	١٨	أنظر	٨٢- أنظر
٢٤٧	٣٠	p. 492	٨٨- Ibid., p. 492
٢٥٥	٨	في عام	من عام

المملكة المستحيلة

فرنسا وتكوين العالم العربي الحديث

على مدار قرن تاسع عشر يمتد من الحملة الفرنسية على مصر إلى دخول القوات الفرنسية دمشق فى عام ١٩٢٠، تلاقى فرنسا العالم العربى والإسلامى عبر سياساتها المصرية والجزائرية والسورية - اللبنانية. والحال أن الفرنسيين، ورثة الثورة، إنما يشعرون بأن لهم «رسالة تمدينية» يجب أن تفضى إلى إنشاء دولة أو عدة دول قومية، «الممالك العربية». وهذه المحاولات تفشل لعدة أسباب: تحركات بريطانيا العظمى المضادة لها؛ تناقضها مع الرغبة فى حماية المسيحيين الشرقيين؛ انتصار المشروع الاستعمارى الذى يتحول، مع قيام الجمهورية الثالثة، إلى إدعاء تفوق عنصرى. وفى عام ١٩٢٠، عندما ينشىء فيصل الهاشمى أخيراً مملكة عربية، فإن الفرنسيين يهدمونها.

على أن هذه الفصول التاريخية إنما تميز تحولاً أساسياً للمجتمعات ... المجتمعات، الراغبة فى اللحاق بالغرب حتى يتسنى لها التصدى له من مواقع أ... التقسيمات الوظيفية المميزة للنظام العثمانى القديم لكى تكتشف من جديد، فى س... مواطنة مشتركة تجمع بين جميع العثمانيين، الواقع الإثنى الذى كان منسياً حتى ذا...

وهكذا فليس بالإمكان الحديث عن تأثير مباشر للأفكار الأوروبية وال... الأنسب تصور حضارتين، الفرنسية والعربية، تواجهان تحدياً أليماً واحداً، ه... التى يجب تدشينها، والذى ترد عليه كل حضارة من زاوية تاريخها الخاص.